أصول العقائد

في الإسلام

تأليف

السيد مجتبى الموسوي اللاري

الجزء الأول

تعريب

محمد هادي اليوسفي الغروي

الطبعة الأولى

١٤٠٨هـ ١٩٨٨م

كورنيش المزرعة / بناية الحسن سنتر / الطابق الثاني
هاتف ٨١٦٦٢٧ / ص . ب : ١٤٥٦٨ تلكس ٢٣٢١٢ ـ غدير
فرع ثاني / حارة حريك مفرق الحلباوي / هاتف ٨٣٥٦٧٠

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ومن أحسن قولاً ممّن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾ .

خلق الله الإنسان ليكون خليفته على الأرض ؛ وجعل من سعادته مشيئةً إلهيّة ، وفيض رحمةٍ ربّانيّة ؛ ووضع هذا الكون على اتّساعه ، والعوالم على رحبها في خدمته ، ورهن منافعه . وشرّع له قانوناً ينظّم حياته ، ويهديه سواء السبيل في دنياه ، لينعم بالفوز والعافية في أخراه .

والله سبحانه لم يخلق هذا الإنسان وهذا الكون عبثاً ؛ إنّما خلقهما لحكمةٍ ساميةٍ اقتضتها مشيئته ؛ فجعل هذا العالم مجاز اختبار لخليفته ، بعد أن خلقه في أحسن تقويم ، وزوّده بسلاح العقل ، وحثّه على التعلّم والتفكّر والتدبّر في هذا الوجود ، المترامية أطرافه ، البعيدة أكنافه .

ثم أرسل إليه الرسل والأنبياء يهدونه إلى الحق ، ويرشدونه إلى الصواب . وأنزل إليه الكتب والشرائع والدساتير السماوية ، يستنير بهديها في مسيرته الدنيويّة ؛ ووهبه حريّة

الاختيار ؛ فهو حرّ في اختيار طريقه ، ومسؤول عما يقوده إليه اختياره في واحد من طريقين لا ثالث لهما : فإما الهدى ، وإما الهاوية .

كما اقتضت حكمته تعالى أن يرشد الإنسان إلى الجذور والأصول التي يستقي منها معارفه ، وينهل منها حقائق هذا الوجود ، ليصل عن سبيلها إلى المعتقدات الصحيحة ، السليمة من الشوائب ، والبعيدة عن الانحراف ؛ بعد أن منحه نعمة الفطرة الصافية مشعلاً يهديه إلى النور .

فمن خلال وحدة الكون ـ بكل ما فيه . . من أصغر الذرّات إلى أكبر الأجرام ـ عرف التوحيد ، وسلّم وأيقن بوحدانية الخالق ، وهيمنته المطلقة على هذا الوجود .

ومن خلال مظاهر التوازن في الكون ، الذي ينتظم كل موجود ، والعدالة التي تطبع كل شيء فيه ، عرف قانون العدل الإلهي وعرف الآخرة والمعاد ، والحساب والجزاء .

ومن خلال الرسل والأنبياء الهداة ، عرف رحمة خالقه ، وعرف محبته لخيره وسعادته ، فعرف طريقه إليه .

و(أصول العقائد) بين يديك ، أيها القارىء الكريم ، يتناول في أبحاثه المستفيضة هذه الأمور كلها ، وكثيراً غيرها ، بأسلوب سهل ممتع ، وعرض علميّ قويم ، يبتعد بالأفكار عن مهاوي الانحراف وأوهام الخيال ، ويقودها إلى الحقائق صرفةً صافية ، يعالج ارتباط العقائد بالحياة ، ويخاطب العقل السليم ، يلتقط جواهر الأمور ، ويُعرض عن التوافه والقشور ، يعتمد البحث العقلي والتحليل الفلسفي ، والتفكير الحرّ البعيد عن التشنّج والجمود ، يأخذ بيد القارىء فيصحبه معه ، في

الطريق الصاعد إلى الكمال ، إلى قمم المعرفة النيّرة في الطريق إلى الله .

والدار الإسلامية ـ الحريصة على نشر المعارف الإسلامية الرفيعة ، والعقائد الحنيفية السليمة ، وإذ عوّدت قراءها على إتحافهم بكل نفيس ، بعد أن عوّدوها على مزيد اهتمامهم وجميل عنايتهم ـ تتقدم إليهم بهذا السفر القيّم ، مع وافر ثقتها بأنّهم سيردون فيه نبعاً ثرّاً فيّاضاً ، وسيصدرون عنه رواءً من عطش ، وشباعاً من سغب .

وعلى الله قصد السبيل .

الدار الإسلامية

مقدمة المؤلف

إن ما يبعد الإنسان بصورة تصاعدية عن محور الواقعيات ويرديه في مستنقعات الباطل لهو : « الفراغ الفكري » .

نحن نشاهد اليوم أن قسماً عظيماً من القوى العقلية الخلاقة والمبدعة تذهب هباء وهدراً وهي تغض طرفها عن أغنى وأثرى الأمواج الثقافية والأيديولوجية الدينية ، وأن عدداً كبيراً من الأفكار تذبح على مجازر الأيديولوجيات في العالم الحديث .

تعرض اليوم على الجيل الحاضر والعَطِش للمعرفة من مختلف الطرق والسبل والوسائل أفكار ناشئة ناقصة وعاجلة من نتائج أفكار الفلاسفة والعلماء الماديين ذوي الأفكار المحدودة والضيقة ، أفكار تأمل أن تجيب على حوائج الإنسان ، إلاَّ أنه لا معنى ولا مفهوم للحياة فيها ولا هدف ولا غاية .

إن هذه الأفكار الناقصة لا تكون الغذاء الفكري السالم والمناسب لهذه

الأفكار الحساسة ، بل حتى أنها غير قابلة للعرض عليها قبل أن يموت العقل لديها .

لا شك أن أنواعاً من الظلم والعدوان والعذاب والاضطراب في طول التأريخ تنشأ من المناقضات السائدة في العالم وبخاصة في حياة البشر .

نحن نعتقد بأن الأيديولوجية التوحيدية في الإسلام التي تحتوي على سلسلة من التحليلات الفلسفية والعلميْة الواسعة والعميقة عن العالم والواقعيات الخارجية ، والتي تلاحظ الإنسان بجميع أبعاده التي هي له ، هذه الأيديولوجية لها القدرة على حل عقد التناقضات الفكرية ، وعلى هداية البشر نحو البناء والحركات البناءة والمستمرة ، وفي نفس الوقت من الطبيعي لكل عقيدة مهما كانت أصولها ومبادئها عالمية وذات أسس خالدة ، أن تكون بحاجة إلى تعريف جديد لكل جيل جديد ، متناسب مع مقتضيات العصر الحديث .

لهذا السبب يجب على العلماء وحراس الفكر والمعنويات والعارفين بروح العصر والذين يشعرون بالحاجة إلى الحركة السريعة التحقيقية حول البحوث الأساسية في مواجهة مستحدثات ومستجدات عالم العلوم والفلسفات . . على هؤلاء أن يلاحظوا المسائل المختلفة ملاحظة دقيقة مقارنة مع المنابع الإسلامية الأصيلة بصورة جدية وواسعة ، ثم يضعوا الحقائق الناتجة من هذه الملاحظات كيفما تقتضي الرؤية الإسلامية الشاملة أمام أعين العالم فيعرفوه بأصول الإسلام الفكرية .

وهذا الكتاب بين يديك مختصر حاولت أن يكون : « دورة عقائدية » نلاحظ فيه تحريراً لأصول العقائد الإسلامية بصورة حية نابضة يراعى فيه جانب الاستدلال ولا يغفل فيه عن سهولة العبارة وسلاسة الأسلوب ، وكان أكثر همنا أن يعرض الكتاب بخجم صغير ميسر للإفادة ، ولذلك أمسكت فيه عن نقل الأفكار والآراء ونظريات الفلاسفة والعلماء بصورة تفصيلية .

والآن ، حيث يطبع الجزء الأول من البحوث المذكورة محتوياً على « التوحيد والعدل » نأمل أن يقع منكم أيها القراء الأعزاء موقع القبول كخطوة مهما كانت قصيرة في سبيل عرض مواقف الإسلام على صعيد المسائل الأساسية بل : « البنية التحتية » لهذا المبدأ الإلهي العظيم ، ومن حسن الحظّ أن الكتاب يطبع في ثلاث لغات:هذه وهي العربية وأخرى فارسية ، وثالثة بالإنجليزية ، نأمل أن نوّفق لنشرها جميعاً إن شاء الله تعالى وهو الموّفق والمعين .

مجتبى الموسوي

الأصل الأول

معرفة الخالق

دوافع التدين بالأديان

لمباحث الاديان أهمية خاصة بين سلسلة البحوث الأصولية والفكرية في حياة الانسان ، ولا زالت هذه المباحث مطروحة على الساحة ، كمسألة أساسية ترتبط بسعادة الإنسانية ومصيرها ، وقد كانت لهذه البحوث آثار علمية وثقافية واسعة ورؤية عميقة .

لقد كان للعلماء والمحققين مطالعات وسيعة في البحث عن أصول ودوافع التدين ، قام بهذا التحقيق كل واحد من زاوية فنه الخاص ، وكان يخرج بنتائج وأحكام تتناسب ونظرته الخاصة .

والواقع أن عقائد البشر قد تكاملت على مر الزمان تماماً كالعلوم والصناعات[١] ، وأنها كانت منذ أقدم العصور قبل التاريخ كظاهرة دائمة مما يتعلق بالمجتمعات البشرية ، ولا تجد في عالمك القديم ولا الحديث مجتمعاً لا عقيدة فيه .

إن الفكر الديني قد تحول وتغير وانتقل من دور إلى دور آخر ضمن توسع الأصول الفكرية والعلمية تماما كاللغات ووسائل الحياة ، ولم تبق أطره

---

(١) ـ : لايقصد المؤلف أن العقائد تكاملت من ناحية البشر ، وإنما يقصد أنها تكاملت بفضل وحي السماء .

على الكيفية الفكرية الأولى وصورتها ثابتة جامدة .

إن البحث والتنقيب عن كيفية تطورات حياة الإنسان وتكامل علومه ومعارفه ، والمطالعة في أعمق آفاق التاريخ ، ترينا أن البشر كان متقيداً بالعقيدة ، قبل أن يتعرف على الاستدلالات العقلية ، وأنه في بداية تفكره كان متجها إلى خالقه والعلة الفاعلية للعالم ، إلا أنه للعثور على تلك العلة أخذ ينظر إلى ما هو فيه من حواليه ، وبالتالي سقط إلى هوة عبادة الأصنام .

وعلى هذا فإن الدور للعلوم والصناعات البشرية لم يكن أكمل من الأدوار الأولى للأديان والعقائد الإنسانية ، بل يمكن القول بأن بحث الإنسان في سبيل الإيمان والعقيدة ، كان أشد وأطول من مساعيه في سبيل العلوم والصناعات ، فإن معرفة الحقيقة الأسمى ، حقيقة عالم الوجود أشق وطريقه أصعب من حقائق جميع الأشياء التي تسعى العلوم والصناعات سعياً متواصلاً للوصول إليها .

إن معرفة أكبر الحقائق بصورة كاملة ، لأمة في عصر واحد من غير الممكن ، بل إن أفكار العامة تستعد على مر الأدوار في ظل توسعة وتقدم المعلومات لمعرفة الحقيقة الكبرى .

إن الشمس المشرقة التي هي من أظهر الأشياء كانت ماهيتها مجهولة لمدة قرون ، وكانوا يفسرون حركاتها وآثارها بتفاسير مختلفة عن الحقيقة ، مع أنه لم يكن بإمكان أحد أن ينكر أصل وجودها وشعاعها المشرق ، مع ذلك كانت أفكار العامة بالنسبة إلى معرفة حقيقتها في ظلمة عميقة .

إن درك الحقائق الكبرى ، لا يمكن إلا من طريق التحقيق المنطقي والاستدلال و المطالعة الشاملة ، ولهذا فإن الخرافات والأساطير الدينية في الأمم السالفة ، والتي كانت تصب كل يوم في قالب وأسلوب خاص ، بسبب ضعف الأفكار ومحدودية إطار العلوم والمعارف البشرية ، إن هذه الخرافات ليست دليلاً على أن الدين وتعاليمه ومحتوياته عارية عن الحقيقة ، بل إنها

ترينا أصالة وذاتية العروق الدينية في أعماق قلوب البشرية ، وكما يقول (رونان) : « إن الدين أسمى تجل لطبيعة الإنسان »[1] ، ولا يمكن أن نتوقع من العلم حينما يرجع القهقرى إلى أدوار ما قبل التأريخ أن يكشف من آثار الأديان الأولى (إن صح التعبير بالأديان) غير الأساطير والخرافات في بقايا آثار القدماء وفي أعماق طبقات الأرض ، فإن إنسان ذلك العصر وإن كان يرى أن كثيراً من الأنظمة الجميلة والمحيرة في عالم الطبيعة تستمر وتطّرد في دورات دقيقة ، ومحسوبة ، ومن جانب آخر فلم يكن قد اتفق له يوماً من الأيام أن توجد إحدى وسائل حياته حسب الصدفة ، إلا أن أجهزة فكره لم تكن قد تعالت إلى درجة أن تدرك بذلك وحدة نظام العالم والارتباط الكامل بين آثار الطبيعة وظواهرها المختلفة ، ويدرك أن جميع أنظمة الحياة إنما هي تحت قدرة وإرادة مبدأ واحد عليم حكيم لا يشبه البشر ، ولا سائر الموجودات المعهودة ، وبما أن تواجد أنواع الموجودات لم يكن مما يتحمله تحليله الفكري على أساس ملاحظة منطقية ، لذلك كان يظن أن لكل معلول علة مستقلة ، فكان يستنتج من تعدد أنواع الموجودات تعدد خالقها أيضاً ! .

وبالتالي كان ذلك الاندفاع الفطري والروحي الإنساني السامي والأصيل فيه يقع في مجرى منحرف ، فكان بدل أن يتجه إلى الرب الصادق يتجه إلى معبودات كاذبة كان يعبدها ويكرمها ويخضع لها ويصفها بأوصاف من باب القياس بالنفس أو ما حوله من الموجودات .

حينما تكون حركات الإنسان وسلوكه متصفة بخاصتين : إحداهما الثبات والأصالة ، وأخراهما العمومية والشمول في جميع أفراد النوع الإنساني ، يكون من الطبيعي والمنطقي أن نعتبر لها أصولاً وعروقاً في أعماق الروح الإنساني .

لا يمكن أن نحسب وجود هذه الظاهرة ـ ظاهرة العبادة والعقيدة في

(١) مختصر تاريخ الأديان الكبرى : (بالفارسية) .

الإنسان ـ بصورة مستمرة دائمة خالدة وعامة شاملة في جميع مراحل التاريخ وحتى أدوار ما قبل التاريخ ، من العادات والتقاليد ، والمراسيم فحسب ، بل إنها ظاهرة من ظواهر عطش خاص فطري ، وإحساس ضروري بالتفتيش عن الحقيقة الكبرى ، إذن فجميع العقائد الدينية بمختلف أشكالها وتجلياتها إنما تنبع من عين فياضة متدفقة هي الفطرة التي ليست من الصدف ، ولا من التلقين والإلزام .

إن الاستعداد لتقبل العقيدة موجود في الإنسان، وإنما تتشكل العقيدة فيه مبنية على أساس هذا الاستعداد الذاتي ، وإن نفس هذه الجاذبية والاندفاع الذاتي الذي يدفع الإنسان إلى التحقيق الفكري ، لدرك حقيقة الوجود دليل على ضرورة معرفة الدين ، ولكن لا يلزم أن تكون صحة هذا الاستعداد الذاتي والحالة الروحية في الإنسان ملازمة لصحة العقيدة المتشكلة عنده ، كما أن الإنسان يحتاج إلى الطعام من دون أن تكون هذه الحاجة مبتنية أو ملازمة لصحة أو عذوبة كل مادة من الطعام، إن الروح الإنسانية كذلك تفتش عن غذائها الروحي الخاص أي الايمان والعقيدة، وتصر على معرفة الرب وعبادته ، وإن كان هذا الدافع الذاتي الأصيل عاجزاً عن تمييز العقائد الصحيحة عن غيرها .

يتفق المحققون على امتزاج العقائد الدينية بحياة البشر ، وإن كانوا يختلفون في أصول المذاهب والعوامل الأساسية في تأسيسها ونموها ، وأكثر أحكامهم في هذا المجال ـ مع الأسف ـ مبني على أساس مطالعات في الأديان الخرافية ، والأفكار غير الرشيدة ، ومن الطبيعي أن تكون هذه الأحكام في التحليل النهائي عن الأديان ناقصة وغير منطقية .

صحيح أن كثيراً من الأديان كان لعوامل المحيط والبيئة الاجتماعية وغيرها أثر ومدخلية في تكوينها وتطورها ، لعدم ارتباطها بمبدأ الوحي ، إلا أنه ليس من المنطقي أن نحسب مباني وأصول جميع الأديان والاتجاهات المذهبية منطلقة من مقتضيات اقتصادية أو مادية أخرى أو من الخوف من

العوامل الطبيعية أو الجهل بها ، بصورة عامة .

لا شك أن أحد العوامل لتواجد الأفكار المضادة للدين ومنكري الخالق هي تلك الانحرافات والنقائص وسوء التعليم في أتباع بعض الأديان والمذاهب ، ولهذا يجب في مطالعة دوافع الاعتقادات أن تجعل الخصائص المذهبية لكل مذهب خاص مورداً للتحقيق والملاحظة .

يمكننا أن نرى الدين في كثير من الحوادث التاريخية حاكماً على العلاقات القائمة ، فإن لم يكن للدين أصالة لزم أن ينحصر دائماً في حدوده المادية فقط ، فما هو العامل الذي استطاع أن يجعل الشخصيات الدينية هكذا تقاوم في سبيل أهدافها الدينية ؟ هل أن توقع المنافع المادية والأهداف الخاصة هي التي جعلت مرارة المصائب والمشكلات عندهم حلاوة ؟ ! . بينما كانوا يضحّون بجميع إمكاناتهم المادية والترفيهية وآمالهم الشخصية فداء لأهدافهم وعواطفهم الدينية بكل سخاء ، بل كانوا يجودون بأنفسهم بكل حب وإخلاص ! .

وعلى هذا فإن من غير الممكن تفسير اندفاع الإنسان إلى الدين تفسيراً مادياً ، بل إن هذه الحوادث تبين لنا أصالة الإحساس الديني في ضمير الإنسان .

يقول (لو كنت دونوئي) : « إن الروح الدينية والعقائدية والعبادية والتواضعية في عبادة كاملة ، وإرادة تزكية النفس لتقرّبها إلى الكمال المطلق غير المتصوّر ، كانت موجودة في الإنسان في طول التأريخ ، إن هذه الإرادة لها مبدأ إلهي ، فإنها عالمية وموجودة في الجميع على السواء »[١] .

وكتب (ويل دورانت) يقول : « إن الإيمان أمر طبيعي وهو وليد الحاجات الغريزية والإحساسات المستقيمة بصورة مباشرة ، أقوى من الجوع وحفظ النفس والأمان والطاعة والانقياد » .[٢]

---

(١) ارتباط الإنسان بالكون : ص ٦٩ . (بالفارسية) .

(٢) لذات الفلسفة : ص ٤٧٦ . (بالفارسية) .

إن العقائد غير المنطقية ليست منحصرة في إطار الأديان ، فإن كثيراً من العلوم قبل أن تتصفى كانت مزيجة بالخرافات ، فإن الإنسان لم يظفر بعلم الطب الحقيقي والمفيد ـ مثلاً ـ إلّا عن طريق السحر والشعوذة ، ولم يصل إلى الكيمياء الواقعية إلّا من طريق الكيمياء غير الواقعية ، ولا يمكن لأحد أن يدّعي أن البشر إذا أخطأ في بحثه عن شيء كان لزاماً عليه أن يبقى دائماً على خطئه ولا طريق له للوصول إلى الحقيقة .

إن منكري الخالق يستندون إلى هذه المسألة ويستنتجون منها أن الله وليد فكر الإنسان ! ، (برتراند راسل) العالم الإنكليزي ـ مثلاً ـ يرى أن منشأ ظاهرة الدين هو الخوف من العوامل الطبيعية ويقول :

« أنا أرى أن المذهب قبل كل شيء مبتن على أساس الخوف ، الخوف من المجهول . أضف إلى ذلك ما ذكرته سابقاً أنه بسبب العقيدة الدينية ينشأ إحساس يتصوّر معه صاحبه ، أن له ظهراً ومدداً في المشاجرات والمشكلات ، الخوف من الموت ومن الهزائم ومن الأسرار المجهولة والمسائل الغامضة غير المكشوف عنها » .(1)

إن هذا الكلام ادعاء لم يقم لإثباته أي دليل كما يقول (صموئيل كينك) : « إن منشأ الدين سر من الأسرار ، وللعلماء بهذا الخصوص نظريات لا تحصى كثرة ، بعضها أقرب إلى المنطق من البعض الآخر ، إلا أن أحسن هذه النظريات من الناحية العلمية لا يخلو من إشكالات ولا يعدو أن يكون تصوّراً منطقياً ، ولهذا فإن علماء الاجتماع لهم اختلاف شديد في منشأ الأديان »(2) .

ومع ذلك نقول للإجابة على كلام (راسل) :

لو فرضنا أن الدافع الأولي والأصلي للبشر في العقيدة بالخالق هو

---

(1) لماذا لست مسيحياً : برتراند راسل ص ٣٧ (بالفارسية) .
(2) موسوعة معارف كينغ : ص ٩٩ (بالفارسية) .

الخـوف ، فهل يصبـح هـذا دليـلاً على أن الله وهم أو خيـال ، ولا واقعيـة له ؟ ! .

إذا كان الخوف دافعـاً للإنسـان لكي يلجأ إلى مـأمن منه ، ومن هـذا الطريق يقع على واقعية معينة فهـل في هذا إشكـال ؟ ! ، إذا كان الخـوف دافعا للظفر بشيء فهل يمكن أن يقال : بدليل أن الـدافع للبحث عن هـذا الشيء كان هو الخوف فإن هذا الشيء لا واقع له وإنما هو موهوم ؟ ! .

هل من المنطق أن نقـول : إن علم الطب ليس علمـاً واقعياً ، إذ إن الإنسان إنما تتبعه وظفر به بسبب خوفه من المرض والموت ؟ ! بل الحقيقة أن علم الطب علم واقعي سواء كان الدافع الأولي للبشر للحصول عليه هـو الخوف من المرض والموت أو أي عامل آخر .

إن الإيمان بالرب العليم القدير ملجأ ومستند حقيقي قوي ، ولكن هذه المسألة لا علاقة لها بأن يكون الدافع الأصلي في الإنسان للإيمان بـالله، هو الخـوف من الحوادث والبحث عن ملجـأ معين ، ويجب أن تلاحظ هـاتـان المسألتان بعيدة إحداهما عن الأخرى .

لا شك في أن البشر في مراحله البدائية من حياتـه كان يبتلى بـوحشة مـوجعة حين مـواجهة الحـوادث الـطبيعيـة المـوحشـة كـالـزلازل والسيـول والأمراض ، وأن كابوس الخوف كان ينشر جناحه على جميع شؤون حياتـه وأفكاره ، وفي هذه المرحلة من مجاهـدته الشـاقة مـع الخوف والعجـز كان يبحث عن مستند يستطيع أن يلجأ إليه حين الأحداث المهولة ، فيكون سبباً لطمأنينة روحه ، واستطاع بسعيه المتواصل ، أن يتغلب تدريجياً على كابوس الذلة والخوف وأن يحصل على انتصار ساحق في هذا المجال .

إن البحث في مراحل حياة الإنسان القديم ، وتواجد شواهد لاستيلاء الخـوف على أفكـاره ليس دليـلاً على أن الخـوف والجهـل كـانـا العـاملين الـوحيدين الأصيلين لاعتقـاد الناس بـالدين ، إن هكـذا نظرة إنمـا تنشأ من

النظرة الضيقة إلى العوامل والدوافع ، فإننا إنما نستطيع أن نأخذ نتائج عامة من تحقيقاتنا ومطالعاتنا التاريخية فيما إذا بحثنا وحققنا في مجموع مراحل تاريخ البشر وأدواره المختلفة ، دون ما إذا طالعنا زاوية من التأريخ الإنساني الواسع ، ذي العروج والهبوط .

لا ينبغي لنا أن نجعل سلطة الخوف الوسيعة على جميع شؤون الإنسان في الأدوار المحدودة المعينة أساساً لأحكام كلية لجميع أدوار البشر ، أليس حكماً عاجلاً أن نحسب الأفكار والإحساس الديني للناس واتجاههم لعبادة الله في جميع الأزمنة حتى العصر الحاضر ناشئاً من الخوف من قهر الطبيعة والحروب والامراض ؟ ! .

ليس كل معتقد بالدين أضعف الناس ، إن الذين رفعوا راية الدين في مسير التأريخ كانوا من أثبت وأقوى الناس ، وليست النسبة بين إيمان الشخص وشدة ضعفه نسبة متعاكسة أي كلما ازداد ضعفه ازداد إيمانه ! وأن يكون زعيم الناس في الدين أقدمهم وأسبقهم إلى الهوان والضعف والعجز ! .

هل أن عقيدة آلاف العلماء والمفكرين بالدين نتيجة خوفهم من الزلازل والسيول والأمراض ؟ أم أن دافع اتجاه هؤلاء المحققين إلى الدين ـ الذي إنما اتبعوه من طريق التحقيق العلمي والمنطق والبرهان العقلي ـ يمكن أن يفسر بالجهل وعدم اطلاعهم على علل الحوادث الطبيعية ، ثم نغفل أو نتغافل عن دور عقولهم وأفكارهم في موضوع عقائدهم ؟ ماذا يحكم العقلاء ؟ ؟ .

إن الانسان لا يعتقد بالدين ليظفر بالأمن والطمأنينة بل إنما يتمتع بثمرة الإيمان بالله وهي السكون والأمان بعد الاعتقاد والإيمان . إن العلماء الإلهيين يعتقدون أن العالم بوصفه مجموعة من العلل والمعلولات والأسباب والمسببات المحسوبة دقيقاً ، والكائنات ذات النظام الدقيق خير شاهد على وجود مبدأ لهذه القدرات والعلوم ، إن النقوش المختلفة والمتداخلة غير

المفهومة في لوحة ما لا يمكن أن تكون دليلاً على النقاش والرسام الفنان والماهر ، بل إنما يمكننا أن نجعل النقوش والرسوم المحسوبة بدقة والتي تحتوي على معاني وملامح مفهومة سنداً ودليلاً على وجود فنان رسام ماهر .

* * *

ومن ناحية أخرى : نرى الذين يرون أن الاعتقاد بما وراء عالم الطبيعة مسبب عن أوضاع اقتصادية ، ويسعون كثيراً للربط بين الدين والاقتصاد ، نراهم يقولون : إن الدين كان ولا يزال في خدمة الاستعمار والاستثمار ، وإن الطبقة الحاكمة المستثمرة هي التي اخترعت الدين كي تهزم مقاومة الشعوب المستثمرة تحت ستار الدين ، ولكي تفيد من هذه الوسيلة لاستخدام وتخدير الكادحين والمحرومين ، وتشوقهم بالعقيدة إلى تقبّل الحرمان ، ولا شك أن الدين ـ كأي شيء آخر في هذا العالم ـ قد أفيد منه للإضرار بالآخرين ، وحينما ينحرف الدين عن مسيره الصحيح يصبح وسيلة بيد المرابحين المتاجرين كي يقيدوا به الأمم والشعوب ، إلا أن هذه المنفعية والمصلحية الطبقية الظالمة ، لا ينبغي أن تصبح حجة بيد الانتهازيين كي يهجموا على كل ما هو باسم الدين والمذهب ، وبكلمة نقول : يجب أن نفصل بين الأديان المحرّفة والاستعمارية التخديرية ـ إن كانت ـ والأديان الأصيلة والبناءة .

يمكن أن يكون الإيمان الديني في كثير من المجتمعات الإنسانية مقارناً لأوضاع اقتصادية ، غير مزدهرة وتأخر وجمود ، إلاّ أن هذا التقارن لا يمكن أن يكون ملاكاً ومقياساً لنسبة بينهما ، ولا يمكننا أن نرى هذا التقارن بعنوان رابطة الترتب واستنتاج أحدهما من الآخر ، فإننا أحياناً نرى مجتمعاً يعيش رفاه الحياة والقوة المادية والاقتصادية يعتقد بالدين اعتقاداً عميقاً ، ومجتمعاً آخر بنفس الأوضاع من حيث الرفاهية ، والحالة الاقتصادية نراه يعرض عن الدين ، وكذلك نرى أن شمس الدين تغيب أحياناً في محيط الفقر والتأخر ،

وفي مكـان آخـر بنفس المـوقعيـة الاقتصـاديـة نـرى الـدين في أوج الـرقي والتعـالي ، إن عدم الانسجـام البيّن هذا بين الأوضـاع الاقتصاديـة وتوسـع اعتناق الدين أو انكماشه دليل بيّن على أن التقارن الزمني لا يكفي في كشف علاقة العلة والمعلول ، بل لا بد من خصوصية أخـرى هي أن يكون وجـود وعدم أحدهما مرتبطاً بوجود وعدم الأخر .

نستطيع أن نرى عدم الانسجام هذا في مجتمعين يعيشان تحت سلطة الاستبداد والضغـط وخنق الأصوات من قبل الطبقة المستثمرة (بالكسر) ، فنرى أن الدين قد خرج من صميم الحياة في محيط بينما هو في صميم حياة المجتمع في محيط آخر مع أوضاع متساوية .

إن اعتنـاق الدين ليس مسبباً من الحـرمـان المـادي ، بـل إن البعـد والإعراض عن الدين مسبب عن الاتجاه إلى المادية والكماليـات ، فالـذين ينغمسون في بؤرة الشهوات وعبادة الدنيا يعرضون عن الدين .

إن الواقع يدلنا على أن الإنسان يتجه إلى الدين في مختلف الأوضاع والأحوال ، ولهذا ينبغي أن نتتبـع في حالات الاتجـاه الديني تلك الـدوافع الأصيلة الـروحية والـذاتية ، لا الأوضـاع والأحـوال الاقتصـاديـة . إننـا في ملاحظتنا لأهداف الأديان الإلهية نصل إلى نتيجة :

إن تأمين الرفاه الاجتماعي وأثر الدين الإيجابي في العدالة الاقتصادية هو أحد أسباب بعثة الأنبياء الربـانيين واعتقاد النـاس بالـدين ، وإن العدالـة الاقتصادية هي إحدى الفوائد التي يحظى بها الإنسان من طريق الدين .

* * *

الاتّجاه الإلهي في أعماق الوجود الإنســاني

للإنسان خارج حدود جسمه أبعاد وسيعة من المساعي الحياتية التي لا تتحدد بحدود البدن أبداً ، ولمعرفة زوايا أبعاد الإنسان خارج حـدود جسمه والجـوانب الفيزيكيـة يجب سلوك طريق التحقيق في أعمـاقه الـروحية حتى نصـل ما وراء نشـاطاتـه الفيزيكيـة إلى الآفاق الـوسيعـة للظواهـر الـطبيعيـة والعواطف والغرائز الإنسانية ، ومع مقـارنة النشـاطات والفعـاليات الـروحية والنفسيـة ومطابقتهـا لعالم الخـارج يتضح لنـا كثير من الأسـرار والمسـائـل المعقدة

إن للإنسان سلسلة من الإدراكات الخاصـة لها عـروق ذاتية تنشـأ من طبيعة الإنسان ، ولا يؤثر في تواجدها في الإنسان أي عامل خارجي .

قبل أن يرد الإنسان الطبيعي في المبـاحث العلمية بـإمكانـه أن يدرك حقائق بمعلوماته تلك الفطرية ، وبعد دخوله في المباحث العلمية و الفلسفية واكتناز مخه من البراهين والاستدلالات المختلفة ، يمكن أن يصل به الأمر إلى نسيان أو تناسي تلك المعلومات الفطرية أو الشك والتـرديد فيها ، ولهذا نرى أن الإنسان حينما يعزل فطرته عن معرفة العقيدة تبدأ الاختلافات .

إن الاعتقاد بالدين والإيمان بالله ينبع في مراحله الأولى من الدوافع الغريزية والإدراكات الفطرية ، ثم يتكامل بمساعدة العقل والفكر ، إن جذور

الإحساس الفطري في النفس الإنسانية عميقة وفي نفس الوقت جلية واضحة إلى درجة أن لو غسل الإنسان فكره وروحه عن كل تصور ديني ، وفكر مضاد للدين وتوجه إلى نفسه والعالم ، أدرك جيداً أن قافلة الكائنات تتحرك دائماً إلى هدف معين ولأجل مسمى ، وقد بدأت الحياة من دون إرادتها وتجري إلى نقطة معينة ـ وإن كانت مجهولة لها ـ بدون إرادتها أيضاً ، ويلاحظ هذا الواقع في جميع الموجودات في الطبيعة بأسلوب ونظم دقيقين .

إن الإنسان الطبيعي حينما يرى الأوضاع والأحوال حوله يدرك جيداً وجود قدرة عظمى محيطة به وعلى جميع العالم ، إنه يرى العلم والقدرة والإرادة في وجود ذاته التي هي جزء صغير جداً من هذا العالم الكبير ، ثم يفكر : كيف يمكن أن يفترض عدم وجود الإرادة والقدرة والعلم في مجموع العالم ما عدا الإنسان ؟ و بكلمة : إن الذي يلزم الإنسان بالإيمان بوجود حكيم مدبر لهذا العالم يجري نظامه الموجود بأمره وتقديره هو نفس هذا النظام والحركة الدائبة المحسوبة والمقدّرة بدقة خاصة ، إذ لا يمكن تفسير هذا النظام الموجود إلا بقبول وجود هذا الحكيم المدبر ، إن الإنسان حينما يقدر موقعه في العالم يدرك أن هناك قوة خاصة تخلقه وتحركه وتذهب به إذا شاءت ، من دون أن تستمد منه أو تستجيز .

إن هذا الحكم فطري ، إذ لم ير البشر في أي مكان وأي زمان مصنوعاً بدون صانع ولا عملاً بدون عامل ، إن البحث عن علاقة العليّة ، ينبع من إحساس ذاتي ، وحيث لا يمكن فصل إدراك العليّة من أحد فإن الإحساس الديني والبحث عن الخالق ، أيضاً لا يمكن فصله عن الإنسان ، حتى الطفل الذي لم ير العالم حينما يسمع صوتاً أو يشاهد حركة يتوجّه إلى منبع الصوت ومنشأ الحركة بصورة طبيعية .

إن قبول نظام العليّة هو أساس حياتنا العلمية وأصولنا العلمية ، بل هي من النواميس العامة التي لا تتحمل الاستثناء حتى في مورد واحد ، فالعلوم

بما فيها علم الجيولوجيا (طبقات الأرض) والفيزياء العامة و الكيمياء الطبيعية وعلم الاجتماع والاقتصاد و التحقيق في ظواهر الوجود . . . كلها محاولات لتعيين العلل والعوامل وتشخيص كيفية العلاقات فيما بين الأشياء، وهكذا يتبين أن العلوم والمعارف ليست إلا سعياً لكشف العوامل و العلل ، وأن كل تقدم في ميادين العلوم والصناعات ليس إلا نتائج لتتبع العلماء حول علل الاشياء .

لو كان بإمكاننا أن نشاهد في زاوية من هذا العالم، في موجود من موجودات هذا الوجود العام علامة على الوجود الذاتي كان لنا الحق في أن نعمم هذا بالنسبة إلى سائر الموجودات ، وليس من الضروري أن يبدو قانون العلية لنا بصورة الظواهر العادية ، إذ أن تنوع العلل من الكثرة بمكان يمكن أن يعجز الملاحظ عن تعيين جميعها حتى في حادث معين ، ولكن لا يمكن أن نجد في أي شأن من الشؤون البشرية الجزئية والكلية في الماضي والمستقبل في أمر فردي أو اجتماعي نقطة واحدة من الصدفة قط .

حينما تثبت العلوم التجريبية أن لا سبيل إلى الاستقلال في الوجود لعناصر الطبيعة ، وحينما تبلغ تجريباتنا وإحساساتنا واستنباطاتنا إلى نتيجة واحدة هي :

إنه لا يمكن أن يقع أي أمر في الطبيعة بدون علة خاصة ، وإن جميع الحوادث تتبع نظاماً وقوانين معينة ، غريب أن نرى أناساً يطرحون الأحكام العلمية والفطرية والعقلية وراء ظهورهم وينكرون وجود الخالق إطلاقاً ! .

ويمكننا أن نعبر عن الفطرة بالغريزة الإنسانية المتكاملة والمتطورة التي تستطيع أن تعبر جدران المحسوسات إلى الأسرار المجهولة ، إن كل حكم لأي مسألة تنشأ من ضمير البشر لا من أثر الأنظمة العقائدية والتربوية فهي من الفطرة ، ولا فرق بينها وسائر الغرائز الإنسانية كحب الذات وحب الوجود من حيث الأصالة و الشمول .

ولكن التربية وعوامل البيئة والمحيط فهي من الأمور التي تحجب عن

تجلّي الفطرة أو تقوّيها ، يقول (والتر اوسكار لندبرك) العالم الفيزيولوجي المعروف :

« لعدم توجه بعض العلماء في المطالعات العلمية إلى درك وجود الخالق علل متعددة : منها : الأوضاع والأحوال السياسية المستبدة أو الوضعية الاجتماعية أو الهيئة الحكومية والإدارية، تكون غالباً مما تسبب أو تؤثر في إنكار وجود الخالق »[1] ، إن ما ينشأ من مبدأ غريزي ، يكون من حيث الجمال كالنظام الطبيعي بالذات ، والذين بقوا أحراراً في المسير الأصيل لخلقتهم ولم يتقيدوا بقيود العادات و التقاليد ولم تصطبغ فطرتهم بصبغة اللغات و المصطلحات ، هؤلاء يسمعون نداء ضميرهم أحسن وأحسن من غيرهم، ويدركون الحسن والسيّىء في أعمالهم، والحق والباطل من معتقداتهم ، ولهذا لا تجد الإلحاد عن التدين كتحريفه عن الفطرة عند هؤلاء إلا قليلاً ، وإذا قيل لهم : إن هذا العالم مخلوق صدفة وبلا نظام ، فلا يؤثر فيهم هذا الكلام حتى ولو كان مسبوكاً في قوالب المصطلحات الفلسفية، إذ إنهم يردونه بفطرتهم .

وقد تجد أناساً مقيدين بين المنسوجات العلمية المصطلحة يترددون من أثر هكذا كلمات تصاحبها مصطلحات مصبوغة بزينة وجمال ، إن العلوم المصطلحة المحدودة الباعثة على الغرور كالقوارير الملونة تجعل أمام منافذ عقول وفطرة هؤلاء ، فيصبح أصحاب هذه العلوم يرون العالم بلون علومهم ومعارفهم وفنونهم ، ويتصورون أن ما يرونه من نافذة حواسهم وعقولهم المحدودة هو كل الواقعيات ، ولا نقصد بهذا الكلام أن يقف الإنسان عن التكامل العقلي كيما لا يبتلى بالتحريفات ، بل المقصود أن لا يبقى الإنسان مغروراً بفنونه و محكوماً عليه من ناحية ثقافته المحدودة .

إن أكثر الناس بدل أن يجعلوا علومهم ومعارفهم سلالم تحت أقدام

---

(١) إثبات وجود الخالق ص ٦٠ . (بالفارسية) .

عقولهم ليصلوا بأنفسهم إلى مستوى أسمى ، يتوقفون حيث كانوا ، ويتقيدون بحدود مفاهيمهم ومصطلحاتهم محصورين محبوسين فيها .

إن الفطرة تسعف الإنسان عند المخاطر أيضاً ، حينما يواجه الشخص ضغطاً قوياً ومشكلات شديدة ، وتعرض عنه العوامل المادية من كل ناحية ، وتقصر يداه عن جميع إمكانات الحياة ، ويصبح غريقاً كريشة أو عود من التبن في بحر الحوادث ويقرب من الموت حتى القدم الأخير ، حينذاك يهديه ذلك العامل الضمير إلى ملجأ غير مادي ويتمسك بمن تفوق قدرته جميع القوى ، ويدرك أن ذلك الوجود القدير الرحيم الرحمان هو القادر على انتشال يده بقدرته الفائقة ، فهو بهذا الإدراك يستعين بساحته المقدسة للنجاة من الخطر بجميع وجوده ، ويحس في زاوية روحه قوته وقدرته على إنقاذه ونجاته ، حتى الأقوياء الطغاة العتاة المردة الماديون الذين يطغون ويستغنون عند السلطة و الاقتدار عن القدرة الإلهية الأزلية ، حينما يواجهون ضيق الهزيمة والفناء ينسون فجأة كل ما تعلموه من إنكار الخالق في المدارس أو البيئات المادية ، ويقبلون بكل قلوبهم وأرواحهم على مبدأ الوجود ومنبع القدرات والطاقات .

وقد احتفظ التأريخ في ذاكرته بنماذج كثيرة من هكذا أناس زال عنهم غبار التلوثات المادية في الأحوال الشاقة التي تفوق الطاقة ، فتوجهوا إلى الخالق الوحيد من عمق قلوبهم .

(ديدرو) أحد كبار الفلاسفة الماديين الفرنسيين ، له في آخر كتاب كتبه في أصالة المادة و المادية كلمات في المناجاة والاعتذار ، كتبها كرد فعل لوجدانه وفطرته يقول :

« يا إلهي ! بدأت بياني من الطبيعة التي يعتقد الربانيون الإلهيون أنها من صنعك ، وأختم بياني هذا بك ، يامن يسميك أهل الأرض : الله ، إلهي أفترض أنك موجود وواقف على أعمالي وعالم بضميري ، لو أعلم أني فيما مضى قد عملت على خلاف حكمك وعقلي ، فأنا نادم من ذلك العمل

ومتألم، ولكني غير متألم من المستقبل إذ باعترافي تغفر لي ، لا أطلب شيئاً منـك في حياتي هـذه إذ ما يجب أن يكـون يكون إمـا بحكمك أو بقـانـون الطبيعة ، أما لو كان هناك عالم آخر فإني أرجو منك ثواباً، وإن كنت عملت ما عملته لنفسي » .[1]

* * *

إضافة إلى المنابع الباطنية المودعة في روح الإنسـان والتـي تساعـده على فهم الحقائق ، كي ينتخب طريقه بكل حـرية طبقـاً للأصـول الفطريـة بعيداً عن المصوغات الفكرية والدعايـات المضللة ، يجب أن يكـون هناك إرشـاد من خارج وجـوده ، لهدايـة فطرتـه وعقله وتقويتهمـا ، ولكي يصلح الطبائع الطاغية والمتطرفة والمفرطة ، ويمنع العقـل والفطرة عن الانحـراف ويحررها من التوقف أمام المعبودات المصطنعة .

بعث الأنبياء ليوجهوا الإدراكات الفطرية اللطيفة ، ويطهروها من قتـام العقائد والعادات المكتسبة من المحيط والبيئة ، ويقودوا اتّجـاهه الإلهي في مسيره الواقعي ، ويربّوا اتّجاهاته السامية المتعالية .

وليست هذه الهدايـة بمعنى إطفاء شعلة الإرادة الإنسـانية الخـلّاقة ، حتى تسلبه حريته وقـدرته على التفكير والانتخـاب ، بل هي نوع من الإمداد لـلاتجاهـات والدوافـع الإنسانيـة الإيجابيـة ، كي يقتدروا على الإفـادة من فطرتهم وطبيعتهم الفكرية ، ويتفتحوا على الحق والواقع .

إن أولى الناس باتباع دعوة الأنبياء أصحاب الضمائر الطاهرة ، وكـان في الصف المخالف لهم أناس يستندون إلى ثروتهم أو قدرتهم الباليـة ، أو المغترون بعلمهم الضئيل وعقلهـم الناقص والمختلـط بأوهـامهم حيث كان

---

(١) عقائد وآراء بشرية ص ٣٠٨ (بالفارسية) .

الغرور والنخوة الجاهلية تمنع عن تفتح استعداداتهم وتنور طبائعهم .

يقول أحد العلماء : « إن قانون العرض والطلب يحكم حتى في المعنويات ، إذ لو لم تكن فطرة الناس تطلب العقيدة لكان عرض الأنبياء لدعوتهم الدينية يذهب هدراً ، والذي نشاهده أن عرض الأنبياء لم يبق بلا سوق رائج بل وجدت نظراتهم المثمرة والأصيلة أتباعاً وحماة كثيرين ، وهذا دليل على وجود طلب الدين في باطن ضمير الإنسان .

إن دعوة الأنبياء كانت مبنية على التوحيد لا إثبات الصانع ، إنهم نفوا قابلية عبادة الصنم ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، كي لا يروى العطش الروحي والفطري للبشر ، بمصاديق كاذبة للآلهة كالأوثان والنجوم والشمس ، والقمر ، بل يبحثوا عن الأهداف والقيم المستقيمة في الإله الحق ، ويتقيدوا بالكمال اللامنتهي ، ويسرعوا إلى منبع جميع القيم والفضائل بإيمان متكامل من دون توقف ، ويصلوا في النهاية إلى الهدف النهائي .

إذن فالشرك واللادينية بجميع أنواعها المتقدمة (المادية) وغير المتقدمة (الوثنية) كلها من نتائج الانحراف عن الفطرة .

إن تقدم العلوم في خصوص التجربة الدينية التي لها اليوم مظاهر في كل زاوية من العالم ، أسفر عن كشفيات هامة نستطيع أن نحصل منها على نتائج قيمة لمورد بحثنا هذا .

إن تأريخ الأديان يحلل الإحساس الديني والاتجاهات والعوامل المصيرية بأسلوب حديث يغاير التفسيرات السابقة بصورة عامة ، وذلك بالاستناد إلى أسناد ومدارك معتمدة لدى علماء الاجتماع والتاريخ .

إن علم النفس الذي بدآ بالتحقيق في النفس غير الشاعرة من (فرويد) واستمر بمساعدة (ادلر) و(يونك) قد توصل في أعماق روح الإنسان إلى عالم جديد من القوى الخفية وأنواع المعارف والإدراكات غير العقلية ، وفتح

للعوامل غير العقلية وما وراء الإرادة كالإحساس الديني ميادين للتتبع العلمي المنظم .

ويجري الآن بحث فكري يستلزم اعتقاد عدد أكثر من المفكرين من مختلف المدارس بهذا الأصل : وهو أن الأحساس الديني هو أحد العناصر الأولى الطبيعية والثابتة لروح الإنسان ، وأن الإدراك الفطري هو من نوع إدراك ما وراء العقل .

من حدود عام (١٩٢٠ م) استطاع أحد فلاسفة الألمان باسم (رودلف ات) أن يثبت وجود عناصر فطرية وراء العقل في الإحساس الديني إلى جنب العناصر العقلية الأخلاقية ، وأن جميع أوصاف الله كالقدرة والقداسة والأكبرية إنما هي لتفهيم أن مفهوم القدس لا يمكن أن يرجع إلى شيء من المدركات العقلية ، بل مفهوم مستقل لم ينشأ من مفهوم آخر ، ولا يمكن أن يعد مع أي مفهوم من المفاهيم العقلية وغير العقلية واحداً .

إن من إحدى خصائص هذا العصر كشف بعد رابع في عالم الطبيعة باسم (الزمان) مزيج بالأجسام كسائر الأبعاد، وعلى هذا الأساس يقال : لايوجد جسم في العالم فارغاً عن الزمان الناشيء من الحركة والتحول .

كذلك انتهت تحقيقات العلماء في هذا العصر إلى معرفة بعد رابع في الروح الإنسانية باسم (الإحساس الديني)[١] .

وسائر الإحساسات الثلاثة هي :

١ - حب الاستطلاع والمعرفة ، وهذا الإحساس هو الذي حمل فكر البشر من أول يوم على التحقيق حول المسائل المجهولة ، ومعرفة عالم الوجود ومظاهره المتنوعة ، وفي ظل هذا التحقيق ظهرت الصناعات والعلوم ، إن الشدائد والأتعاب التي يتحملها مؤسسو العلوم والمحققون والكاشفون للكشف عن أسرار الطبيعة إنما تنشأ من هذا الإحساس .

---

(١) الإحساس الديني (بالفارسية) بترجمة مهندس بياني .

٢ ـ الإحساس بالإحسان الذي هو مستند الفضائل والصفات الروحية السامية ، فكل إنسان يحس في عمق وجدانه وضميره جاذبية تجذبه إلى العدل وحب النوع والفداء ، إن هذا الإحساس والجاذبية الأصيلة تحدث نوعاً من الاتّجاه إلى السجايا الطاهرة والتبري والنفور والانزجار عن الأرجاس .

٣ ـ الإحساس بالجمال الذي هو سبب لتجلّي وظهور أنواع الفن والذوقيات ، وله أثر عميق في ظهور قسم عظيم من الحوادث الاجتماعية .

٤ ـ الإحساس الديني أو المفهوم المقدس للبعد الرابع ، وهذا الإحساس هو نوعٌ من الجاذبية إلى ما وراء الطبيعة ، وهو يتضمن استقلال سائر المفاهيم الثلاثة وبكشف الإحساس الديني انكسرت محاصرة الأبعاد الروحية في الثلاثة ، وثبت أن لجميع الاتجاهات الدينية جذوراً ذاتية ، ظهرت في أدوار كان أصحابها يعيشون في بطون الغابات وشعب الجبال .

لكسب المعرفة بمبدأ الوجود أساليب متعددة ، إن مفهوم « الله » إجابة صحيحة للحاجات العقلية وغير العقلية (الفطرية) ، فالعقل يتيقن بوجوده من طريق النظام والآيات يقيناً قاطعاً بيناً ، والفطرة ترتبط بالله عن طريق الحب والحاجات الفطرية ، حتى كأنك تقول : إنه يرى الله جهرة ! لا بالبصر بل بالبصيرة ، ولا حاجة في إدراك الله عن طريق القلب والحب إلى أي نوع من الاستدلال والبرهان .

إن العلم اليوم وإن كان يبحث عن التحقيق التجريبي للاستدلال ، إلّا أن توحيد الله الذي يكون نتيجة مباشرة للبحث والاستدلال ، سواء كان بالدلائل العقلية والفلسفية أو العلوم التجريبية الحسية ، فهو توحيد استدلالي .

هناك علماء مثل (ديكارت) و (سن توما داكن) وصلوا إلى نتائج واضحة من معرفة مبدأ الوجود من نافذة العقل والبرهان والفكر العلمي وهناك

عرفاء مثل (باسكال) الفرنسي أدركوه عن طريق الشهود الباطني والفطرة ، وكان هو يقول : « للقلب دلائل للإيمان بالله لا سبيل للعقل إلى تلك الدلائل »[1] .

وكان (أنشتاين) هكذا يفكر : « إن أجمل وأعمق الأحاسيس التي يمكن أن تعرض للإنسان هو حسه العرفاني ، فهو الذي يبذر بذور جميع العلوم الواقعية في النفوس ، والذي لا يشعر بهذا الإحساس ولا يستطيع أن يكون متحيراً مبهوتاً فهو كالميت »[2] .

و (شوبنهاور) العالم الألماني يرى الاتجاه الديني في الإنسان عميقاً جداً حتى أنه يجعله هو الفصل المنطقي المميز له عن سائر الحيوانات فيقول : « إن الإنسان حيوان يعتقد بالميتافيزيقيا »[3] .

مع ما لحس حب الاستطلاع والإحسان والجمال من الأصالة والاستقلال والأثر في العلوم والأخلاق والفن ، فإن الحس الديني يهيّىء الأرضية لتحرك هذه الأحاسيس الثلاثة وفعاليتها ، ويساعدها في مجاريها ، وله الحظ الوافر في فتح أسرار عالم الطبيعة .

إن العالم في نظر المؤمن مصمم على أساس قوانين وأنظمة دقيقة ومحسوبة ، إن حس حب الاستطلاع يتحرك في ظل الإيمان بالله المدبر الحكيم ، كي يبحث ويسعى في سبيل كشف قوانين وأسرار الطبيعة المبتنية على سلسلة من العلل والمعلولات .

(ويل ديورانت) يقول: « كان (هربرت اسبنسر) يرى أن الكهنة هم العلماء الأول كما هم الأدباء الأول ، فهم الذين بدأوا العلم بالمشاهدات في المراصد الفلكية بهدف تعيين أيام الاحتفالات الدينية ، وكانت هذه

---

(١) سير الحكمة في أوربا : ج ٢ ص ١٨ . (بالفارسية) .

(٢) الإحساس الديني : ص ٧٢ (بالفارسية .

(٣) ميتافيزيك فليسين شاله : ص ١١ (بالفارسية) . .

المعلومات تخزن وتحفظ في المعابد ، وتنتقل من جيل إلى جيل آخر بعنوان التراث الديني »[1] .

إن دور الحس الديني في تسامي الإنسانية السامية وتعديل الغرائز وتنمية شجرة الفضائل والأخلاق لا يقبل الجدل ، والذين يخطون في المسير الديني يرون تعديل غرائزهم واتصافهم بالصفات الراقية من أهم الوظائف الدينية .

إن الفكر الديني كان من أهم العوامل في تربية حس حب الجمال على طول التأريخ ، إذ لم يخلق الإنسان القديم أكبر آثاره الفنية إلا لتعظيم آلهته ، إن معابد الصين العجيبة ، وأهرام مصر العظيمة وأصنام المكسيك الجميلة والفن المعماري الجميل ، والمحيّر في الشرق الإسلامي كلها من آثار الإحساس الديني .

يعتقد علماء النفس ، أن هناك علاقة بين البلوغ وثورة الإحساسات الدينية ، وأن في هذا العهد من حياة الإنسان يظهر اتجاه خاص إلى المسائل الدينية ، حتى في الأفراد الذين لم يعيروا أي أهمية لها .

ويرى (استانلي) أن : (حد ظهور هذه الإحساسات هو سن السادسة عشرة للشباب، ويمكن أن نحسب هذا الأمر صورة من صور توسعة شخصية الشباب ، إن هذه الإحساسات تأذن للشباب أن يجد العلة الغائية من وجوده في ذات الله سبحانه »[2] .

ولا شك أن نداء الفطرة إنما يتجلى فيما إذا لم يجعل أمامه مانع يسده ، فإن الدعايات والتبليغات المخالفة تقلل من فعالية الفطرة والفكرة الصحيحة ، وإن كانت نتيجة هذه المكافحات للفطرة لا تصل إلى حدّ أن تستأصل جذور الاتجاهات الطبيعية في الإنسان ، ولهذا إذا كان هناك سدّ

---

(١) تاريخ ويل ديورانت : ج ١ ص ١٢١ (بالفارسية) .

(٢) البلوغ : ص ١١٨ (بالفارسية) .

مانع فإن كُسِرَ بدأت الطبيعة الأصيلة فعاليتها ونشاطها بمحاولاتها الذاتية الخلّاقة المتجلّية .

نحن نعلم أنه قد مر إلى الآن أكثر من نصف قرن على الثورة الشيوعية في الاتحاد السوفياتي ، وعروق الدين بعد حية في أعماق طبقات واسعة من الناس في روسيا ، ولم يستطع القادة الزمنيون بكل ما كانت لهم من محاولات جادة في هذه المدة لمحو الدين والمذهب أن يفرغوا ضمائر الملايين من الإحساس الديني .

وعلى هذا نقول : إن تواجد الأفكار المادية في العالم لا تضر بفطرية الاعتقاد بالله والمعاد ، ولا يمكن أن نحسب هذا الابتعاد والانفصال عن طريق الفطرة من مذهب خاص شاذ ، قبال هذه الأمم والمدارس الميتافيزيقية سواء اليوم أو الأدوار السابقة نقضاً لفطرية معرفة الله ، إذ ما من عام إلا وقد خصّ ، وفي كل شيء استثناء .

ويستفاد من التأريخ أن المذهب المادي الفلسفي أسّس في القرن السادس والسابع قبل الميلاد ، وحماة المذهب المادي في ذلك العهد كانوا على الترتيب عبارة عن :

(طاليس) من فلاسفة اليونان ، المولود عام ٦٢٢ والمتوفى في ٥٦٠ أو ٥٦٧ ق . م .

و (هراكليت) : ٥٣٥ ـ ٤٧٥ ق . م .

و (دموكريت) : ٥٤٠ ق . م .

و (أبيكور) : ٣٤٦ ق . م .

وليست نسبة المادية إلى هؤلاء قطعية ، إذ كتب بعض العلماء مثل (بانكون) في كتابه : (تأريخ الفلسفة) بشأن (طاليس) يقول : « كان يرى أن التغيرات المادية إنما تتكون تحت تأثير من العوامل غير المادية » ، وكتب

بشأن « دمو كريت » يقول : « دمو كريت لم يكن مادياً ، بل كان يعتقد بوجود الأرواح » .

وبدأ المذهب المادي في القرن الثامن عشر ، بالتقدم بين العلماء التجريبيين ، وإن اختلف في بعضهم : هل هو مادي أو لا ؟ ، فمثلاً عد بعض المؤرخين (جان جاك روسو) من حماة المذهب المادي بينما يراه آخرون إلهياً ، ويمكن أن يكون نسب إلى المادّية لمخالفاته للكنيسة وأربابها .

نقل الدكتور (فريد وجدي) صاحب كتاب (دائرة المعارف) عن (روسو) أنه كان يقول بشأن مبدأ الوجود : « كلما أمعن النظر وأتأمل الحوادث التي تتجدد على أيدي قوى الطبيعة ، وما يتلوها من ردود فعل طبيعية وتأثير بعضها في الآخر ، يثبت عندي من طريق الانتقال من نتيجة إلى أخرى ، أنه لا بدّ في السبب الأول من الإرادة والإدراك والشعور ، وعلى هذا فإني أعتقد أن إرادته « الله » هي التي حركت الوجود وأحيت الأموات ، ولكن قل لي : أين هو؟ وأقول : إنه موجود في السماوات التي يحرّكها والنجوم التي يضيئها ، وليس هو فيَّ أيضاً فحسب بل هو موجود حتى في ذلك الغنم الذي يرعى والطير والحجر الذي يسقط والورقة الخضراء التي يرقصها الهواء وفي كل مكان ، وعلى هذا فكم بعيدة عن العقل تلك النظريات التي تظن : أن هذا النظام نتيجة حركة عمياء وجدت في المادة صدفة ! ليقولوا ما شاؤوا ! ولكني أرى نظاماً مستمراً ، على الموجودات ولا أدرك الحكمة المودعة في هذا النظام : أنا لست ممن يستطيع أن يعتقد أن المادة العمياء ، تنتج موجودات أحياء ، وأن الضرورة العمياء تخلق كائنات شاعرة ، وأن فاقد العقل يخلق موجودات عاقلة حكيمة » ؟! .

* * *

الله ومنطق العلوم التجريبية

لا شك في أن الأوضاع الاجتماعية والعوامل التأريخية والتربوية ونوعية مشاغل الإنسان لا يمكن أن تخلو من آثار في الاتّجاهات الفطرية، والحالات الروحية والعاطفية، وإن كانت هذه الأوضاع المختلفة لا توجب جبراً أو ضرورة في اتّجاهات الإنسان إلا أنها توجد جواً مساعداً له دوره الهام في نوعية اتّجاهه ونظرته إلى الكون والحياة، بل إنها أحياناً تتجلّى بصورة موانع جادة أمام حرية االإنسان وقدرته على الاختيار والانتخاب.

إن القوى الدماغية في الإنسان كلما عملت في فرع خاص أصبحت أقوى وأكثر تمرّساً في ذلك الفرع، وفقدت سائر المسائل أصالتها في فكره، وأصبحت بالنسبة إلى موضوعه المتخصص هو فيه، كموضوعات فرعية غير أصلية، وأصبح هو يحكم على أي شيء من نظرته الخاصة، إن من أشدّ عوامل تضليل الفكر حصره في منطق العلوم التجريبية وعدم درك حدود حجيّة هذا المنطق، فبما أن الاختصاصيين في العلوم التجريبية يعملون بكل طاقاتهم الفكرية في العلوم الحسية تصبح أفكارهم أجنبية غريبة عن المسائل غير المحسوسة، وتصل هذه الغربة والبعد عن غير المحسوسات والاعتماد المفرط بنتائج العلوم التجريبية إلى درجة، أن تصبح التجربة هي المبنى والأساس الفكري لنظرتهم إلى الكون والحياة والأيديولوجية، ويرون أنها هي

الوسيلة الوحيدة للمعرفة والمقياس الصحيح المقبول لها ، ويطلبون حل كل المسائل منها ، إن الغرض من العلوم التجريبية ـ المتكفلة ببيان العلاقات الطبيعية بين الحوادث والوقائع ـ هو أن تربط بين نفس الوقائع والأحداث لا بينها وبين الخالق ، والإنسان حينما يمارس العلوم التجريبية لا يريد أن يلاحظ وجود الخالق فيها ، ولا ينبغي أن نتوقع أن ندرك بمقاييس المحسوسات ، حقائق ما وراءها ، وأن نشاهد الخالق في المختبرات ، إن العلوم لا تستطيع أن تجري تجربة المختبر على وجود الله ثم الحكم له أو عليه من هذا السبيل والقول : إنه ما لم نشاهد شيئاً ولم نتمكن من معرفته في المختبر وبالحسابات الرياضية فلا حقيقة له ! .

لا يمكن أن نجري تجربة نصمم على أثرها على الإذعان بوجود موجود غير مادّي أو بعدم وجوده ، إذ ما يمكن أن نثبته بالتجربة يمكن نفيه بها ، إن العلم والميتافيزيقيا لا تثبت بالتجربة ولا تنفى بها ، وإن آلاف التجارب لا تكفي لإثبات نظرية : أن كل شيء مادّي ، بل إن وسائل هذه المختبرات بأشكالها المعقدة والمتطورة ، لم تتمكن من التطرق إلى العالم المظلم الواسع للعناصر غير المعروفة ، ولم تستطع أن تفهم جميع الواقعيات المكتومة في بطون الذرّات اللانهائية ، بل لم تطلع بعد على حقيقة المادة نفسها .

إن أسلوب التجربة ، وإن كان مفيداً جداً لتطور معرفة الإنسان بنظام الخلقة الدقيق ، بل يمكن أن نجعل أسلوب التجربة أساساً جديداً واضحاً للإيمان بالربّ الخالق عن طريق ملاحظة نظام الخلقة ، إذ إن لاكتشاف المسائل التجريبية نظاماً محكماً ودقيقاً وعلاقات منظمة بدقة ، تحكي عن خالق قادر ، إلاّ أن هدف علماء الطبيعة من التحقيق في أسرار العالم والمسائل الطبيعية ، ليس هو التوصل إلى معرفة خالقها ، والعلوم بأيدي هؤلاء المحققين تتكفل دائماً بالعمل على كشف أسرار الوجود فقط ، من دون أن يخرج هؤلاء في ظل العلوم عن حدود معرفتهم المحدودة الضيقة ذات

البعد الواحد ، ودون أن يصلوا عن طريق العلاقات المنظمة لظواهر الطبيعة إلى مرحلة ثانية من المعرفة يشكل مرحلتها الأولى : تجميع كل ما يمكن الوقوف عليه من طريق الإحساس والتجارب ، ثم المرحلة الثانية التالية : تفسيرها والاستنتاج منها فكراً وعقلاً ، يجمعون بالتجارب نتائجها أولاً ، ويدرسون ثانياً بالفكر والعقل معطياتها ، نقول هذا إذ لا يمكن تفسير مجموعة نتائج العلوم المختلفة وارتباطاتها ، وعلاقاتها فيما بينها بصورة مقنعة بدون الاعتراف بوجود الربّ الحكيم .

إلّا أن أسلوب العمل العلمي والفكري أصبح هو دراسة القواعد والتحقيقات بغض النظر عن الله تعالى ، وهكذا يصبح أسلوب الفكر الفارغ عن الله هو أساس الأعمال العلمية ، ويصبح إنسان هذا الأسلوب غريباً أجنبياً عما سوى تلك المسائل العلمية التجريبية ! .

وبما أن حياة الناس العمليّة أصبحت مرتبطة بالعلوم هذه بصورة غير قابلة للتفكيك ، وأصبحت صادرات العلوم التجريبية محيطة بجميع جوانب الحياة المادية ، وحوصر الإنسان في إطارها الرصين بحيث يعسر العثور على الوسائل الطبيعية بين وسائل الحياة المعيشية اليوم ؛ كان من الطبيعي أن تجر هذه الحالة إلى زيادة اعتماد الأفراد بالنسبة إلى هذه العلوم ، وتؤثّر هذه العلوم حتى في أسلوب سيرتهم في الحياة ، وتوجد نوعاً من الترديد والتشكيك في وجود الخالق والغيبيات ، وحينما سكب المنطق العلمي جميع الأفكار والأيديولوجيات في صياغته الخاصة تلوّنت نظرة الناس إلى الكون والحياة أيضاً بلون هذا المنطق ، إلى درجة أن اعتقدوا أنه لا يمكن الإذعان بواقع إلّا على أساس المعرفة العلمية فقط ، وأن لا سبيل إلى معرفة أي شيء لا يتطرّق إليه الإحساس والتجربة ، ولا سبيل إلى إثبات وجوده أيضاً ! .

يقول (بول كلارنس) الفيزيائي المعروف :

« كنت في بداية دراساتي العلمية مغرماً بالأساليب العلمية إلى درجة

أني كنت متيقناً بأن العلم سيكشف يوماً كل شيء ، وكل أسرار ظواهر الطبيعة حتى أصل الحياة ومظاهرها من الفكر الإنساني وغيره ، إلاّ أني كلما طالعت ودرست أكثر فأكثر ولاحظت بنظرة عابرة كل شيء من الذرّة إلى المجرّة ، ومن الميكروب حتى الإنسان ، علمت أن المجهولات هي أكثر بكثير .

إن العلم يتوفق إلى أن يشرح جزئيات الذرّة أو أن يبيّن خواص الموجودات الطبيعية ، إلاّ أنه لا يقدر على تعريف الروح والعقل البشري ، إن العلماء يعلّمون أنهم يتمكنون من مطالعة وبيان كيفية وكمية كل شيء ، إلاّ أنهم لا يقدرون على بيان علّة وجود الأشياء ، وعلة اشتمالها على خصائصها ، إن العلوم والعقول البشرية ، تستطيع أن تكتشف وتقول لنا : من أين جاءت هذه الذرّات والمجرّات والروح ، والإنسان مع ما أوتي من طاقات ، واستعدادات معجبة ، إن العلوم بإمكانها أن تبين فرضية الانفجار الكوني ، وأن هذه الذرّات والنجوم والمجرّات إنما ولدت ووجدت نتيجة انفجار في المادّة الأولى ، إلاّ أنهم لا يقولون ما هي المادّة الأولى ومن أين أتت ومن الذي فجرّها ؟ وللإجابة عن هذا السؤال يعترف كل عاقل بوجود الخالق »[1] .

إن العالم التجريبي الغريب عن أسلوب تفكير الإلهيين إنما يقبل كل ما وافق المنطق العلمي في هذه الحياة ، ويراه مما ينبغي ويكون ، ويرى من حقه أن ينكر اعتبار كل ما لا يلائم أسلوبه العلمي ، إن الأسلوب هنا هو الاعتماد على التجربة وجعلها دليلاً ، فهو يقيس صحة كل استدلال بما يعتمد هو عليه من التجربة فحسب .

إن العالم التجريبي الذي أصبح فكره الديني مغفولاً عنه ولا سيما الأحكام والمسائل الدينية الفرعية المسبوكة في صياغة الأوامر والنواهي ، وهو لا يجد في أبحاثه العلمية أصولاً تفسّر له هذه الأحكام والمسائل بينما هو

---

(١) إثبات وجود الخالق : ص ٦٦ (بالفارسية) .

منشدّ بأسلوبه العلمي المتخذ ، وحساس بالنسبة إليه بسبب اعتياده على لسان العلم والقوانين الرياضية ، إن هذا العالم يرى الأحكام العامة الساذجة والطبيعية غير المتكلفة في الدين فارغة من المحتوى وفاقدة للقيمة العلمية .

إن هذا التفكير غلط، إن هذه العلوم مع ما لها من قوانين معقدة ودقيقة للغاية ، والتي لمعرفتها يجب على طالبها أن يتعمق في مباحثها الصعبة والعميقة ، مع ذلك نجد علماءها حينما يدخلون الحياة العملية يخرجون من قوالب هذه العلوم وينفصلون عن اللسان العلمي الخاص بهم ، وإلّا فعليهم أن يحصروا أنفسهم في المراكز العلمية والصناعية والمكتبات وسائر المختبرات التحقيقية .

بإمكان جميع الناس أن يستفيدوا من الوسائل العلمية كالتليفون والراديو ، وهكذا سائر الوسائل العلمية هي مما يمكن أن تتمتع بها العامة بأقل دلالة من الاختصاصيين فيها ، والاختصاصي والخبير لا يعطي المعلومات الفنية والميكانيكية لمن يشرون الوسائل العلمية ، بل إنما يلخص نتائج الأتعاب المضنية للمخترعين في جملات قليلة لبيان كيفية استفادة الناس منها .

وعلى هذا فليس من الإنصاف بل بعيد عن منطق العلوم أيضاً أن نسكب الأحكام الدينية التي لم تأتنا في صياغة قوانين علمية بل ساذجة عامة ، في قوالب من أحكامنا السابقة لأوانها وتصوراتنا وسوابقنا الفكرية غير الصحيحة ثم نعدها فاقدة للأهمية والقيمة العلمية ، ونغفل بذلك عن دورها المصيري وآثارها العميقة في حياتنا اليومية ، إن الأحكام العلمية إنما تكون بليغة فيما إذا كانت بلسان العامة ، وكانت مورداً لإحساس الناس في حياتهم الفردية والاجتماعية .

على أنه لو كان على الأحكام الدينية أن تكون في حدود معرفتنا وتمييزنا وذوقنا ، لما كنا بحاجة إلى النبوّة والأديان ، بل كنا نصنعها ونصوغها بأيدينا .

إنّ الإنسان يغضّ النظر عمّا يعجز عنه أمام ما يقدر عليه ، وعلماء الطبيعة ومتعلموها اليوم قد اغتروا بمعلوماتهم نتيجة ما حصلوا عليه من تقدم في صعيد العلوم التجريبية حتى أنهم يتصورون أنفسهم أنهم قد سخروا عالم الحقائق وتملكوها ، بينما ليس من المستطاع لأحد في أي زمان أن يدعي الإحاطة بجميع أسرار العالم وكشف أستار عالم الطبيعة أبداً .

يجب النظر إلى الواقعيات بنظرة أوسع ، وأن ندرك أن علومنا إنما هي قطرة لا شيء أمام محيط الأسرار الخفية ، وأن وراء كل اكتشاف علمي يتبدى لنا كثيراً من المجهولات ، وأن البشر قد سخّر كل إمكاناته في سبيل الحصول على معرفة أكثر وأكمل لعالم المادّة هذه ، وكان ما حصل عليه من كل ذلك السعي الحثيث الظفر بعدد من الرموز من الأسرار الكثيرة لهذا العالم ، وخطوات يسيرة في هذا السبيل ، وأن جبالاً من المجهولات (إن صح التعبير) تحيط بالمعلومات البشرية .

يقول البروفيسور (روويه) : « إن جميع الاكتشافات التي كانت غير ممكنة التصوّر وخارقة للعادة بالنظر إلى الفكر البشري ، إنما حصلت في مدة قصيرة مرّت على اتّساع نطاق التكنولوجيا لا تصل إلى مائتي سنة على الأكثر ، لا تعدّ هذه المائتا سنة بالنسبة إلى أعمار الأجسام والموجودات حتى لحظة واحدة ، فكيف يمكن للإنسان أن يدّعي أنه في هذه المدة القليلة من عمر الاختراعات البشرية قد توصّل إلى أسرار الطبيعة أو أنه سخرّها ؟! . أليس من الأصح للحكم بشأن الاكتشافات البشرية المتزايدة ، أن نصبر أكثر من هذا ولا أقل من مرور ألف عام على عمر التقدّم في التكنولوجيا ؟ والتي لا تعدّ هذه الألف سنة بالنسبة إلى الكائنات حتى لحظة واحدة »[1] .

وإن كلمة (آينشتاين) تأكيد على قلة البضاعة العلمية البشرية أمام أسرار العالم اللانهائية ، إنه يقول : « إن التصوير العلمي للعالم تصوير

(١) ألفا عالم في البحث عن الخالق العظيم : ص ٢٣٢ . (بالفارسيه) .

ناقص وليس صورة حقيقية للعالم ، إذ إن الوصول إلى هكذا صورة حقيقية غير ميسّر عملاً بالنظر إلى ضعف أجهزة الإدراك لدى الإنسان ، وأما الاكتفاء بهذه الصورة الناقصة للعالم فلا ترتبط بالعالم وإنما ترتبط بأنفسنا »(١) .

وعلى هذا فيجب إعادة النظر والتقييم بصورة واقعية لمدى فاعلية المعرفة العلمية الحسية ، وأن نحلل ذلك بعيدين عن كل سوابقنا الذهنية التي هي موانع في سبيل الوصول إلى الحقيقة .

لا شك أن العلوم التجريبية لا تستطيع أن تخبرنا إلاّ عن ظواهر المظاهر الطبيعية ، وإن المادة والظواهر الماديّة هي التي تدخل في حدود التحقيقات والمطالعات العلمية ، ويمكن ملاحظتها في المختبرات وأن أسلوب العلوم اليوم للوصول إلى أهدافها هو المشاهدة والتجربة ، وبما أن عمل العلوم التجريبية هو ملاحظة العالم الخارجي ، فإذا أردنا أن نثق بصحة قضية أو حكم علمي أو نطمئن إلى عدم صحته كان علينا أن نطبقه على العالم الخارجي فنجرّبها ، فإذا طابقت القضية العلمية العالم الخارجي قبلناها وإلا فلا ، فمع الالتفات إلى موضوع وأسلوب العلوم التجريبية علينا أن نتساءل : هل أن الحقائق الميتافيزيقية قابلة للتجربة الحسية أم لا ؟ولأيّ نوع من التحقيق التجريبي يحق أن يتدخل في شؤون الإيمان والعقيدة ؟ وما هي العلاقة بين الله والعلوم التجريبية ؟ .

إن العلوم التجريبية مصباح ينير شطراً من المجهولات حوله ، فلماذا لا يستطيع أن يرفع كل ظلام ؟ أجل ، إن المعرفة بحاجة إلى الإحاطة والشمول ، بحيث يستطيع نظام تلك المعرفة أن يحيط بجميع أجزاء المتعرف عليه وأن يحيط به ، فينتج نظرة شاملة ، وإن سجن المعرفة البشرية في حصار العلوم المحدودة الحسية لا يؤدّي إلى النظرة العامة الشاملة ، بل إنما هو توقف في معطيات التجربة وجهل بأعماق الوجود .

---

(١) مقالات آينشتاين العلمية : ص ٢٢ (بالفارسية) .

إن إيماننا أو عدم الإيمان بالله لا يدخل في مباحث العلوم التجريبية ، إذ لو كان موضوع البحث فيها المادّة فلو فرض عليها أمر غير مادّي لم يحق لها أن تبدي نظراً بشأنه إثباتاً أو نفياً ، إذ إن الدين يعتقد أن الله ليس بجسم مادّي وأنه لا يدرك بالحواس الظاهرة ، ولا يحيط به زمان ولا مكان ، بل هو موجود لا يرتبط وجوده بالأوضاع والأحوال وهو غني عنها عالم بها ، وهو في أعلى مراتب الكمال كل الكمال وأسمى من كل تصوّر يتصوره الإنسان ، وأن عدم دركنا لكنه ذاته وحقيقتها إنما هو لقصور فينا وفي قوانا وطاقاتنا وإمكاناتنا واستعداداتنا .

ولهذا لو طالعنا جميع كتب العلوم التجريبية لما وجدنا مورداً يبحث فيه عن تجربة تتعلق بوجود الله ، وحكماً له أو عليه بالإثبات أو النفي ، إذ أننا حتى لو فرضنا أن الحواس الظاهرة هي الوسيلة الوحيدة لاكتشاف الواقعيات مع ذلك لم نتمكن من نفي شيء عن خارج عالمنا المحسوس ، فإن هكذا دعوى هي غير تجريبية ولا تستند إلى أي دليل حسّي تجريبي .

لو فرضنا أنه لم يكن لأتباع المدرسة الإلهية أي دليل لإثبات دعواهم ، مع ذلك كان إظهار النظر بالحكم بالعدم على كل ما هو وراء المحسوسات اختياراً غير علمي بل مبنياً على الخيال والوهم ، إن هكذا إنكار بلا أساس ليس من شأن العلم ولا الفلسفة ، بل إنه ينافي منطق التجربة .

يقول (جورج بوليستر) في كتابه[1] : « إن من غير الممكن تصوّر شيء لا يشغل الزمان والمكان ويكون مصوناً عن التحول والتغيير » ! .

إن هذه الكلمات تبدي نوعاً من التفكير ، لا يدري ماذا يريد وعن ماذا يفتش ، إذ لو كان يعلم أنه عماذا يفتش لكان يدرك كيف يجب أن يفتش عنه ، إن (بوليستر) الذي كانت الطبيعة والمحسوسات ميدان عمله الوحيد ، من الطبيعي أن يتلقى بالاستحالة ما كان خارجاً عن عملياته العلمية

---

(١) أصول مقدمات الفلسفة (بالفارسية) .

بعيداً عنها غير ممكن الإثبات بالتجربة الحسّية ، وأن يرى الاعتقاد به منافياً للأسلوب الفكري العلمي ، بينما الحق الوحيد الذي يمكن الاعتراف به لعالم طبيعي ، ولا سيما مع النظر إلى كثرة المجهولات البشرية بشأن هذه الكرة الأرضية والمادة الملموسة غير الحية التي هي مورد مزاولته دائماً ، ومع العلم بأن عالم المادة بجميع رموزها وأسرارها لا تتلخص في هذه الكرة التي نعيش عليها ، الحق الوحيد هو أن يقول : إن ما وراء الطبيعة خارج عن حدود وسائلي العلمية فأنا ساكت عنه ، لا أن ينكره ، إذ كيف يبيح لنفسه أن يدعي دعوى يلازمها معرفة عامة بجميع نظام الوجود ، بينما لا يصل علمه بالنظام العام إلاّ إلى حدّ الصفر .

فأي دليل يمكن أن نثبت بمساعدته أن الوجود يساوي المادة فقط ، وأن عالم الوجود يتلخص في الماديات فحسب ؟ وأي عالم للميتافيزيقا استطاع لحد الآن أن يبني إنكاره على أساس علمي ودليل منطقي ؟ وأن يجد برهاناً على عدم وجود شيء خارج حدود الحسّ والتجربة غير العدم المحض ؟ .

إن العلم وإن كان لا يتمكن من نفي كل مجهول بمحض عدم وجود وسيلة للتوصل إليه ، بل إنما يبقى بانتظار اكتشافه يوماً ما ، مع ذلك نرى أن الماديين لا يتكلمون حول وجود الله حتّى بالشك والترديد ، بل يعلن هؤلاء حكمهم العاجل الخاطىء بنفي الخالق بصورة قطعية وصريحة ! .

إن هؤلاء يضعون مقاييس لأشياء خاصة ثم لا يقبلون باستعمال ذلك المقياس الخاص بشيء في مورد شيء آخر ، فمثلاً لا يجوزون استعمال مقياس السطح في خصوص معرفة الحجم ، لكنهم حينما يصلون إلى تقدير عالم المعنى والروح يريدون أن يقيسوا الله والروح والوحي بنفس الوسائل المادّية ، وحينما يعجزون عن معرفة هذه الأمور بتلك المقاييس ينكرونها بلا هوادة ! .

وإذا أراد الإنسان المحصور في حدود المنطق التجريبي أن لا يقبل من

عالم الوجود إلّا ما أثبتت له التجارب المحسوسة وينكر ما وراءها فليعلم أن هذا طريق اختياره هو وليس نتيجة تحقيقات أو اختيارات للعلوم التجريبية، وأن هذه الثقافة غير الحقيقية إنما هي نوع من أنواع الطغيان الفكري والخروج على الطبيعة والفطرة ، أما الإلهيون فيرون أن الله الذي يريد العالم الطبيعي إثباته بوسائله العلمية وأسبابه الطبيعية فليس هو بالله الخالق ، وأن العلوم المادّية عاجزة عن درك توفيق للوصول إلى الهدف .

يقول الدكتور (ايوى) العالم الفيزيولوجي الشهير : « إن المنطق يثبت وجود الله ولكنه يعجز عن نفيه ، ولعل أناساً ينكرون وجوده كما كان سابقاً إلّا أنهم لا يستطيعون أن يأتوا بدليل معقول لإثبات دعواهم ، وإذا كان هناك دليل عقلي على الإنكار أو الترديد في وجود شيء كان له أن ينكر أو يشكك ، أمّا أنا فلم أجد حتى اليوم في مطالعاتي أحداً له برهان صحيح على إنكار وجود الخالق ، بل إني عثرت على دلائل معقولة لا تحصى لإثبات الله »[1] .

* * *

(١) إثبات وجود الخالق : ص ٢٦٦ (بالفارسية) .

إن الاعتقاد بالموجود غير المرئي لا يختص بالله

إن من خصائص الله الواحد الذي دعانا الأنبياء وقادة الدين إلى معرفته وعبادته ، هو أنه غير محسوس بصورة مطلقة ، أزلي أبدي ، في كلّ شيء لا بمقارنة ولا في شيء لا بمفارقة ، له مظاهر متجسدة في جميع المحسوسات من عالم الطبيعة ، إرادته ظاهرة متجلية في أي نقطة من عالم الوجود ، وإن ظواهر الطبيعة مرآة لتلك القوة والذات العالمية ، ليس غير مرئي فحسب بل إن حواسنا عاجزة عن دركه ، إذ كل ما يمكن أن يجول في أذهاننا إنما هو في إطار المحدودية بينما الله مطلق لا نهاية له .

لا شك في صعوبة تصوّر هكذا موجود لا يدركه الإنسان بحواسه ولا لون ولا سمة له من الماديات ولا يلائم ما جربّناه من المشاهدات العادية ، وإذا صعب تصوّر شيء على الإنسان هان عليه إنكاره .

والذين يريدون حل مسألة وجود الله في إطارهم الفكري المحدود ونظرتهم الضيقة المادية يقولون : كيف يمكن الاعتقاد بموجود لا نراه ؟ ولكنهم يغفلون أو يتغافلون عن حقيقة : أن الإنسان بمساعدة الحواس الطبيعية وبالنظر إلى محدوديتها إنما يتمكن من درك ظاهر من هذه الحياة الدنيا ، ولا يتمكن من معرفة سائر أبعاد الوجود ، وأنه لا يخطو خطوة خلف الظواهر بمساعدة الأجهزة الحسّية ، كما أن العلوم التجريبية إنما تستطيع أن

تتقدم بأفكار الإنسان حتى حدود الطبيعة دون ما وراءها .

إذا لم يستطع الإنسان أن يدرك شيئاً من طريق العلوم والوسائل والمقاييس العلمية فما لم يمتلك برهاناً على امتناعه واستحالته لا يملك ردّه وإنكاره بالاستناد إلى عدم انسجامه مع المقاييس المادية التي لديه .

وأما نحن فنكتشف القانون الغيبي من خلال مجموعة من الظواهر التي لايفسّرها إلّا ذلك القانون الغيبي . ولو لم يمكن إثبات حقيقة علمية إلّا بالإحساس المستقيم المباشر ، لخرج أكثر الحقائق العلمية عن كونها ثابتة علمية إذ لا يدخل كثير منها في الحس والتجربة .

لا يوجد عاقل يجعل أساس إنكاره للواقعيات المادية عدم رؤيته وإحساسه لها في مسائل حياته اليومية ، ولا يتّهم بالنفي كل ما لم يدخل في حوزة إحساسه من الماديات ، فكيف بالحقائق غير المادية .

إننا في التجارب العلمية فيما إذا لم نجد علة لمعلول خاص لا نحكم ببطلان قانون العلية ، وإنما نقول : نحن نجهل بالعلة الخاصة وهذا يعني استقلال قانون العلية عن التجارب العلمية ، وعدم صحّة نفي العلية بالتجربة .

هل أن وجود كل ما نقبله ونعتقد بوجوده مما رأيناه بأم أعيننا ؟ وهل نحن في هذه الدنيا المادية نرى كل شيء ونحسّ به ثم لا نحسّ بوجود الله ؟ بل يعلم جميع الماديين أن كثيراً من معلوماتنا هو من الحقائق والقضايا غير المحسوسة ولا المأنوسة من قبل ، وأن الموجودات الخفية كثيرة في عالم الوجود ولا سيما بالنظر إلى الحقائق الكثيرة التي اكتشفها التقدم العلمي في هذا العصر الحاضر ، وأن من أوسع الفصول التحقيقية العلمية لعلماء العالم الطبيعي اليوم هي مسألة تبدّل المادّة بالطاقة .

نفس هذه الموجودات والأجسام الطبيعية المرئية حينما تريد أن تبقي من نفسها طاقة كان عليها أن تبدّل صورتها الأولى حتى تتبدّل إلى الطاقة ،

فهل هذه الطاقة التي تدور على أساسها كثير من الانفعالات المادّية قابلة للرؤية أو اللمس ؟ .

نحن نعلم أن الطاقة ذات قدرة ، أما ما هي ماهيتها فهذا سر غير مكتشف، إن بعض النتائج العلمية حصيلة الاستدلال والبرهان لا المشاهدات العينية ، إن معرفة أوضاع الذرّات الغاية في الصغر إنما تحصل من طريق الاستنتاجات المستندة إلى المشاهدة والتجربة ، وإن الاطلاع على الحقائق العلمية المتعلقة بفيزياء الذرّة إنما يحصل من طريق الاستدلال ، ولو لم تكن الآثار الظاهرة لبقي الإنسان جاهلاً بما في بطن الذرّة من الواقعيات والحوادث .

هذه الكهرباء الجارية في بنائنا العلمي وحضارتنا وحياتنا لم يرها فيزياوي في المختبر ولا أي فرد يزاول الوسائل الكهربائية الالكترونية ، ولم يزنها ولم يحس بنعومتها أو خشونتها ولم يسمع حسيسها ولم يلمسها أبداً ، بل إن من غير الممكن أن يرى أحد عبور الكهرباء في السلك أبداً ، اللهم إلّا عن طريق التجربة والوسائل الالكترونية .

إن الفيزياء الجديدة تقول : إن الأشياء التي نحسّ بها صعبة جامدة هامدة لا يرى أي أثر للحركة فيها ، ولكنها على الرغم من ظاهرها هذا هي مجموعة من ذرّات لا صعبة ولا جامدة ولا ثابتة ولا هامدة ، بل ليست إلّا حركات متحوّلة متغيرة ، وإن ما تراه أجهزتنا البصرية والحسّية كأنها ثابتة غير متحركة هو غير ثابت ولا ساكن ولا هادىء ، بل يحيط بها السير والحركة والدوران ، من دون أن تكون مدركة لنا من طريق الإحساس المباشر .

إن للهواء الذي يحيط بنا وزناً ثقيلاً ، والبدن دائماً تحت وطأة هذا الثقل ، يتحمّل كل شخص مقدار ستة عشر ألفاً من الكيلوغرامات من ثقله ، وحيث يبطل الثقل من أثر الضغط الداخلي للبدن فلا نحسّ بألم الثقل هذا ، هذه حقيقة ثابتة علمية لم يعلم أحد بها قبل (كاليلة) و (باسكال) ولم تدركه حواسنا أبداً .

بل حتى الصفات التي يعددها العلماء بالنسبة إلى العوامل الطبيعية على أساس التجارب الحسية والاستنباطات العقلية ليست مدركة بعقولنا مباشرة ، فأمواج الراديو موجودة في كل مكان وغير محسوسة ولا يخلو محل من قوة الجاذبية المادّية من دون أن يقل شيء من تلك المادة أو يزيد عليها .

إن الهدف من جميع التحقيقات العلمية والذي نحصل عليه منها هو مطالعة الآثار الجزئية المحسوسة من المادة للتوصل إلى العوامل الخفية والقوانين العامة فيها .

يخبروننا في علم الجيولوجيا عن تشكيل طبقات الأرض قبل ملايين السنين ، ويتكلمون لنا عن أشكال الانكماشات والطبقات والفسيلات وإحاطة المحيطات بكثير من الجبال والصحارى الجرداء اليوم ، بينما لم يكن أحدهم يشاهد هذه الماجريات .

والمفاهيم الذهنية كالعدالة والجمال والمحبة والعداوة والبغضاء والعلم ليس وجودها معيناً محدوداً قابلًا للرؤية ، وليس لها أي أثر فيزياوي ، ومع ذلك نحن نعدها من الواقعيات ، وأخيراً فماهية الكهرباء وأمواج اللاسلكيات والطاقة لا يعلم بها الإنسان ، وليس له علم بماهية الألكترون والنيوترون ولا يعلم بوجودها إلا عن طريق آثارها ونتائجها فقط .

ولا شك في وجود الحياة ولا يمكننا أن ننكرها ، ولكن كيف يمكننا أن نقدرها ونقيسها ؟ وبأي وسيلة نتمكن من تقدير وقياس سرعة سير الأفكار والأوهام والخيالات والظنون والتصوّرات ؟ .

يقول البروفيسور (ستانلي كونكدون) : « أنا كثيراً ما أطلب من تلامذتي أن يكتبوا لي بتطبيق القوانين الكيماوية على عملية تفكير فيكتبون لي عن طول العملية بالسانتيمتر ووزنها بالكيلوغرام ولونها وشكلها وحجمها ومدى الضغط والجاذبية الداخلية فيها وفاعليتها وحركتها وجهة الحركة وسرعتها . . ولكنهم لم يتمكنوا أن يبيّنوا عن العملية الفكرية بتعبير فيزياوي

أو معادلة رياضية ، اللهم إلاّ أن توجد لغة جديدة تفقد فيهـا كلمات الـطول والوزن ونظائرهما معناهـا الخاص الذي كان لها في علم الفيزياء .

إنِ علوم المعرفة مجربة ولكنهـا أيضاً معـرضة للخـطأ والضلال والتيـه والضياع ، ولا صحة ولا قانونية لها في الحياة إلاّ في حدودها الخاصة ، فإنها محصورة بحصار المعلومات الكمية ، وهي إنما تبدأ وتنتهي بالاحتمالات لا باليقين ، ونتائجها ولا سيما في التقديرات والارتباطات بين الظواهر المختلفة تقريبية معـرضة لخـطأ الحدس والتخمين وهي مؤقتة غير مقـطوع بها ، ولا تلبث أن تتغير بالحصول على معلومات جديدة ، إذ لا نهـاية لـلاستنتاجـات العلمية ، والعالم يقول : إن الواقعيات حتى هذا الوقت الحاضر كذا وكيت ، وإن مدركاتنا الشخصية بالنسبة إلى ظواهر الطبيعة نسبية محدودة .

ولا واقعية في هذا العالم المتلاطم العجيب يمكنها أن تنفي آثار فعالية الله المطلق أو تثبت عدمه »[1] .

وعلى هذا فواضح جداً أن إنكار ما وراء المرئيات والمسموعات بعيد عن المنـطق والأصول العقليـة المتعارفـة ، لماذا يستثني منكـرو الله تـطبيق الأصل المعمول به في جميع المسائل العلمية بشأن القوّة القاهرة للطبيعة ؟ .

لا ننسى أننا محبوسون في أبعاد المادة ، ولا يمكننا أن نتصوّر الموجود المطلق في أنظارنا كما نتوقع ، نحن إذا قلنا لقروي عادي : هناك مدينة في العالم كبيرة وسيعة مليئة بملايين البشر تسمى (لندن) تصوّر في ذهنه شكل معمورة كبيرة أكبر من قريته تلك بعشرات المرات بنفس الكيفية الخاصة في البناء والأزياء ونوعية العلاقات والمعاشرات ، ويتصور أن وضع الناس كأهل قريته في جميع الخصوصيات ! .

ولإصلاح فكره البعيد عن الواقع بالنسبة إلى لندن ، فالشيء الوحيـد الذي نتمكن أن نقوله هو : إن لندن بلاد معمورة ولكنها ليست كبلادكم ولا

---

(١) إثبات وجود الخالق : ص ٣٤ (بالفارسية) .

الوضع السائد هنا نفس الوضع هناك .

كذلك الذي نقوله بشأن الله الخالق : إنه موجود حي قادر عليم لا من نوع هذه الموجودات والعلوم والقدرات ، وبهذا نتمكن من أن نخرج شيئاً ما عن بلاء المحدودية ، وإن تصوّر حقيقة ذات المادّة الأولى غير ممكنة أيضاً .

إن المحسوسات وإن كانت من أوضح وأدق معلوماتنا في نظرنا لكننا لا يمكننا الاعتماد عليها فقط في المسائل العلمية والفلسفية ، بل يجب أن نعرف حقيقتها وماهيتها ومدى مساعدتها للإنسان على كشف الحقائق بعيدين عن النظرات المتعصبة ، فإن المحسوسات في غير هذه الصورة ستغشنا وتضللنا ، إذ إن الإدراكات الحسية إنما تتعلق بكيفيات معينة من ظواهر المحسوسات لا بجميعها ولا بغير المحسوسات من الجواهر والذوات ، وهي لا تتمكن من الإدراك إلّا في حدود خاصة .

هذه العين التي هي أوثق وسيلة لدرك الواقعيات تصبح في كثير من الموارد عاجزة عن رؤية الواقعية ، فلا ترى من الأنوار إلّا ما لم يكن طول موجته أقل من (٤٪) ميكرون ، وأكثر من (٨٪) ميكرون ، ولهذا فهي لا ترى أشعة ما وراء البنفسجية وما وراء الحمراء ! ؛ وقد خصصت كتب الدراسات العلمية النفسية وغيرها فصولاً هامة للتعرّض لأخطاء الحواس ، إن الألوان التي نعرفها في هذا العالم الخارجي هي ليست في الحقيقة ألواناً ، بل هي ارتعاشات بطول أمواج مختلفة ، فالعيون تحس بطول أمواج مختلفة من النور وبميكانيكية خاصة ، فالتي ندركها بحواسنا تتحدد بحدود قدرتها ، وبعض الحيوانات ترى بعض الواقعيات بألوان مختلفة .

ولم يتّضح في التحليل العلمي بعد كيفية درك حاسة البصر للألوان المختلفة ، ولم يخرج التحقيق المعمول به بهذا الصدد والنظريات المبررة عن صورة فرضيات ، والرؤية بعد مبهمة !

ولإدراك مدى تغرير حاسة اللمس بإمكانك أن تملأ ثلاث كؤوس من

الماء ، أولاها حارة جداً ، والثانية باردة جداً ، والثالثة فاترة ، فتدخل إحدى يديك في الحارة والأخرى في الباردة ثم تخرجهما فتدخلهما في الفاترة ، فإنك سترى - بكل عجب - أنك تحس بإحساسين متضادين ، فإحدى يديك تحسّ ببرودة الماء جداً ، وبالأخرى تحسّ حرارته الشديدة ، بينما الماء واحد وله درجة واحدة من الحرارة .

والعقل يقول : لا يمكن أن يكون الماء في لحظة واحدة بارداً وحاراً ، بحالتين متضادتين ، وأن هذا من خطأ اللامسة التي فقدت إدراكها بتأثير من المياه السابقة ، فما تحسه الآن يتنافى وحقيقة الأمر ، وإن العقل يؤكّد خطأه .

وعلى هذا فكيف يمكننا أن نعتمد على الإحساس فحسب بدون قيادة عقلية ومقاييس فكرية ؟ وهل من سبيل للأمان من هذه الأخطاء الحسية غير الإدراكات العقلية ؟ أجل هو الذي يتكفل بإصلاح مدركات الحواس ، وهو فوق الحواس .

وعلى هذا نقول : إن المحسوسات تفقد قيمتها بعنوان مدركات واقعية ، وإنما لها قيمة علمية ، وإن الذين يحصرون اعتمادهم في مطالعاتهم على الحواس فلن يوفقوا إلى حل مسائل الوجود ولغز الحياة . .

وما علمناه بخصوص إدراك الحواس للواقع ينتج لنا : أن الحواس لا تقدر وحدها أن تصل بالإنسان إلى العلم اليقيني وأن تقوده إلى الحقيقة حتى في المحسوسات ، فضلاً عن المسائل التي لا سبيل للحواس إليها فكيف تبدي بشأنها النظر ؟ .

إن أتباع المدرسة الميتافيزيقية يعتقدون بأنه كما أن أسلوب التحقيق والمعرفة في العلوم الحسية هي التجربة ، كذلك في معرفة المسائل الميتافيزيقية يكون أسلوب التعقّل هو الوسيلة لاكتشاف الحقائق .

كتب المحقق الشهير : (كميل فلاماريون) في كتابه : (أسرار

الموت) يقول : « إن الناس يعيشون في صحراء من التيه والجهل والضلال والضيـاع ، ولا يعلمون أن هـذا التركيب الجسمـاني للإنسـان لا يقدر على قيادته إلى الحقائق ، وأن هذه الحواس الخمس تغشه وتخدعه وتغريه في كل شيء ، وأن الشيء الوحيد الذي يهدي الإنسان إلى الحقائق هو العقل والفكر والدقة العلمية .

إن العقل والعلم يحكمان اليوم بوجـود ذرّات من الأشياء وفي الهـواء والقوى والطاقات التي لا نراها ولا يمكننا إحساسها بأي واحد من حواسنا ، وعلى هذا فمن الممكن وجود أشيـاء وموجـودات أحياء خـارجة عن حـدود حواسنا .

فإذا ثبت بالدليل العلمي عدم قدرة الحواس الظاهرة على معرفة جميع الموجودات ، وأنها قد تغشنا وتخدعنا وتغرينا بخلاف الواقع ، فلا ينبغي لنا أن نتصور حصر جميع الموجودات فيما ندركه بحواسنا ، بل علينا أن نذعن بخلافه ، وقبل اكتشاف الميكروب لم يكن أحد يتصوّر ملايين الميكـروبات في أطراف الأجسـام ، وأن حيـاة كـل حي معـرّضـة لتجـوال أنـواع هــذه الميكروبات ولذلك نحن نقول : إن الذي يقودنا إلى الواقعيات بصورة كاملة هو العقل والفكر » .

وبناء على ما سبق نكرر : أن لا قدرة كافية لحواسنا حتى على معرفة المحسوسات والمشهودات ، فإن الإدراكات الحسية صور عن ظواهر الحياة من دون الـوصول إلى أعمـاقها ، ودون أن تقـدر على رؤية مستقبـل ومصير ظاهرة خاصة ، لكننا بالتحليل الفكري وتعمق النـظر نستطيـع الوصـول إلى أعماق حقائق الأشياء » .

وخلاصة القول : إن المعرفة الموثـوق بها هي التي تكـون بعيدة عن قصر النظر والحكم بالظواهر ، بل قرينة للتحقيق الدقيق الفكري والعقلي .

أصل العليـة

إن أصل العلية قانون عام شامل ، وهو أساس لجميع المساعي العلمية أو العادية للبشرية ، إن مساعي العلماء للكشف عن علة أية حادثة طبيعية أو اجتماعية ، إنمـا هي لعدم قبـولهم أن تتحقق ظاهـرة طبيعية ، أو اجتمـاعية بدون تدخل العلل والعوامل .

إن تحقيقـات العلماء والمتفكـرين في العالم اليـوم قد أقـدرتهم على المعرفة الأكثر بالنظام القوي الحاكم على الطبيعة ، وإنهم كلما تقـدّموا في طريق العلوم والصناعات أكثر فأكثر التزموا بهذا الأصل أكثر فأكثر ، إن علاقة العلية وعدم وجود ظاهرة أو حادثة بدون علة من أقوى الدلائل العقلية وأوضح الأفكار البشرية ضرورة ، والحاجة إلى العلة أمـر فطري طبيعي لهـا أفعالهـا وردود أفعالها في أفكارنا بصورة أتوماتيكية عفوية .

إن الإنسـان غير المتحضـر أيضاً كـان يحـاول كشف علل الحـوادث والظواهر ، إلّا أنه لحرمانه من القدرة العلمية كان يفسر المسائل بالاستناد إلى الأرواح غير الطاهرة أو الطاهرة ، وإن الفلاسفة إنما أخذوا مفهوم العلية من ضمير الإنسانية وصاغوا لها المفاهيم الفلسفية .

نحن المحصورين بين جدران المـادة لم نصادف في حيـاتنا الـوقوف على صدفة كما يقولون ، بل لم يتفق لأحد في طول تأريخ العـالم أن يقف

على صدفة لا علة لها كي يتشبث بها القائلون بالصدفة في خلقة الكائنات .

إن الدقة والحساب والمقايسة نتيجة للفكر والإرادة والقدرة في الفاعل الذي يطرح عمله على أساس برنامج وهدف خاص ، أما ما يحدث على يد عامل غير عاقل فترى الهرج والمرج واللانظامية تقطر من كل زاوية من زواياه ، فما هي هذه الصدفة التي تقود الحياة من مطلع فجرها حتى الآن بهذه الكيفية العجيبة من حيث الدقة والنظام ؟! فهل أن هذا النظام وليد الصدفة والاتفاق العفوي ؟! .

من رأى ومن ادّعى حدوث ظاهرة بدون سبب وعلة في أيّ من العلوم المادية والإنسانية ؟ ، إنّ استدامة سلسلة العلل والمعاليل حتى اللانهائية والقصور عن معرفة العلة الأولى لا يبرر إنكار العلة والوقوف على المدرجة الأولى من العلل بعنوان أنها هي النهاية ، إن العالم إن لم يكن وليد حكمة عميقة بليغة وإرادة عالمة وتدبير هندسي منظم يحفظه عن كل تحريفة وطغيان عن نظم الطبيعة وقوانينها الحاكمة عليه ، لكان معرضاً لخطر الانهدام في كل لحظة ، إذ لو وجدت ظاهرة على أساس الصدفة والاتفاق الأعمى في إحدى مراحل الحياة المنظمة لكان وجود هذه الصدفة عاملاً مساعداً على فناء العالم ، حيث إن أصغر خلل في النظام وتوازن عناصره وأبسط اختلال في قوانين العالم كان كافياً لاصطدام الأجرام السماوية وتفجرها وبالتالي انعدام العالم .

لو كانت خلقة العالم على أساس الصدفة فلماذا نرى الماديين يفسرون وجوده على أساس نظام مدروس ومدبر لا مجال للصدفة فيه ؟!

لو كان العالم كله وليد الصدفة فكيف يكون ذلك الشيء الذي يوجد من غير صدفة ؟ وما هي مميزات وخصائص الموجود من غير سبيل الصدفة كي نلاحظ تطبيق التعريف فنرى هل هو ينطبق على مختلف الظواهر المتنوعة في هذا العالم ؟!

بينما لا تجد في نظام الوجود موجوداً على أساس الصدفة والإهمال والتحولات الاتفاقية ، بل ليس في مصنع الخلقة ظاهرة لا ترى فيها آثار الفكر والتدبير والدقة ، وإن خصائص الآثار هي التي تدلنا على خصائص المؤثر .

لو كانت الصدفة تولد النظام والتوازن للزم أن يكون ما وجد بهندسة ومحاسبات غير منسجم ولا متوازن ، إذ أن الهندسة والمحاسبات تتنافى مع الصدفة ، ولهذا نقول : إن فرض الصدفة أساساً لنظام العالم لا يقوم على أي برهان منطقي أو دليل علمي ، ولا يمكن أن تفترضها كطريق حل مقبول لنظام الوجود .

إن استعمال كلمة الصدفة في بعض المسائل إنما هو عن عدم معرفة دقيقة بمعناها لا مع التوجه إلى ذلك ، وإنما يستمسك بها أصحابها ما لم يتوصلوا إلى معرفة بالقوانين الحاكمة على الظواهر والحوادث ، وحينما تكتشف العلة الحقيقية للحوادث المعقدة ، أو يكتشف القانون الحاكم على ظاهرة خاصة في ظل التحقيقات العلمية المستمرة أودعت هذه الكلمة إلى ملف الكلمات المتروكة ، وعلى هذا نقول : إن التعبير بالصدفة ليس حكماً علمياً نهائياً ، ولا يبقى له مجال بعد المعرفة العلمية واكتشاف رموز نظام العالم .

يقول (فرانس بيكن) إحدى شخصيات النهضة العلمية الأوروبية : « يمكنني أن أؤمن بجميع الأساطير ، ولا يمكنني قبول أن يكون هذا العالم موجوداً بلا علم ولا شعور حاكم على خلقه ، نعم يمكن لفلسفة سطحية غير عميقة أن تسبب إلحاد الإنسان ، بينما الفلسفة العميقة توجب الإيمان بالأديان ، أجل إذا نظر الناظر إلى العلة القريبة للأشياء ولم يتجاوزها أمكن أن لا يعتقد بوجود الخالق ، ولكنه لو نظر إلى جميع سلسلة المعلولات لآمن في النهاية بالمشيئة الأزلية للإله الواحد »[1] .

---

(١) تاريخ فلسفة (ويل دورانت) ص ١٦٣ج ١ : بالفارسية .

ويناسب هنا أن نستمع إلى حوار بين « نيوتن » الرياضي والمنجم الإنكليزي المعروف مع أحد أصدقائه الماديين . .

أوصى (نيوتن) إلى رجل ميكانيكي ماهرفنان أن يصنع له صورة مصغرة عن المنظومة الشمسية ، فصنع له ما أراد ، وكانت هذه الصورة (الماكيت) ذات مركز وسيارات حولها ترتبط بعضها ببعض بأسلاك ، وهي تدور بأسلاكها في مدارات خاصة حول ذلك المحور في مركز الدائرة .

ذات يوم كان (نيوتن) في مكتبه ، ومعه صديقه الميكانيكي صانع الصورة الفلكية ، إذ دخل عليه صديقه العالم الماديّ ، وما إن وقع بصره على الصورة الفلكية (الماكيت) للمنظومة الشمسية حتى بهر بجمالها وظرافتها ، ولما حرّك محرّك أسلاكها رأى أن السيارات المعدنية أخذت تتحرك حول محورها على الأسلاك ، صاح : شيء جميل ! من صنع هذا ؟ ، أجاب (نيوتن) : لا أحد ! إنما وجدت بالصدفة والاتفاق هكذا !

قال العالم الماديّ : لعلك لم تفهم ما أقول ، أنا سألتك : أيّ الميكانيكيين صنع هذا (الماكيت) ومن صمم له هندستها ؟

قال (نيوتن) : لقد التفت إلى سؤالك وكان كلامي جواباً لسؤالك حينما قلت لك : لا أحد ، وإنما وجدت بالصدفة وحدها أي أن موادها تجمعت وتشكلت بهذا الشكل بصورة اتفاقية عفوية .

قال العالم المادي ـ وهو ينظر إلى (نيوتن) بحيرة ومرارة ـ : صديقي (نيوتن) ! هل تتصور أني أحمق أنسب صنع هذا الماكيت إلى الصدفة ، وصانعها لا بدّ أن يكون أستاذاً ماهراً ذا ذوق ونبوغ ؟ .

حينئذٍ قام (نيوتن) من خلف منضدته ، وأغلق الكتاب ووضع يده على كتف صديقه المادي وقال : صديقي ! إن ما تراه وتسأل عن صانعه ليس إلّا ماكيتاً صغيراً عن نظام واقعي عظيم للمنظومة الشمسية ، ومع ذلك لا تقبل أن يكون قد صنع لوحده وبالصدفة ، من دون أن يكون له صانع عالم

مستهدف ، إذن فلماذا تصرّ على عدم وجود خالق عالم لنفس المنظومة الشمسية بما لها من عظمة وسعة وتعقيدات ، وتقول : إن الصدفة أو المادة غير الشاعرة هي التي صنعتها ؟! .

فخجل العالم الماديّ ، وسكت لا يحير جواباً أمام منطق (نيوتن) القويّ والصريح .

وهكذا لام (نيوتن) صديقه العجول الذي كان يعاند ويكابر وينكر الخالق ويجانب الحقيقة .

الأصالة في الحياة

يقول العلم اليوم : إن الحياة هي التي توجد الحياة ، وأن حياة الأحياء إنما تبقى وتستمر عن طريق التناسل والتوليد ، ولم ير لحد الآن أيّ خلية حية تولد من مادة غير حية ، حتى في الأحياء ذات الحياة الدنيئة كالزعانف والسلاحف والفطائر ، فما لم يكن مولدها متمتعاً هو بالحياة في محيط حيّ لا يمكن أن تولد حية وتنمو .

يقول العلم : قد مرّ على الكرة الأرضية زمان طويل لم يمكن الحياة عليها لحرارتها العالية ، وحينئذٍ لم يكن على وجه الأرض خضرة ولا أنهار ولا عيون ، بل كان فضاؤها مليئاً بالمعدنيات المذابة والبراكين المتفجرة ، وبعد أن برد ظهرها ، لم يكن يوجد عليها موجودات غير آلية حتى آلاف السنين ، وخلاصة القول : إنه لم يكن هناك أيّ أثر للحياة بين التحولات التي كانت تطرأ على سطح الأرض آنذاك ، إذن فكيف وجدت الحياة عليها ؟ .

لا شك أن الحياة إنما وجدت على هذه الكرة بعد مدة من ظهورها أكثر من ثلاث ميليارات من السنين ! أما كيف كان ذلك فهذا أمر مجهول لدى العلم .

مرت قرون والعلماء المحققون يسعون وراء كشف سر الحياة هذه الظاهرة الغريبة في المختبرات العلمية ، ولكنهم لم يقتربوا حتى الآن من

اكتشاف هذا اللغز العجيب !.

كتب (بروتو بور كل) العالم والمحقق الألماني في كتابه : (العوالم البعيدة) يقول : « الحياة ! أي كلمة ساحرة ! هل وجدت الحياة من العدم ؟! هل يمكن أن توجد الآليات من غيرها ؟! أم أن هنا يداً خالقة قادرة مطلقة ؟ قد يقال : لعل الحياة جاءت من الكرات الفلكية الأخرى إلى سيارتنا هذه ؟ إذ أن الميكروبات النباتية الحية التي تسبح في جوّ إحدى الكرات الفلكية ترتفع إلى حدّ كبير ، يمكن لأشعة الشمس أن تدفعها إلى فضاء كرات أخرى تصل إلى سطح تلك الكرة فتنمو وتتطور هناك .

ومع هذه الفرضية لم يتقدّموا في سبيل حلّ اللغز الكبير ، حتى بمقدار رأس إبرة ! إذ حتى في هذه الصورة تبقى كيفية ظهور الحياة ـ سواء في إحدى الكواكب التابعة للمنظومة الشمسية ، أو التابعة للشعرى اليمانية ـ مجهولة غير واضحة .

وكما أنه لا تتكون الساعة من تكديس اللوالب والنوابض كذلك هنا ما لم نجد القلب المحرّك ونداء : كن حياً ، فلا نجد الحياة » ! .

نحن نعلم أن المادة في ذاتها فاقدة للحياة ، وأن ليس لأيّ عنصر ماديّ لوحده خصوصية الحياة ، إذن فلا يمكن أن نفترض الحياة نتيجة تركيب منسجم لذرات متشكلة من المادة ، حيث نجد أمامنا هذا السؤال الملح : لماذا لا تتكرر ولا تكثر المادة الحية إلاّ عن طريق التناسل والتوليد ؟ ، إن التفاعلات الكيماوية مستمرة في الأجسام غير الحية ولا نجد فيها أيّ أثر للحياة ، وأما القول بأن المادة تميل إلى التركيب ، وأن الحياة نبعت فيها في تطوراتها المتكاملة ، فإنما هو وصف لمظاهر الظواهر الحية التي نحسها ، وليس بياناً لكيفية وجود الحياة ومعرفة سببها .

إن أجزاء المادة لم تكن تختلف فيما بينها بالأصالة ، فلماذا تركب بعضها مع بعض وتأخر كثير منها ، فتمتع بالتالي بعضها بالحياة وحرم البعض

الآخر ؟ من أين نشاهد الاختلاف وما هي علة هذا الاختلاف في الحياة بين موادها ؟ .

إنما الشيء الذي يحصل من تركيب عنصرين أو عناصر متعددة ، هو أن يهب العنصر ما فيه من خصائص للعنصر الآخر المتركب معه ، ولكنه كيف يهب ما لا يملك ؟ أجل إن العناصر تجد بفضل التركيب خاصة عامة غير خارجة عن إطار خواص آحادها ، إلّا أنّ الحياة بما لها من خصائص منفردة لا شبه بينها وبين خواص المادة ، إذ للحياة تجليات ليست للمادة ، وهي تتحكم في المادة من كثير من النواحي ، وإن كانت هي تتبع المادة في الهيكل . ما أن تسطع أشعة الحياة على المادة حتى تتجلى فيها الحركة والإرادة والإدراك والمعرفة .

إذن فتفسير الحياة بردود فعل كيماوية غير وجيه ، يقول أحد العلماء : « ليست الحياة نظاماً جامداً لا روح فيه كالمعمل ، بل هي نظام فيه قدرة التجديد والتكرار لنفسه وكذلك التفوق والتسلّط ـ إن صحّ التعبير ـ على نفسه ، ومعه مرشد وهاد طبيعي فطريّ يهديه من الداخل والضمير ، فطرة مكدسة مكنوزة في نسيجه تتكفل بتجديد ما تحلل وتلف » .

ما هو هذا العامل الذي يصنع الخلايا أنواعاً مختلفة ومع برامج متنوعة تأخذ مكانها في جسم منظم ، يحضر الخلية الجنسية التي تنقل مميزات وخصائص الآباء إلى الأبناء بلا استثناء ، وبدون قصور أو خطأ في أداء المهام والوظائف والتكاليف والمسؤوليات ؟

نحن نرى أن للخلايا الحية خصائص في تركيبها ، فمن خصائصها ترميم الخسائر وتجديد ما يتلف واستعداد التنوع ، وحفظ النوعيات ، فكل خلية في جسد الإنسان تعمل في الزمن الذي ينبغي أن تعمل فيه بصورة متناسبة ، وأما توزيع العمل والوظائف فأمر محير ، تتقسم بمقدار الحاجة إلى تكوين الأجسام ، وتذهب كل خلية إلى مكانها من المخّ ، والرئة والكبد والقلب والكلى ، ولا يرى أيّ قصور في وظائف الخلايا الجاثية المنتظمة في

بواضعها ، فهي تدفع المواد الزائدة غير المفيدة وتحفظ الحجم المناسب لكل شيء .

إن نسبة هذا التقسيم العجيب ـ الذي يوجد لتتناسب وتتوازن الأجزاء اللازمة في أجسام الموجودات ـ إلى العوامل الميكانيكية غير المدركة، تفسير قاصر جداً ، وأيّ إنسان حرّ التفكير يقبل هذا المنطق ؟! .

ولهذا نحن نقول : إن الحياة نور يشعّ على المواد المستعدة لقبولها من أفق أعلى من المادة ، فيجعلها تتحرك وتفكر ، إن هذه هي إرادة الرب القدير وقدرته وحكمته الجامعة البالغة التي تفيض بمعجزة الحياة بجميع خصائصها على المادة غير ذات الروح ، وإن الإنسان يرى بين هذه المواد المتحركة جوهرة الحياة السيالة كحقيقة شاعرة ، ويشاهد بها الله في خالقية مستمرة وإيجاد وتطوير دائم .

مظاهر قدرة الله في الطبيعة

إن عالم المادة والطبيعة كوحدة مصنوعة هي أحسن وأتمّ وأعمّ برهان لمعرفة الخالق ، وإن في هذه التحولات المادية ، ما يكشف عن الإرادة الحكيمة لذلك الناموس الأزلي ، وما يثبت أن شعاع وجوده الخالد هو الذي يمدّ الموجودات بالحياة ، وأن جميع الكائنات إنما تتلقى وجودها وتقدمها وتطورها وتكاملها منه سبحانه .

بإمكاننا أن نسلك لمعرفة الخالق سبيلين أساسيين : أحدهما طريق الدلائل العقلية ، والآخر طريق البراهين الفلسفية ، بهذين السبيلين نستطيع من التوصل إلى تلك الحقيقة المطلقة ، وأن نكمل معرفتنا ونثبت عقيدتنا بها ، لكن طرق الاستدلال معقدة إلى حدّ ما ، وإنما تلذّ للعلماء فقط ، بينما المطالعة في أسرار كتاب الخلقة والموجودات المختلفة ، الكتاب الذي تشهد جميع صفحاته بضرورة مدخلية العقل العالي في خلقته ، مطالعة هذا الكتاب وإن كانت أيضاً برهانية للإيمان بالخالق الحكيم الذي ليس مجموع نظام الكائنات بكل عظمته وسعته إلّا جزءاً ضئيلاً من مظاهر قدرته ، إلّا أنها برهان ساذج وبسيط ليس فيه ثقل وتعقيد البراهين الفلسفية ، وهو من ناحية أخرى طريق مفتوح لعامة الناس ، فبإمكان جميع الناس من المفكرين والعلماء والعوام البسطاء أن يفيدوا منه .

بإمكان كل أحد أن يرى ـ حسب رؤيته واستعداده ـ في مظاهر الخلقة آثار التركيب والتوازن والتدبير ، وأن يجد في كل ذرة دليلاً قوياً ثابتاً على وجود مبدأ للحياة .

فلو طالع العامل العادي في بدن حيوان لأدرك ـ من النظر إلى أعضاء وخصائص الهيكل العظمي المنظم له وجماله الظاهر ـ أن من المحال أن تتحقق هذه المحاسبات والتقادير والأنظمة الدقيقة بدون مدخلية قدرة كبيرة عالمة ، وأما العالم الفيزيولوجي فإنه يرى آثار العلم والقدرة اللانهائية لتلك الحقيقة المطلقة من طريق إمعان النظر في كيفية أعمال القلب والرئتين والكبد والمعدة ، ووصول الغذاء إلى خلايا جسم ذلك الحيوان .

ومع أن ما يدركه العالم الفيزيولوجي من النظام المعقد ، في بدن الحيوان ، لا يناسب القياس مع ما يتوصل إليه الشخص العادي من مطالعته السطحية الساذجة والبسيطة ، إذ أن الإنسان بعد تسخيره لقمم العلوم وافتتاحه لمغاليق أسرار الطبيعة قد تقدم في معرفة الأنظمة المحيرة خطوات كبرى ، إلّا أن لكلا هذين نتيجة واحدة من مطالعتهما المختلفة في نوعيتها .

إن العلوم التجريبية لمطالعة الأسرار اللامنتهية لعالم الطبيعة بالإضافة إلى إمكان استفادة كل أحد منها لها ميزة أخرى هي : أن معرفة عجائب الخلقة والنظام الخاص السائد في الطبيعة ، تصل بالإنسان إلى معرفة خالق الطبيعة بالإضافة إلى شطر من صفاته الكمالية ، كالعلم والقدرة اللانهائية له سبحانه .

إن هذا النظام الدقيق الذي هو عبارة عن تقرير العلاقة المناسبة والمعقولة بين أمور مختلفة ، يحكي لنا عن حكمته الواسعة وهدفه في ذلك في الحياة ، في الحيوانات في النباتات ، في الأرضين ، في السماوات والكرات ، في الصخور والبحور والذرات ، علوم وقدرات وبدائع مصنوعات مودعات في صغراهنّ وكبراهنّ على السواء .

إن فرضية أن يكون العالم الماديّ في حالة تكوين نفسي أي أن يكون في حالة مستمرة من صناعة نفسه بنفسه، إن هذه الفرضية مستحيلة علمياً ، وإن النظرية الماركسية التي تقول : إن العالم المادي في تحول وتطور وتقدم دائم ، إن هذه النظرة تخالف المعطيات العلمية والواقعيات الطبيعية ، إن جميع التحولات والحركات في الجمادات إنما يكون بسبب قوة خارجة أو تبادل داخلي بين أجسام مختلفة ، وفي عالم النباتات إنما يتحقق النموّ والتوسع والتكاثر بالأمطار وأشعة الشمس والتغذية من التربة ، وكذلك الوضع في عالم الحيوانات بالإضافة إلى حركات إرادية ضرورية ومفيدة .

إن انسجام الأشياء والموجودات مع الجو الخارجي لها في هذه الموارد المذكورة واضح بيّن ، وليس لأيّ موجود أن يعصي على القوانين والمعادلات الرياضية المفروضة عليه حسب الخواص المودعة فيه والآثار المترتبة عليه .

ولما يدركه الإنسان من الواقعيات عن طريق حواسه خصائص مختلفة :

فنحن نحسّ جيداً ـ من هذه الخصائص ـ أن موجودات العالم متغيرة متحولة غير ثابتة ، وأيّ موجود ماديّ إما أن يكون في طول عهد وجوده سائراً نحو التكامل أو إلى الانحطاط ، ولا شيء في عالم الوجود ثابت على حالة واحدة .

ومن خصائص الموجود المحسوس : المحدودية ، إن الموجود المحسوس من أصغر الذرات إلى أكبر المجرات بحاجة إلى الزمان والمكان ، إلاّ أن بعضها يشغل مكاناً أكبر أو زماناً أطول ، وبعضها زماناً أقصر ومكاناً أقلّ .

ومن خصائص الموجود المحسوس : النسبية في أصل الوجود والكمالات ، وإن كل ما تنسبه إليه من الصفات كالقدرة والعظمة والجمال والعلم فإنما هي من باب المقارنة والمقايسة بسائر الأشياء .

ومن خصـائص الموجـود المحسوس أيضـاً : التعلق والاشتراط فـأيّ موجود نفترضه نجده متعلقاً ومشروطاً بأمور أخـرى ، ولهذا فهـو محتاج إلى تلك الشروط التي تتعلق به ، ولا تجد شيئاً مادياً في هذا العالم يستنـد إلى نفسـه ويستغني عن غيره ، فـالفقـر والحـاجـة محيط بجميـع المـوجـودات المادية .

إن العقل والفكر الإنساني الذي يعبر حجاب الظواهر وينفذ إلى أعماق بطونّ الوجود ـ على خلاف الحواس ـ لا يستطيع قبول حصر الوجود في أمور نسبية محدودة متغيرة محتاجة ، بل إن قوة الفكر الإنساني تحسّ جيداً ، ـ إن صحّ التعبير ـ بضرورة وجود حقيقة دائمة مطلقة غنيـة خلف ظواهـر الوجـود تكون مستنداً لجميع الوجودات المحدودة ، حقيقة حاضرة في جميع الأزمنة والأمكنة ، وإلاّ فإن العالم بأجمعه لا يستطيع أن يقف على قدميه بنفسه ، بل حتى على اشتمال صفة الوجود .

فالعالم بحاجة إلى حقيقة مستقلة ، غير مقيـدة ، وغير معلقـة ، وغير مشـروطة بغيـرها ، هي تمسـك بزمـام الوجـود في جميع الأمـور المحدودة والمشروطة والنسبية ، وإن كل شيء يحتاج إلى أن تملأ هذه الحقيقة المطلقة كيانه بالوجود والحياة ، وفي كـل موجـود ظاهـرة من الحياة والعلم والقـدرة والحكمة المطلقـة لتلك الحقيقة ، وبهـذه الظواهـر وفي حدودهـا نستطيـع الحصول على معلومات قيمة عن تلك الحقيقة ، ولكل إنسان ذكيّ مستطلع أن يجد الدليل من هذا الطريق على وجود الخالق .

* * *

المادة وقوانين الوجود

إن التلازم المتقابل بين المادة وقوانين الوجود ، لا يمكن أن يكون دليلاً على غنى المادة ، بل إن تنوع المنشآت من المادة ، وارتباطها الشديد بعضها ببعض يثبت أن المادة في وجودها ، لا بدّ لها من تبعية سنن وقوانين تسلك بها سبيل النظم والانسجام ، فإن الوجود يستند إلى عنصرين أساسيين هما : المادة والنظام ، ولا بدّ بينهما من الارتباط الوثيق ، وإن العلم المنسجم والمتوازن إنما هو وليد هذه العلاقة الوثيقة بين المادة والنظام .

إن الذين يرون أن المادة غنية ، ويظنون أنها هي التي وجدت لنفسها هذا النظام والغنى كيف يقبلون أن تكون ذرات الهيدروجين والأوكسجين والالكترون ، والبروتون ، وجدت نفسها بنفسها ثم أصبحت منبعاً لوجود الموجودات الأخرى ، ثم صدّرت لنفسها القوانين التي تحكمها وجميع العالم الماديّ ؟ .

إن المادية ترى أن الموجودات البسيطة الدانية تصبح منابع للوجودات العالية المعقدة ، دون أن تتوجه إلى أن المادة التي تعجز في أوج كمالها أي في حالة التفكير العلمي ، عن إيجاد نفسها أو العصيان على قانون من القوانين الحاكمة عليه ، فهي قطعاً أعجز عن إيجاد نفسها أو النظام الوجودي حال كونها بسيطة دنيئة ، فكيف يمكن القول بأن المادة الدنيئة تخلق

الموجودات العالية ، وأن يكون لها القدرة على إعطاء الحياة لظواهر أكمل ؟ .

وقد تحقق في علم الأنظمة الجديد : أن الأنظمة المركبة من عناصر حية ذات هدف ، أو الأجهزة المنظمة على أساس برنامج معين ، يمكن أن يكون لها تحوّل متكامل ، إلاّ أنه لا بدّ لها من إمداد خارجي ولا قدرة لها على تطوير نفسها بنفسها ، وأن مواد العالم ما لم تتصف هي بالإرادة والقدرة والشعور ، فلا قدرة لها على إيجاد وإدارة جهاز منظّم متحرّك متطوّر .

إن قانون حساب الاحتمالات و(الانتروبي) يقرر : أن الحركة الجماعية غير المنظمة ، لا يمكن أن تزيد إلاّ تفرقاً وتشتتاً وتقدّماً نحو الهلاك والدمار .

إن قانون الاحتمالات يردّ وجود العالم بالصدفة ، بصورة قاطعة ويرى ذلك من غير المعقول ، وغير الممكن ، إن قانون الاحتمالات الرياضي يؤكد على لزوم قيادة صحيحة للعالم وضرورة برنامج دقيق لإدارته .

إن قانون الاحتمالات يشكل في الواقع صفعة على أفواه القائلين بالصدفة الوجودية ، إذ لو فكرنا في وقوع الصدفة لنظام ساذج بعدد قليل ، لم تكن من غير الممكن ، وإن كانت بعيدة عن الواقع ، ولكنه لا يمكن القول بالوصول إلى صدفة هندسية منظمة تحكي عن انسجام وتوازن متين لهذا النظام العالمي المعقد ، وأن التغييرات الجزئية والساذجة لنظام الوجود لا يمكن أن تكون دليلاً على تغييرات العالم ، وتركيب الذرات فيه لتشكيل هذا التركيب المنسجم المتوازن .

لو كانت الطبيعة في تطوّر وتكامل وتركيب متجدد فلماذا لا تبدي من نفسها اليوم جديداً في التغيير والتطوّر ؟ ولماذا هي متوقفة اليوم عن التحولات الأوتوماتيكية العميقة ؟ .

إن الحوادث الساذجة البسيطة والجزئية منها تؤدي إلى إيجاد صور

محيرة منسجمة ومتناسبة مع أهداف الخلقة ، وهذا بنفسه يدلنا على أن هناك خلف هذه التطوّرات المحيرة قوّة عالمة قادرة هي التي أبدعت هذا النظام المعجب للكائنات ، وهي وراء هذا التطوّر العجيب لعالم الطبيعة ، وهي التي ترسم هذا النظام للوجود .

إن هذا الانسجام والترابط الوثيق بين الملايين من ظواهر الطبيعة والعلاقة بينها وبين ظاهرة الحياة في الأحياء ، لا يمكن أن يفسر تفسيراً معقولاً إلّا بصورة واحدة ، هي : أن نفترض لهذا النظام العظيم خالقاً هو الذي قرر هذه العناصر المختلفة في هذه الكرة الترابية ، بقدرته غير المحدودة واللامنتهية ، ونظم برنامج كل عنصر من هذه العناصر ، وهذه الفرضية تطابق كل ما في ظواهر هذه الطبيعة من ارتباط وانسجام وتوازن .

أما إذا لم نقبل هذه الفرضية ، فهل يمكن لنا أن نحتمل ظهور هذا الانسجام بين أنواع الظواهر البديعة بصورة صدفة غير مستهدفة ؟ وكيف يمكن القول بتساوي هذا الافتراض مع افتراض خالق مستهدف مدبّر عالم مطلق ؟

لو لم يكن وجود لهذا العالم بما فيه من عجائب تحيّر العقول ويعجز العلم البشري عن درك أوضاعه المحيّرة ، وكانت الدنيا تتلخص في موجود ذي خلية واحدة ، حينئذٍ كان احتمال وجود هذا الموجود الحقير ونظمه صدفة على أساس حساب الاحتمالات طبقاً لمحاسبات (شارل أوزن كوى) يعطي رقماً رياضياً لا يقدر الفكر الإنساني على استيعابه .

يقول (باشميل) . « أنتم الماديّين تعترفون بحركات ودوران الشمس ، والأرض وسائر المجموعة الشمسية ، وتعترفون أيضاً بالدقة الرياضية غير المتخللة في هذه الحركات ، وتذعنون ـ كما تزعمون ـ بعدم وجود يد مدبّرة خلف هذه الحركات والمتحركات الكبيرة ، والعظيمة ، والدقيقة المحكمة والمنظمة ، فلا بدّ لكم من أن تقولوا بأن المجموعة الشمسية هي التي أوجدت نفسها بنفسها وجعلت لها هذا النظام المعقد الذي

تتحـرّك هي على أساسـه ، ثم هي التي جعلت لنفسها جهـاز سيـطرة دقيق يحجزها عن الاصطدام أو الانحراف عن مسيرتها وعن عروض مانع أو رادع لها في خلال حركتها بهذه السرعة المذهلة في الفضاء ! أنا شخصياً لا أقبل أن يدعي إنسان هذه الدعوى ، وهو يدّعي لنفسه الحرمة والكرامة » .

توازن وانسجام في الطرفين

إن جميع أجزاء الوجود والموجودات ، تتبع في تركيبها الداخلي وفي علاقاتها بعضها مع بعض نظاماً متيناً ، فإن تركيبها وعلاقاتها منظمة بحيث تساعد كل منها الأخرى في أهدافها وغاياتها وخطوطها ، وبذلك يتمكن كل موجود من السير نحو الهدف والمقصد المعين له بالإفادة من علاقته بسائر الموجودات ، وبتأثيره وتأثره المركوز في تركيبه الخاص .

إن أهم ما تقوم به العلوم المادية هو التعرف على ظواهر وكيفية تركيب هذا العالم ، أما التعرّف على ماهية وحقيقة المخلوقات والظواهر فذلك خارج عن متناول هذه العلوم .

فمثلاً غاية ما لعالم فلكي من الفنّ العلمي هي أن يعرف الكرات الكثيرة في الفضاء الثابت بعضها نسبياً، والدائر المتحرّك بعضها الآخر ، ويعرف كيف أن قوة الجاذبية تمنعها من اصطدام بعضها بالآخر ، وتصون توازنها فيما بينها . ويقيس الفواصل بينها وبين الأرض وسرعة حركتها ومقدار حجمها بالمقاييس العلمية ، إلاّ أن نتائج هذه المعرفة والتجارب لا تتجاوز تفسير ظواهر الخلقة ، فإن التجربة تعجز عن درك حقيقة قوة الجاذبية وماهية الجاذبية المركزية وكيفية حدوثها وخلقة هذا الجهاز العظيم .

إن العلماء الطبيعيين ، يفسرون السيارة أو الماكنة من دون أن يعرفوا

تفسير القوّة المحرّكة لهذه السيارة أو الماكنة ، ولهذا فإن العلوم الطبيعية لا تستطيع أن تفسّر وتحلّل ملايين الحقائق ، المودعة في الطبيعة والنفس الإنسانية ، إن هذا الإنسان الذي توصل حتى إلى باطن الذرّة بقي متحيراً أمام الأسرار المعقدة والغامضة لذرة حيوية ، وأخيراً عجز أبطال العلوم الطبيعية عن تسخير وفتح هذه الغوامض المعقدة .

* * *

إن من عجائب الخلقة ذلك الانسجام والتوازن المتبادل بين ظاهرتين من ظواهر الطبيعة غير متعاصرتين ، إن هذا الانسجام هو على نحو التطلع والتهيؤ في جهاز ظاهرة سابقة لحاجات ظاهرة قادمة بعدها .

وبإمكاننا أن نرى أحسن نماذج هذا الانسجام بين الأم وجنينها . إن الأم سواء في الحيوان أو الإنسان تبدأ هرمونات الحليب لديها بالعمل بمحض بدء الحمل لتحضير أعذب غذاء وأجمعه للطفل مجارية لنموّ الجنين في الرحم حتى يوم الميلاد ، فكلما ينمو الجنين تزداد كمية هذا الغذاء عند الأم ، حتى إذا تهيأ الجنين للدخول إلى هذا العالم الكبير كانت هذه المواد الغذائية المناسبة لجميع حاجات الجنين الجسمية محضرة تماماً .

إن هذا الإنتاج المحضر منسجم تماماً مع مدى قدرة جهاز الهضم لدى الطفل ، وهو مدّخر في مخزن مناسب مستور هو ثدي الأم الحنون ذلك المخزن المعبأ في وجود الأم ، قبل تركيب جسد الجنين في رحم الأم بأعوام عديدة ، ولتيسير أمر تغذية الوليد ثقب موضع الإفادة من هذا المخزن بثقوب صغيرة ظريفة ملائمة لفم الوليد كي لا يدخل الحليب إلى فمه بحيث لا قدرة له على استيعابه ، وكي يقدر الطفل على امتصاص ما يخرج منه .

وكلما نما الطفل حصلت في الحليب تغييرات مناسبة لسنّ الوليد ، ولهذا يرى علماء الطب والصحة أن رضاع الوليد الجديد من امرأة ولدت قبل مدة كثيرة ليس رضاعاً مناسباً .

وهنا يطرح هذا السؤال نفسه علينا : هذا التخطيط السابق على أوانه في جسد موجود لرفع حاجات موجود آخر في المستقبل ، ألا يعدّ عملاً معدّاً على أساس من الدقة والتدبير ؟ وأليس هذا التخطيط للمستقبل والظرافة في العمل ، والانسجام المحيّر بين موجودين من عمل قادر عالم على الإطلاق ؟ وأليس سمة بارزة على تأثير قدرة مطلقة في الكون من مخطط يهدف إلى استقرار الحياة واستمرارها وتطورها ؟ .

إن المحاسبات الدقيقة التي نراها في جميع الوحدات المكانيكية ، والصناعية نعلم بوضوح أنها إنما هي نتائج أفكار عملت في سبيل تنظيمها وتركيبها ، وبموجب نفس هذه المشاهدات العينية نستطيع الوصول إلى نتيجة كلية فلسفية هي : كلما وجد نظام تركيبي على أساس من الحساب والموازنات الدقيقة ، كان علينا أن نفتش خلفه عن عقل وفكر وإرادة .

إننا نجد في الموجودات الطبيعية تركيباً وتأليفاً أدّق وأعجب مما نراه من الدقة الخاصة في الوحدات الصناعية ، بل إن التدبير المشهود في الطبيعة على مستوى عال غير قابل للمقارنة والمقايسة بدقائق المصنوعات الإنسانية ومنتوجات الأفكار البشرية .

إننا حينما نجد ـ من دون شك أو ترديد ـ نظامنا الصناعي نتائج أفكار وإرادات ، ألا ينبغي لنا أن نرى العقل والإرادة والعلم اللانهائي من نافذة الهندسة والمحاسبات الدقيقة في الطبيعة ؟

* * *

ظاهرة طبيّة تستحق التقدير

إن علم الطبّ في العصر الحاضر بلغ مـرحلة من التقدّم يتمكن فيهـا على إخراج كلية من جانب إنسان ، ووضعها في جانب إنسان آخر قد سقطت كليته عن العمل وهو في طريقه إلى الموت ! إن هذا التقدّم الطبّي ليس نتيجة عمل طبيب واحد لوحده ، بل إنما هو تراث طبي قد تعود أصوله إلى مئات بل آلاف السنين ! إذن فعملية إيصال الكلية المـوضوعـة إنما هي نقـطة في الـواقع في آخـر جملة طويلة ، قـدم لها العلمـاء السـابقـون المقـدّمـات ، والخلاصة : إن أفكار العلماء في مئات بل آلاف السنين لا بدّ أن تتراكم شيئاً فشيئاً كي تصل في النهاية إلى عملية جراحية ناجحة في الكلى.

وهنـا نـطرح هـذا السؤال : هـل أن تبـديـل إطـار مـطّاطي معـطوب لعجلات سيارة ركاب بإطار سالم يحتاج إلى مهارة وعلمية أكثر أم صنع نفس الإطـارات المطاطيّـة لعجـلات السيـارات ؟ وأكـرر : هـل أن صنـع عجلة مطّاطية أهم أو تبديل مكانها أو معطوبها بسالمها ؟ .

إن تبـديل كليـة إنسان مهمـا كان مهمـاً في عـالم الـطبّ ، والعـلاج والعمليات الجراحية ، لم يكن في المثل بأكثر من تبديل عجلات السيارات فليس لتبديل الكلية أمام صنعها وأسرارها ودقائقها ومحاسبـاتها العجيبـة أيّ قيمة تذكر ! .

من هو ذلك العالم الواقعي الحق ، الذي يتمكن أن يقول : إن تبديل كلية بكلية نتيجة معرفة بشرية لآلاف الأطباء في طول قرون متمادية ، ولكن صنع نفس الكلية ليس مظهراً لذلك العقل الخلّاق ، بل هو من نتائج الطبيعة التي ليس لهـا من العلم والوعي حتى بمقـدار طفل في الابتـدائية ؟! أليس تصور وافتراض وجود عقل مدّبر لخلقـة الطبيعـة ونظامهـا أقرب إلى العقـل والمنطق من افتراض خالقية المادة الفاقدة للعقل والشعور والوعي ، والتي لا ابتداع لها ولا اختراع ؟! .

لا شكّ أن الإيمان والاعتقاد بحكمة الخالق أقرب إلى العقل والمنطق من الإيمان بالمادة غير المدركة وغير الواعية التي لا تستطيع أن تقدّر وتدّبر ، إذ لا نتمكن نحن أن نهب كـل تلك الخصـائص والأوصـاف العقليـة التي يحملها هذا العالم لخالقه وأهمها التدبير والإرادة ، نحن لا نتمكن أن نهب هذه الأوصاف للمادة .

كتب (آنشتاين) في كتابه[1] يقول : « إن العالم المصلح يعتقد بقانون العليّة لعالم الوجود ، ولكن ما هو مذهب هذا العالم ؟ إن مذهبه تحيّر غريب من النظام العجيب والدقيق لهـذه الكائنـات ، هذا النـظام الذي قـد ترتّفـع الأستار عن بعض الأسرار بحيث لا يعـدّ جميع المسـاعي والأفكار البشـرية المنظمة إلا كصور باهتة لذلك النظام الدقيق » .

* * *

(١) الدنيا التي أراها (بالفارسية) .

الطبيعة وفنونها الجميلة

انظروا إلى حشرة الملاريا ، ولا يجب أن تمتلكوا لذلك الميكروسكوبات ، بل إنكم ستصلون إلى ذلك النظام الدقيق والمعقد الموجود في هذه الحشرة الصغيرة بنفس هذه النظرة العادية بالعين المجرّدة .

إنكم سوف تجدون الأجهزة والأدوات والوسائل اللازمة والظرافة العجيبة في بواطن وظواهر هذا الموجود الظريف الضعيف ، من جهاز الهضم والدورة الدموية والجهاز العصبي والتنفس ، ولديه مختبر جاهز سريع ودقيق ، والآن نسأل : كم هو حجم مختبركم الكبير ؟ وكم صرف في تكوينه من الطاقات الإنسانية والفكرية والاقتصادية ؟ .

والآن قايسوا بين مختبركم ومختبر هذه الحشرة الصغيرة ، إنه ليس لمختبركم ما لمختبر هذه الحشرة من الدقة والسرعة والظرافة ، وكم تصرفون أنتم في مختبركم من الزمان والأفكار والطاقات البشرية حتى تصنعوا عقاراً لعلاج لسعة هذه الحشرة ؟ .

حينما تحاولون أن تصنعوا شيئاً كم يجب عليكم أن تصرفوا له من الفكر والمراقبة ؟ أفحينما ترون في هذا العالم المصنوع هذا النظام الحكيم بهذه الدقة والظرافة ، ألا يكفي ما ترونه من الإبداع العقلي الخلّاق سنداً على الحكمة الإلهية البالغة ؟! .

أئذا ما حسبنا هذا العالم بكل ما فيه من هندسة ودقة وحركة منظمة وليد مادة جاهلة ، كان ذلك معرفة علمية ؟! بل إن هذه الظواهر إنما تفصح عن النظام والانضباط لا عن اللاهدفية العمياء .

إننا إذا ما رأينا أحياناً نقاطاً من الضعف في الطبيعة لم يكن ذلك دليلاً على النقص في كتاب الخلقة الإلهية ، بل إنما نحن نرى تلك النقاط لعجز إدراكنا وأفكارنا عن التوصّل إلى الغايات منها ، ولقصر في أفهامنا عن معرفة الأسرار ورموز عالم الوجود .

أئذا ما عجزنا عن معرفة وظيفة مسمار لولبي خاص في جهاز كبير هل يحق لنا أن نتهم مهندس ذلك الجهاز بالجهل ؟ أم أن ذلك من ضيق رؤيتنا حيث لا قدرة لنا على معرفة الهدف من تلك اللولبة ؟ .

أفيمكن للصدفة أن تعمل عمل العلم ؟ عملاً لا تشوبه أيّ شائبة من جهل أو ريب ، لو كان عالم الطبيعة مخلوقاً من غير إرادة عالمة ـ كما يزعم الماديّون ـ فلماذا الإنسان للتقدّم في مهامه يصرف طاقاته في سبيل الاستزادة من العلوم ، ولماذا لا يجاري الطبيعة فيستزيد جهلاً ؟! إن الحقيقة التي تقود وتهدي كل هذه الأفعال والانفعالات الكونية المنظمة اللانهائية لا يمكن أن ينكر منها الهدف والإرادة ، وأن يظن أن حدوث هذه الأفعال والانفعالات المتسلسلة يتحقق بدون أيّ تنظيم إراديّ إلهيّ .

سنون من المساعي المتعبة من قبل علماء الكيمياء وآلاف البرامج العلمية الدقيقة إنما استطاعت أن تصل بهم إلى تركيب عدد من المواد الكيمياوية الآلية التجريبية الساذجة البدائية التي لم يكن فيها أيّ أثر من الحياة بالمعنى المعروف .

ومع ذلك عدّ هذا انتصاراً علمياً موفقاً وقيماً لهؤلاء العلماء واستحق تحسين وتقدير المحافل العلمية ، ولم يدّع أحد منهم أن هذه التركيبات البدائية الناقصة التجريبية إنما حدثت على أساس الصدفة من دون برنامج

دقيق موجه ، في حين أن جماعة من نفس هؤلاء العلماء ـ الماديين ـ ينسبون جميع الموجودات والأجهزة المعقدة فيها وأسرارها إلى عوامل عمياء مادية ! الحقيقة والواقع أن هكذا أسلوب من الفكر ليس إلاّ ظلماً للعقل والمنطق والفكر وعداء للحقيقة .

أمعنوا النظر في عمل مرتبي الحروف في المطابع كيف يجيدون النظر في ترتيب حروف صفحة من كتاب ثم يعثرون على أغلاط جزئية نسبياً حينما يجّددون النظر فيها للتصحيح ، فلو كان مرتّب الحروف بدل أن يرتب الحروف بالترتيب الدقيق يأخذ حفنة منها فينثرها على الصفحة ، أفهل يمكن أن تظهر لنا من هذا العمل صفحة منظمة من حيث الحروف والكلمات والمعاني بدون أيّ غلطة ؟! .

وأوهى من هذه الدعوى من يقول : خرج بالدفق مئة كيلو من الرصاص الذائب من فوهة حديدية وجدت منها حروف ، ثم ترتبت هذه الحروف على صفحة معدنية بترتيب خاص منظم على أثر عاصفة هوجاء ، وعلى أثر ذلك وجد لنا كتاب في ألف صفحة فيه مباحث علمية دقيقة بأسلوب عذب وجذاب من دون أي غلط ؟! .

أفهل يمكن لأحد أن يدافع عن هذه الفكرة ؟! .

فماذا يقول الماديون بشأن ظهور هذه الصور المختلفة والمتنوعة من حروف هذه الطبيعة ، وبشأن العلاقات المعقدة والدقيقة السائدة على الكرات السماوية والموجودات الطبيعية وجميع المواد السابحة ؟! .

يقول عالم الأحياء والبيئة المعروف : (رذر فورد) : « إن تحقق الصدفة لتجمع ذرات الكاربون والأوكسجين والآزوت والهيدروجين لتركيب وحدةٌ بروتينية غير قابل للتصور ، كما هو الشأن فيما إذا نشرنا في الفضاء رزمة من أوراق اللعب ثم قلنا إنها ترتب على الطاولة منتظمة من حيث النجوم والألوان ! هذا محال قطعاً ، وحتى لو تكرر هذا العمل لمرتين في طول تأريخ

البشرية في ثانية واحدة لم يكن من الممكن تحقيق الصدفة فيما مضى »[1] .

هل أن حروف التكوين (الذرات ومركباتها) أقلّ أهمية من حروف المطابع ؟ وهل يمكن الإذعان بأن هذه الحروف الطبيعية المنظمة والهادفة بهذه الهندسة الدقيقة وهذه الصور المحيّرة لكتاب الطبيعة كلها وليدة مادة جاهلة غير هادفة ؟! وليس في هذا الوجود قدرة قاهرة حكيمة منظمة ؟! كلا بل إن جميع ظواهر الوجود إنما هي مصنوعة لتلك القدرة الشاعرة والواعية في الطبيعة الحية .

إن هذه القوة المودعة في باطن المادة لو لم تكن أثراً من ذلك العقل الحاكم على العالم فما الذي يهدي هذه المادة إلى الانضباط والانسجام المحيّر ؟! .

لو كانت تلك القوة غير مريدة وغير واعية فلماذا لا تصل إلى مرحلة غير منظمة ؟ ولماذا لا تجر تركيب هذه المواد إلى الاصطدامات المحطمة ؟ .

إن الإيمان بالخالق يعطي المعنى لجميع هذه الموجودات ، ويهب المعنى لجميع هذا العالم ، وإن أولي الألباب والأفكار العميقة يدركون أن هناك قدرة مطلقة عظيمة للغاية تحكم هذا الوجود وتحفظ نظامه عن الانفراط .

* * *

(١) معارف دنيا العلم (بالفارسية) .

تصوّر الموجود المطلق

كان كل إنسان في القديم يقود مركوبه بنفسه ، وكان قد اعتاد في طول الأدوار المختلفة على أن يرى صاحب كل ملك أو مزرعة أو مؤسسة أو إدارة حاضراً مشتغلاً بعمله ، وقد تغيّر الوضع في هذا الزمان ، فقد توصل الإنسان اليوم إلى الأقمار والماكنات الالكترونية الأتوماتيكية والطائرات من دون طيار ، ويعلم كل أحد أنه بالإمكان اليوم صنع جهاز مجهّز يبرز ردود فعل متناسبة أمام الحوادث من دون أن يرى صانعه أو يعرف .

وعلى هذا فلا حقّ لنا أن ننكر الخالق لأننا لا نرى يده في الأمور والأشياء لقصر في أفكارنا ومعارفنا .

إن صانع القمر المصنوعي أو الصواريخ يهدي وينظم سيرها من داخل المحطّات الأرضية المجهزة بوسائل الأجهزة الجوية المعقدة ، إن يد الله في الطبيعة وإن كنا لا نراها بأعيننا الظاهرة ، لكن مع ما نشاهده من الظواهر والآيات البيّنات التي هي من آثار عظمة خالق العالم وصانع الإنسان ، هل بإمكاننا أن ننكر مدبّر هذا العالم الذي له القدرة والإرادة المطلقة والمنظم لجميع حركات هذا العالم ؟! .

صحيح أن إمكاناتنا لمعرفة وجود لا مثال له في عالم الحسّ والشعور والذي تقصر التعبيرات البشرية عن وصفه الدقيق ، إمكاناتنا محدودة ،

ومصباحنا لإضاءة هذا الطريق باهت ، وتتراجع أضواؤه مصطدمة بجدران المحدوديات المادية .

إن علاقاتنا نحن إنما هي بظواهر الحياة ، والذي يرتسم في أذهاننا هو عين من أعيان هذا العالم ، إلّا أننا لسنا عاجزين عن معرفته وتصوره بصورة من الصور ، وليس بيننا وبين المعرفة اللازمة سدود وموانع .

إن بعض المشككين المعرضين عن التفكير السالم النابع عن الفطرة السليمة والمتعودين على الآثار الطبيعية ، ينتظرون كل حين وقوع المعاجز من جانب الله تعالى فاطر هذا النظام الجاري ، لكي تهب المعجزة إيماناً لهؤلاء ، ولكي يذعنوا بوجود الله .

ويغفل هؤلاء عن حقيقة : أن الآثار الجديدة التي تبدو من قبل الله سبحانه تصبح بعد مدة قصيرة عادية طبيعية بحيث لا تجلب أيّ انتباه أو دقة ، إن جميع الظواهر وإن كانت أجزاء من نظام الطبيعة إلا أنها كانت في بدايتها من خوارق نظام الطبيعة ، ولكنها حيث تكررت كثيراً في صعيد العالم أصبحت عادية طبيعية .

بينما الوجود غير المرئي وغير المحسوس المليء بصفات الجلال والجمال والقداسة والعظمة ، هكذا وجود يجعل النفوس دائماً تحت تأثيره ويجذب إلى نفسه كل اهتمام وتوجّه ، ويجعل الإنسان دائماً ينظر إليه ويأمل منه كل شيء ، إن تسلط روح اللجاج والحكم غير المنطقي هو الذي يقيد الإنسان بسلاسل المحدودية ، وإلّا فإن أيّ موجود في نظام الوجود كافٍ لإقناع أولئك الذين يفرغون عقولهم من فكرة اللجاج والمكابرة والإنكار غير المبرهن .

يقول الدكتور (المرو مورد) المحقق والكيمياوي المعروف : « أنا كرجل كيمياويّ أعتقد أن الله يراقب ويحافظ على العالم دائماً ، وأن دوام وثبات القوانين الطبيعية نتيجة لهذه المراقبة الإلهية ، أنا حينما أدخل إلى

المختبر أعلم من دون أيّ شكٍّ أو ترديد أن القوانين التي كانت ثابتة يوم أمس ، لا تزال ثابتة اليوم وبعد اليوم إلى يوم القيامة ، وإلّا فإن حياتي في المختبر لا تكون إلّا حياة حيرة وشكّ وقلق واضطراب ، ولم نحصل على أيّ نتيجة أبداً ، فمثلاً لو ملأت إناء ماء قراحاً وجعلته على النار وفار علمت أن حرارته بلغت المئة درجة (سانتيغراد) ولا حاجة في ذلك إلى المقياس ، إذ أعلم أن ضغط الجو إذا بلغ (٧٦) سانتيمتراً بالنسبة إلى الزئبق فار الماء بدرجة مئة (سانتيغراد) وإذا لم يبلغ ضغط الجو (٧٦) سانتيمتراً على الزئبق كانت الحاجة إلى حرارة أقل لغليان الماء وتبدله بالبخار ، وكانت درجة الحرارة للغليان أقل من المئة ، وإذا كان ضغط الجو أكثر من (٧٦) سانتيمتراً على الزئبق صعدت درجة الحرارة أكثر من مئة درجة .

ولي أن أكرر هذه التجربة كلما أردت ، وإن علماء الكيمياء حينما يجرون هذه المقايسة بين الضغط والحرارة بذكائهم في أعمالهم اليومية تزيد في حيرتهم .

وكذلك الأمر بالنسبة إلى سائر القوانين الطبيعية ، والمنطق المستقيم يقتضي أن يكون هناك وجود مدبّر أوجد هذه القوانين وهو الله سبحانه ، إن الاعتقاد بوجود خالق للعالم هو الجواب الصحيح الوحيد على خلقة هذه الطبيعة ونظامها الثابت والمستمر »[1] .

* * *

(١) إثبات وجود الخالق : ص ٢٣٩ (بالفارسية) .

أما مبدأ الوجود فهو غني عن علة لوجوده

إن أتباع المذهب المادي يبدون حساسية خاصة بـالنسبة إلى غنى الله عن العلة الوجودية ، ويقولون : إذا نحن أذعنّا أن يكون الله هو واجب الوجود في العالم وأن الموجودات تستمد وجودها منه سبحانـه ، فما هي العلة التي أغنته عن الخالق ؟ وبالتالي ما هي علة وجوده .

قال (برتراند راسل) في إحدى خطاباته في جلسة لجمعية وطنية لندنية غير دينية : « في سنّ الثامنة عشرة كنت أقرأ حياة (استوارت ميل) المكتوبة بقلمه ، جلبت انتباهي جملة لميل يقول فيها : « لم يجبني أبي على سؤالي إذ ذاك : من الذي خلقني ؟ » ، لأنه كـان قد طـرح سؤالاً آخر هـو : « من الذي أوجد الله » . ثم أضاف راسل يقول : كذلك اليوم أنـا أفكر في هـذه الجملة الساذجة ، وأراها أنها أبدت السفسطة في بيـان العلة الأولى ، فكما أن لكل شيء علة وسبباً ، لا بدّ لوجود الله أيضاً من علة ودليـل ، ولو أمكن لشيء أن يكون بلا دليل ولا علة لأمكن أن يكون هـو الله أو العالم ، وعلى هذا فالبحث عن الله يفقد اعتباره »[1] .

---

(١) لماذا لست مسيحياً /ص ١٩ (بالفارسية) .

وقد عجز حتى بعض الفلاسفة الإلهيين الغربيين عن حلّ هذا المعضل ، يقول (هربرت اسبنسر) الفيلسوف الانجليزي : « المشكلة هي أن العقل البشري يفتش لكل أمر عن علة وهو يرى استحالة الدور والتسلسل ، ولا يرى علة بلا علة ولا يفهمها ، كما يقول القسيس للأطفال : إن الله هو الذي خلق هذه الحياة الدنيا ، فيسأل الطفل : فمن خلق الله ؟ »(1) .

وكتب في مكان آخر يقول : « إن الدهريين يحاولون أن يقولوا بأن العالم قائم بذاته بلا علة ، ولكننا لا نتمكن من الإيمان بشيء بلا علة وبلا أول ، والموحد يخطو في هذا خطوة واحدة إلى الوراء ويقول : إن الله هو الذي خلق العالم ، والطفل يسأل سؤالاً آخر لا جواب له ، هو : من الذي خلق الله ؟ »(2) .

ونحن نردّ هذا الإشكال إلى نفس الماديين ونسألهم : لو تتبعنا سلسلة العلل وصلنا إلى العلة الأولى ، ولا نقول : هي الله تعالى ، بل هي المادة كما تقولون ، فقولوا : من الذي خلق المادة الأولى ؟ .

أنتم المذعنون بقانون العلية أجيبونا : كل شيء من المادة الأولى ، وهي من أين ؟ .

تقولون : إن مبدأ الحوادث يرجع إلى المادة والطاقة الأولى .

ونسأل : ما هي علة وجود تلك المادة والطاقة الأولى ؟ ومع النظر إلى استحالة تسلسل العلل والمعاليل إلى ما لا نهاية لا جواب لهم إلاّ أن يقولوا : إن المادة موجود أزليّ أبديّ لا حاجة لها إلى علة ولا أول لها ولا آخر ، هي قديمة لا نهاية لها ، ووجودها من طبيعتها وماهيتها .

إذن فالماديون يذعنون بأصل الأزلية ، ويعتقدون بأن الأشياء كلها من

---

(1) سير الحكمة في أوربا : ص ١٦٢ (بالفارسية) .

(2) تاريخ فلسفة ويل دورانت/ ص ٤٦٧ ـ ج ٢ . (بالفارسية) .

المادة الأزلية ، وأن الوجود من طبيعتها ، من دون أن تكون هي بحاجة إلى موجد خالق .

ويصرح (راسل) بهذا في خطابه الآنف الذكر ويقول : لا دليل لنا على أن يكون لهذا العالم مبتدأ وأول ، بل إن التفكير في أن يكون للأشياء مبتدأ إنما هو من نقص في قدرة تصوراتنا[1] .

كما أن (راسل) يرى أن المادة أزلية ، كذلك يقول الإلهيون بأزلية الله سبحانه ، إذن فالقول بوجود الأزلية نقطة مشتركة بين الفلاسفة الماديين والإلهيين ، وكلتا الطائفتين تذعنان بضرورة العلة الأولى ، إلاّ أن نقطة الخلاف هي أن الإلهيين يرون أن العلة الأولى حكيم مدبّر قادر ومريد هو الله سبحانه ، بينما يرى الماديون أن العلة الأولى لا عقل لها ولا وعي ولا إدراك ولا إرادة ، إذن فرفع اليد عن القول بالله لا يرفع الإشكال .

إن المادة متغيرة متحركة بحركة داخلية ذاتية ديناميكية ، والأزلي لا يمكن أن يكون كذلك ، إن المادة لا يمكن أن تجتمع ومعنى الثبوت الذاتي ، والثابت بالذات لا يمكن أن يكون متحركاً ومتحولاً .

إن الماركسيين المعترفين بأن المادة تنفي نفسها بنفسها (آنتي تز) كيف يجمعون بين هذا وبين أزليتها ؟ إن الأزلية تعني الثبوت الذاتي وامتناع الفناء في حين أن المادة في ذاتها ذات قوى واستعدادات نسبية تحيى وتموت ، إنّ الأزلية لا تلائم المادة في وجودها ولوازم ماهيتها ، أما الإلهيون فإنهم حينما يقولون بوجود أصل ثابت مطلق إنما يدّعون ذلك لوجود قابل للثبات والإطلاق بعيد عن خصائص المادة بالمرة ، لا للمادة غير القابلة بطبيعتها للبقاء والأزلية والدوام والتي لا تنفك عن الحركة والنسبية والمنافية بذاتها للكمال والإطلاق التام .

* * *

---

(١) لماذا لست مسيحياً : ص ٢٠ (بالفارسية) .

الموجود الفقير يحتاج إلى علّة

نحن حينما نقول : لا يمكن وجود موجود بدون علة ، إنما نعني ذلك الموجود الناقص الذي مصيره وبقاؤه بيد علته، لا كل موجود؛ حتى ولو كان واجداً لواقعيته من نفسه ولم يكن فيه أيّ ظاهرة من ظواهر النقص والمحدودية .

إن العلة الأولى إنما كانت علة أولى من حيث إن وجودها كامل غير محدود ، وغير متأثر بأيّ عامل من العوامل ، بل هو وجود غير مشروط وغنيّ عن كل علاقة ورابطة ، ولا أثر فيه للتغيير والتحوّل .

وليس معنى كون الله علة أولى غنياً عن علة أن يكون مساوياً لسائر الموجودات من حيث الحاجة إلى العلة ، ولكنه خرج عن قانون العلية استثناء وتخصيصاً ، إذ ليس هو معلولاً كي يحتاج إلى علة ، وليس حادثاً حتى يحتاج إلى محدث ، بل إنّ جميع الصور والظواهر والحوادث هي من ذلك الموجد الأزلي ، إنّ قانون العلية إنما هو نافذ بالنسبة إلى الموجودات المسبوقة بالعدم .

وكذلك ليس معنى العلة الأولى أنها هي التي أوجدت نفسها بنفسها ، وأنها هي علة نفسها ، إن سبب حاجة المعلول إلى العلة إنما يتبع نوع وجوده وكيفيته ، إن الموجود لا يحتاج إلى علة لوجوده بل إنما يحتاج إلى علة لكون وجوده متعلقاً ومرتبطاً بغيره ، وإلّا فإن الموجود غير المشروط وغير المرتبط

بغيره خارج عن شمول قانون العلية له .

إذن فلو كان هناك موجود غني عن العلة لكماله وغناه الذاتي ، فليست العلة هي التي جعلته في هذه المرتبة التي هو فيها ، وليس لأيّ علة أن تتدخل فيه ، إن العلة الأولى وجوده عين ذاته ، بخلاف ما وجوده إفاضة وعارية ، فإن التحول والخروج من العدم إلى الوجود هو الذي يحتاج إلى العلة .

وكيف لنا أن نتصوّر أن يكون الاعتقاد بوجود الله استسلاماً للتناقض ، بينما لا يكون تناقض في العقيدة بأن المعلول الماديّ بلا علة ؟! .

إننا نعيش في عالم كل شيء فيه في معرض التغيير والتحوّل والفناء ، والفناء والمقهورية مرتسمة على مظاهر جميع أجزاء هذا العالم ، إن الفقر والاستناد إلى الغير متأصل في أعماق أنفسنا وجميع موجودات الأرض والسماء ، وقد أحاط بجميع وجودنا ، إذ ليس وجودنا أزلياً ، ولم ينبع وجودنا من ذاتنا ، لم نكن ثم ألبسنا لباس الوجود فوجدنا ، ولا شك أن هكذا موجودات لا بدّ لها لتسلك سبيلها إلى الوجود أن تتعلق بأذيال واهب الوجود .

أما الأزلي الأبدي واجب الوجود الذي وجوده من نفسه لا من غيره ولا أول ولا آخر له فلا حاجة له إلى علة .

إن معنى العلة في الفلسفة هو الذي يأتي بشيء من العدم إلى الوجود ويهب الوجود لشيء بعد العدم ، والعلل المادية لا قدرة لها على هذا ، ولا دور للمادة سوى أن تلبس صورة جديدة بعد أن تفقد صورتها الأولى ، صحيح أن الموجود الماديّ حسب التحوّل الذاتي يجد في كل لحظة هوية جديدة مختلفة عن السابقة ، إلاّ أن هذه الحركة الذاتية (الجوهرية) والحدوث والزوال المستمر على المادة تبين حاجتها الدائمة إلى يد محركة هي التي أثبتت سنابل الوجود وهي التي تسير بقوافل الوجود .

* * *

تتبع سلسلة العلل

لو أصرّ الماديون على إنكار الحقيقة ، ولجأوا إلى مغالطة أخرى وقالوا : نحن نختار أن لا نتوقف في سلسلة العلل ونتتبعها إلى ما لا نهاية ، وندافع عن تسلسل العلل .

للإجابة على هذه المغالطة نقول : إن تحليل وجود العالم بهذا الأسلوب ، هو الاستسلام لسلسلة العلل والتقدم معها إلى ما لا نهاية ، وكل معلول فاقد للوجود بحكم كونه معلولاً ولا وجود له بلا علة موجدة وهكذا . . .

إذن فكل جزء من أجزاء هذه السلسلة المحكومة بالحاجة. والفقر كيف يخرج من العدم إلى الوجود ، ومن أين جاء وجود هذه الأشياء التي هي مظاهر الحدوث والعجز ؟ وكيف وجد أكبر مجموعة من الموجودات على أثر اجتماع الأعدام المتسلسلة إلى ما لا نهاية ؟ ، فهل يمكن أن تولد الحياة من اجتماع عوامل الموت المتعددة إلى ما لا نهاية ؟ .

في حين أن هذه السلسلة اللامتناهية مهما تقدمت فهي بحكم كونها معلولات لا بدّ أن تتصف دائماً بصفات الفقر والحاجة والحدوث، وأن سلسلةً لا ينبع الاستقلال والغنى من نفس طبيعتها لا تلبس ثوب الوجود إلَّا أن تنتهي إلى الغني بالذات المطلق وهو الوجود الإلهي الذي هو علة ـ إن صحّ التعبير ـ

بلا أن يكون معلولاً ، وأن نظام الموجودات لا يجد التفسير الصحيح من دون الاعتراف بوجود غير مشروط هو علة العلل ـ إن صحّ التعبير ـ وهو أساس وجود لجميع الموجودات .

افترضوا جبهة عسكرية في ساحة قتال ، مع العدوّ ، ولكن تأبى كل وحدة من الجنود أن تبدأ الحملة وكلما يأمر القائد وحدة قالت : لا نبدأ ما لم تبدأ الوحدة كذا ، وهكذا الوحدة الثانية والثالثة والرابعة إلى آخر الوحدات ، كلها تكرر هذا العذر ولا نجد بينها واحدة تبدأ الحملة بدون أيّ قيد أو شرط .

فهل تتحقق الحملة هكذا ؟ كلاّ قطعاً ، إذ كل منهم قد قيد نفسه بالآخر ، وواضح أن الحملات المشروطة ، لا تتحقق بدون الشرط والشرط نفسه لا يتحقق أبداً ، فلا إقدام قطعاً .

نحن لو تتبعنا سلسلة العلل والمعلولات فهي لاشتراط كل واحدة منها بالأخرى ، كأنما يسمع هذا النداء من أعماق وجودها تقول : ما لم توجد الأخرى لا ألبس ثوب الوجود أيضاً ، فكل هذه الوحدات مشروطات لم تتحقق شروطها ، إذن فلا تتمتع أيّ واحدة منهنّ بالوجود .

ونحن حينما نرى العالم مليئاً بالموجودات فلا بدّ أن يكون في العالم وجود علة غير معلولة أو شرط غير مشروط .

إن تلك العلة الأولى غنيّ بالذات عن جميع صور الموجودات قادر على أعجب الحوادث والمبتدعات ، خلاق فاطر أراد فخلق ، وهو الذي يهب الحياة لجميع أجزاء الوجود ، ويستمر بنظام الخلقة العظيم في سبيل تحقيق أهدافها .

إن أتباع المذهب المادي يحاولون أن يجدوا جواباً لحاجة العالم إلى الخالق ، بالقول بقدم العالم ، وبذلك يهبون الاستقلال للعالم ، بينما هم لا يجدون نتيجة مرضية بهذه المحاولة وهذا الأسلوب ، هؤلاء يتصورون أن

العالم إنما يحتاج إلى الخالق في بدء الخلقة ، وإذا قضيت هذه الحاجة فلا حاجة إلى الخالق بعد ذلك ويقف الله والعالم مستقلان أحدهما عن الآخر بلا حاجة بينهما ، ولذلك فهم قطعوا أنظارهم عن حاجة اللحظة الأولى للعالم إلى الخالق ، ويظنون أنهم بإنكار بدء الخلقة يحلون مسألة الخلقة والخالق ، وينحلون الغنى للعالم عن الله الخالق .

كلاّ ، بل إن كل لحظة هي بدء خلقة ، وكل ذرة من العالم في كل آن حادثة ، وإذا كانت الأجزاء في الحدوث في كل لحظة فالمجموع أيضاً حادث ، ولا صفة للمجموع مستقلة عن صفة الأجزاء .

إذن فنفس الحاجة التي كانت للعالم لحظة بدء الخلقة موجودة ومستمرة ودائمة حتى الآن وكل زمان ، ولا يمكن أن يستقل العالم عن الخالق بافتراض قدم العالم .

العلم يرد على أزلية العالم

كما أن الإنسان يفتقد قواه على مرّ الزمان وسينطفىء مصباح عمره يوماً ، كذلك العالم يسير نحو التحليل والفناء شيئاً فشيئاً .

لهذا لا يمكننا أن نحسب المادة جوهراً أزلياً بل لا بدّ من الإذعان بضرورة مخلوقية العالم ، بدليل أن الطاقات الموجودة في العالم تسير نحو الوحدة النوعية ، فالذرات تتبدل إلى طاقات ، والطاقات الفعالة إلى طاقات ساكنة غير فعالة ، وحينما تتبدل الطاقات إلى طاقات متساوية واحدة في النوع لا يبقى لها إلّا أن تبيت في سكون وسكوت مطلق .

إن الأصل الثاني من أصول (ترمود يناميك) والذي يعبر عنه باصطلاح (انتروبي الاستنزاف والبلى) يعلمنا أننا وإن لم نتمكن من تعيين تأريخ ظهور هذا العالم إلّا أن من المقطوع به أنه لا بدّ له من بداية ، إذ أن الحرارة في العالم في حالة تقلل وتضاؤل ، والعالم في فقدانه للحرارة كقطعة حديدية متوقدة لا تزال تفقد حرارتها تدريجياً في الفضاء حتى يصل اليوم الذي تتساوى فيه حرارة الحديد والفضاء والهواء والأجسام الأخرى المجاورة .

فلو لم يكن للعالم نقطة بداية لكانت الذرات الموجودة جميعاً قد تبدلت منذ سنين ممتدة في الأزل إلى طاقات ولكانت حرارة العالم قد انتهت منذ القديم جداً ، إذ أن المادة تتلاشى وتتبدّل إلى طاقات غير مرئية تالفة على

طول التحولات المستمرة والمتسلسلة ، بحيث لا يمكن بعد ذلك أن ترجع هذه الطاقات التالفة فتتبدّل مرة أخرى ، إلى مواد وأجرام متناسبة منسجمة مع عالم الوجود هذا .

إن الأصل المذكور يقول : إن الطاقات إذا أفادت عملها فلا ترجع إلى تفاعلاتها الكيمياوية مؤثرة أو متأثرة ، ومع العلم باستدامة التفاعلات الكيمياوية واستمرار الحياة على ظهر هذه الكرة الأرضية ، واستمرار إشعاع الشمس الذي يصل في اليوم إلى ثلاثمئة ألف مليون من الأطنان من الأسعار الحرارية ، بهذا كله يتضح حدوث العالم ويتبين .

إن موت السيارات والنجوم وانعدام الكواكب والنجوم والشموس ، كلّ ذلك دليل على ثبوت الحدوث والتحولات والولادة والموت للنظام الموجود ، ودليل على أن العالم يسير نحو الفناء والنهاية المحتومة .

وهكذا نرى أن العلوم الطبيعية تخرج المادة من خندق القدم ، وتثبت حدوث العالم، بل وتشهد بحدوث العالم في بداية معينة؛ ولا بدّ للعالم في بداية ولادته من قدرة خارقة مما وراء الطبيعة ، إذ في البداية حيث كان كل شيء بلا تفاوت فلا بدّ من إشعاع الحياة على العالم من خارجه ، وإلّا فكيف يمكن لمحيط فاقد لكل طاقة فعالة والذي يسوده السكوت والسكون المطلق ، أن يصبح منشأ النشاط والحركة ؟

يقول البروفسور (روايه) :

« لو كانت خلقة الكائنات نابعة من انفجار مهيب أولي ـ كما يدعي العلم البشري اليوم ـ فلا بدّ من القول بوجود وقود الانفجار وفضاء مطلق تحققت فيه مثل هذه الحادثة العجيبة ، وبعبارة أخرى يجب أن نفترض وجود المادة الأولى لجميع الظواهر في العالم من الطاقات والأنوار ومليارات الكواكب والسيارات والمجرات ، وهذه حقيقة غير قابلة للإنكار من الناحية العلمية والفكرية والروحية والمحاسبات الرياضية .

ولكن كيف قد أودع مصير هذه الظواهر المتناثرة في الفضاء على أثر ذلك الانفجار ، في دخيلة الجرم المعين ؟ ومن أين أتى ذلك الجرم وكيف تراكم بعضه على بعض ؟ فالذين يدعون المعرفة الكاملة بالعالم يعتقدون : بعدم ثبات أيّ شيء في العالم ، وأن كل شيء هو في حالة تغيير وتحول وصيرورة وخلقة ، وأن لا معنى للمادة بدون الروح ، وأن كل حركة حياتية في الأرض ـ مهما كانت صغيرة ـ فهي مقدرة تقديراً دقيقاً وظريفاً بحكمة مقتدرة عالية بحيث لا يمكن أن تحسب من باب الصدف قطعاً .

ولا يمكن تفسير هذه التقديرات الدقيقة تفسيراً معقولاً إلّا كما يقول (آنشتاين) : بالقول بوجود الإله العظيم ، فقط »[1] .

والميكانيك يقول لنا : إن الجسم الساكن ساكن دائماً ، وإذا أراد أن يتحرك فلا بدّ أن يكون متأثراً بقوة خارجة عن نفس ذلك الجسم ، وهذا قانون معتبر أصيل في عالمنا المادي ، ولذلك فنحن لا يمكننا أن نعتقد باحتمال الصدفة ، إذ لم يكن أبداً أن يتحرك أيّ جسم ساكن من دون تأثير قوة خارجة عنه ، فعلى أساس هذا الأصل الميكانيكي يجب أن تكون هناك قوة غير عالم المادة أوجدت المادة ومنحتها القوة والحركة ، فتشكلت وتنوعت وتفاوتت صورها .

ولأستاذ الفيزياء الاجتماعية (فرانك آلن) الشخصية العلمية البارزة استدلال جميل على وجود الله سبحانه حيث يقول : « حاول كثير أن يتظاهروا بعدم حاجة العالم المادي إلى خالق . والذي لا نشك فيه هو وجود هذا العالم وبإمكاننا أن نتصور لمنشأ هذا العالم أربعة فروض وحلول .

الأول : أن لا نحسب العالم ـ على الرغم مما سبق ـ إلّا طبقاً من الأحلام أو الخيال .

والثاني : أن يكون العالم وجد بنفسه من العدم بلا خالق .

---

(١) ألفا عالم في البحث عن الخالق العظيم : ص ١٥ (بالفارسية) .

والثالث : أن لا يكون للعالم بداية وأن يكون أزلياً .

والرابع : أن يكون مخلوقاً حادثاً مبتدعاً .

أما الفرض الأول فهو يستلزم افتراض عدم وجود أيّ مسألة للحل إلاّ مسألة ميتافيزيقية هي الضمير ووعي الإنسان ، والتي هي أيضاً على هذا الافتراض مسألة خيالية ووهمية .

وعلى هذا الفرض يمكننا أن نفترض القطارات الخيالية مليئة بمسافرين وهميين تعبر فوق جسور غير مادية مبنية من مفاهيم ذهنية على أنهر ووديان غير واقعية ! .

وأما الفرض الثاني يعني أن تكون المادة والطاقة منبعثة من العدم فهو أيضاً كالفرض الأول محال لا معنى له بحيث لا يستحق الملاحظة والعناية .

وأما الفرض الثالث يعني أن يكون العالم موجوداً من الأزل فهو يشترك مع افتراض الخلقة في نقطة هي : أن تكون المادة الميتة والطاقة المنبعثة منها أو الخالق موجودين من الأزل .

ولا يرى في أيّ واحد من هذين التصورين إشكال أكثر من نفسه في التصور الآخر ، إلا أن قانون (الترمو ديناميك) أثبت أن العالم لا يزال سائراً نحو حالة تصل فيها جميع الأجسام إلى درجة حرارية متشابهة ، ولا تبقى حينئذٍ طاقة تصرف ، وحينئذٍ تمتنع الحياة على هذه الكرة .

ولو لم يكن للعالم بداية وكان موجوداً من الأزل للزم أن يكون هذا الموت حادثاً قبل هذا ، في حين أن الشمس الساطعة والنجوم المضيئة والأرض النابضة بالحياة خير شهود على أن للعالم بداية زمنية حادثة بعد العدم ، وأن بداية ظهوره ، كانت لحظة خاصة من الزمان ، وعلى هذا فلا يمكن إلاّ أن يكون مخلوقاً ، ولا بدّ أن تكون هناك علة كبرى أولى أو خالق أبديّ عالم قادر أوجد هذا العالم »[1] .

---

(١) اثبات وجود الخالق : ص ١٧ (بالفارسية) .

محدودية الإنسان وعجزه

لو أمعن الإنسان النظر وعمق الفكر وأبصر الواقعيات بنظرة أوسع ، أدرك أنه لا ينبغي أن يحسب لقدراته وطاقاته وقواه حساباً أمام جغرافيا الوجود العظيمة ، وأن المعلومات التي حصل عليها الإنسان عن نظام الخلقة بمساعيه المتواصلة ليست إلّا في حدّ الصفر ، فإن العلوم وإن كانت قد تقدمت خطوات وسيعة إلّا أنه لا يمكن قياس ما لا نعلم بالذي تعلمناه بأيّ نسبة من مقدار أو عدد ، من يدري ـ مثلاً ـ لعل آلافاً بل ملايين من أنواع البشر أو أسمى منه جاءت إلى هذه الدنيا ومضت ، ولعل في المستقبل يكون هكذا .

إن الذي يسميه هواة العلوم اليوم علوماً ومعارف ويحسبونه مرآة لجميع الواقعيات ، إنما هو مجموعة قوانين تتعلق بناحية من نواحي هذا العالم ، ونتيجة كل هذا السعي والتجارب معلومات تلقي الضوء على نقطة معينة كشمعة صغيرة ضئيلة في ليلة ظلماء في وسط صحراء مترامية الأطراف لا يعلم منتهاها .

لو رجعنا ملايين السنين إلى الوراء لكان غبار الأوهام يغطي فضاء ذلك القديم ممّا يؤكّد الضعف البشري أمام عظمة جهاز الطبيعة .

ولعل ملايين السنين لا تشكل بالنسبة إلى مجموع عمر عالم الوجود إلّا

لحظة واحدة ، ومع ذلك فنحن بهذه المدّة نرد محيط العدم بالنسبة إلى الإنسان ، فإنه محيط مظلم لم يكن فيه من الإنسان أيّ عين أو أثر .

وعلى أيّ حال فلا علم لنا عن بداية مسيرتنا هذه ولا عن مستقبلها ، ومن جانب آخر لا يمكننا أن نصدق أن تكون شروط الحياة محصورة في هذه الكرة الترابية الأرضية ، في حين يرى كثير من العلماء اليوم أن منطقة الحياة أوسع بكثير ، وأن ملايين الكرات غير المعدودة التي يمكننا أن نراها ولو بالعين المسلحة هي في الشبه كنملة صغيرة .

يقول (كاميل فلا ماريون) العالم المعروف في كتابه في الهيئة الفضائية بعد افتراضه سفرة فرضية خيالية إلى العالم اللانهائي :

« ونتقدّم أيضاً بنفس هذه البسرعة وبدون تقليل سرعة الوسيلة الناقلة ألف سنة ، أحد عشر ألف عام ، مئة ألف سنة ، بسرعة ثلاثمئة ألف كيلو متر في الثانية ، مدة مليون سنة ، فهل نصل إلى حدود هذا العالم المرئي ؟ . . كلا ، فإن هناك فضاءً عظيماً مظلماً يجب أن نعبره ، وهناك أيضاً نجوم جديدة تضيء في نهاية السماء الأخرى ، نسير إليها فهل نصل إليها ؟ . . ثم مئات أخرى من ملايين السنين ، واكتشافات جديدة وعظمات جديدة ، وعوالم جديدة ، وكرات وأراضٍ جديدة وموجودات وأشياء جديدة ، ثم ماذا ؟ . . إن الأفق لا يغلق ولا سماء تمنعنا ، ففضاء دائماً ، ثم أين نحن ؟ وأي طريق نكون قد قطعناه ؟ كلّا نحن بعد في بداية الطريق بل في نفس نقطة البداية ، فكل مكان مركز هذه الموجودات ، وليس لدائرتها محيط متوسط .

أجل ، هذا هو العالم اللانهائي المفتوح أمامنا والذي لم نبدأ النظر فيه ، بل لم نره أبداً ! بل نتقهقر عنه خوفاً ونرجع من هذه السفرة بلا نتيجة متعبين ، أين نقع للاستراحة ؟ بإمكاننا أن نقع في مدة أبدية في دوامة غير منتهية لا نصل إلى قعرها ، كما لم نصل إلى قمم الجبال .

أينما نظرنا فالعالم إلى ما لا نهاية ، شرقاً وغرباً جنوباً وشمالاً ، إن دنيانا في هذه المجموعة اللانهائية كجزيرة في مجموعة كبيرة من الجزائر وسط محيط لا نهاية له ، وإن عمر البشرية جميعها بكل ما لها من زهو بتأريخها السياسي والديني ، بل وحتى عمر هذه الأرض بكل عظمتها لا تقابل إلّا لحظة من حلم عابر » .

إذا أردنا أن نعيد كتابة جميع العلوم والآثار التحقيقية البشرية التي كتبها ملايين العلماء في ملايين الكتب ، كفى لذلك أقل من ظرفية ناقلة نفط صغيرة من الدوّاة والحبر ، في حين أنه قد لا يكفي كل البحار لتنظيم صورة عن جميع الموجودات في الأرضين والسماوات فيما مضى ويأتي وجميع أسرار الوجود .

وكما يقول البروفيسور (روايه) : « من أجل أن تتكون لديكم صورة كاملة عن هذا العالم يكفيكم أن تعلموا أن عدد المجرات في هذا الوجود اللانهائي أكثر من مجموع الأتربة الساحلية في جميع سواحل هذه الأرض »[1] .

* * *

(١) آلفا عالم في البحث عن الخالق العظيم : ص ١٣ (بالفارسية) .

الخداع العلمي

يدعي الماديون أن ظهور المدرسة المادية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر له علاقة مباشرة بالتطورات العلمية ، وأن الديالكتيك ثمرة مقطوفة من شجرة العلوم .

إنهم يعدون كل فلسفة سوى الفلسفة المادية ، فلسفة وهمية غير علمية ، ويرون مدرستهم مدرسة علمية متطورة ، إنهم يرون أن الواقعية هي الإعراض عن حقائق الميتافيزيقا ، والبناء على أساس المنطق الحسي والتجريبي والفلسفة المادية .

إلّا أن هذه الدعوى ظنون متعصبة مبنية على نظريات لا دليل عليها ولا ثبات لها ، وأن مصطلحات من هذا القبيل نتائج أفكار أصبحت المادية مركز التفكير لها ، بحيث لا تنظر إلى شيء إلّا بقياسه إلى المادية .

لا شك أن الاعتقاد بوجود المعبود أحد المنابع العظيمة للثقافة والمعارف البشرية ، وأن معرفة الله كنظرة شمولية إلى العالم ، أوجدت تطوراً عميقاً في الأصول الاجتماعية ، وتغييراً أساسياً في أفكار الإنسانية في مختلف الأدوار ، ولا زالت طبقة وسيعة من العلماء يعتقدون بالأديان في عصر العلم والتكنولوجيا والفضاء ، وقد توصلوا إلى وجود الخالق ، ومبدأ الوجود من طريق المنطق والبرهان بعد القلب والوجدان .

ولو كان تفسير الماديين صحيحاً واقعياً ، ولم يكن عن فقر وضعف في معرفة تاريخ الفكر المادي ، للزم أن يكون بين العلم والمادية علاقة خاصة ، ولا تظهر في المحيط العلمي إلاّ العقائد المادية ، فهل أن الفلاسفة والعلماء في كل عصر كانوا ذوي نظرة إلحادية ومن أنصار المادية ؟ بل لو نظرنا في آثار وأحوال المفكرين محققين لظهر لنا أن معسكر الأديان لم يخل ، ولا يخلو من المفكرين الواقعيين والحقيقيين ، بل إن كثيراً من المفكرين وذوي الأصوات العلمية ومؤسسي كثير من العلوم والمعارف المعاصرة كانوا من حملة رايات التوحيد .

إن العقيدة المادية الإلحادية لا تتعلق بدور تطور العلوم وتقدمها وتكاملها ، بل إن الماديين كانوا يظهرون بإلحادهم أمام صفوف أهل الإيمان المتحدة من العهد الأول وفي طول التأريخ .

أصبح العلم اليوم عند الماركسيين العوام وسيلة للتضليل أكثر من أيّ شيء آخر وأكثر من أيّ جماعة أخرى ، هؤلاء الذين كان ينبغي لهم أن يجدوا السبيل بمساعدة الأضواء العلمية ، ويحققوا المسائل لينالوا فهم الحقائق بعيداً عن غبار العصبية والأحكام المسبقة المستعجلة وبإدراك عميق منطقي في طريق التحقيق فقط . . هؤلاء مصابون بالجمود والتقليد العقيدي ، وينكرون بكل غرور كل القيم الأسمى من العقل والتفكير ، ثم هم يباهون بإنكارهم هذا ! .

يقولون : جاء العلم فنسخ وجود الله ! وهذا الكلام أشبه بالشعار وهتافات المظاهرات الحماسية منه إلى المنطق ، إذ لا يكفي آلاف التجارب العلمية لإثبات عدم وجود أيّ عامل غير مادي للوجود ، بل إن العقيدة المادية عقيدة ميتافيزيقية ، إذ لا تثبت ولا تنفي إلاّ بالطرق الفلسفية ، إذن فلا يمكن بقبول المادية أن ننفي الميتافيزيقا ، وفي النهاية لا معنى لهكذا تحليل للمدرسة المادية ، فليس لها أيّ أساس علمي ، بل إن هذه العقيدة الظنية

ليست إلاّ تحريفاً للحقائق، وليس وصف هذه المدرسة بالعلمية إلاّ خيانة للعلم والحقيقة .

صحيح أن البشر لم يكن يعرف العلل والعوامل الطبيعية حتى يوم أمس ، ولم يكن يعرف كثيراً من أسرار الحوادث حوله ، إلاّ أن إيمانه لم يكن نابعاً من الجهل ، إذ كان من اللازم على هذا أن ينهار أساس معرفة الله مع كشف كثير من حقائق العالم ، بينَمَا نرى اليوم أن الاعتقاد بالمعبود أصبح يتجلى كثيراً بعد كشف كثير من أسرار الوجود .

إن العلم لا يضيء إلاّ فضاء محدوداً ، وإن النظرة العلمية إلى العالم معرفة جزئية لا كلية ، فإن العلم يعجز عن رؤية الصورة الكاملة للعالم ، ولكن المعرفة العلمية دقيقة وقوية ، ولذلك فإن معرفة الله كلما توسعت العلوم تكتسب صورة أكثر علمية ومنطقية ، حيث يزداد وعي الإنسان عن طريق معرفة الأسباب والعلل والمعاليل والحوادث ، فهو عند ذلك لا يتغاضى عن دور العامل الأصيل والعلة الأولى وراء هذه العلل والعوامل .

بل كما يقول البروفيسور (روايه) : « إن العلم البشري يعلن لأول مرة ـ لا عن عجز أو ضعف بل على أساس طريقته الدائمة يعني التجربة والتحقيق ـ أن لا وظيفة له سوى معرفة ذات الباري وتجلياته في عرصة الوجود ، ويجب أن يصرف كل تلك المساعي في سبيل تربية الإيمان العلمي والمعرفة المنطقية الصحيحة عن الصانع الكبير لهذا العالم ، وليس صحيحاً أن نقول إن العلم يصالح الإيمان أو العكس ، إذ أن جميع الكتب الدينية والأنبياء والمفكرين الدينيين يرون أن العقل أولى وأفخر موهبة إنسانية ، وقد دعوا البشر إلى الاستفادة الأكمل من معطياته .

هذه الدعوة هي التي عاق جهل الأكثرية والعصبيات غير الصحيحة والحساسيات الجوفاء طوال قرون مديدة عن ظهور تجليات استجابتها ، والآن حينما يرد الإنسان عصر العلم والعقل ويوسع مهما أمكن وسائله وإمكاناته في حياته ، يجب عليه أن يعتني بتربية الألباب والأفكار ، ويعنى

بالعلم الذي يقع مورد الاستفادة بالطريقة الصحيحة »[1] .

إن إنسان الأمس كان يرى لنفسه جسداً موزوناً ومتناسباً منسجماً ، ولكنه كان لا يعي من الأسرار المعقدة المودعة فيه ، ولكنه اليوم اكتشف معلومات محيّرة ووسيعة عن جسمه هذا الصغير ، وأنه قد اشترك في بناء جسمه هذا عشرة ميليارات من الخلايا ، بحيث لا يمكن قياس العظمة المدركة عن هذه الصناعة العجيبة بهذه المواد الغريبة .

هل من المعقول أن نقول إن الاعتقاد بالله يخص غير الواعين لكيفية خلقة الإنسان ، أما العالم الخبير بالعلل والعوامل الطبيعية للخلقة وتطور الإنسان ، والذي يعلم بسيادة القانون والمحاسبات الدقيقة في جميع مراحل الوجود ، أما هذا فيجب أن يعتقد بأن منشأ قوى الطبيعة المحيرة إنما هي المادة غير الشاعرة وغير المدركة ؟ .

فهل أن هذه الاكتشافات والثقافات هي التي بلغت بهذا العالم مرحلة من التفكير يرى فيها خالقه وجميع الموجودات مادة غير عالمة وغير مدركة ؟ إن الثقافة المادية التي لا تنظر إلى العالم إلا بعين غير مبصرة تبقي لنا كثيراً من السؤالات بلا أجوبة .

إن العلماء الإلهيين أبدوا أن الوجود أوسع من دائرة المادة ، وأن عالم الموجودات غير المادية أغنى وأوسع بكثير من دنيا الماديات ، إن هؤلاء بينما هم يذعنون لنظام الطبيعة يعتقدون بالتالي بصورة من الوجود المجرد عن المادة لا يعرف بالعلوم التجريبية وإنما تحكي قوى وظواهر وحوادث الطبيعة عن حقيقة ذاته ، فهل أن هذه الفكرة التوحيدية دليل على فقدان هذه المدرسة للجانب العلمي ؟! .

إن العلم لا إجابة له على مسائل من قبيل : هل أن العالم ينقسم إلى المادة والمعنى ؟ أو هل أن للعالم هدفاً ؟ إذ ليست هذه الأسئلة علمية

---

(١) ألفا عالم في البحث عن الخالق العظيم : ص ٢٢٩ (بالفارسية) .

بالمعنى المصطلح ، ثم إن المعرفة العلمية إنما تخبرنا عن بعض ما هو موجود ؟ ولا يمكنها أن توجهنا وجهتنا الصحيحة في الحياة ولا قدرة لها على إلهامنا بالطريق الأصوب الذي يجب علينا أن نختاره .

ويقول (برتراند راسل) : « لو كانت الحضارة العلمية حضارة مفيدة للزم أن يزيد عقل البشر مع زيادة العلم وتقدمه ، وأعني من العقل إدراك غايات الحياة ، وهذه ثمرة لا تأتي بها الحضارة الحديثة، إذن فتقدم وزيادة العلوم وإن كانت ضرورة لتقدم الإنسان ، إلّا أن العلوم نفسها لا تضمن التقدم الصحيح للإنسان »[١] .

إذن فالمعرفة العلمية لا تستطيع أن تصبح مستنداً لأيديولوجية إنسانية ، إذ المعرفة العلمية لها قيمة علمية أكثر من أن يكون لها قيمة عملية أيديولوجية ، وهي تسلط الإنسان على الطبيعة وتمكنه منها ، في حين أن الذي يمكنه أن يكون مستنداً للإيمان والعقيدة هي القيمة النظرية الواقعية لا العلمية فقط .

إن العلوم مبنية على التجارب والملاحظات والتحقيقات ، والقوانين المستندة على التجربة متزلزلة متغيرة وغير ثابتة ، في حين أن الإيمان بحاجة إلى مستند له صفة الدوام والخلود بعيد عن التزلزل والتغيير ، ويكون بإمكانه أن يجيب على الأسئلة المطروحة عند التفتيش عن النظرة الشمولية للعالم والتي تتعلق بماهية وصورة مجموع العالم ، إجابة خالدة معتمدة ، تقضي حاجة الإنسان إلى التفسير العام للوجود .

إن الإنسان الكامل ، يحتاج إلى الاعتدال الفكري والروحي ، وإذا لم يكن له هدف معين ضاع وهلك ، إنه إن لم يجد الهدف من طريق المذهب والدين ذهب ليختار لنفسه هدفاً من صنع نفسه ، وهذا خروج على نظام الطبيعة ويؤدي إلى جمود في الفكر .

---

(١) رؤية علمية للكون (بالفارسية) .

إن الاكتشـافات العلميـة في العصر الحـاضر جعلت الإنسـان يعتقـد بالقوانين والأنظمة الحاكمة على العالم ، ثم أفرط في هذا حتى أذعن للعنصر المادي نفسه بـالأصالـة والحاكميـة ، ورآها أنهـا هي الأزلية واعتـرف عملاً بألوهية وقاهرية الطبيعة أو التأريخ ، ووصف الإنسان بأنه مكتوف الأيدي أمام جبر الديالكتيك ، ولا اختيار له أمام ذلك .

والآن ومـع التقدم التـدريجي للعلوم تتجه المعـرفة والنـظرة العلميـة الشمولية للعالم نحو الوحدة التوحيدية ، وتتقارب الـظواهر والحـوادث التي كانت تبدو للنظر غير مرتبطة ، وترتبط برباط واحد وتـرجع إلى منشـأ واحد ، وبالتالي تعقد العلاقة بين الظواهر المختلفة والمتناثرة. وحينما تلاحظ الفاعلية من منبع واحد تفسر جميع الـظواهر بـالإرجاع إلى ذلـك المبدأ ، وحينـذاك تنتهي جميع الظواهر مجتمعة حول ذلك المحور والمركز وترتوي في وجودها منه .

دوافع الإنكار واللادينية

يحاولون في كتب تأريخ الأديان أن يتعرفوا على العوامل التي دفعت الناس إلى الأديان ، إلّا أنها محاولة ناقصة قاصرة عن الوصول بأصحابها إلى الواقعية من هذا الطريق ، إذ مع النظر إلى الفطرة التوحيدية ، أي الصفة الوجودية المميزة لنوع الإنسان التي لها المكانة الخاصة بين سائر الصفات الإنسانية من الفكر والإرادة ، والاستعدادات المتقابلة ، مع النظر إلى هذه الفطرة يجب التوصل إلى العوامل التي سببت أن يسحق الإنسان فطرته بقدمه وينقطع عن الأديان .

إن العلاقة الدينية مسألة طبيعية ، والمادية هي المخالفة للفطرة ، وإن كان الإنسان إذا لم يتوصل إلى الإله الحق ، فلا بدّ أن ينحت لنفسه إلهاً حتى ولو كانت هي الطبيعة غير العاقلة أو جبر التأريخ ، وبالتدريج يملأ هذا الإله الباطل مكان الإله الحق في شمول ونفوذ الأحكام والقضاء والهداية وإراءة الطريق .

هذه هي معاملة بيع الإله الحق والخضوع لعبادة الأصنام والأوثان القديمة أو الحديثة ، فيضحي الإنسان بالإله الحق أمام أقدام آلهة التأريخ مثلًا بكل قسوة ، ويبدل الجوهر بالعرض أو الزخرف ، ومع الأسف نرى أن جماعة من الحقراء يخضعون أمام عتبة الوثن المنحوت بيده بوصفه بالأوصاف

الإلهية ، ويعرضون بوجوههم عن الخالق الذي لا شريك له ، ويشترون لأنفسهم عار هذه العبودية المصطنعة .

وحينما نتفرغ لملاحظة المسألة بدقة نرى أن ظهور المادية في أوروبا كمدرسة وقطع علاقة الإنسان بالحقيقة المطلقة وإطلاق العنان للمادة واختيار العلم بدلاً عن الدين ، كل ذلك كان على أثر دوافع تأريخية واجتماعية ، وهو نتيجة لتلك الدوافع تحقق في الغرب .

إن من العوامل التي أوجدت ردود فعل وسيعة في أوروبا سببت إعلانها الحرية عن الدين والدعاية ضده ، هو الضغط المحطم الذي أبداه علماء المسيحيين في مطلع النهضة الصناعية الحديثة ، على العلماء الصناعيين الذين أبدوا عقائد وآراء علمية حديثة مخالفة لآراء علماء المسيحية .

إن الكنيسة كانت تتقيد ـ بالإضافة إلى العقائد الدينية الخاصة ـ بسلسلة من الأصول الموروثة عن الفلاسفة القدماء اليونانيين وغير اليونانيين بالنسبة إلى الإنسان والعالم إلى جانب أصول عقائدهم الدينية ، فإذا رأت نظرية غير منسجمة مع الكتاب المقدس والأصول الأخرى المسلمة والمقبولة ، كانت ترى صاحبها مرتداً عن الدين وكانت تعاقب صاحبها بشدّة .

ومن هذه المضادة الظاهرة بين العلم والدين في المحافل العلمية والدينية ، ظهرت مخاصمة بين الطرفين ، فكانت طبقة العلماء والمثقفين ترى أن الكنيسة تأسر الفكر والعقل وتمنع الفكر الحرّ عن الحرية في الفكر ، وبالتالي خلق النظام الفكري الجامد ضدّ العقل جوّاً مسموماً لإنسان العصر الحديث ، وطرد أصحاب الفكر إلى زاوية الخمول والأفول ، هذا الضغط المتراكم جرّ في النتيجة ردود فعل شديدة شملت كل أرجاء أوروبا ، وحينما زالت سلطة الكنيسة وارتفع الظلم وتقشع السحاب أجاب العقل الغربي على تلك المضايقات الماضية بردّ فعل عنيف ، بعد أن استعاد حريته المفقودة في عهد الاختناق ، فقد فك المثقفون ربقة الدين القديم عن أعناقهم وأعرضوا

عنه ، وتبلورت العصبيات والأتعاب المضنية إلى أمواج عظيمة من مكافحة الأديان وبدأت أزمة دينية حادة وانجرت إلى المفارقة بين العلم والإيمان !

هذه المحاولات الانتقامية غير المنطقية سببت أن يصل التشكيك حتى إلى المسائل السماوية الأصيلة وحتى حقيقة وجود الله ! .

صحيح أن بعض التعليمات المنسوب إلى الدين كان غير منطقي بل لا أساس له ولا صلة بالمعارف الدينية الأصيلة ، إلاّ أن الانتقام من الكنيسة شيء والحكم المستعجل الخاطىء بشأن الأديان بصورة عامة شيء آخر ، وقد سقطت المحاسبات العلمية في هذه العمليات الانتقامية والجوّ السائد إنما كانت العواطف والأحاسيس الجياشة فحسب .

وهكذا ازداد الفقر المعنوي لدى الإنسان بنسبة متعاكسة مع تقدم العلوم والتكنولوجيا،وكلما تقدم الإنسان في صعيد الصناعات تقهقر في ساحة الأخلاق والمعنويات ، ولم يتمكن من أن يكتسب المعنوية اللازمة من نفس هذه العلوم والمعارف .

إن العلوم بنفسها ليست ذات جبهة خاصة بالنسبة إلى القيم والمعنويات ، فلا يمكننا أن نعين وظيفة الأفراد المسؤولين بالمراجعة إلى العلوم الصناعية ، إن العلوم مهما تقدمت لا تضيء حتى قدماً واحداً أمامها .

إن المعارف البشرية لا تستطيع أن تصل إلى حقيقة هذا العالم ، ولا تتمكن من التنبؤ بمصير الإنسانية في المستقبل .

هذه هي المعرفة التوحيدية التي لا تقتصر في جوانب حياة الإنسان على الحياة المادية فقط ، بل تعين لحياة الإنسان مبدأ وغاية سامية ، وإذا وضع الإنسان نفسه على صراط التوحيد ، توصل إلى إطار في النظرة الشمولية إلى العالم ، يجيب على أسئلته الاستطلاعية والأساسية ، وتجد حياة الإنسان لونها وصبغتها وقيمها الأصيلة بكامل تجلياتها بهذه العقيدة الشاملة .

هذا عامل من عوامل الإنكار واللادينية .

وجماعة آخرون استقالوا من الأديان ولجأوا إلى أحضان المادية لأن الكنيسة كانت قد أبدت لهم مفاهيم غير صحيحة فاقدة لقيمها العالية بشأن الخالق ، بحيث كانت هذه المفاهيم وبهذه الأساليب غير مقبولة ولا مقنعة لدى الأذكياء ، إذ كانت الكنيسة تعرف الخالق في صيغ مادية إنسانية ، في حين أن الإنسان كان يفتش عن القيم المطلقة في الخالق ، وأن يصعد من هذه الآفاق المحدودة في نفسه .

ولا شك في أن الحقيقة المسلمة لو طرحت على الأذهان بصورة قصصية ناقصة ، وبلغ الإنسان إلى مستواه العالي من الفكر والعلم ، كان لتصوره عن تلك الحقيقة آثار سيئة .

إن المثقفين على أساس تصورهم الخالق والدين ، كما في الإلهيات المسيحية ، وأن الإيمان مقدم على العقل ، وأن على أتباع الأديان أن يؤمنوا قبل أن يتعقلوا ، كانوا يدركون أن هذه النظريات الدينية المحدودة والضيقة وحصر الحكمة والعلم في إطار الإلهيات المسيحية لا ينسجم مع العقل ، وحيث لم يكن لهم سوى جهاز الكنيسة والكتب المحرفة ملجأ واقعي وصحيح للتعرف على المعارف الإلهية والتحقيق حول هذه المسائل ، ولم يستطيعوا أن يتوصلوا إلى نظام أسمى ، يتمكن من أن يؤمّن حاجاتهم المعنوية بالإضافة إلى حاجاتهم المادية ، ويقدم لهم إطاراً متناسباً لجميع عناصر الحياة المادية والمعنوية ، العاطفية والفكرية . . حينذاك نشأت لهم النظرة المادية في أفكارهم ونمت وانتهت بهم إلى إنكار القيم السامية غير المادية مما وراء الطبيعة .

من دون أن يلاحظوا أن الدين إذا وقع في مسير الجهل لم يتقدم إلا إلى الخطأ والغلط ، في حين أن الدين الصحيح البريء عن شائبة الموهومات والخرافات والتحريفات بإمكانه أن يحرر الإنسان من قيود الخرافات والأساطير ، وأن يثبته على محور العقيدة والصورة والمفاهيم

الصحيحة من المعارف الإلهية ، بحيث يعطي الإجابات الصحيحة لأهل التحقيق، ويصحح الأفكار والأخطاء بدلائل مقنعة وكافية؛ إلا أن هؤلاء حينما لم يروا الصورة الخرافية للدين الباطل مبنيّة إلّا على أساس غير منطقي ، لم يترددوا في عبثية البرامج الدينية ، ولهذا وعلى أساس هذه المسبقات الذهنية السيئة التي كانت لديهم عن الدين جلسوا يحكمون على جميع الأديان والمذاهب ! في حين أن ردّ أساس الأديان والمذاهب على أساس هذه الأحكام المستعجلة غير الواقعية خطأ وبعيد عن العقل والمنطق أيضاً .

يقرر هذه الواقعية (والتر اسكار) العالم الفيزيولوجي والبيوكيميائي يقول : « إن عدم التفات بعض العلماء في مطالعاتهم العلمية إلى إدراك وجود الله ، له عوامل متعددة نذكر منها عاملين :

الأول : إن الأوضاع السياسية الاستبدادية ، أو الأحوال الاجتماعية ، أو الإجراءات الحكومية ، غالباً ما تقتضي إنكار وجود الصانع سبحانه .

الثاني : إن الفكر الإنساني يتأثر حتى بالأوهام ، وحتى لو لم يكن الشخص تحت وطأة عذاب جسمي أو روحي مع ذلك لا يكون حرّاً كامل الحرية في اختيار وانتخاب الطريق .

أكثر الأطفال في العوائل المسيحية في أوائل أعمارهم يؤمنون بوجود إله شبيه بالإنسان ، وكأن الإنسان مخلوق على صورة الله ، هؤلاء حينما يدخلون المحيط العلمي ، ويشتغلون بتحصيل المسائل العلمية والتمرين فيها، لاينسجم هذا المفهوم الإنساني الضعيف عن الله مع المفاهيم العلمية والدلائل المنطقية ، وبعد مدة حينما يفتقد أمله في أيّ انسجام يخرج فكرة الله عن ذهنه .

والعلة الأساسية هي أن الدلائل المنطقية والتعريفات العلمية لا تتمكن من أن تغير المعتقدات السابقة عند هؤلاء، ومن جانب آخر يدرك أنه أخطأ في إيمانه بالله ، بالإضافة إلى عوامل أخرى نفسية تجعل الشخص يستوحش من

نقص هذه المفاهيم الدينية فيعرض وينصرف عن معرفة الله »[1] .

ولهذا حاول العلماء الصناعيون من هذه الطبقة أن يجدوا الحلول العلمية كبديل لكل مورد من مسائل الوجود والخلقة التي يمكن أن يأتي فيها ذكر عن الله أو الدين ، بل لم يتركوا أيّ محل لذكر الله أو الدين ، وتصوروا أنهم بهذا يقطعون أمل الناس في الأديان ، ويخلعون الله ويجردونه عن أيّ تأثير في نظام الطبيعة أو دوران العالم .

وحينما يصلون إلى البوابات المغلقة يحاولون حلّ المشكلة بالفرضيات المختلفة أو يحيلون الحلّ القطعي على المستقبل والتحقيقات الآتية ، هكذا امتنعوا عن أن يستسلموا للخرافات والأمور غير العلمية ، وهكذا خرجوا من ظلمات الشرك ولكنهم دخلوا إلى خنادق الإلحاد والزندقة ! .

إن معرفة الله والعقيدة بالمبدأ ، وإن كانت مسألة فطرية طبيعية ، ولكن حيث إن ضرورتها ليست كضرورة لوازم الحياة المادية التي يسعى الإنسان دائماً في سبيل تحصيلها ، بل هي حاجة فكرية متمايزة عن الحياة المادية ، وتستلزم دقة وعمقاً في النظر ونفوذاً إلى جذور الأمور وتحقيقاً في مسائل الوجود ، ولكل إنسان أن يدرك ذلك في ظل التدبر في حقائق الأمور . . وبالتالي فلا تشابه من حيث الماهية بين هاتين الحاجتين : المادية والفكرية .

ومن ناحية أخرى : حيث إن إنكار فكرة الموجود غير المرئي الذي لا يمكن أن يوصف وصفاً مادياً بليغاً ، أيسر من الاعتراف به ، ولذلك فالذين لم تستعدّ أذهانهم لقبول هذه الفكرة ، ولا سيما حيث تخللت أرضية معرفة تلك الحقيقة غير المرئية بعلل مختلفة ، وبالأخص حينما يتكاسل الإنسان عن تحمل عناء طيّ الطريق الفكري إليها ، يلجأ إلى الطريق الآخر الأيسر سلوكاً والذي لا قلق فيه ولا اضطراب (بالنسبة إلى الاضطراب الفكري الديني المسيحي عن الله) فيتجه نحو الإنكار والإلحاد ، مسيرة لا يحسّ فيها

(١) إثبات وجود الخالق : ص ٦٠ (بالفارسية)

بأيّ ضرر وخسران بحسب الظاهر ، وبالابتعاد عن مسألة فكرة الله يتجه نحو العناد والخصام والعصبية .

ويمكننا معرفة عمق هذا الاتجاه بالمطالعة في التفسيرات الكونية الحاقدة لهؤلاء المعرضين عن الدين . .

ولا يمكننا أن نغضّ الطرف عن أثر تلقينات الجهلاء المتنسكين اللامنطقيين في دفع جمع من الناس لاعتناق فكرة المادية .

إن الغرائز التي تبدأ مع الحياة الطبيعية للإنسان وهي معقودة مع موجوديته ، ليست غير عبث فحسب، بل هي قوى مصيرية وعوامل حركة ونمو تدفع الإنسان نحو الهدف من خلقته ، والمهم أنه كما لا يصح للإنسان أن يصبح عبداً أعمى لغرائزه كأسير يتحكم السجّان بوجوده وحركاته واختياراته ، كذلك لا يصحّ له أن يحارب واقعه المتحكم فيه فيوقف كل حركة أو محاولة لغرائزه ، بل إن إنتاج الطبائع الإنسانية يتوقف على فعاليتها في الإنسان ، ولكنّنا يجب أن نعتدل ونتوازن في تراكيبها وأعمالها ، وإلاّ فإن كبت الغرائز يولد العقد ويحطم الشخصية البشرية .

إن النظرة العامة السائدة على الكنيسة في القرون الوسطى كانت هي الاتجاه المطلق إلى الآخرة وهذا يعني خواء العالم المادّي ، وانظر ما هي النتائج فيما إذا لم نحسب الغرائز غير أصيلة فحسب بل عقدنا العزم على إماتتها ، وقدّسنا الرهبنة والتجرد ، وحسبنا الزواج وتشكيل الأسرة ـ التي بدونها لا يبقى النسل ـ رجساً نجساً ، والفقر والإعواز سعادة ، كل ذلك باسم الله والدين ! ثم ما هو دور مثل هذا الدين في البناء والتعمير للإنسانية ؟! .

إن رسالة الدين ودوره هو الإصلاح وقيادة غرائز الإنسان ، وتحديد مساحتها ، وتنزيهها عن الاعوجاج والانحراف والإفراط ، وليست رسالة الدين كبت الغرائز ومحوها .

إن الإنسان بضبط غرائزه،والحركة المستمرة باتجاه التحرر من قيودها

تمكن الإنسان من أن يصنع مصيره الهادف بيده وإرادته واختياره ، وإلاّ فإن شدة التنازع الغريزي في طبيعة الإنسان بدرجة لا يتوفق معها بسهولة ويسر لتسخيرها دون أن يتمتع بتربية شاملة .

إن الإنسان متأثر بالجاذبية الدينية من ناحية بحيث ينقاد باطنياً للدين ويمسك بأمره بأزمة قواه المختلفة ، ويسوقها باتجاه الخير والصلاح . . ولكنه من ناحية أخرى يتأثر بالغرائز أيضاً بشدة .

إن المجتمع الذي يلقن فيه الناس باسم الله والدين : أن سبيل سعادتكم إنما هو في الإعراض عن المواهب الدنيوية ، فمن الطبيعي أن يضغط الإنسان بطبعه فيفتح طريقه إلى المادية والقيم المادّية ، ويدع المفاهيم الدينية السامية بجميع أبعادها جانباً .

في حين أن منطق الدين ليس هذا ، بل إن الأديان الحقيقية تنجي الإنسان من أسر رقّيّة النفس وعبودية المادة ، وتوسع دائرة رؤيته إلى عالم الملكوت من طريق توجيه الإنسان إلى القيم المعنوية الأصيلة ، على أساس الإيمان بذات الخالق والتعاليم الشاملة للدين والدنيا ، والتي تبيح له في نفس الوقت سهماً وافراً معقولاً من اللذائذ المادية .

ويتصوّر البعض أن الحرية فيما منع في الدين سعادة ، وأن الدين قد حارب جميع اللذائذ ولم يتبسم لها أبداً ، وأن الله خيّر الإنسان في واحدة من اثنتين من اللذائذ : إما الدنيا وإما الآخرة .

في حين أن هذا التصوّر عن الدين تصوّر ضال مضل ، ولا يطابق الواقع .

إن السبب في تدخل الدين في تعيين اتجاهات الإنسان هو أن الحرية في اللذة والاستسلام للطبيعة والشهوات النفسية من دون أيّ قيد أو شرط ، والتحرك والسلوك وفقاً لأوامرها يسبب تعاسة الحياة وعبودية الإنسان من حيث لا يشعر، بحيث ينتهي إلى السقوط من مقامه الواقعي ويبتعد عن طريقة الحق

على الرغم من طبيعته الطاهرة ، ولو لم تكن هذه المحرمات موجبة لسقوط الإنسان وشقائه الأبديّ لم تحرم ، بهذه الرؤية يمكن إدراك حكمة المحرّمات ، وكذلك سر انسجام سعادة الدنيا مع الآخرة .

كذلك الأمر بالنسبة إلى تكاليف الواجبات ، فإن وجوب العبادات والمساعي المخلصة غير المرائية محاولة لتغيير الإنسان ، لا للتقليل من لذّة الإنسان وسعادته الدنيوية .

إن العبادة تموج في المياه الراكدة في قلب الإنسان ، فإنها تغير موازين القيم والطبائع الإنسانية ، بل هي حجر زاوية عليها يستقر أساس الدين ، وأعمال تمرينية تربوية مثمرة تنفذ إلى أعماق روح الإنسان ، وإن لها حدة تقطع جميع حبائل الفساد والدناءة الذاتية ، وتعرج بالإنسان إلى الرحاب الطاهرة الخالدة ، وتمكن الإنسان من النمو والتطور الروحي والمعنوي ، ولا تناقض بين المعنويات ومسائل الحياة ، بل يستتر في المعنويات وسائل الانسجام لحياة سعيدة .

ولعل التعاليم المسيحية الناقصة هي التي أثرت في اتجاه أمثال (راسل) المادي المضادّ لله حتى أنه يرى أن الدين والعقيدة بالله تسبب شقاء الإنسان وتعاسته ! حيث يقول :

« إن تعاليم الكنيسة تجعل الإنسان بين شقاءين وحرمانين : إما شقاء الدنيا والحرمان من نعيمها ، أو الشقاء والحرمان من الآخرة والحور والقصور ، إن الكنيسة ترى أنه لا بدّ للإنسان من أن يتحمل أحد الشقاءين : إما أن يرضخ لشقاء الدنيا والانزواء فيها والحرمان منها فيتمتع بإزائها بعالم الآخرة ولذائذها، وإن أراد أن يتمتع باللذات والنعم في الدنيا فعليه أن يتقبل الحرمان في الآخرة » .

إن شيوع هذه الأفكار التي تحكي عن عدم الوعي العميق في الرؤية الدينية ، تعين مصير الدين في هذا القرن .

إن الأثر الذي خلفه هذا التصوّر عن الدين على أعمال الإنسان وأفكاره أعمق بكثير من أن نتجاوزه بنظرة عابرة . هذه الرؤية سببت اتجاه الإنسان إلى الماديات من حيث يشعر أو لا يشعر ، وعلى أثر الاتجاه المطلق إلى اللذائذ انهارت أسس المعنويات والأخلاق .

وليس الإنسان في الدين محكوماً بتحمل أحد الشقاءين ، بل من الممكن له أن يجمع بين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، ولماذا لا يريد الله ذو الرحمة الواسعة السعادة الكاملة الشاملة للدنيا والآخرة لعباده ؟ بل إنه يريد ذلك قطعاً .

والدافع الآخر لتوسعة التفكير المادي هي الشهوات والهوى فكما أن كل رؤية فكرية تصبح أساساً للعمل ، والنظرة العقائدية هي التي تشكل خط سيره في الحياة ، كذلك العمل والأخلاق يؤثران في التكييفات الذهنية بل تغيير أساس تفكيره .

إن الإنسان الشهوي يفقد بالتدريج أفكاره الإلهية السامية ، إنه حينما اختار لنفسه محوراً عملياً غير الله وأخذ يفكر في انطلاق ما في العالم ولم يتقبل بل لم يتفهم الهدف والغاية من الخلقة ، انطلق يستعمل كل فكره في سبيل اكتساب اللذات والشهوات ، وفي هذا السقوط المهين تجف جذور روحه المتجهة نحو الكمال أيضاً .

وكذلك العقيدة بالله كمثل بذرة تحتاج إلى أرضية مساعدة لنموها ، وإنما تتفتح البذرة في محيط طاهر ، محيط يتمكن فيه الإنسان أن ينال كماله السامي بسرعة وسهولة في إطار خاص ومع تعيين خطوط أصلية ، إن العقيدة بالله فيما إذا كانت في بيئة غير مساعدة يشمل فيها الفساد ويتسع ، لا تثمر شيئاً .

إن ضجيج الحياة وصخب الماكنات الصناعية ، ووفرة الثروات والقدرات والجمال والكمال الخلاب المغرر ، وتنوع الوسائل للشهوات ، قد

أغفل البشر حتى أنساه نفسه . . حتى جعل يحاول بكل قواه كي يبعد نفسه عن الدين والديانة ومسائلها ، وأخذ يأبى الرضوخ لأيّ منظم لحياته دون إرادته ، ولا سيما منظم باسم الدين يقف سداً منيعاً دون هواه ومقاصده التوسعية من دون أن يحمل معه لصاحبه مصلحة مادية ملموسة ظاهراً .

وعلى هذا فلا يبقى من الدين في محيط لا يخضع فيه الناس لأيّ ضوابط أو قيود دون الانغماس في المعاصي واللامبالاة والفساد ، إلّا الأسامي والرسوم ، وإن الذين يسعون وراء اللذة المادية لا يوحدون الله ولا يعبدونه ، فإنه إذا شغلت إحدى هاتين الفكرتين المادية والإلهية فضاء التفكير في الإنسان أخلت الفكرة الثانية مكانها ومضت لشأنها ، فإما أن تطرد الأخلاقية المادية روح عبودية الله في الإنسان وإما أن تكون عبودية الله هي التي تحكم وجود الإنسان، ومع كبح هوى النفس والمساعي المستمرة للارتقاء إلى مستوى الأهداف الإلهية يطرد الإنسان اتجاهاته المادية ، وبذلك يحقق في نفسه النموذج الكامل لتحرر الإنسان من أسر الطبيعة .

وكلما كان هدف الإنسان أرفع وأبعد ، كان الصعود إليه أعلى والسعي أكثر وأطول ، فلو اخترنا الله هدفاً كان أعلى الأهداف وكان طريق الوصول إليه خالداً بيناً مستقيماً ، وكان بإمكان هكذا هدف أن يجيب على كثير من المسائل والمشكلات ، وتتحقق الحرية في ظل كبح النفس .

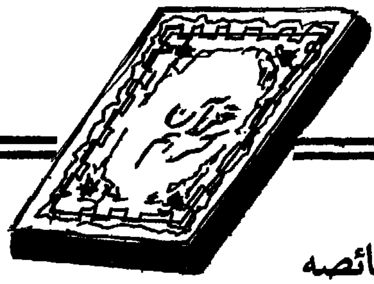
لو قبلنا الله هدفاً وجدنا الانسجام بين التكامل والحرية ، وتجد الأتعاب والمساعي التي يعملها البشر للوصول إلى الكمال معناها ومحتواها ومفهومها المعقول بعقيدة الحياة الأبدية والدوافع الإلهية ، إن التكامل في عبودية الله لا يناقض الحرية ولا يسبب أسراً أو رقّيّة للإنسان .

وإنما نستطيع أن ندّعي التحرر فيما إذا تحققت مواكبتنا للسير التكاملي للعالم بإرادة وتصميم وتشخيص صلاحيتنا ، لا بجبر التأريخ أو الطبيعة ، إذ مواكبة الإنسان لأوامر الطبيعة ليست إلّا أسراً له ، والتكامل الذي يتحقق بالتبعية الملزمة للطبيعة ليس إلّا طاعة للطبيعة عمياء .

ولهذا فإننا نجد في المدرسة المادية ، التي ترى التكامل والسعادة في الحرية بمعنى الخروج عن أسر الطبيعة ، نجد في هذه المدرسة تناقضاً بين الحرية والتكامل ، فما هو معنى التكامل الذي يتابعه الإنسان كوظيفة تستغرق كل مساعيه ثم لا يحصل على حظ من ثمرات مستقبل هذه المساعي ؟ .

أليس السعي ـ وإن كان بدوافع إنسانية ـ لمن لا يعتقد بمبدأ للوجود لغواً ؟ مهما كان مثمراً للمجتمع ومفيداً ، لو كانت تضحيتي لكمال الإنسانية وتكامل النوع البشري ، ولكني لا أحصل على نتيجة من مفاداتي ولا أتمتع بشيء من ورائها ، كان هذا الهدف مخالفاً للحرية والعقل والمنطق .

إن زعماء المدرسة المادية الذين يرون أن المضادة بين التكامل والأسر مسألة مدهشة ، إنما هم ينظرون بهذا إلى التكامل المادي غير الإلهي والذي لا هدف له في الواقع .



صفات الخالق وخصائصه

القرآن كيف يصف الله ؟

عندما نريد أن نقيم شخصية علمية ومستوى معلومات مؤلف محقق ، نقبل على آثاره العلمية ونجعلها مورد التحقيق والتقييم ، ولكي نتوصل إلى مدى استعداد ومقدار قدرة فنان ما على خلق المبتكرات كان علينا أن نحقق في منتوجاته ومصنوعاته الفنية .

كذلك ندرك صفات الخالق وخصائصه من طريق التدبّر الدقيق في دقائق الموجودات وظرافتها ، ونتعرف على علم الخالق وحكمته وحياته وقدرته في حدود إدراكنا .

يجب علينا أن نقبل أن قوة معرفة الإنسان ليست بمستوى الحصول على معرفة جامعة شاملة عن الله سبحانه ، ولا يمكن التعرّف على خصائصه إلّا في حدود قدرتنا على ذلك ، وإن كل قياس أو تمثيل بهذا الشأن من الخطأ الفاحش ، إذ كل ما هو مشهود في هذه الطبيعة إنما هو من مصنوعات الله سبحانه بأمره وإرادته ، وليس هو من الطبيعة في شيء ولا من سنخ مخلوقاته كي يكون إدراك ماهيته ممكناً من طريق القياس والتمثيل .

إنه وجود لا يوجد أيّ مقياس لمعرفة ذاته ، ولا أيّ إحصائية أو أرقام

لتعيين مدى قدرته أو مستوى علمه تعالى .

وعلى هذا ، أليس الإنسان أعجز وأحقر من أن يدرك ذات هكذا حقيقة عالية أو حتى صفاتها ؟! .

وفي نفس الوقت لا يستلزم الاعتراف بالعجز عن المعرفة الكاملة والوسيعة والعميقة ، أن نكون قاصرين عن أيّ معرفة نسبية ولو كانت قصيرة ، فإن نظام الوجود يصرخ بصفاته ، وبإمكاننا أن نرى قدرته وابتداعه الخلق من طريق النظر في مظاهر الطبيعة وجمالها وقيمها .

إن مشاهدة الإرادة والشعور والعلم والإدراك والانسجام والتوازن في النظام الموجود ، وظواهر الحياة المختلفة ، تمكننا من أن ندرك أن هذه المفاهيم المذكورة ، وكل ما يحكي عن هدف في النظام إنما هي نابعة عن إرادة خالق يتصف بجميع هذه الخصائص ، حتى يمكنه أن يعكس منها شيئاً على موجودات هذا العالم .

إن قوة الفكر الغريبة هي التي تتعرّف على الله وتلمس وجوده ، قوة الفكر التي هي بارقة من بوارق أوامره التي لا تزال تفيض على المادة؛ الأمر الذي وهب للفكر قوة إدراك المعنى والنفوذ إلى الحقيقة ، وأن معرفة الحق إنما تتجلى بهذه الموهبة العظيمة .

* * *

إن معرفة الخالق بنيت في الإسلام على أساس جديد بيّن ، فالقرآن الكريم يتابع هذه المسألة بأسلوب التساؤل بين النفي والإثبات، والقرآن هو المصدر الأساس لمعرفة رؤية الإسلام العامة .

إن القرآن ينفي الآلهة الباطلة ببراهين مضيئة ، إذ قبل التوصل إلى التوحيد يجب رفع جميع صور الشرك وعبودية ما سوى الله ، فهذه هي الخطوط المهمة الأولى التي تمهد السبيل إلى التوحيد .

يقول القرآن الكريم :

﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة ؟ قل : هاتوا برهانكم ، هذا ذكر من معي وذكر من قبلي ، بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ﴾[1] .

ويقــول :

﴿ قل : أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً ؟! والله هو السميع العليم ﴾[2] .

إن الذي تنقطع علاقته بالتوحيد ينسى علاقته وموقعيته في عالم الوجود بل ينسى حتى نفسه ويفقدها، فإن قطع العلاقة بالفطرة الإنسانية آخر مراحل فقدان الذات ، وإنما يصبح الإنسان أجنبياً مع ذاته وفطرته بتأثير من مختلف العوامل النفسية والخارجية ، وحينما يصبح الإنسان أجنبياً مع نفسه ينقطع عن خالقه ويدخل في عبودية غيره ويستبدل هذه العبودية عن التعقل والمنطق ، وهذا هو ارتداد إلى عبادة ظواهر الطبيعة ومظاهرها ، فسواء إن سجدنا للأوثان أو توهمنا أن الأصل في الوجود هو المادة ، فكلاهما ارتداد إلى الوراء ورجعية تسلب الإنسان ما يساعده على نموه الذاتي الإنساني .

إن التوحيد هو القوة الوحيدة التي تيسر للإنسان أن يكون مع نفسه وذاته وفطرته وقيمه الإنسانية ، وإنما يجد الإنسان نفسه في ظل قيمه الإنسانية ، ويكملها بالانسجام مع طبيعته الإنسانية وماهية وجوده .

ولقد كانت النبوّات والرسالات السماوية الإلهية تبدأ بالنهضة لإعلان الدعوة إلى التوحيد ، بمعنى ربوبية الإله الواحد ، ولا نجد في اللغات البشرية كلمة أغنى من كلمة التوحيد ، وأثرى بالمفاهيم البناءة التي تستوعب النواحي المختلفة لحياة الإنسان وتحجزه عن التحريفات .

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٢٤ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٧٦ .

ونجد القرآن يرينا طريق معرفة الله بدلائل بينة منها قوله سبحانه :

﴿ أم خلقوا من غير شيء ؟ أم هم الخالقون * أم خلقوا السموات والأرض ؟ بل لا يوقنون ﴾(١) .

ويترك القرآن الحكم ببطلان افتراض أن يكون الإنسان مخلوقاً من لا شيء وبدون خالق ، وكذلك افتراض أن يكون هو خالق نفسه ، يترك حكمهما إلى العقل الفطري للإنسان السليم ، كي يذهب الإنسان بهذين الافتراضين إلى مختبر عقله فيحللهما ، وبالتفكير في آيات الله يتعرّف على منبع الوجود بصورة قطعية يقينية بالغة ، ويدرك بنفسه أن لا سبيل إلى تقييم عالم الوجود بدون وجود مدّبر منظم خلف هذه الظواهر والمظاهر ، وفي آيات أخرى يدعو القرآن الفكر الإنساني إلى التفكير في كيفية خلقته التدرجية، ثم ينتهي بهذه الخلقة البديعة بما فيها من عجائب الصنع والتدبير إلى أنها من آثار وآيات قدرة الله اللانهائية ، التي تداعب الكائنات بنفوذها وهيمنتها ، يقول :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾(٢) .

ولعل الخلق الآخر إشارة إلى توظيف خلايا الأعضاء : العين والأذن والمخ وغيرها ، وبدئها حركتها الدائبة ، والقرآن في تصويره هذا يلفت الإنسان إلى التفكير : هل يمكن أن تعقل كل هذه التحوّلات العجيبة المدهشة مع افتراض عدم الخالق ؟ أم أن هذه الظواهر تؤكد لزوم وجود هندسة دقيقة وقيادة صحيحة وإرادة عالمة وبرنامج معين ، فهل يمكن أن تتعهد هذه الخلايا بوظائفها وتؤديها بكل دقة ونظام من دون إرادة مدبّر عالم

---

(١) سورة الطور : الآيتان ٣٥ ـ ٣٦ .

(٢) سورة المؤمنون : الآيات ١٢ ـ ١٣ ـ ١٤ .

حكيم ، ثم يتبلور هذا العالم بهذه الكيفية الموجودة ؟ ويجيب القرآن على هذا التساؤل يقول :

﴿ هو الله الخالق البارىء المصوّر ﴾(١) .

فهو الخالق للأجزاء الأصلية وهو البارىء لأجزاء كل عضو وهو المصوّر للصور المختلفة .

يقول الدكتور (كارل) : « إن تركيب الأعضاء أشبه بأساطير الجن التي تقصّ على الأطفال ، فهي من عمل الخلايا التي كأنما هي عالمة بالأشكال التي يجب أن تكون الأعضاء عليها ، وهي التي تعدّ التصاميم وكذلك المواد الإنشائية وتجعلها في متناول العمل والعمال »(٢) .

إن القرآن يتناول كل محسوس يراه الإنسان حوله وينبه الإنسان إلى التفكير فيه بدقة واستنتاج النتائج ، ويقول :

﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلاّ هو الرحمن الرحيم * إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾(٣) .

﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ؟ ﴾(٤) .

إن القرآن الكريم يذكر تأريخ الإنسانية وتطوراته والسير في مصائر الأمم الماضية على أنه من المصادر الخاصة للمعرفة ، وهو يسترعي انتباه الإنسان لكشف الحقيقة إلى النظر في الانتصارات والانكسارات والهزائم

---

(١) سورة الحشر : الآية ٢٤ .

(٢) الإنسان ذلك المجهول .

(٣) سورة البقرة : الآيتان ١٦٣ - ١٦٤ .

(٤) سورة يونس : الآية ١٠١ .

والمعـظمات والتعـاسة والسعـادات للأمم المختلفـة السابقـة ، كي يحـاول إخضاع تأريخه المعاصر لإرادته من خلال معرفته بقوانين التأريخ وحساباتـه الدقيقة والمنظمة، والاستفادة منها لنفسه ومجتمعه،ويقول القرآن الكريم .

﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾(١) .

﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون * وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين ﴾(٢) .

إن القرآن الكريم يرى النفس الإنسانية ، أيضاً منبعاً آخر للفكر المفيد لكشف الحقيقة ، ويوليها أهمية خاصة ، فيقول :

﴿ سنـريهم آيـاتنـا في الآفـاق وفي أنفسهم حتى يتبـين لـهم أنـه الحق ﴾(٣) .

﴿ وفي الأرض آيات للموقنين *وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾(٤) .

يعني القرآن نفس هذا الجهاز البدني ، وجمال صورته المتناسبة بما له من أجهزة وعمليات وأفعال وردود أفعال،وبما فيه من تقنية دقيقة وظريفة ، وبما أودع فيه من القوى والغرائـز والإدراكات والعـواطف وأنواع الإحسـاس الإنساني والحيواني ، ولا سيما قوة الفكر المحيّرة ، ومـا دام البشر لم يخط كثيراً في طريق معرفة القوى المعنويـة والطاقـات غير المحسـوسة ، وكيفيـة علاقاتها بأعضاء الجسم المادي ، فإنه يبقى منبعاً فياضاً للمعرفة .

إن القـرآن يعلن كفايـة الفكرة والتحقيق في النفس الإنسـانية لهـداية

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٣٧ .

(٢) سورة الأنبياء : الآيتان ١٠ ـ ١١

(٣) سورة فصلت · الآية ٥٣ .

(٤) سورة الذاريات الآيتان ٢٠ ـ ٢١ .

الإنسان إلى منبع الوجود اللامحدود في علمه وقدرته وغناه وحكمته ، كي يعلم الإنسان أنه هو الذي ركب في الإنسان هذه المجموعة من الخصال والخلال المثمرة ووهب لها الوجود والحياة .

ثم يقول القرآن : أيها الإنسان ، بعد وجود هذه الآيات الحية والحجج القاطعة للتحقيق في معرفة الخالق، والتي ركبت في نفسك ، لا عذر لك للإنكار أو الانحراف عنه أبداً .

* * *

إن القرآن الكريم يصف الله سبحانه بصفات يثبتها له وأخرى ينفيها عنه ، صفات الله المثبتة كالعلم والقدرة والإرادة ، وأن وجوده لا يسبقه عدم ولا أوّل لوجوده ، وأن الكون يدور لا حول له إلّا بأمره وإرادته وقدرته .

يقول القرآن الكريم :

﴿ هو الله الذي لا إله إلّا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمان الرحيم * هو الله الذي لا إله إلّا هو الملك القدّوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار المتكبّر ، سبحان الله عمّا يشركون ﴾(١) .

﴿ سبحان ربك ربّ العزّة عمّا يصفون ﴾(٢) ..

إن العقل البشري المحدود أقصر من أن يقضي بشيء في مقام ذات الله القادر ، ونحن نعترف بعجزنا عن درك كنه ذلك الوجود الذي لا مثيل له ولا نموذج في إحساسنا وأفكارنا ، فإنه مقام تبقى فيه أعمق المدارس الفكرية وأكبر أساليب المعرفة البشرية متحيرة لا تهتدي سبيلاً .

إن الذات الواحدة بتمام المعنى والمنزهة عن التركيب لا ريب

---

(١) سورة الحشر : الآيتان ٢٢ ـ ٢٣ .

(٢) سورة الصافات : الآية ١٨٠ .

تستجمع جميع الكمالات ، إذ لا كمال أعلى من الوجود المطلق اللامحدود ، فلو كان هناك كمال خارج عن هذا الوجود اللامحدود لزم أن يكون مطلقاً غير محدود .

وكما أن الموجودات لا بدّ من أن تنتهي إلى ذات واجبة الوجود ، بمعنى أن يكون وجودها من نفسها لا من غيرها بل تكون هي عين الوجود ، وتكون سائر الموجودَات متعلقة في وجودها بتلك الذات وذلك الوجود المطلق ، كذلك ما يوجد في هذا العالم من صفات الكمال كالحياة والقدرة والعلم لا بدّ أن ترجع إلى حياة وقدرة وعلم مستقل مطلق ، تكون هذه الصفات من خصائص ذلك الوجود اللامحدود .

أوصاف المعبود الكامل المطلق

إن الله ربّ العالمين ـ كما يصفه القرآن الكريم ـ جامع لجميع شروط المعبود الكامل المطلق ، فهـو خالق الحسن والجمـال والكمال ، ومـوجد جميع القوى والقدرات ، وإن معرفته بحر لا يدركه غواص العقول والألباب ، هو الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا ، وإن وكل هذا العالم إلى نفسه وقطع عنه عنايته فإنه يتلاشى كأن لم يكن شيئاً مذكوراً ، فإن كل شيء يستند في وجوده وثباته إلى الله سبحانه .

هو واهب جميع النعم والسعادات ، وهو الـذي بيده نـواصينا ، وهـو الذي إذا أراد شيئاً قال له : كن ، فيكون .

هـو الحق وهو الحقيقـة ، ومنـه العـدل والحـريـة وجميـع الفضـائـل والكمـالات ، والتقرب إليـه يعني التقرّب إلى جميـع الفضائـل في حـدّهـا الأعلى ، ومن أحبه فقد أحب حبيباً رحمانـاً رحيماً ، ومن تـوكّل عليـه كان مؤملاً أملاً وطيداً متيناً حكيماً ، ومن اعتمد على سواه كان مبطلاً ومستنداً إلى الريح .

هو الذي بيده تقرير مصيرنا بالسعادة إذ هو الذي لا تخفى عليه خافية في السماوات والأرضين ، وهو الذي له أن يشرع شريعة الإنسان في الحياة

وعلاقاته بهذا الكون الرحيب ، إذ هو العالم بالمصالح الواقعية للإنسان ، وإن اختصاص هذا الحق بالله سبحانه نتيجة طبيعية ومنطقية لربوبيته سبحانه ، وإن العمل بالبرنامج الإلهي وحده هو الذي يكفل سموّ نفوسنا بشكل مؤكد . . وكيف يمكن لإنسان أن يحبّ الحقيقة والعدالة إلى درجة أن يفدي نفسه في سبيلها وهو يعرض عن منبع العدل والحق ؟! .

لو كان هناك شيء يستحق الحمد والتسبيح والتعبد فليس هو إلاّ الله قطب رحى الوجود ، ثم لا شيء ولا أحد يستحق أن يكون في رتبة تؤهله إلى أن يستعبد الإنسان ، إذ الأوصاف الكمالية في سوى الله سبحانه ليست مطلقة ولا أصيلة في وجودها بل هي نسبية متحدة مع الغير .

إن الدليل الأصيل للعبودية للخالق هو إنعام الخالق علينا وعلمه بإمكاناتنا وحاجاتنا وذخائرنا واستعداداتنا وطاقاتنا المودعة في أجسامنا ، إذن فالعبودية لله وحده الذي إليه يستند كل موجود في وجوده وعليه يعتمد ، وإليه تسير قوافل الكائنات في حركة دائبة دائمة بمدده ، وأمره الماضي في كل نقطة نقطة من هذا العالم .

وعلى هذا فإن الانقياد والعبودية خاصة بذاته القدسية ، الذي لا يغيب حضوره عن أفئدة كل ذرة ذرة من الموجودات ، ولا يليق بالعبودية أيّ موجود مماثل لنا تستوعبه صفات العجز والفقر ، إنه لا ينبغي له أن يغتصب مجال حكم الله سبحانه في صعيد الحياة ، والعنصر الإنساني الكريم أكرم من أن يخضع لموجود مثله محتاج .

إن الوجود الذي ينبغي للإنسان أن يعبده هو الله وحده ، وهو الذي يجب على الإنسان أن يقدم مساعيه لطلب رضاه سبحانه على رضا كل محبوب وموجود سواه ، وهذا يعني تكريم الإنسان وتقييمه ، إن الإنسان قطرة لو لم تتصل بالبحر كانت في معرض التلف والفساد والجفاف ، وإنما يجد هويته الواقعية ويخلد مكرماً فيما إذا اتصل بذلك المنبع الفياض ، وأصبح ربه هو المعنى الصحيح لحياته وهو الذي يكمن وراء جميع حوادث الحياة ،

ومن هنا يمكننا أن نعرف سعة عوالم الأفراد وضيقها باختلافهم .

نحن إما أن نحسب العدل والشرف والفضل وكلّ خصلة من الخصال المحترمة والمستحسنة من الأوهام والخيالات ، أو أن نعدها من الواقعيات بحكم الوجدان والفطرة وضرورة الواقعية ، وعلى كلتا الحالتين لا بدّ لنا من الخضوع أمام تلك الحقيقة الكلية للوجود والكمال المطلق الفيّاض بالخير والحياة والقدرة وسائر القيم .

كيف يمكننا أن نعترف بأن طبائعنا بما فيها من حاجات وغرائز وعواطف نابعة من ضمائرنا وكل ما فيها من طاقات واستعدادات وروحيات ، غير قابلة للإنكار ، بينما نغضّ النظر عن ما يناسب هذه الطبيعة والفطرة الإنسانية ، وعن من أوصافه الغاية القصوى لمنتهى آمالنا المادية والمعنوية ، وهي تدفع بالإنسان إلى كل حركة مباركة ؟ .

إننا إذا ما أنعمنا النظر ، أدركنا أن جميع موجودات العالم غير المعدودة ، وجميع الحاجات المتجذرة في أعماق وجودنا ، كلها تنتهي إلى نقطة واحدة ومنبع واحد هو الله ، الذي لا واقعية ولا ماهية للعالم إلّا بالإضافة والنسبة إليه والتعلق به سبحانه ، والوجود الذي بدأ من تلك النقطة يرجع إليها مرة أخرى ، إنه وحده الذي ينبغي أن يعبد ، وإذا وجده العبد وتعبده أحبه وأحب جلاله وكماله المطلق حباً ينسى معه ما سواه .

إننا نرى أن جميع الظواهر إنما وجدت من العدم ، وهي في مدة بقائها القصيرة أو المديدة محتاجة إلى إمداده واعتماده ، ومطبوعة على الحاجة والفاقة وعدم الاستقلال .

إن الإله المعبود الذي نطلبه كي نتقرّب إليه إن كان جاهلاً بآمالنا وآلامنا وحقائق العالم أو قاصراً عن حاجاتنا وأمانينا ، بل كان مثلنا قاصراً ضعيفاً ، فكيف نجعله هدفاً لنا وغاية ونصفه بالكمال المطلق ؟ والعبادة لو كانت

للحاجة فالخالق وحده هو القادر على قضائها دون سواه ، ويقول القرآن الكريم :

﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾[1] .

وعلى هذا فإن الخضوع أمام غيره والتوجه لسواه ليس له أيّ مبرر ، وليس له أيّ أثر في مصيرنا وعواقبنا ، إذ لو كان الإله مستحقاً للعبودية فلا بدّ أن يكون مبرّأً من كل عيب ونقيصة وقادراً على إيصال الإنسان إلى قمة السعادة العليا ، ممدّاً لحياة الموجودات بأشعته الخالدة الفياضة ، مذللاً بجماله الباهر قلب كل ذي ضمير ، صاحب قدرة غير محدودة ، قاضياً لجميع حاجات الإنسان الروحية والمعنوية ، وهو من ليس التوصل إلى معرفته سوى التوصل إلى المنبع الحقيقي للفطرة الإنسانية .

وإلّا ، فلو كان معبودنا الذي نختاره ممتازاً في جهات خاصة قاضياً لبعض حاجاتنا ، فإنه سيفقد صفة الألوهية لدينا فيما إذا توصلنا إلى مستوى رفع حاجاتنا به بحيث أصبح قاصراً عن كمال أسمى من ذلك المستوى، وإذا توقفنا عنده فسيكون سبباً لتوقفنا وركودنا ، وحينذاك فلا تشفي عبادتنا له غليلنا بل يمنعنا عن التفكير في أيّ كمال أسمى ويحبسنا في دائرة ضيقة محدودة ، ونفقد بذلك الدافع للرقيّ إلى المدارج العليا ، وإذا ما استوينا مع إلهنا ـ فضلاً عما إذا تقدمناه وسبقناه ـ فلن يكون سبباً لصلاحنا ولا دافعاً لرقينا ، بل إن اتجاهنا إليه ينتهي بنا إلى الانحطاط والنزول ، وحينذاك يصبح الإنسان كعقربة مغناطيسية أعرضت عن قطبها ووجهتها الطبيعية ودخلت في طيف مغناطيسي لعنصر غريب عنها ، والذي لا يورثها سوى الحيرة والضلال ، وحينئذٍ تصبح التعاسة والشقاء الأبدي للإنسان مما لا مفر عنه أبداً ! .

(١) سورة الأعراف : الآية ١٩٤ .

الدعاء أعلى سمات الشاكرين

إنما المعبود والإله الذي يتمكن من أن يوجه حركة الإنسان إلى الوجهة الصحيحة ، والذي يستطيع أن يضيء بنوره متاهات السائرين هو ذلك الإله القادر على أن يهب الأمل للإنسان ، والذي يكون في أسمى درجات الوجود المؤثر والثابت والدائم ، كي يكون بذلك منشئاً للآثار المعنوية الخفية وهادياً للفكر والعمل ، وميسراً سبيل المسيرة التكاملية للإنسان الذي هو حصيلة حكمته العالية .

إن أيّ سعي أو حركة بدائية للإنسان نحو الأهداف المنحرفة ، وسيره في تلك المتاهات يجرّه إلى بعده عن شخصيته ومحتواه، ومسخه عن ماهيته الحقيقية .

لا يمكن للإنسان أن يعرف نفسه حينما هو بعيد عن معرفة خالقه ، وإن التغافل عن الله يلازمه أن ينسى الإنسان نفسه ويظل غافلاً عن الأهداف العامة لحياة الإنسان والعالم الذي يحويه ، وبالتالي عن الفكر في كل القيم السامية .

وبمقدار ما يجعل الاتجاه إلى غير الله الإنسان غريباً عن نفسه ويبدله إلى ماكنة متحركة بيولوجية ، فإن الاعتماد على الله وعبادته تنقذ الإنسان الغريق في أعماق بحار الغفلة والفاقد للحياة المعنوية ، وتجعله يصحو لنفسه

ويرجع إليها ، وفي ظل عبادة الحق المطلق تنمو الطاقات الملكوتية والروحية ، ويصل الإنسان بها إلى مدى حقارة آماله ومناه الرخيصة واللامحدودة بنفس الوقت ، ويصل كذلك إلى نقصه ونقاط ضعفه الذاتية ، وبكملة : يرى نفسه كما هي على حقيقتها « من عرف ربّه فقد عرف نفسه » .

إن ذكر الله والتقرّب إليه ينور القلب ويحيي الفؤاد ، وهو مليء باللذة ، لذة لا تقاس بلذائذ العالم المادّي 7 وبكلمة : إن الأفكار تسمو والقيم تتقدر حسب حقيقتها بالتوجه إلى تلك الحقيقة المعنوية المجردة .

وهكذا يتحدّث الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) عن الأثر العجيب لذكر الله في القلوب :

« إن الله سبحانه وتعالى جعل الذكر جلاء للقلوب ، تسمع به بعد الوقرة ، وتبصر به بعد العشوة ، وتنقاد بعد المعاندة »(١) .

ويقول (عليه السلام) أيضاً : «اللهم إنك آنس الأنسين لأوليائك ، وأحضرهم بالكفاية للمتوكلين عليك ، تشاهدهم في سرائرهم ، وتطلع عليهم في ضمائرهم ، وتعلم مبلغ بصائرهم ، فأسرارهم لك مكشوفة وقلوبهم إليك ملهوفة ، إن أوحشتهم الغربة آنسهم ذكرك ، وإن صبت عليهم المصائب لجأوا إلى الاستجارة بك ، علماً بأن أزمة الأمور بيدك ، ومصادرها عن قضائك »(٢) .

ويقول عالم النفس المعروف (ويليام جيمز) : « إن دافع الإنسان إلى العبادة ، هو نتيجة ضرورية لهذا الأمر ، وهو أن الشعور الذاتي للإنسان وإن كان من أعمق أقسام الاختيارات الذاتية والعملية ، فهو ـ مع هذا ـ لا يجد صاحبه الكامل إلاّ في عالم الفكر ، وأكثر الناس يرجعون إليه إما بصورة

---

(١) الخطبة : ٢٢٠ من نهج البلاغة .
(٢) الخطبة : ٢٢٥ من نهج البلاغة .

مستمرة أو صدفة ، وهكذا وبهذا التوجه إلى الكامل يقيم ويقوم نفسه حتى أحقر من في الأرض ويجد نفسه حقيقة واقعية »[1] .

إن أعلى وأسمى صورة لشكر الإنسان على عتبة الإله الحق ، هي العبادة وإظهار حبّ ذلك الكمال المطلق ، وهي حركة مواكبة لجميع الموجودات التي تسبح كلها بحمده وتقدّس له :

﴿ تسبّح له السموات السبع والأرض ومن فيهنّ ، وإن من شيء إلّا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليماً غفوراً ﴾[2] .

ولا ريب أن هذه العبادة لا تنفع الخالق شيئاً ، إذ له الكمال بل هو الكمال المطلق ، ولا سبيل لشيء من النقص والزيادة إليه أبداً ، فكيف يتصوّر أن يكون قد خلق الإنسان لينتفع بعبادته ؟ أجل ، هذا هو الإنسان الذي يبلغ هدفه النهائي وهو كماله الواقعي بمعرفته الحقيقة المطلقة وعبادته لله سبحانه .

يقول البروفيسور (رايموند راويه) أستاذ الفلسفة والفيزيائي المعروف ، بشأن وجود الشعور لدى الكائنات :

« إن العلم الحديث يقول : إن الذرّات والكريات كلها تعلم بما تعمل ، وهي تشعر بأعمالها وحركة حياتها الدائبة ، وهي في شعورها هذا أعلم حتى من علماء الفيزياء ، فإن الذي يعلمه علماء الفيزياء هو أن هذه الذرّة لو لم تكن محسوسة يمكننا التعرّف عليها من كان يعلم بشأنها شيئاً ؟

إن الجسم والحركة والسرعة ، هنا وهناك ، والأشعة والتوازن والفضاء والفواصل وغيرها إنما وجدت ببركة هذه الذرّات ، فلو لم تكن هذه الذرّات من كان يوجد كل هذه الظواهر الغريبة في عالم الوجود ؟ وإن بين الشعور

---

(١) إحياء الفكر الديني ص ١٠٥ .

(٢) سورة الإسراء : الآية ٤٤ .

والجسم من النسبة بمستوى ما بين الحركة والسكون والسلب والإيجاب في الحركة .

ولكن الفضاء ليس أعمى بنفسه ، لـو تتذكـرون ، فقد ثبت لـدينا أن العين هـو العنصر الأصلي في المشـاهـدات ، ولكن حيث كـان محـدوداً بحدود قدرة البشر وهومشدود إلى الأرض وبين الموجـودات الأرضية ، فقـد تحـدّد صعيـد عمله الفيـزيـائي ، فبيـن الأرض والشـمس ، والشـمس والمجرّات ، والمجرّات والكواكب الكبرى القصوى ، لا فرصة لعضو كائن أرضيّ مثل العين كي يبرز ويثمر .

ولكن بنفس هـذا الـدليـل لا نستـطيـع أن نصـدّق أن يسـود العمى واللاشعور في ميدان تبادل القوى والقدرات العظيمة كالمجرّات التي تحكمها قـوانين الجاذبيـة والتوازن والحـركات والنـور والسرعـة والابتعاد عن مـركـز الدائرة ، بل لا عمى لهذه الموجودات العجيبة ، وحتى ذرّات النور ليست في حركاتها بريداً بليداً لإيصال الأخبار والإشارات »[1] .

* * *

---

(١)ألفا عالم في البحث عن الخالق العظيم : ص ٦١ و٩٩ (بالفارسية) .

لا سبيل للقياس بصفاته

نحن وإن كنا في محاولتنا لوصف الخالق وصفاته نحتاج إلى مصطلحات تؤدي تلك المفاهيم ، إلاّ أن هذه المصطلحات التي نستعملها نحن هي أعجز عن الوصول بنا إلى هدف الوصف الواقعي له سبحانه ، إذ أن أفهامنا المحدودة لا تدرك كيفية أوصاف ذات الحق سبحانه ، وهو أعلى وأسمى من جميع هذه المفاهيم المصوغة في أذهاننا .

إن الإنسان المخلوق والمحدود لا ينبغي له أن يطمع في قياس الوجود غير المادي بالأوصاف والخصائص المادية ، أو أن يبين للناس ذلك الوجود بهذه الأوصاف .

إن البحث حول تلك الحقيقة التي هي غير هذه الموجودات الطبيعية الممكنة ، وعن قدرته وعلمه غير المحدود والمحيط بكل ما سواه ، وكما يقول القرآن الكريم : ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾[1] .

إن البحث لا ريب في أنه بحث علمي دقيق .

يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) :

« ما وحّده من كيّفه ، ولا حقيقته أصاب من مثّله ، ولا إياه عنى من

(١) سورة الشورى : الآية ١١ .

شبهه ، ولا صمده من أشار إليه وتوهمه ، كل معروف بنفسه مصنوع وكل قائم في سواه معلول ، فاعل لا باضطراب آلة ، مقدر لا بجول فكرة ، غنيّ لا باستفادة ، لا تصحبه الأوقات ، ولا ترفده الأدوات ، سبق الأوقات كونه ، والعدم وجوده ، والابتداء أزله ، بتشعيره المشاعر عرف أن لا مشعر له ، وبمضادته بين الأمور عرف أن لا ضدّ له ، وبمقارنته بين الأشياء عرف أن لا قرين له ، ضادّ النور بالظلمة ، والوضوح بالبهمة ، والجمود بالبلل ، والحرور بالصرد ، مؤلف بين متعادياتها ، مقارن بين متبايناتها ، مقرب بين متباعداتها ، مفرق بين متدانياتها ، لا يشمل بحد ، ولا يحسب بعدّ ، وإنما تحدّ الأدوات أنفسها ، وتشير الآلات إلى نظائرها »[1] .

إن وجود الفارق بين صفات الله سبحانه وصفاتنا وعدم إمكان القياس بينهما ، بسبب تفاوت مفاهيم الصفات في منبع الوجود عن الصفات في سائر الموجودات .

فمثلاً : نحن قادرون على بعض الأعمال ، ولكن ليست هذه القدرة كقدرة الله عليها ، إذ أن صفة القدرة فينا شيء وموصوف هذه القدرة شيء آخر .

أو حينما نتكلم نحن عن علمنا بشيء لسنا نحن وهذا العلم شيئاً واحداً ، إذ لم يكن في وجودنا على عهد الطفولة أيّ أثر من هذه المعرفة العلمية ، ثم اكتسبنا هذه المعلومات بالتعلم وبالتدريج ، والعلم والقدرة يشكلان ناحيتين متمايزتين عن وجودنا نحن ، وليست هذه الصفات عين ذواتنا ، ولا متحدة مع وجودنا ، بل الصفات عارضة ووجودنا معروض لها ، ولكل منهما حساب خاص .

وليست القضية بالنسبة إلى الله بهذه الصورة ، فحينما نقول : إن الله عالم وقدير نقصد أنه سبحانه هو منبع العلم والقدرة ، وهنا ليست الصفة شيئاً

---

(١) الخطبة : ١٨١ نهج البلاغة .

غير نفس الموصوف وإن كانا متفاوتين من حيث المفهوم ، فصفاته في الواقع عين ذاته سبحانه ، إذ لا معروض هناك حتى يعرض عليه شيء ، بل هو وجود مطلق عين العلم والقدرة والحياة والثبوت والتحقق بحيث لا يصحبه أيّ قيد أو حدّ عقلي أو خارجي .

وحيث إن تربيتنا لا تكون إلّا في حجر الطبيعة ، وإن لنا أنساً متواصلاً بهذا الجهاز الطبيعي ، وإن كل ما نراه له أبعاد وأشكال خاصة ، وزمان ومكان وخواص الأجسام ، فبسبب أنس أذهاننا بمفاهيم ظواهر هذه الطبيعة نحاول أن نقيس كل شيء بمقاييسها ، وحتى أن مفاهيمنا الفكرية والعقلية تنشأ من هنا منذ اليوم الأول حسب التحقيقات العلمية والفلسفية .

وعلى هذا فإن تصوّر وجود ليست له أيّ خاصة من خواص المادة بحيث إن كل ما يتصور في أذهاننا فهو غير تلك الصورة ، وإن درك صفات ذات لا تكون الصفات فيه منفكة عنه ـ بالإضافة إلى ما يستلزم من الدقة المتناهية ـ يوجب أن نفرغ أذهاننا بصورة كاملة عن تصوّر الموجودات المادية .

ولأمير المؤمنين عليّ (عليه السلام) بهذا الصدد بيان بليغ وغنيّ وعميق ، يؤكد فيه على عدم قدرة الإنسان على تحديد الله في قيود الأوصاف كما يتصوّر ، يقول :

« كمال توحيده نفي الصفات عنه ، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف ، فمن وصفه فقد قرنه ، ومن قرنه فقد جزّأه ، ومن جزّأه فقد جهله »[1] .

إن المفاهيم الذهنية ، لا تتمكن من أن تحدد الله في حدود الصفات أو تنطبق على وجوده سبحانه كالمفهوم على المصداق ، لأن كل واحدة من الصفات ، والمفاهيم من حيث مفهومها الخاص هي غير سائر الصفات ،

---

(١) الخطبة الأولى من نهج البلاغة .

فمثلاً مفهوم الحياة أجنبيّ عن مفهوم القدرة غير منطبق أحدهما على الآخر ، وإن كان من الممكن أن يستوعب مصداق خاص كل هذه الصفات ، ولكن لا ينطبق كل مصطلح من الكلمات إلاّ على معناه الخاص به .

حينما يريد الإنسان العاقل أن يصف شيئاً بوصف خاص ، فمع أن هدفه أن يقرر نوعاً من الوحدة من حيث المصداق بين الصفة والموصوف ، ولكن بما أن مفهوم الصفة غير الموصوف فهو يحكم بمغايرتهما بصورة تلقائية أراد أو لم يرد ، وحيث إن الوسيلة الوحيدة لمعرفة الأشياء وصفها بالمفاهيم الذهنية التي هي من حيث التصوّر متباينة عن الذات ، وهي - أي الأوصاف - تلازم المحدودية ، إذن تبقى المفاهيم الذهنية قاصرة عن معرفة أو تعريف تلك الحقيقة المتعالية ، وهو سبحانه أسمى من أن يعرف بالوصف ، ولهذا يقال : إن من يحدده بالوصف يعلم أنه لم يعرفه .

وبذكر مثال نستطيع - إلى حدّ ما - أن نطلع على مفهوم الصفات الزائدة على الذات : تصوّروا أن حرارة شعلة النار تهب الحرارة لكل شيء ، وأن الحرق والحرارة من صفات وكيفيات النار ، فهل أن هذه الخصوصية تشغل زاوية من وجود النار ؟ كلاّ ، بل إن النار كيفما كانت وبكل وجودها لها هذه الخصوصية : الحرق والحرارة .

قال الإمام الصادق (عليه السلام) في جواب من سأله عن حقيقة الله سبحانه :

« هو شيء بخلاف الأشياء ، أرجع بقولي إلى إثبات معنى وأنه شيء بحقيقة الشيئية ، غير أنه لا جسم ولا صورة ولا يحس ولا يجس ولا يدرك بالحواس الخمس ، لا تدركه الأوهام ولا تنقصه الدهور ، ولا تغيره الأزمان »[1] .

ويقول (بول كلارنس) العالم الفيزيائي الاجتماعي : « إن الكتب

---

(١) أصول الكافي / كتاب التوحيد ص ٨٣ .

المقدّسة (التوارة والإنجيل) حينما تعرف الله تستعمل الألفاظ التي تستعمل في مورد الإنسان ، ولا شك في أن هذا من ضيق في دائرة اللغات ، إذ أن مفهوم « الله » مفهوم روحي معنوي والإنسان المحصور فكره بين جدران المادة لا يجد طريقه إلى كنه ذات الله سبحانه »[١] .

ومع عدم قدرتنا على الإحاطة بذات وحتى صفات الله سبحانه بأيّ صورة من الصور ، علينا أن نحاول التقدّم في طريق معرفته خطوات إلى الأمام حسب إمكاناتنا .

(١) إثبات وجود الخالق : ص ٦٧ (بالفارسية) .

وحدانيـــة الله

عندما يكون الكلام في بحث العقائد الدينية عن التـوحيد فهـو بمعنى الاعتقاد بوحدانية الله في ذاته ، وفي خلقه وفي أفعاله وحاكميته على العالم ، وإدارة نظام العالم ، وفي العبودية والعبادة ، وجهات أخرى متعددة .

وكمـا لا يتصوّر التعـدد في توحيـد الذات كـذلك لا يصـح التـركيب واختلاف الذات والصفات ، فإن هذا الاختلاف من لوازم المحدودية ، وإنما التفكيـك الذي نقـول به بين صفـات الله وذاته إنمـا هو بـالنظر إلى أفكـارنا ومطالعاتنا ، وإلاّ فلا سبيل لتعدد الجهات والإضافات في ذاته سبحانه .

نحن لو نظرنا إلى شيء من الطبيعة من وراء زجاج ملوّن ظهر لنا ذلك الشيء في كل مرة بلون آخر ، وكذلك حينما ننظر بعقولنا إلى ذات الله الذي لا شريك له ، فبلحاظ حضور جميع المـوجودات لـديه ننسب إليـه صفة : العالم ونقول : هو العالم ، وتـارة ننظر إليـه من حيث قدرتـه على خلق كل شيء ، فنصفه بالقدرة ونقول : إنه قادر .

وعلى هذا نقول : بما أننا ننظر إلى الصفات المختلفة من زوايا مختلفة هي من خصائص وجودنا المحدود ، كذلك ننتزع هذه المفاهيم بالنسبة إلى تلك الـذات غيـر المحـدودة ، بينمـا هي من حيث التحقق فلجميـع هـذه المفاهيم وجود واحـد ، وكلها تخبـر عن حقيقة واحـدة ، هي تلك الحقيقة

المنزهة عن كل عيب ونقص ، والتي تتصف بكل كمال من القدرة والرحمة والعلم والبركة والحكمة والجلالة .

نحن إذا عرفنا أن وجود الله من نفسه ، فعلينا أن نعلم أن الوجود المطلق غير محدود من جميع الجهات ، إذ لو كان الوجود والعدم متساويين بالنسبة إليه كان عليه أن يحصل على الوجود من خارج ذاته ، فالوجود لا يحصل بنفسه ، إذن فالوجود المحض هو الذي له الوجود من نفسه ، وإذ يكون الذات عين الوجود كان غير محدود من حيث العلم والقدرة والأزلية والأبدية ، إذ العلم والقدرة نوع من الوجود ، والذات التي هي عين الوجود لها جميع هذه الكمالات بصورة غير محدودة .

إن وحدة الله من صفاته البارزة ، وقد دعت جميع الأديان الإلهية في تعاليمها الأصيلة غير المحرّفة ، جميع البشر إلى التوحيد الخالص عن كل شرك وشائبة ، إذ الشرك بكل صوره وأبعاده من أضرّ الضلال للبشر ، الضلال الناشيء في طول التأريخ من الجهل والانحراف عن هداية العقل والدين .

ولو كان الناس يصدّقون ويؤمنون بالله عن طريق الفكر الصحيح ودلالة العقل وهداية الرسل لما كانوا يتقبلون أيّ مصنوع ظاهر أو مستور إلهاً بدلاً عنه سبحانه ، أو أن يكون لأيّ موجود آخر شيء من الأمر والتقدير والتدبير معه تعالى .

ونحن إذ نقول: إن الله واحد لا نعني بذلك معنى الجسمية، إذ الجسم مركب من عدة عناصر وأجزاء ، ونحن ننفي التركيب والتجزئة والتوالد عنه إذ هي من صفات الممكنات ، وكل مركب متوّلد عن التركيب ليس بإله وليس شبيهاً بالله .

إنما يمكن أن نتصوّر له تعدد المصاديق فيما إذا أمكن أن تصدق عليه صفات من قبيل الكمية والكيفية والزمان والمكان ، والله لا يتصف بشيء من هذه الأوصاف والقيود ، إذن فطبيعي أن لا يتصوّر له أيّ مشابه أو مثيل .

ومثلاً نقول : نحن إذا تصوّرنا حقيقة الماء بلا أيّ قيد أو وصف خاص ، ثم كررنا هذا التصوّر مراراً ، لم يزد عندنا شيء على التصوّر الأول ، إذ قد تصوّرنا الماء للمرة الأولى بصورة مطلقة عن أيّ قيد أو شرط أو كمية أو كيفية ، فلا يمكن أن نفترض فردين لحقيقة الماء في التصوّر الثاني وهكذا ، أما إذا أضفنا قيوداً إلى حقيقة الماء من الخارج ، تكثرت أفراد هذه الحقيقة المقيدة الموصوفة وتعددت بتعدد منابعها ومواردها ؛ فماء المطر وماء العين وماء البحر في الأزمنة والأمكنة المختلفة هنا وهناك ، وإذا حذفنا هذه القيود ونظرنا إلى حقيقة الماء المجرّدة عن هذه القيود والأوصاف امتنع عليها التعدد ولم تبق إلّا حقيقة واحدة فقط .

وعلينا أن ندرك أن الموجود إذا كان متحيزاً في مكان ما كان محتاجاً إلى ذلك المكان ، والموجود المتحيز في المكان رهين في وجوده للظروف الزمانية والمكانية الخاصة به ، وإنما يتحقق وجوده في زمان معين يشتمل على تلك الشروط الخاصة ، فإذا عرفنا موجوداً لم يخل ولا يخلو منه أيّ زمان أو مكان ، متصفاً بأسمى درجات الكمال ، كاملاً مطلقاً لا كامل مطلقاً سواه ، إذا عرفنا موجوداً هكذا كان تصوّر تعدده عين تصوّر المحدودية والقيود له .

إن الله ليس واحداً بالعدد كي يمكن تصوّر فرد ثان من سنخه له ، بل إنه واحد بحيث إذا فرضنا فرداً آخر له كان هو عين الفرض الأول ، كما في مثال حقيقة الماء . .

بما أن تعدد الأشياء رهين قيود تميزها عن غيرها ، فلو كان موجود مطلقاً عن أيّ قيد أو شرط ، كان افتراض وجود ثان له من غير المعقول ، إذ إن وجود الفرد الثاني مستلزم لوجود حدود متميزة، فلو انتفت الحدود في شيء لم يعد هناك شيئان ، بل كان تصوّر الفرد الثاني تكراراً لافتراض نفس الفرد الأول .

إن وحدة الله تعني أننا إذا تصوّرناه وحده مع قطع النظر ـ بعد فرض

وجوده ـ عن جميع الموجودات مما سواه ، كان وجوده ثابتاً من دون أيّ شريك أو نـدّ أو ولد أو كفوء ، وكذلك إذا نظرنا إلى وجوده مع سائر الموجودات أيضاً كان وجوده ثابتاً بلا شريك، في حين أننا لو نظرنا إلى سائر الموجودات ، مع قطع النظر عن وجود الله لم يمكن أن تبقى موجودة ، إذ إن وجودها منوط بوجود الله ، حدوثاً وبقاء ، فلو تصوّرنا أيّ قيد أو شرط لوجود الله وتصوّرنا فقدان القيد أو الشرط انتفى وجود الخالق أيضاً عند انتفاء الشرط والقيد ، في حين أن وجود الله مطلق غير مشروط لا يمكن افتراض التعدد له ، فالعقل لا يقدر على افتراض فرد ثان له من سنخ وجوده المطلق .

لنضرب مثالاً : نقول : لو قبلنا أن لا حدّ ولا نهاية للعالم وأننا لو مشينا في أيّ طرف منه لم نصل إلى نقطة النهاية ، فمع افتراض هكذا صورة عن عالم الأجسام هل يمكننا أن نفترض معه عالماً آخر ؟ كلا إذ إن افتراض العالم غير المحدود ينفي بنفسه افتراض عالم جسماني آخر معه ، وكل ما نتصوّره عالماً آخر فهو إما نفس هذا العالم أو جزء منه .

فمع العلم ، بأن الله هو الوجود المحض يكون افتراض وجود آخر مثله معه كافتراض عالم جسماني آخر ، إلى جانب عالم لا محدود ، وهذا من غير الممكن .

ومن هنا نعلم أن ليس معنى : الله واحد ، أنه لا ثاني له ، بل معناه أنه لا يمكن افتراض وجود إله ثانٍ معه ، وأن نفس وجود الله مستلزم لكونه واحداً فرداً ، وأن انفراده بذاته ، وبذلك يعرف ويميّز عن سائر الموجودات ، في حين أن سائر الموجودات لا تتميّز بذواتها ، وإنما تميّزت بما وهب الخالق لها من تميّز وتشخيص .

ولو كان المعنى الواقعي لكلمة « الله » متحققاً في ذهن الإنسان العاقل وعرفه بمعناه الصحيح ، توصل بصورة طبيعية إلى منافاة التعدد مع ذاته سبحانه .

نحن نرى بوضوح أن جميع أجزاء العالم يسودها نوع من الوحدة

والانسجام المستمر والممتدّ : فالإنسان يولد غاز الكاربون لتتنفس به النباتات ، وهي بدورها تولد غاز الأوكسيجين لتنفس الإنسان وبهذا الأخذ والعطاء المتبادل بين الإنسان والنبات تبقى نسبة معينة من الأوكسيجين في الحياة مستمرة ، وبدونها لم نكن نرى أيّ أثر من حياة الإنسان اليوم على وجه كرة الأرض .

وإن مقدار الحرارة التي تتلقاها الأرض من الشمس بقدر حاجة الموجودات الحية فيها ، فإن سرعة سير الأرض حول الشمس ، وبعدها عن هذا المنبع العظيم للطاقة والحرارة ، قد انتظم بحيث يمكن للإنسان الحياة على وجه الأرض، وكذلك بعد الأرض عن الشمس يتطابق مع مقدار الحرارة المناسبة للحياة على الأرض ، مثلاً لو أصبحت سرعة سير الأرض في كل ساعة مئة ميل بدلاً عن الألف ميل ، كانت الأيام والليالي تطول أكثر مما هي عليه الآن أكثر من عشر مرّات ، وكانت شدة الحرارة في الأيام ترتفع حتى تحرق جميع النباتات ، وكانت برودة الليالي في الشتاء تجمد جميع الأزهار والأعشاب .

ولو كانت أشعة الشمس تتضاءل إلى النصف مما هي عليه الآن ، كانت ذوات الأرواح تتجمد من شدة البرد ولا تقدر على أية حركة ، ولو كانت هذه الأشعة تتضاعف إلى ضعفي ما هي عليه الآن كانت تتوقف أنشطة الحياة في المراحل الأولى من تكوّنها .

ولو كان القمر أبعد من الأرض مما هو عليه اليوم كان مدّ البحار يشتدّ حتى يصل إلى درجة قلع الجبال من أصولها .

إن هذا العالم المتحرّك بهذه الرؤية هو قافلة قد شدّ كل من فيها بعضهم ببعض ، وهم كالأجزاء الكبار والصغار لجهاز واحد في وجهة واحدة على سعي وفعالية جاهدة ، وعلى كل شيء من أجزاء هذا الجهاز وظيفته وتكليفه بالنظر إلى موضع كل من هذه الأجزاء ، وكل هذا الجهاز يكمل

بعضه بعضاً ويساعده ، ويربط بين كل ذرّة مع سائر ذرّاته علاقة معنوية عميقة مترابطة .

كتب البروفيسور (روايه) المفكر الشهير ، يقول :

« إن بين جميع مخلوقات هذا العالم سلسلة حديدية أو خيط ربط أو علاقة سرية محكمة تقرر بينها التعادل التام ، حتى أن المخلوقات غير ذات الشعور والوعي ليست بعيدة عن بركات هذه العلاقة الخاصة ، إن مخلوقات هذا العالم كأنما هي في صف واحد متسلسل ، أو كأنما هي منتظمة في سلك كسبحة لا تنقطع ، وإن حركات حياة هذه المخلوقات إنما تتحقق طبق نفس هذه العلاقة القوية والسرّية .

ننظر إلى موجود حيّ ، نرى أن الدورة الدموية واللمفاوية والعصبية منسجمة بل مترابطة بل متحدة ، وهي تستمر في جسم الإنسان مثلاً بقدرة وشمول بحيث قد يفكر الشخص لأول مرة أنه يعيش في وسط طوفان من فقدان النظام ومن الهرج وعدم الانسجام ! .

العجيب أن الشكل العام لكل خلية حية كسلسلة نابضة بالحياة بين أمواج هائلة كأنها غير منتظمة فيما بينها ، بغضّ النظر عن جانبها الفيزيولوجي ، ويبهت فكر الإنسان ويعضّ أصبع الحيرة والدهشة حينما يرى أن جميع هذه الأمواج والاضطرابات بما فيها من توازن وانسجام إنما هي تحت إرشاد عامل موحد كبير وقدير ، وبإمكان الإنسان أن يرى هذا العامل القدير في كل وحدة وانسجام ، وكل صورة ترمز إلى نوع من الوحدة والانسجام في مجموعة غير منتظمة بظاهرها »(١) .

وهنا نقول : إن العالم المليء بالوحدة ، لا بدّ أن يكون مرتبطاً بحقيقة واحدة ومبدأ واحد ، ويجب أن يكون وجوده نابعاً من تلك النقطة الوجودية الواحدة ، إن الوجود لو كان واحداً لم يمكن أن يكون موجده متعدداً ، إن

(١) ألفا عالم في البحث عن الخالق العظيم : ص ٥٠ (بالفارسية) .

الذي أوجد الوحدة والانسجام في محيط الوجود المختلف والمتكاثر ، قد جعل من قدرته هذه برهاناً صادقاً على وحدته وعلمه وقدرته .

ويقول القرآن الكريم :

﴿ قل : أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك في السموات ؟ أم آتيناهم كتاباً فهم على بيّنة منه ، بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلاّ غروراً * إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، إنه كان حليماً غفوراً ﴾[١] .

إن فطرتنا التي هي من الأبعاد الأساسية لوجودنا تؤيّد هذه الوحدة ، فإننا في الاضطرابات الشديدة والمصائب العظيمة تميل آمالنا إلى جهة واحدة ونتجه إلى نقطة معينة بقلوبنا وأفئدتنا .

سأل هشام بن الحكم أحد تلامذة الإمام الصادق منه (عليه السلام) :

ما الدليل على أن الله واحد ؟ قال (عليه السلام) :

« اتصال التدبير ، وتمام الصنع ، كما قال الله تعالى : **﴿ لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا ﴾**[٢] .

إذن فاستقرار وشمول هذا النظام العالمي العام يكفيان لنفي فرضية تعدد الآلهة في منطقة واحدة ، أو مناطق متعددة من نظام هذا العالم .

يقول (المستر موريس مترلينك) : « عندما يفجرون أيّ ذرّة من درّات جميع الأجسام نصل إلى الذرّة (الذرّة العلمية = أتوم = ATOM) وعندما يفجرون هذه الذرّة نصل إلى ما نسميه نحن ـ من ضيق التعبير ـ بالطاقة الكهربائية ـ (الكتريسيتي) وهو الذي يتشكل بأشكال مختلفة ومنها جميع

---

(١) سورة فاطر : الآيتان ٤٠ ـ ٤١ .

(٢) كتاب أصول الكافي ـ باب التوحيد .

المـواد الإنشائيـة في العالم ، ومن هنـا نستنتج أن الـذي خلق هذا العـالم هو واحد ، فإن جميع أجزاء هذا العالم من المواد والقوانين إنما تتشكل من هذا الشيء الواحد الذي لم نعرفه بعد . . »[1] .

ومع أن القرآن الكريم يؤكد وحدة الله في الخلق وإدارة العالم ، مـع ذلك يذكّر بدور العلل والأسباب التي هي عوامل مطيعة له سبحانه ، فيقول :

﴿ والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، إنّ في ذلك لآية لقوم يسمعون ﴾[2] .

وبعدما وصلنا إلى هذه النتيجـة : وهي أن ليس في نظام الـوجود أيّ أحد سوى الله عامل في الخلق والتدبير والإدارة ، وأن جميع منابع التأثير في العالم إنما هي تحت أمره وإرادته ، وأن أداء أيّ دور من جانب أيّ عامل ، أو أيّ علة أو سبب في هذا العالم ، إنما أوتيه من ناحية تلك الذات المقدّسـة الخالقة والمقدرة . . بعد هذا كيف يمكننا أن نرى أيّ موجود سواه مساوياً له في ذلك ، أو أن نخضع له بالعبادة ؟! ويقول القرآن الكريم بهذا الصدد :

﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهنّ إن كنتم إياه تعبدون ﴾[3] .

* * *

---

(١) عالم آخر : ص ٤٩ (بالفارسية) .

(٢) سورة النحل : الآية ٦٥ .

(٣) (سجدة واجبة) . سورة فصلت : الآية ٣٧ .

القدرة الإلهيـة المطلقة

لا دليـل لإثبات القـدرة المطلقـة الإلهية أوضـح من ظواهـر الطبيعـة وصورها وأشكالها وألوانها الطبيعية التي تفوق حدّ الوصف والبيان .

إننا حينما نلقي نظرنا على مخلوقات الله نرى أنفسنا أمام قدرة عظيمة لا يتصور لها أيّ حدود أو قيود ، إن مراجعة هذه المخلوقات وملايين الحقائق المودعة في عجائب الطبيعة ، وأعماق نفوسنا ، بلغ بنا إلى أوضح البراهين على مدى قدرة خالقها ، ولا طريق سوى قدرة الله المطلقة لتعليل هذا النظام وتفسيره .

إن قدرته المطلقة هي التي تحمل العقل على الخضوع أمام خالق هذا النظام العظيم ، وليست لنا أية كلمة تحدد لنا أبعاد هذه القدرة المطلقة ، إن قدرة الله العظيمة تبلغ ما وصفه ذاته سبحانه في قوله : ﴿ **إنمـا أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن ، فيكون** ﴾[1] .

إن أبطال العلوم الطبيعية ورجال المختبـرات العلمية لم يتـوفقوا حتى اليـوم إلى كشف أسرار الخلقـة بصورة كـاملة حتى في جزء واحـد من هذه

---

(١) سورة يس : الآية ٨٢ .

الكثرة من المخلوقات الصغيرة والكبيرة والمختلفة .

ومع ذلك فإن المعلومات القليلة والناقصة والقصيرة التي حصل عليها الإنسان بالنسبة إلى قسم من موجودات نظام هـذا العالم ، تكفي لإدراك لا نهـائية تلك القـدرة العظيمـة في هذه المـوجودات المتنـوعة ذات الأحجـام المختلفـة من الحيوانـات الصغـار والكبـار في أعمـاق البحـار والمحيـطات بمختلف الأشكال والصور ، والطيور الجميلة ذات الألحان العذبة والأجنحة الملونة البديعة في بطون الغابات ، والنجـوم والكواكب وطلوعهـا وغروبهـا والشفق والأفق والشمس والقمر والكرات والمجرات والسحابيات بما فيها من ملايين النجوم العظيمة المشرقة ، مما يحير ذوي الألباب والعقول .

يحكي البروفيسور (روايه) جانباً من عظمة عالم الفضاء فيقول :

« إن في منظومتنا الشمسية مئة ألف من النجوم لم يعرف سوى خمسة آلاف منها ، ومنظومتنا الشمسية هذه جزء صغير من مجرتنا (درب التبانـة) ونحن لا نتمكن من أن نرى سوى جانب صغير منها ، هو من أكثـر أجزائهـا كثـافة ، ولكن نفس هـذه المجرة العـظيمة ليست أمـام مليارات المجـرات الأخرى سوى سحابة صغيرة فيها نجوم ، وتسمى مجموعة المجرات هذه في العلوم (ميتا كالاكسي) وهي التي تشكل مجموع العالم » .

وقد قدّر (آنشتاين) العالم الرياضي أبو نظريـة النسبية ، قدّر الشعاع النسبيّ لهـذا العالم بستمـئة سنة ضـوئية ، وكـان قد أقنـع العلماء بنـظريتـه القائلة : بما أن العالم في حدّه الأعلى لا نهاية له ، وبما أن وسائلنا العلمية وإمكاناتنا اليوم لا تظفر بالوقوف على نهايـة هذا العـالم ، إذن فالأحسن أن نحسب نسبة شعاع هذا العالم بستمئة سنة ضوئية والتي تعادل اللانهاية ، ثم نأخذ بالتحقيق في فضاء نسبي قطره ألف ومئتا سنة ضوئية .

وكان (آنشتاين) قد قام بهـذه الحســابات بالاستنـاد إلى التحقيقات العلمية في مراصد جوية كمرصد (بالومار) الذي كان يعـدّ أقوى المـراصد

يومئذٍ ، وقد كسر الراديو هذه الحدود وتعداها وقلل من قيمة أعمال مرصد (بالومار) .

إن عدداً كبيراً من الصور الملونة بالألوان الأصيلة للمصورات الفضائية التي صورتها (بالومار) ولا سيما من مجرتنا هذه (درب التبانة) لا تزال منذ سنين مورداً لتحقيق علماء الفضاء في العالم ، وإن النظريات التي أبداها العلماء كانت مستندة إلى هذه الصور .

إن طوّل مجرتنا هذه مئة ألف سنة ضوئية ، والمنظومة الشمسية في أحد طرفيها ، وهي تسير في الفضاء بسرعة مئتين وخمسين كيلومتراً في الساعة منذ ميليارات من السنين »[1] .

فهل الخليقة بهذه العظمة المحيّرة لا تعبّر عن القدرة المطلقة للخالق العظيم ؟ أفهل يمكن أن نغضّ عيوننا عن قدرة خالق وهب الحياة هذه الألوان المختلفة والمتنوعة ، والذي وضع الأصول الحيوية لها وصوّر صورها وعيّن حدودها ؟ .

نحن نعلم أن إبداع هذه الهندسة البديعة إنما تتحقق من ذرة صغيرة ، ولا يمكن تفسير هذه الموجودات إلاّ مع الإذعان بقدرة مطلقة مريدة ومقدرة وهادية ، أجل هو الله ﴿ **الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى** ﴾ ، فهو القادر على الخلق والإبداع وهو المهندس الحكيم .

إن الصغر والكبر والمشكل والسهل من خواص الموجودات المحدودة ، وليس للقلة والكثرة والصغر والكبر أيّ طريق إلى ذات الله وصفاته ، ويمتنع تصوّر العجز ـ وهو من لوازم محدودية الفاعل أو لوجود المانع أو لفقدان الوسائل ـ بشأن الوجود اللانهائي الإلهي ، كما يقول القرآن الكريم : ﴿ **وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً** ﴾[2] .

---

(١) ألفا عالم في البحث عن الخالق العظيم : ص ١٣ ـ ٢٩ ـ٣٢ (بالفارسية) .

(٢) سورة فاطر : الآية ٤٤ .

ومع أن الله على كل شيء قدير ، فقد خلق هذا العالم بنظام خاص ، وأعطى كل شيء دوره المعين في إطار هذا النظام الدقيق ، والأشياء في واجباتها إنما هي جنود للرحمان مجندة سامعة مطيعة لا تعصي الله ما أمرها وإنما تفعل ما تؤمر ، كما يقول القرآن الكريم :

﴿ والشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخَّراتٍ بأمره ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله ربّ العالمين ﴾[1] .

وليس لأيّ موجود في نظام هذا العالم أن يكون منفرداً بشيء من القدرة ، أو ذا حظ في إرادته وحكمه ، فكما لا شريك لذات الله كذلك لا شريك له في فاعليته ، وكما لا استقلال لذوات موجودات هذا العالم فهي مستندة في وجودها إليه كذلك لا استقلال لها في الفاعلية والتأثير، فكل فاعل وسبب لا بدّ أن يكون وجوده منه سبحانه وكذلك فاعليته وتأثيره .

وإذا اقتضى الأمر وأراد الله أفقد نظام الوجود دوره المعتاد له ، وأصبح هذا النظام العظيم خاضعاً لإرادته سبحانه ، فإن الخالق الذي وهب لكل عامل وسبب أثره الخاص به قادر على أن يحبط أثره في أيّ لحظة ، وأن يسلب أثر الحوادث بأمره كما أوجد النظام فيها بإرادته وحكمه ، كما يقول القرآن الكريم :

﴿ قالوا : حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم * وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ﴾[2] .

إن قوة الجاذبية في الأرض والشمس ، وإن كانت نافذة في رقعة وسيعة من هذا العالم ، إلا أنها خاضعة أمام إرادته سبحانه ، فما أن يهب الله قدرة الطيران لطائر صغير حتى يتمكن من مقاومة جاذبية الأرض طائراً في الجو :

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٥٤ .

(٢) سورة الأنبياء : الآيات ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ .

﴿ ألم يروا إلى الطير مسخّرات في جو السماء ما يمسكهن إلاّ الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾[1] .

إن أيّ موجود يفترض في هذا النظام لا تقضى حاجاته في الوجود ودوام الحياة إلاّ بالله العظيم ، وإن أيّ قدرة في هذا النظام إنما تنتهي إلى القدرة المطلقة الإلهية ، يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) في خطبة له في نهج البلاغة :

« فلسنا نعلم كنه عظمتك إلاّ أنّا نعلم أنك حيّ قيّوم لا تأخذك سنة ولا نوم لم ينته إليك نظر ولم يدركك بصر أدركت الأبصار وأحصيت الأعمال وأخذت بالنواصي والأقدام ، وما الذي نرى من خلقك ونعجب له من قدرتك ونصفه من عظيم سلطانك وما تغيب عنا منه وقصرت أبصارنا عنه وانتهت عقولنا دونه وحالت ستور الغيوب بيننا وبينه أعظم »[2] .

إن الإنسان حينما يصمم على بناء مستشفى مثلاً فإنه يعدّ قسماً من الوسائل والأدوات اللازمة التي ليس بينها أيّ علاقة ذاتية ، وإنما هو يربط بعضها ببعض بروابط اصطناعية ، ولإيجاد هذه الروابط الاصطناعية يفيد من أشياء وإمكانات مختلفة ، وليس عمله الذي يشكل جزءاً من معدّات هذا البناء فاعلية خالقة ، بل فاعلية حركة تصنع الشكل الخاص من الأشياء الموجودة ، بينما ليس صنع الله من نوع إيجاد علاقة مصطنعة بين أمور مختلفة ، بل إنّ الله خالق كل شيء بجميع خصائصه وقواه .

ونحن إذ نقول بأن الله على كل شيء قدير ، علينا أن نعلم بأن القدرة إنما تتعلق بالأمور الممكنة ، أما الأمور المستحيلة عقلاً فهي خارجة عن حيطة القدرة بصورة مطلقة ، بل لا معنى لاستعمال كلمة القدرة في المحالات .

---

(١) سورة النحل : الآية ٧٩ .

(٢) نهج البلاغة / الخطبة : ١٥٩ .

أجل ، وإن كانت قدرة الله غير محدودة ، ولكن لا يصح الغفلة عن شرط قابلية المحل لتعلق القدرة الإلهية ، فإن عدم استحالة الأمر والقابلية الذاتية شرط لازم في تعلق إرادة الله به ، وإن إرادة الله لا تتعلق بشيء إلاّ مع قابليته الذاتية ، صحيح أن الفيض الإلهيّ دائم لا نهاية له ولكن المورد غير قابل لهذا الفيض ، البحر المحيط ممتلىء من الماء إلاّ أن لكل شيء ظرفية خاصة ، ولا يستوعب أيّ ظرف أكثر من ظرفيته ، وليست المحدودية من قبل مياه المحيط بل في الظرف .

قيل لأمير المؤمنين (عليه السلام) : هل يقدر ربّك أن يدخل الدنيا في بيضة من غير أن تصغر الدنيا أوتكبر البيضة ؟ ، قال : إن الله تبارك وتعالى لا ينسب إلى العجز ، والذي سألتني لا يكون[1] .

فمع أنه لا سبيل للعجز إلى ذات الله المقدّسة ، إلاّ أن التساؤل عن قدرة الله على فعل محال تساؤل غير معقول ولا معنى له .

إن المؤمن الممتلىء قلبه بالإيمان بالله وحبه لا يجد نفسه خائباً آيساً وحيداً ، بل لا يقدم على أيّ عمل إلاّ مع وعي كامل وهو يرى نفسه تحت رعاية تلك القدرة العظيمة الإلهية التي تستطيع أن تنصره في كل المشاكل والأمور .

إن من عرف الله وعلم أنه يتمتع بتأييده يتصف بالصبر والمقاومة أمام الصعوبات ولا يرى المشاكل إلاّ كزبد على سطح المياه يزول بسرعة ؛ وكل نار تتأجج حوله من المشاكل فإنه سيخرج منها كزبر الحديد أقوى وأصلب .

يحسّ بفضل الله وعنايته في جميع مراحل المشاكل ، وهذا الإحساس هو أساس سعيه ومحاولاته ، فلا يجد أيّ مانع في طريقه حتى خيبة بعض آماله فإنها لا تستتبع استسلامه للمشكلات ، بل يتابع هدفه حتى الظفر التام بمثابرة في العمل وإخلاص في النية .

---

(١) بحار الأنوار ج ٣ ص ١٤٣ .

إن المؤمن بالله يعلم جيداً أن: **﴿سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾**وأن النصر للمؤمنين ولعباد الله الصالحين ، وأن الله يأخذ بأيدي المظلومين الذين لا يجدون لهم ملجأ إلّا الله ، ويصل بهم إلى أوج العزة والعظمة ، وقد يرغم أنوف الأعزة الطغاة الظالمين الذين لا يفكرون في شيء سوى القدرة والسلطان ، والذين لا يعترفون للإنسان بأيّ ثمن .

ما أكثر من سقط من هؤلاء الجبابرة في هوة الظلام ، على مدى التأريخ البشري ، سقطوا في أمواج الذلة وهلكوا .

كلنا يعلم شيئاً عن قصص أنبياء الله الذين هم نماذج كاملة لكل القيم الإنسانية ، وكيف قاموا بوجه القوى المتحالفة أمامهم ، وذلك لإنقاذ الناس وإرشادهم وتجديد بناء المجتمع وسوقه نحو الأهداف السامية ، هؤلاء الذين كانوا أول من حمل مشعل الثورة على رؤوس أهل الشرك والضلال ، وقد كانت لدعوتهم آثار أثرت في صورة ومسيرة التأريخ ، وأسست أساس التوحيد والفضائل بجميع أبعادها وكل جوانبها .

فهل لأحد أن ينكر دور الإيمان والوحي في مساعيهم التي لم تكن تعرف الكلل والملل ؟! لنفكر إلى أي درجة يستطيع أن يصبر الإنسان ويبدي من نفسه قوة الإرادة ؟ .

بمرور عابر على تأريخهم الفاخر نلمس إخلاصهم وصفاء ضمائرهم ورأفتهم ورحمتهم بالإنسان والإنسانية ، وأن سر خلودهم هو أنهم لم يكونوا يفكرون في أنفسهم لحظة واحدة بل كانوا قد جعلوا حياتهم وقفاً لإرشاد الناس بكل إخلاص ، فوهب الله لهم بذلك صفة الأبدية والخلود .

* * *

علم الله الشامل

إن الله الـذي لا يحويـه المكان ولا يخلو منـه مكان ، وليس لـه حـدّ محـدود ، طبيعيّ أن يكون عـالماً بكـل شيء ، وليس شيء في نـظام هـذا العـالم ، لا يحويـه علم الله الشامـل المحيط ، فالحـوادث التي تجري في أقصى نقاط هذا العالم ، والتي مضى عليها مليارات السنين أو التي تحدث بعد مليارات السنين ، لا تخرج عن إحاطة علم الله سبحانه ، وعلى هذا فلا سبيل إلى الوقوف على حدود علم الله ، إذ لا حدّ له .

لغاية إدراك سعة علم الله لو أمددنا أفكارنا بالتحقيق والتدبّر بعقولنا التي تستطيع أن تستوعب الطبيعـة في لحظات ، ومضينـا قدمـاً نحو هـذه الغايـة بـأجنحة أفكـارنا الحـرة ، فإن أفكـارنا لا تـزال تفقد الاستعـداد لدرك تلك الغاية .

لو كنا في كل مكان كما نحن في مكان ونقطة خاصة ، ولم يكن يخلو منا أيّ محل ، لم يكن ليخفى علينا أيّ شيء ، بل كنا ندرك كل شيء .

ينقسم العالم بالنسبـة إلينا إلى قسمين : « غيب وشهـود » وليس كون بعض الحقائق من الغيب عنا لعدم ماديتها أو لعدم كـونها من المحسـوسات بالحواس الظاهرة ، ولعـدم محدوديتهـا ، بل لا ينحصـر الوجـود في الأمور المحسوسة التي تدخل تحت التجربة .

إننا من آجل أن ندرك رموز وأسرار حقائق الوجود نحتاج إلى مدرجة للقفز إليها ، ومدى فعالية هذه القفزة يتوقف على قوة الفكر الفعّال عندنا ، فإذا أعدّت لنا هذه المدارج تمكّنا من معرفة كثير من الواقعيات .

إن القرآن الكريم يبدي رؤية واسعة عن الوجود تحت عنوان : « الغيب » والأنبياء حاولوا أن يصعدوا برؤية الإنسان عن عالم الخلقة إلى الإيمان بالغيب ، كي تتجاوز رؤيته المحدود إلى اللامحدود وتتعدّى الظاهر حتى آفاق الغيب الخفي .

أما الله فلا غيب بالنسبة إليه بل العالم كله شهود لديه كما يقول القرآن الكريم :

﴿ عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ﴾(١) .

إن المصنوعات البشرية تنبع من ذكاء وعلوم صانعيها ، وكلما كان المصنوع أدقّ وأكثر فنية ومهارة كان أكثر دلالة على مدى علمية الصانع ، وكان أدلّ على هندسة وهدف ذلك الصانع .

ومع أن عظمة هذا العالم لا يناسب القياس بمصنوعات الإنسان إلّا أن عظمة هذا العالم وصور موجوداته المتناسبة وما تدل عليه من عظمة تلك الحكمة في هذا النظام العظيم ، وبهذه المناظر الجميلة والمحيّرة ، كلها تدلّ على العلم اللانهائي والمحيط لذلك الناظم والمدّبر الخلّاق ، بل هذه المظاهر من أقوى الأدلة على ذلك الوجود الفيّاض بالعلم والإرادة والحكمة ، ذلك الوجود الذي أبدع هذه العجائب على أساس برنامج دقيق ومنظم ، وبإمكاننا أن نتعرّف على مظاهر هذا العلم الواسع في كل جزء من أجزاء ظواهر هذا الوجود .

والذين يحاولون متابعة تجارب المختبرات ونظريات العلماء بإمكانهم

---

(١) سورة الحشر : الآية ٢٢ .

أن يشاهدوا عجائب كثيرة من مظاهر ذلك العلم اللانهائي في الحيوانات والحشرات والنباتات .

أجل ، إنه يعلم بمجاري النجوم والكواكب في فضاء السماوات وبعالم السحابيات ودوران المجرّات ، من الأزل وإلى الأبد ، وبعدد الذرّات في جميع الأجرام والأجسام والأحجام ، وبحركة ميليارات الموجودات الدقيقة والخشنة على وجه الأرض ، وفي أعماق البحار والمحيطات ، وبجميع القوانين والسنن الطبيعية النافذة والمستمرة ، وبالظاهر والباطن لكل شيء ، وبما تضمر الصدور والضمائر بل هو أقرب إليها من أصحابها ، ونستمع مرة أخرى هنا إلى نداء القرآن الكريم ، إذ يقول :

﴿ ألا يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير ﴾[1] .

﴿ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴾[2] .

يقول (نيوتن) : « بالنظر في جهاز السمع في الأذن والبصر في العين نفهم أن صانع الأذن عالم بقوانين الأصوات بشكل كامل ، وصانع العين خبير بالقوانين المعقدة المتعلقة بالنور والرؤية ، وبالنظر في نظام السماوات نتوصل إلى حقيقة كبرى تدبّر أمرها بهذا النظام الحكيم الخاص »[3] .

ولهذا فإن علماء الطبيعة بفضل اطلاعهم على دقائق النظم في أعماق الوجود ، وبفضل خبرتهم وتجاربهم الكاشفة عن المحاسبات الدقيقة في الوجود الحيّ ، والميت ، وكريات الدم والخلايا ، وكيفية تأثيرها وتأثرها وأفعالها وردودها لديها ومختلف تحولاتها ، حسب تحقيقاتهم العلمية ، وبفضل مشاهداتهم التجريبية في مظاهر الحكمة المحيّرة والعلم الواسع اللانهائي في آفاق الطبيعة ، بفضل كل هذا تتجلى لهم سعة علم الله وكمال

(١) سورة الملك : الآية ١٤ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٥ .

(٣) دائرة المعارف لفريد وجدي ، ج ١٠ ص ٤٤٨ .

أوصافه ، وإن هم لم يتعمدوا إخفاء نداء الوجدان فهم يرون وجود الخالق أوضح وأجلى من غيرهم .

يقول أحد المفكرين : « إن عالمنا بمخ مفكر فعال أشبه منه بجهاز ميكانيكي كبير ، وكتعريف علميّ أقول : إن عالمنا مخلوق فكرة عظيمة هي أسمى من مظاهر الفكر فينا ، وأنا أرى أن الأفكار العلمية تسير إلى هذا الهدف » .

إن علم الله ليس قاصراً على الماضي ولا على الحوادث والموجودات الحاضرة ، بل إن علمه بالمستقبل كعلمه بالحاضر .

ولا يشبه علمه بعلم الإنسان في توقفه على وجود المعلوم في الخارج ، ولا يصح تصور أن علمه حاصل له من طريق التحقيق في المخلوقات ، إن علمه لا يناسب القياس بعلم الإنسان وليس باستطاعة المقاييس البشرية أن تعمل أي شيء لمعرفة كيفية علمه سبحانه ، إذ لا بد لعلم الإنسان من وجود المعلوم كي يتعلق به العلم ، وليس الأمر كذلك في علم الله سبحانه ، إن علم الله « علم حضوري » حسب المصطلح العلمي ، أي لا يجب فيه وجود المعلوم كي يتعلق به العلم ، بل الأمر مكشوف لديه ، وذات الله وإن كان غير موجوداته ولكنه ليس خارجاً عنها أيضاً كما يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) ، فالماضي والمستقبل حاضر لديه بدون أي واسطة ، يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) :

« فارق الأشياء لا على اختلاف الأماكن ، وتمكن منها لا على الممازجة ، وعلمها لا بأداة ، لا يكون العلم إلّا بها ، وليس بينه وبين معلومه علم غيره »[1] .

يشير أمير المؤمنين (عليه السلام) في حديثه هذا إلى ما اصطلح عليه العلماء بالعلم « الحضوري » إذ لا حاجة لله في علمه بالحوادث إلى الصور

---

(١) كتاب التوحيد للشيخ الصدوق ص ٧٣ .

الذهنية التي هي أساس العلم « الحصولي » ، أجل ، لو كان تحقق علمه متوقفاً على تلك الطريقة الحصولية كان محتاجاً إلى تلك الصور الذهنية لتحقق العلم ، في حين أنه هو الغنيّ على الإطلاق .

إن الله الذي منه نشأ وجود العالم والعالمين ، وهو الذي يقضي كل حاجة مفترضة ، وهو الذي يجود بكل نعمة وكل كمال ، وهو مجمع جميع الكمالات والفضائل ، كيف يتصوّر أن يكون هو قاضي الحاجات وفي نفس الوقت محتاجاً ؟ .

إن الصور الذهنية تبقى في أذهاننا حسب ما نريد ، وإذا أهملناها فإنها ستختفي ، إذ أن الصور الذهنية إنما هي مخلوقة لنا .

ويسمى هذا العلم بالحضوريّ ، إذ يحصل من دون حاجة إلى الواسطة ، بخلاف العلم الحصوليّ الذي لا يحصل بدون واسطة ، بل هو انعكاس للطبيعة في حواس الإنسان .

والفارق بيننا وبين الله هو أن الله غنيّ على الإطلاق فلا حاجة له إلى الصور الذهنية .

إن تصوير الحوادث الماضية والآتية ، إنما يكون في آفاق أفكارنا المحدودة ووجودنا المحدود الذي يشغل محلاً من الزمان والمكان الخاص ، والذي لا وجود له خارج حدود هذا المقطع من الزمان والمكان ، إذ إن وجودنا وجود ماديّ ، والمادة في تغيراتها المستمرة وتدرّجها التكاملي تجري على أساس قوانين الفيزياء والنسبية محتاجة إلى الزمان والمكان ، أما الوجود الحاضر من الأزل حتى الأبد في كل زمان بعيداً عن أسر المواد ولوازمها فلا فرق لديه بين الماضي والحاضر والمستقبل .

وبما أن كل حادث يستند في وجوده وظهوره إلى وجود الله المطلق ، فلا يمكن أن يكون بين الله وهذا الموجود أيّ حجاب أو حائل فالله محيط بظاهر كل شيء وباطنه .

وكذلك القرب والبعد والفواصل المكانية ، إنما تنشأ من محدودية وجودنا ، يقول القرآن الكريم :

﴿ ويعلم ما في البرّ والبحر ، وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين ﴾[١]

نفترض أننا واقفون في غرفة مشرفة على الشارع العام ننظر من نافذة صغيرة إلى مجموعة السيارات التي تسير في الشارع على سرعتها، بديهيّ أننا لا نتمكن أن ننظر إلى مجموع السيارات مرة واحدة ، بل تمرّ السيارات أمام تلك النافذة الصغيرة واحدة فواحدة تظهر وتختفي ، فإذا كان الواقف خلف النافذة لا يعلم بحقيقة الحال تصوّر أنها توجد في ناحية وتعدم في أخرى .

والحقيقة أن نافذتنا هذه الصغيرة والمحدودة هي التي تصوّر لنا ماضي ومستقبل هذه السيارات ، بينما يرى الواقفون على جوانب الشارع كمية أكبر من السيارات من دون هذا التصوّر الخاطىء ، إن موقفنا بالنسبة إلى ماضي ومستقبل هذا العالم كهذا الواقف الناظر من النافذة الصغيرة إلى السيارات في الشارع .

يقول العلماء : « ذكر في علم الثيوبولوجيا أن للعالم جهات أربع ، ولكن هناك الكثير من الخواص الهندسية في العالم ليس لها سوى أبعاد ثلاثة مخالفة للصورة العامة » .

لو كان شخص خارج إطار شيء ما كان ذلك الشيء حاضراً أمامه ولم يكن أيّ فرق أن يكون ذلك الشيء أمامه أو خلفه ، كذلك لو تحكم شخص على بعد الزمان = البعد الرابع في العالم ، تمكن من النظر في الأبعاد الثلاثة الأخرى ، ولم يكن لأيّ جهة من الجهات الأربع أيّ خصوصية .

ولو تحرك إنسان بسرعة النور كانت فاصلة تقدر بالصفر ، فجميع

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٥٩ .

النقاط في فضاء الفواصل تبدو في معبر الناظر وكأنها نقطة واحدة مجموعة ، فهو يلاحظ جميع الحوادث وكأنها حادثة واحدة .

والزمان لهذا الإنسان زمان راكد ، أي وإن كانت الحوادث متغيرة ولكنها تبدو في نظرة وكأنها تحدث في آن واحد لا على طول استمرار الزمان ، فلا معنى للماضي والحاضر والمستقبل لدى هذا الناظر النافذ البصر على كل مصير »[1] .

وإذ علمنا أن الله فوق الزمان والمكان ، فجميع الموجودات والحوادث الماضية والآتية حاضرة لديه وموجودة عنده كلوحة مصوّرة من دون أن يكون علمه متوقفاً على هذه اللوحة المصوّرة .

وعلى هذا فنحن أمام خالق عالم بكل صغيرة وكبيرَة كما يقول القرآن الكريم :

﴿ إن الله يعلم ما تفعلون ﴾[2] .

يجب علينا أن نشعر بالمسؤولية وأن نحذر عن كل زلة وتحريفة تسبب لنا الانحطاط والبعد عن الله سبحانه ، وأن نخضع أمام ذلك العليم على الإطلاق الذي أخذ بأيدينا وعبر بنا مراحل الحياة المختلفة حتى بلغ بنا مرحلة انفتاح طاقاتنا واستعدأداتنا ، ولا نعصي أوامره التي تفتح لنا طريق السعادة والوصول إلى الهدف الإنساني السامي ، بل لا نقبل أيّ عامل أو دافع فينا سواه .

وللوصول إلى هذا الهدف السامي علينا أن نتحلى بالأوصاف الإلهية ، وأن نعدّ العدة في هذه المدة للقاء الله وضيافته ، كي يتحقق لنا الرجوع إلى الله أي إلى مبدأ الوجود ، ولا نصل إلى تلك المقامات إلّا بالعمل المستند إلى التقوى ، فمعرفة الله وتوحيده تجعل مسؤولية العمل على عاتق الإنسان بعنوان الأمانة الإلهية .

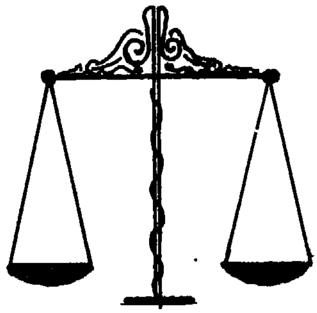
---

(١) العلم والفن : ص ٢٣٦ (بالفارسية) .

(٢) سورة النحل : الآية ٩١ .

الأصل الثاني

عدلُ اللهِ الشّامِل



نظرات حول العدل

سارت مسألة العدالة الإلهية بين سائر الصفات الإلهية مسيراً خاصاً ، حيث كان للمسلمين نظرات مختلفة بشأن العدل الإلهي ، وقد أبدوا اجتهاداتهم واستنباطاتهم في هذه المسألة بأشكال مختلفة .

فجماعة من أهل السنة مّن أتباع أبي الحسن الأشعري ليس لهم إيمان كإيماننا بالعدل الإلهي ، وكأنهم ينكرون العدل في أفعال الله ! .

إنهم يرون : أن كل ما يفعله الله بأيّ شخص حتى لو كان عقاباً أو ثواباً بدون استحقاق بعمل ، كان ذلك حسناً ومحض الحق والعدل ؟ حتى لو حسبناه نحن خلافاً لموازين العدل والإنصاف وفقاً للمقاييس الإنسانية .

هؤلاء ينزعون صفة العدالة عن أفعال الله سبحانه ، ولا يحسبون الشيء عدلاً إلاّ باستناده إلى الله سبحانه ، فلو أثاب المحسنين وعاقب المسيئين كان عدلاً ، ولو عمل عكس هذا أيضاً ، لم يكن خارجاً عن ساحة العدالة ! إنهم إذ يقولون بلغوية التعبير بالعدل والظلم عن أفعال الله ، يزعمون أنهم يقدّسون الله عن هذا الطريق ، بينما نحن لا نحسب عاقلاً يحسب هذه الفكرة تقديساً لله ، بل هي وليدة نقص فكريّ وتعصّب أعمى باسم العلم ! إن هذه النظرة تؤدي إلى إنكار الحساب والنظام وأصل العليّة والسببية في نظام العالم وأفعال البشر .

إنهم يعتقدون بأن نور العقل بكل إشراقه ينطفىء في الإدراكات الدينية . ومسائل الإسلام وأحكامه ، ولا ضوء له على هذا الصعيد كي يضيء الدرب أمام أقدام الإنسان ، ولهذا فلا يمكن الاستناد إلى هداية العقول والإفادة منها .

إن هذا الادعاء لا يطابق القرآن ولا مضمون السنة ، إذ القرآن الكريم يرى الإعراض عن العقل ضلالاً ، بل يدعو الناس إلى التعقل والفكر لمعرفة المعارف الإلهية والعقائد الدينية ، وشبه الذين يعرضون عن الإفادة من أضواء هذا المصباح الذاتي المنير ، شبههم بالحيوانات والأنعام فقال سبحانه :

﴿ إنّ شرّ الدّوابّ عند الله الصمّ البكم الذين لا يعقلون ﴾(١) .

وقال رسول الإسلام (صلى الله عليه وآله) :

« حجة الله على العباد النبيّ ، والحجة فيما بين العباد وبين الله العقل »(٢) .

وأمام هذه الفرقة من المسلمين فرقتان هما : المعتزلة والشيعة ، الذين اختاروا العدل من بين صفات الله وجعلوه أصلاً عقائدياً برأسه ، ورأوا أن القول بأثر القضاء في أعمال الإنسان إلى حدّ اضطراره في العمل ، مناف لأصل العدل ، هؤلاء يعتقدون أن العدل أساس أعمال الله سواء في نظام التكوين أو نظام التشريع ، وكما أن أعمال الإنسان تقاس بمقاييس الحسن والقبح ، كذلك لا مانع من تطبيق مقياس الحسن والقبح على أعمال الله سبحانه ، وبما أن العدل في منطق العقل أمر محمود والظلم مذموم ، فالمعبود المدبّر والحكيم على الإطلاق لا يزاول عملاً مذموماً عند العقل بل ممنوعاً .

إننا حينما نقول : إن الله عادل نعني أن الخالق العليم لا يعمل عملاً

---

(١) سورة الأنفال : الاية ٢٢ .

(٢) الكافي ج ١ ص ٢٥ .

على خلاف الحكمة والمصلحة ، وليس مفهوم الحكمة في الخالق بمعنى بلوغه إلى أهدافه ورفع حوائجه باختيار أحسن السبل ، بل الله هو الذي يخرج الموجودات مما فيها من نقص وإعواز إلى الكمال والغايات السامية ، والحكمة في كل مخلوق هي ما أودعه الله فيه من غايات وأهداف ، والله هو الذي يجود عليهم بفيض التكامل بعد أن أفاض عليهم الوجود .

فالعدل له مفهوم واسع من أجلى مصاديقه الابتعاد عن الظلم والعدوان .

وقد روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال مبيناً لمعنى العدل :

« أما العدل فأن لا تنسب إلى خالقك ما لامك عليه »[1] .

لا ريب أن كل ظلم وفساد في السلوك والعمل على تفاوت واختلاف في الأشكال والأساليب ، وصور صدوره من البشر ، إنما تنشأ من الجهل والحاجة والضعف أو الحقد والعداوة .

كثير من الناس يبرأ من الظلم والفساد ، ولكنه بسبب جهله بعواقب الأمور يلوث يديه بلوث الظلم والعدوان ، أو أنواع الأعمال الفاسدة والقبيحة .

وقد يشعر البشر بالحاجة إلى شيء يفقد إمكانية قضائها ، فتؤدي تلك الحاجة بصاحبها إلى كثير من الفساد ، إن الشعور بالحاجة والحرص الشديد المؤلم والحقد المؤذي من دوافع التجاوز على الآخرين ، أجل قد يصل به الحال إلى أن يفقد اختياره من يده . وينـدفع إلى أن يكرس كل مساعيه ومحاولاته من أجل تحقيق أمانيه وآماله ومناه ، ويكسر في ذلك كل الحدود الأخلاقية والإنسانية ، ويضغط على أعناق المظلومين .

---

(١) الكافي ج ١ ص ٤٤٢ .

وسبحان الله الواحد الأبدي عن هذه الخصائص والنقائص والمضايقات ، إذ لا يخفى على علمه الواسع شيء ، ولا يتصوّر أيّ عجز أو ذل بشأن ذلك الناموس الأزليّ الذي يمدّ بأشعته الخالدة الموجودات بالحياة وينظم تكاملها وتطورها وتنوعها ، إن الذات المستجمعة لجميع مراتب الكمال لا تكون فقيرة محتاجة إلى شيء أبداً وإذن فلا يخاف الله الفوت ، وإذا أراد شيئاً فلا ريب أنه قادر على كل شيء من دون أيّ محدودية في قدرته على ذلك ، كي يخرج لذلك عن جادة العدالة فيظلم أحداً ، أو أن ينتقم تشفياً لخاطره ، أو يعمل أيّ عمل غير لائق بكماله سبحانه .

إذن فدوافع هذه الأعمال أيضاً ، لا تجد طريقاً لها إلى وجود الخالق العظيم ، ولا يمكن أن يجد الظلم مصداقاً في تلك الحقيقة التي يبدو فيض جوده وقداسة ذاته جلية على جبهات الوجود .

والقرآن الكريم ينفي عن الله الظلم وكل عمل مما لا يتناسب وساحته المقدسة فيقول :

﴿ فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾(١) .

ينفي الله في هذه الآية عن نفسه الظلم وينسبه إلى المخلوقين أنفسهم .

ومن ناحية أخرى : كيف يمكن أن يدعو الله الناس إلى إقامة العدل وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، ثم هو يرتكب الظلم ويتجاوز العدل ؟! **﴿ إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، يعظكم لعلكم تذكرون ﴾**(٢) .

إن القرآن الكريم يولي العدل أهمية خاصة ، ويرفع من مقام العدل حتى يجعله هدف بعث الأنبياء ويقول :

(١) سورة الروم : الآية ٩ .

(٢) سورة النحل : الآية ٩٠ .

﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾[1] .

ولمعرفة نظرة الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى العدالة الاجتماعية نقرأ في نهج البلاغة :

« قال عبدالله بن عباس : دخلت على أمير المؤمنين (عليه السلام) بذي قار وهو يخصف نعله ، فقال لي : ما قيمة هذه النعل؟ فقلت ، لا قيمة لها ، فقال (عليه السلام) : والله لهي أحبّ إليّ من إمرتكم إلاّ أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً »[2] .

ويرفع الإسلام مقام العدالة الاجتماعية حتى يحكم على المسلمين أن إذا انحرفت طائفة من المسلمين عن جادة العدالة الاجتماعية واتخذت طريق العدوان والتجاوز على حقوق الآخرين ، وجب إحباط محاولاتهم العدوانية حتى ولو استلزم ذلك محاربتهم وقتالهم :

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إنّ الله يحبّ المقسطين ﴾[3] .

وفي الآية نقطة مهمة ، هي أنها تؤكّد على وسائط الصلح أن يلاحظوا بدقة كي ينهوا النزاع بالعدالة التامة وبدون أيّ تغافل عن الحق والعدل ، إذ في الموارد التي بدأت الحرب والنزاع فيها بين الطرفين بالعدوان من أحدهما على الآخر ، فلو جعل هؤلاء الوسطاء الذين يريدون إنهاء المشكلة بالمصالحة ، لو جعلوا ضغطهم على العفو والصفح ، وحاولوا أن يكتسبوا رضا أحد الطرفين بأن يرفع اليد عن حقه ، كان من المحتمل أن يؤيد

---

(١) سورة الحديد : الآية ٢٥ .

(٢) نهج البلاغة / الخطبة : ٣٣ .

(٣) سورة الحجرات : الآية ٩ .

هـذا العفو والتجاوز الجائـر روح العدوان والتجبـر ، فيمن حاز على شيء بالحرب والعدوان ، وهذا هو الغالب في المصالحات البشرية فهم يحاولون إرضاء المعتدي بإعطائه بعض ما يريد على الأقل .

إن غض الطرف عن بعض الحقوق ، وإن كان حسناً في نفسه ، إلاّ أنه يخلف أثراً غير حسن في نفس المعتدي في هكذا مواقع ، في حين يحاول الإسلام أن يطرد شبح الظلم والعدوان عن أوساط المجتمع الإسلامي ، وأن يثق الناس بعدم الإمكان لأحد أن يظفر بشيء بالعدوان والتجاوز على حقوق الآخرين .

بإمكاننا أن ندرك بملاحظة نـظام الوجـود أنّ هناك تـوازناً يحكم على جميع الظواهـر الفلكية ، تـوازناً شـاملاً ، إن انتـظام الذرّات والألكتـرونات وحركة جميع الأجسام، ومنها دوران المجرّات والسيارات،وفي عالم الجماد والنبـات ، والانسجام الكـامل بين أعضـاء المـوجـود الحيّ وكـل القـوانين الدقيقة ، التي يسعى العلم لمعرفتها ، كـل ذلك دليـل على وجود الانتـظام التـام في جميع أجـزاء العالم ، وقـد بيّن نبينا (صلى الله عليـه وآله) هـذه العـدالة الشـاملة والتوازن التـام وأن لا شيء بلا حسـاب ، في بيان مـوجـز وبليغ : « إن العدل هو الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا » .

ويقول القرآن الكريم على لسان موسى (عليه السلام) :

﴿ ربنـا الـذي أعـطى كـل شيء خلقـه ثم هـدى ﴾[1] ، إن مـوسى (عليه السلام) يصـوّر لفرعـون بهذه الجملة القصيـرة ، كيفية خلق العـالم الفيّـاض باللطف والجمـال والنظام التـام ، الذي هـو من آيات الله سبحـانه وتعالى ، يبين له ذلك ﴿ لعله يتذكّر أو يخشى ﴾ أو يدرك ذلك النظام العادل والدقيق في جميع أجزاء الوجود .

إنّ النظام والاعتدال من السنن الحاكمة على الطبيعة بصورة قسرية ،

(١) سورة طه : الآية ٥٠ .

وكل شيء من أجزاء الطبيعة يتحرك في إطار السنن والقوانين الطبيعية نحو كماله ومسيرته الخاصة ، وإن أيّ انحراف عن النظام العام والعلاقات السائدة عليه يؤدي إلى الاضطراب والاختلال في نظام الكون .

طبيعي أن ظواهر الطبيعة تؤدي نوعاً من ردّ الفعل أمام ظهور أيّ اختلال في الطبيعة ، وتحاول طرد العوامل التي تمانع دون مسيرة التكامل من الخارج أو الداخل ، وتفتح الطريق لاستمرار مسيرة الرشد والتكامل وسيادة النظام والقانون .

فحينما يصاب البدن بحملات العوامل الممرضة والميكروبات ، تحاول الكريات الدموية البيضاء ، أن تحبط عمل تلك الميكروبات مكافحة لفسادها وفق سنة طبيعية قسرية ، والمعالجة الطبية التي تتخذ عن طريق العقاقير ، إنما هي مساعدة خارجية تمدّ تلك الكريات البيضاء بالعون والتأييد ، وتحاول إرجاع الاعتدال إلى البدن ، ولكن يختلف الحال بالنسبة إلى حكومة العدل في الإنسان ذلك لتمتع الإنسان بقدرة الاختيار .

أما الله الرحمان الرحيم المنعم الكريم ، فمحال أن يصدر منه ما لا ينبغي له مما يخالف العدل المطلق ، وهذا نداء القرآن يقول :

﴿ الله الذي جعل لكم الأرض قراراً ، والسماء بناءً ، وصوّركم فأحسن صوركم ، ورزقكم من الطيّبات ، ذلكم الله ربّكم ﴾(1) .

* * *

---

(1) سورة المؤمن : الآية ٦٤ .

تحليل حول الشرور في العالم

إن البحث في عـدل الله يبعث على التساؤل عن سـرّ وجـود البـلايـا والخسائر والشرور في نظام العالم ، وبعض النقائص في طبقات المجتمع ، إن هذا الموضوع يبعث موجاً من الأسئلة والإشكالات وإعصاراً في أفكار كثير من الناس ، بحيث لا يستطيعون الخلاص من تلك التسـاؤلات ، والشكوك والشبهات التي تنشأ من هذا المنشأ تتبدل إلى عقدة لا تنحل .

يقولون : كيف يمكن أن يكون العالم وليد الحكمة ، في حين نرى أن الآلام والشرور تسود هذا العالم ، وأنه صريع تحت رحمة التعاسة والشقاء ، وأن أمواج الإعواز والنقائص تفيض عليه من كل جانب ! .

ـ لماذا نرى أن الحوادث الموحشة والقاسيـة تهدد بين الحين والحين وجود البشر في أطراف العالم ، وتسبب آلاف الخسائر والتلفات ! .

ـ لمـاذا هذا جميـل وذاك قبيح ، هـذا سالم وذاك عليـل ، فلماذا لم يخلقوا سواء ؟ أليست هذه الاختلافات نتيجة لعدم سيادة العدالة في صعيد الحياة ؟! .

ـ إن عـدالة النـظام لا تتحقق إلّا مـع عـدم الـظلم والتمييـز والآفـات والبلايا ، وكل نقص وضعف وفقر ومرض .

* * *

اولا يجب علينا أن نقبل بأن تحقيقنا في مسائل الـوجود ، لا يبلغ بنـا إلى نهاية أعماق هذه الظواهر الوجودية ، ولا يكفي لتوجيه غايات الحوادث وتعليلها .

إن الحوادث المرة والبلايا في بادىء الرأي بلا معرفة حقائقهـا وبدون أن نتوسّم أبعاد أهدافها في النظرة البدائية ، تصوّر لنا انعدام العدل في نظام العالم بحيث تتأثر عواطف الإنسان حين تذكرها بشدة ، وفي خضمّ العواطف المتأثرة تتوالى التحليلات غير المنطقية .

أما إذا فكرنا بصورة أساسية وعميقة أدركنا أن هـذا التصوّر مبنيّ على أساس أننا نجعل مقياس حكمنا على هذه الحوادث أنفسنا ومصالحنا وأناساً ممن يرتبطون بنا مباشرة أو بالواسطة ، فما كان ينفعنا كان حسناً ، وما كـان يضرنا كان سيئاً، فالحسن والسيِّىء هو ما رأته عيوننا القاصرة،كذلك مع عدم المعرفة الدقيقة بالسنن السائدة في العالم فهل الحوادث تـرتبط بنا فقط كي نجعل من أنفسنا مقياساً للحسن والسيِّىء ؟! .

إن عالمنا المادي هذا متـطور ، أيّ متغيّر ، تحـدث غداً حـوادث لـم تكن اليوم ، وتنعدم أشيـاء وتحدث بمكـانها أشيـاء ، فما كـان اليوم مفيـداً لبعض الناس لا يبقى له غـداً وجود في الخـارج ، ونحن بشر نحب أنفسنـا والأشياء المتعلقة بنا فالحسن عندنا ما وجدناه والسيِّىء ما فقـدناه كـذلك ، وهناك بعيداً عن الإنسان حوادث مختلفة تنشأ من تغيّر عالمنا هذا،ولولا تغيّره لما كانت فيه حوادث ، وإذ ذاك فلا حسن ولا قبيح .

في ذلـك العالم الخيـالي الخالي عن التغيّـر والحـوادث لا نقص ولا إعواز ولا تطوّر ولا نموّ ، ولا وجود للتضاد والتباين ، ولا تمايز ولا آمال ولا أيّ حركة ، وفي ذلـك العالم الـذي لا نقص فيه لا أثـر للقوانين الأخـلاقية والحدود الاجتماعية والضوابط الإنسانية ، إن التطوّر والتمايز إنما هو من أثر حركة الكواكب السيارة ، ولو انعدمت هذه التحوّلات لمـا بقيت الأرض ولا الشمس ولا القمر ، ولا الأيام والشهور والسنين ، إن العالم الذي لا ألم فيه

ولا مصائب لا حركة فيه ، ولا مساعي ولا محاولات ، ولولا الإحساس بالمخاطر لما كان الإحساس بالأمان مبهجاً مفرحاً ، إن عالماً لا تتموج فيه المنى والآمال ولا تأثير فيه للعاطفة والمحبة والمودة في أرواح ذوي الأرواح ، لا تستقر فيه علاقات البشر على أساس متلاحم مصمم ، ولكان حب الكمال ميتاً في الإنسان ، بينما العلاقات المتقابلة هي التي تؤثر في تطوّر البشر بمقياس واسع .

وفي رؤية شاملة يمكن أن يكون ما يضرنا اليوم ينفعنا في واقع الحال أو للآخرين ، إذ أن حركة العالم إنما تهدف إلى تحقيق الأهداف العامة للعالم ، وربما تضرر أفراد في مسيرة هذه الأهداف ، أو لم تكن الفوائد عامة لجميع أفراد الإنسان ، نعم لو استطعنا أن نغوص بحار المعارف الإلهية ، ونتصفح بأنامل العلوم والرؤية الشاملة صحائف الأسرار والرموز ، لكانت آثار عواقب الحوادث وفلسفتها تبدو لنا واضحة بيّنة ، أما مع علمنا بأن حوادث اليوم وليدة سلسلة من العلل السابقة ،وهي أسباب لحوادث لاحقة وعلل لمعلولات آتية ، ندرك أن ما نراه ونحكم عليه أنه خير أو شرّ ليس حكماً جامعاً عميقاً .

أجل لو أمكننا أن ننظر من فوق إلى مجموع العالم ، بكل جوانبه الإيجابية والسلبية ، ونرى جميع الأسرار وكل ما يجري في العالم ، فنقدّر جميع نتائج الحوادث في طول تأريخ البشر الماضي والحاضر والمستقبل ، وفي جميع عوالم الوجود الأزلية والأبدية ، فنرى أضرار حادثة ما أكثر من منافعها ، حينذاك كان بإمكاننا أن نصف تلك الحادثة بالشر .

ولكن هل للبشر أن يحيط هذه الإحاطة الكاملة التامة بجميع أسرار العالم ؟!

أما إذا لم تكن لنا هكذا قدرة على التحقيق ، وكانت خطواتنا قاصرة في هذا المسير ، ولم يمكن لنا أن نرفع الستار عن الأسرار والرموز المعقدة في هذا العالم فنحسب لها حسابها ، وجب علينا أن نكف عن الحكم

والقضاء العاجل والقاصر ، وكان علينا أن نعلم بأنه لا ينبغي لنا أن نجعل منافعنا ومصالحنا الخاصة مقياساً للنظر في النظام العام لهذا العالم الواسع ، فنقضي لها بنتيجة كلية ، وبكلمة : لا يمكننا أبداً أن نجعل من نظرتنا النسبية التي تخضع للظروف الخاصة ملاكاً للحكم النهائي .

فربما كانت الطبيعة تعمل من أجل تحقيق هدف يصعب تصوّره على الإنسان وفقاً لمسيرة الحياة الطبيعية ، فهل لنا أن نتصوّر أن هذه الحوادث غير المتناسبة وغير المتزنة تسعى لتمهيد أرضية تنشأ عليها مواليد جديدة تخلف بعض ما هو موجود اليوم ، ولعل الظروف اليوم تقتضي تلك الحادثة الخاصة ؟

لو لم تكن تجري هذه التحوّلات المذهلة لأهدافها المرسومة وتستمر في أدوارها المختلفة لما كان اليوم أيّ أثر من أنواع الحيوانات والإنسان على الأرض .

لماذا نتهم عالم الوجود بالظلم واختلال النظام بمشاهدة عدد من الحوادث والظواهر الاستثنائية ؟ ولماذا نضغط إصبع التأكيد على عدد مما نراه غير موزون ؟ وننسى جميع المظاهر المعقولة والظرائف الدقيقة والعجيبة في العالم ،والتي هي من آثار الحكمة اللامتناهية والإرادة المطلقة التامة .

إن العلوم البشرية بما لها من أشعة فتانة ، قليلة ومحدودة وقاصرة ، وليس الإنسان إلاّ في بدايات المعلومات ، وليس هذا الغرور العلمي إلاّ حصيلة لتلاعبه بالكلمات كيفما يشاء ، فالإنسان الذي لم يحصل بعد على علم تام بأسرار جسمه المحدود ، حينما يحاول الحكم على نظام الوجود بأسراره الواسعة ليس إلاّ مخدوعاً مغروراً .

يقول الدكتور (كارل) : لا شيء أقرب إلينا منا ومع ذلك فإن في هذا الجسم من الأسرار الكثيرة ما لا علم لنا بها .

إن الإنسان الذي يرى التدبير في جميع جوانب الوجود يجب عليه أن

يعترف بأن العالم مجموعة من مجريات هادفة متكاملة، أي تسير نحو الكمال، وأن كل شيء في هذه الحياة يتبع مقياساً معيناً ، أما ما لا يراه معقولاً موجهاً فعليه أن يرى ذلك من قصر في نظره ، وأن يدرك أن محدودية وجوده لا تمنح مجالاً لمعرفة جميع أهداف الوجود وأسراره ، أما نفس عالم الوجود فلا نقص فيه .

إن قضية الحوادث المرة في العالم ، في نظرنا، تشبه قضية ذلك الرجل البدوي الذي يدخل البلد فيرى عدداً من المعاول الميكانيكية ماضية في تهديم عدد من الأبنية القديمة ، فيرى في هدم هذه الأبنية عملاً هدّاماً لا يقوم به إلاّ البلهاء ! ولكن هل أن هذا التخريب والهدم بلا حساب وبلا تصميم وهندسة وأهداف صحيحة ؟ وهل يمكن إقرار ذلك البدوي على حكمه وقضائه هذا ؟ كلاّ؛ إنه رأى الهدم ، ولا علم له بالأهداف المرسومة للمهندسين والقائمين بالهدم والبناء بعد ذلك .

يقول أحد العلماء : « إن حال هؤلاء الذين يحكمون على ظواهر الوجود بالنقص والإعواز والشرّ ، كحال الأطفال الذين شاهدوا مسرحية تمثيلية ، لا تلبث أن تنتهي ، فيعمد أصحابها إلى جمع أثاثهم وأدواتهم ليقوموا بعرضها في محل آخر ويتابعوا عملهم . إلاّ أنّ الأطفال لا يرون أيّ معنى لذلك سوى الانحلال والانتهاء وسقوط الأعمدة والحبال والستائر وذهاب الممثلين » .

إننا لو نظرنا إلى المصائب والبلايا بنظرة عميقة ووسيعه واستفدنا منها استفادة صحيحة ، أدركنا أنها في الواقع نعمة لا نقمة ، بل إن كون النعمة نعمة أو النقمة نقمة يرتبط بنوع ردّ فعل الإنسان أمامها . فالموضوع الواحد قد يختلف وصفه بالنسبة إلى شخصين .

إن المصاب والألم إنما هو صافرة إنذار تبعث الإنسان لإصلاح ما فيه من نقص وإعواز وأخطاء ، والواقع أن الألم والمصاب جهاز الحيطة الطبيعية .

إن أورثت الثروة العيش والكسل كانت شقاء ، والفقر والإعواز لو كان سبباً في تربية الإنسان لنفسه كان نعمة ، فلا الثروة نقمة مطلقاً ، ولا الفقر شقاء مطلق ، وهكذا الأمر بشأن جميع المواهب الطبيعية .

إن الأمم التي تقاوم أعداءها وتضطرّ لحفظ وجودها إلى السعي والعمل ، تصبح أمماً حية مقتدرة ، إننا حينما نصف العمل بأنه سعي بناء ومحاولة إيجابية ، لا ينبغي لنا أن نغفل عن دور المصاعب في تأييد القوى الذاتية لتقدم الإنسان نحو أهدافه ، بل إن الأمة التي لا تضطرّ إلى تنشيط المساعي ، وتعيش في محيط فارغ عن المجاذبات هي أقرب إلى الانحدار والسقوط بل الانغماس في الشهوات واللذائذ المادية .

قد يتحمل الإنسان المصاعب والآلام الثقيلة في سبيل أهداف جليلة؛ لولا تلك المساعي الصعبة لما كان الهدف يبدو كثيراً ، إن مسيرة التكامل لا ينبغي أن تكون بحركة ميكانيكية عمياء متهادية ، وإن محاولات الإنسان بلا إرادة واعية لا تبلغ إلى التغيير الأساسي ، إن المجاذبات المتضادة بمنزلة العصا الزاجرة للدابة عن المسير ، إن الجماد يتفتت بالضغط ولكن الإنسان يشتدّ بالمشاكل والصعوبات ، ولا يظهر نبوغ البشر إلاّ مع وجود الضر والشرّ .

إن اللذة المطلقة والغرام بالدنيا وجعلها هدفاً في الحياة ضلال وابتذال ، وإن أتعس الأشخاص من تربّى في نعمة تامة بعيداً عن صعوبات الحياة وآلامها لا يذوق حرارتها وزمهريرها .

إن اتباع الهوى لا يجتمع مع الحركة المثمرة والمحاولة المقتدرة والسعي المتواصل ، فإن قوة النفس والاستقامة تضادّ الالتذاذ بالفساد .

ولكن كما يستحيل جمعهما معاً كذلك يستحيل نفيهما معاً أيضاً ، فعلى الإنسان أن يسعى دائباً لينمي في نفسه قوة الإرادة والثبات بمقدار ما يقلل من طلب اللذة والمتعة .

إن أولئك المتربين بين المترفين بعيدين عن مزاولة مرارة الدنيا مع

حلاوتها ، حيث لم يعانوا ألم الجوع متمتعين بالرفاه ، لا يدركون لذة الحياة ولا حتى لذة الأغذية ، ولا يدركون الحسن والجمال . إذ إن مزاولة المشاكل وتذوق المرارات ومواجهة الفشل في بعض المحاولات ، وتحمل الآلام والمصائب التي تواجه الإنسان خطوة بعد خطوة ، هذا كله شرط في التمتع بلذائذ الحياة .

إن المدركات المادية والمعنوية من الحياة ، إنما يقدرها من وقع تحت ضغط الحوادث المرة وصعد التلال وهبط في الوديان .

إن الإنسان بسبب تمتعه بالحياة الدنيا يصبح عبداً لها ولمن في يده شيء منها ـ كما قال أمير المؤمنين (عليه السلام) ـ ويفقد حركته الحرة ويغفل أو يتغافل عن الحياة الأبدية والسعي في إعداد نفسه لها ، وهو ما دام في ظل الأهواء وظلام الأشباح فليس إلاّ كريشة على الأمواج المادية ، وكالأسير لكل شيء سوى الله سبحانه . ولهذا فإن الإنسان بحاجة إلى وسيلة لليقظة يكون لها دور في تصوير الأفكار ونضجها ، تذكره بفناء هذا العالم وزواله السريع ، وتبلغ به إلى تحرر النفس العاقلة ، التي هي الغاية المطلوبة للتربية الدينية ، التحرر من جميع الموانع والسدود التي تمنع الإنسان عن الترفع نحو الكمال ، كل الكمال .

أجل ، إن تهذيب النفس لا يحصل بسهولة ويسر ورخاء ، بل يستلزم غض البصر عن اللذيذ من الأهواء ، وهو لا شكّ حرمان مرّ وبلوى ! صحيح أن هذا السعي القيم ، في سبيل توطيد النفس واستثمار الاستعدادات الروحية ، إلاّ أن الصبر عن المعاصي واللذات أمرّ من العلقم في المطعم ، وأشدّ من ألم اللدغة ووجع اللسعة ؟ ولا يقدر الإنسان على أداء رسالته في رفع الموانع وتحطيمها وحلّ مشكلاتها ، ولا يستطيع الصعود إلى مدارج المثل والقيم العليا ، إلاّ بالمقاومة الصلبة .

الآلام منبهات لليقظة والحركة

إن أولئك السكارى بغرور القدرة والظفر ، الذين نسوا الأخلاق الإنسانية بسبب غلبة المغريات على عقولهم وأرواحهم ، قد تقدر الحوادث المرة في أطراف الأرض على أن تكون أرضية لتغيير أفكارهم ويقظتهم ، وأن تهتك الحواجز عن عقولهم ، وأن تهديهم إلى صراط مستقيم نحو كمال إنسانيتهم والبلوغ بهم من حالهم إلى مستقبل مثمر وسعيد ، وكثير من تحوّل من حاله السافل إلى مستقبل حافل على أثر هذه الحوادث والآلام .

إننا بالنظر إلى الآثار الضارّة والموحشة للغرور والغفلة ، والدروس التربوية الكثيرة التي يتلقاها البشر من هذه الحوادث ، نستطيع القول بأن هذه الحوادث والآفات ـ مع كونها شروراً نسبياً ـ تحتوي على نعم كثيرة وألطاف خفية توقظ الإنسان وتصنع له إرادته الواعية والجادّة .

إذن فالشدائد من مقدّمات التكامل في الوجود ، وهي التي تمهد الأرضية لتقييم القيم والمثل والإثابة عليها ، وبها تستبين مراتب الإخلاص والكمال أو الانحطاط في الإنسان ، ويقول القرآن الكريم بهذا الشأن : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾[1] .

---

(١) سورة البلد : الآية ٤ .

﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشّر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنّا لله وإنّا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾[1] .

ويقول الفيلسوف المعروف : (أمرسون) :

« إن التغييرات الطبيعية التي قد تهدد بل تحطم سعادة الناس ، إنما هي إنذار من الطبيعة التي طبعت على النموّ والتكامل ، إذ حينما تظهر الحاجة إلى العبادة للخالق في روح الإنسان تترك الأرواح نظامها الرتيب المبنيّ على أساس المال والثروة والأصدقاء ، كما يترك صغير الحيتان مكانه الأوّل ليجد دوره اللائق .

إن أجر المصيبة يظهر على أفهام البشر بعد مرور الفواصل الزمنية الطويلة .

إن الأدواء ونقض الأعضاء وفقد الثراء وموت الأصدقاء واستيلاء اليأس والقنوط المفرط والبلاء ، مما لا يجبر كسره في حينه . . إلاّ أن مرور الزمان سيأتي على إظهار ما خفي علينا الآن من القوى والطاقات الكامنة ، في هذه الحوادث بل الحقائق الراهنة ! .

إن فقد الأحبة الذي ليس في البداية سوى الحرمان والمصاب ، سيجد صفة الهداية والإرشاد بعد قليل من الزمن ، فإن كل واحدة من هذه الحوادث تتكفل بإيجاد تحوّل في حياتنا لا محالة ، تنهي دوراً من الصبا والشباب المشرف على الأفول ، وتقطع سيرة مستمرة من الحياة والعمل الدائب الدائم ، إلاّ أنها تستحدث بمكانها سيرة جديدة تكون أكثر استعداداً للنموّ والكمال .

إن من يريد أن يعيش كالوردة الطرية سعيدة بعيدة عن الشمس المحرقة

(١) سورة البقرة : الآيات ١٥٥ ـ١٥٧ .

وغير آبهة برقة جلدتها وفرعها القائمة عليه ، حينما يهملها الفلاح وتتهاوى حيطان البستان ، تتبدّل إلى شجرة تين قوية في غابة ، تقوم بإفادة الناس بظلالها وثمارها »[1] .

لا ريب في أن الله قادر على خلق عالم لا ألم فيه ولا شقاء ، ولكنه لو كان إذ ذاك يسلب الإنسان حرية إرادته واختياره ، ويتركه بلا إرادة ودون اختيار وقدرة ، يتشكل في الطبيعة كسائر الموجودات ويتلون بألوانها ، فهل كان ـ إذ ذاك ـ يستحق اسم : « الإنسانية » أيضاً ؟ .

هل كان إذ ذاك يجد كماله ولا ينحدر إلى هاوية الانحطاط والسقوط مع افتقاده لاستعداده وحريته ؟ وهل كان العالم يشتمل إذ ذاك على ما فيه من الحسن والجمال الذي لا يتميز إلّا بالقياس بأضداده ؟ .

إن الله الحكيم سبحانه أراد بحكمته المهيمنة على الوجود كله أن يدل على قدرته وحكمته في تجديد الحوادث وإتقانها بتفضّله على الإنسان بنعمة الاختيار والحرية التي لا تقدّر بثمن .

أودع في الإنسان القدرة على الخير والشر كليهما ، ومن دون أن يجبره على فعل أيهما ينتظر منه الخير دائماً ، فإنه لا يرضى بالشر والقبيح ، وإنما يرضى بالحسن والجميل الذي قرر أجراً كثيراً لا يحصى على فعله وترك ضدّه ، وقد نهاه عن سوء السيرة والإساءة بالاختيار ، وأوعده بالجزاء والعذاب الأليم ، فللإنسان ان يعمل بإرادته واختياره تحت هداية الله سبحانه فيكون شاكراً ، أو يترك فيكون كفوراً .

وقد فتح الله للإنسان طريق العودة إلى الطهارة والنور حتى إذا ما زلت به قدمه عاد إلى لطف الله ورحمته ، وهذا هو من لطف الله وعدله ورحمته .

إن من يبادر إلى عمل صالح إذا ما أثابه الله على عمله ومنجزاته ثواباً

---

(١) الفلسفة الاجتماعية : ص ٣٩٧ ـ ٣٩٨ (بالفارسية) .

عاجلاً ، لم تكن له فضيلة على الفاسد ذي العمل غير الصالح ، وكذلك إذا ما عاقب الله ذوي الأعمال السيئة بالعذاب العاجل ، لم تبق أية مزية للفضيلة على الرذيلة ، وللطهارة على الخبث وسوء السريرة .

إن أساس العالم مبنيّ على وجود الأضداد ، وإن تحوّل المادة في صفاتها هو الذي يجري من خلاله فيض الوجود من الباري سبحانه على هذا العالم ، ولو لم تكن المادة تتشكل بأشكال مختلفة ، ولم تكن مستعدة لتقبل الصور الجديدة على أثر التضادّ بين الموجودات لما أمكن أن يتحقق التكامل والتطوّر لهذه الموجودات .

إن العالم الثابت غير المتغير كرأسمال راكد لا يفيد ربحاً ، وإنما تداول المال هو الذي يستتبع الربح والفائدة ، وقد يكون تداول رأسمال خاص يستتبع خسارة خاصة ، إلّا أن جميع مواد العالم وكل هذا الرأسمال لا ريب يربح في تداوله .

إن التضادّ الموجود في صور المادة يقود نظام الوجود إلى كماله المطلوب .

نحن إذا لاحظنا جيداً وجدنا أن « الشر » ليس وصفاً حقيقياً بل إنما هو وصف نسبيّ ، فالأسلحة النارية بيد العدّو شرّ لي وهي بيدي لمقابلته خير لي ، ولولا العداء بيني وبين عدوّي فلا هي شرّ ولا هي خير .

أضف إلى ذلك أن نظام العالم لا يلبي كل مانريد ، ونحن نريد أن نحصل على كل ما نريد مما لا يحصى من دون أيّ مزاحم أو مانع ، بينما العوامل الطبيعية لا تستجيب لما نحب مما لا أهمية له ولا قيمة ، ولا تستسلم لميولنا ، ولذلك فحينما نواجه في حياتنا الآلام نجزع ونفزع ونعبّر عما أصابنا بالشر ، وهذا التعبير إنما هو من عدم استيعابنا لشؤون الوجود في ذاتنا وعالمنا .

إن من يعلم بعدم وجود النفط في المصباح إذا أراد أن يوقده فلم

يتّقد ، لا يسب الأرض والسماء ولا ينادي بالويل والثبور .

إن عالم الوجود يسير نحو هدفه المرسوم له بسعي متواصل ، وحثيث خطوة خطوة ، ولا تحدث التحوّلات فيه حسب خواطر البشر ، بل بالعلل والأسباب .

على هذا لا بدّ لنا من أن نخضع ونقبل بأن بعض مجريات هذا العالم لا توافق ميولنا ، إذن فلا يمكن أن نصف ما لا يلائمنا من هذا العالم بالظلم والجور والشر بالنظرة الفلسفية .

يقول أحد العلماء : « إن الطبيعة صادقة وعملاقة ، تعمل عملها بدقة وبلا أيّ زلل ، ولا يصدر الخطأ والغلط إلّا من ناحيتنا . إن الطبيعة تحارب الضعف والعجز ، ولا يظهر شيء من أسرارها ورموزها إلّا للطاهرين من المقتدرين المتقين » .

إن أمير المؤمنين علياً (عليه السلام) يذمّ الدنيا ولكنه يراها : خير دار لمن أبصر بها واعتبر منها ، وكان يواجه في حياته أنواع الشدائد والآلام ولكنه يذكر الناس بعدالة الله المطلقة .

وهنا نقطة أخرى هي : أن الخير والشرّ ، في نظام الوجود ليسا مستقلين بعضهما عن بعض ، بل الخير هو الموجود والشر هو المعدوم ، فحينما يأتي الكلام عن الفقر والجهل والمرض ليس الفقر إلّا فقدان الثروة وليس الجهل سوى عدم العلم ، وليس المرض غير انعدام السلامة أو اختلالها .

وحينما نحسب الآفات والسباع والمصائب شروراً ليست هي إلّا أعداماً ، أو ليست شراً إلا لأنها أعدام في أمور أخرى ، وإلّا فلا يمكن أن نعدّ الشيء الموجود بما هو موجود شراً ، فلو لم تستتبع الأمور هذه المرض والموت ولم تسبب في فقدان أجزاء من الوجود ، أو لم تمنع عن نموّ بعض الاستعدادات الإنسانية وغيرها ، لم تكن شراً أصلاً ، فإنما الشرّ بالذات هو

ما ينشأ من هذه الأمور من الخسائر والتلفات .

فما هو موجود في العالم ، إنما هو خير ، والشرّ إنما هو من نوع العدم ، وليس العدم نوعاً من الوجود ، فليس الشرّ نوعاً من الوجود .

وليس مثل الوجود والعدم إلّا كمثل الشمس والظلّ ، فإذا واجه الجسم الشمس أوجد ظلاً ، ولكن ما هو هذا الظلّ ؟ ليس له شيء من الوجود ، وليس هو سوى عدم شمول النور المباشر لوجود المانع ، وإلّا فليس مستقلاً في وجوده .

إن الأشياء بما أنها قد تعلق بها الخلق ، ووجدت لنفسها حظاً من الوجود ، ليست شراً من هذه الجهة ، بل الوجود في الفلسفة الإلهية يساوي الخير والإحسان، فكل شيء خير في وجوده وبالنسبة إلى نفسه، ولو كان شراً فإنما هو بالنظر إلى وجوده النسبي والإضافي بالنسبة إلى الأشياء الأخرى ، وليس الوجود النسبيّ وجوداً حقيقياً وإنما هو وجود اعتباري لم يتعلق به الوجود بالذات .

فبعوض الملاريا ليس شراً في نفسه لنفسه ، وإنما يوصف بالسوء بالنظر إلى إساءته إلى الإنسان وتسبيبه له المرض والموت ، والذي يتعلق به الخلق إنما هو وجود الشيء لنفسه الذي هو وجوده الواقعي ، وأما الوجودات الاعتبارية فبسبب عدم واقعيتها في الوجود لا يصحّ أن نسأل : لماذا خلق الله هذه الوجودات الاعتبارية الإضافية ، فإن الأمور الانتزاعية والإضافية تلازم ملزوماتها ولا تنفك منها قط ، بل هي من اللوازم القسرية للأمور الحقيقية الواقعية ، أما نفس هذه الوجودات الإضافية فبما أنها لا حظ لها من الوجود لا يمكن السؤال عن وجودها .

إنما الموجود بالوجود الواقعي يجد وجوده من الخالق الموجد ، والأشياء والأوصاف الحقيقية لها وجود في خارج أذهاننا ، أما الأوصاف النسبية فإنما هي مخلوقة لأذهاننا ولا حقيقة لها في خارج أذهاننا ، فلا يصحّ أن نسأل عن خالقها .

لقد اقتضت الحكمة الإلهية وجود هـذا العالم بنـظامه هـذا الموجـود بجميع لوازمه وأوصافه التي تشكل بمجموعها هذا الكلّ المتشكل. أما العالم بلا نظام ، أو بلا نظام العلية ، أو مع استقلال الخير عن الشـرور الإضافيـة النسبية ، فليس إلّا وهماً محالاً ، إذ ليس الكلام على جـزء من النظام دون جزء آخر ، بل كل الوجود كالبدن الواحد ، وحينذاك يصبح عـالماً آخـر غير هذا العالم ويخرج عن مورد الكلام .

إن الله غنيّ بالإطلاق ، وذلك يلازم فيض الخلق والإيجاد ، كما يلازم البذل الجواد ، من دون أن يريد بذلك جـزاءً أو شكوراً ، أو كالفنان الماهر الذي يلازم الفنّ والإبداع الدائم ، فالخلق والإيجاد من لوازم أوصاف ذات الخالق البارىء سبحانه .

صور من التفاوت

افترضوا صاحب معمل استخدم لإدارة وإنتاج محاصيل المعمل عدداً من العمّال العاديين وآخرين فنيين ، وحين أداء أجورهم أعطى للعمّال الفنيين المهرة والذين يتميّزون بكيفية عمل أحسن ، أعطاهم أجوراً أكثر من أجور العمال العاديين ، وهنا يأتي هذا السؤال : هل أن هذا الاختلاف في الأجور من العدل أو لا ؟ وهل أن صاحب المعمل ظلم العمال العاديين بعمله هذا أو لا ؟ .

لا ريب في أن هذا إظهار للتفاوت بين العمّال الفنيين وغيرهم ولكنه ليس تمييزاً باطلاً ، فليس معنى العدالة أن يقسم صاحب العمل الأجور بين العمّال الفنيين وغيرهم بصورة متساوية ، بل العدالة أن يعطي لكل أحد ما يستحقه ، وهذا الأسلوب يعين مستوى العمل ويمهّد الأرضية لتقدّم أكثر ، وله الأثر الواضح في رفع مستوى كيفية العمل .

إن التفريق في هكذا موارد من أصرح مصاديق العدل ، وعدم التفريق عين الظلم .

إننا حينما ندرس العالم بكل زواياه ونواحيه نرى أن لكل جزء منه وضعاً وموقعاً خاصاً لا يناسبه إلاّ كيفية خاصة ، وبالتحقيق العميق ندرك ضرورة وجود الظلمة إلى جانب النور والخيبة إلى جانب الفوز والظفر ، واختلاف

المستويات ، في تحقق التوازن العام في العالم ، وأنه لا يتحقق النظام العام إلاّ في هذه الصور المختلفة من الوجود واختلاطه بالعدم .

لو كان العالم وحدة واحدة خلواً من الاختلاف والتفاوت لما كانت فيه هذه الكثرة من الموجودات المتنوعة ، بينما نحن لا نرى عظمة هذا العالم إلاّ في نفس هذه الاختلافات والتنوعات الوافرة ، إننا لا نقدر على التقدير والقضاء العادل الصحيح بشأن العالم ، إلاّ مع ملاحظة توازن هذه المجموعة وعلاقاتها المتقابلة النافعة والمتكاملة ، لا بالنظرة الفردية والجزئية المنفصلة من هيكل هذه المجموعة الوجودية ، إن نظام الوجود مبنيّ على أساس التوازن ، والقابليات والاستحقاقات والموجود الثابت والمحقق في نظام الوجود هو التفاوت لا التمايز ، إذ التمايز عبارة عن التفريق بشأن الاستحقاقات المتساوية والشرائط والأوضاع والأحوال الواحدة ، بينما التفاوت عبارة عن التفريق مع الشرائط والأوضاع غير المتساوية .

إنه وهم غير صحيح أن يقول قائل : كان الأحسن أن يكون العالم متساوياً بعيداً عن أيّ اختلاف وتفاوت ، في حين لا تتحقق الحركة والتكامل والأخذ والعطاء المتبادل إلاّ في ظلّ التفاوت .

إن كل ما ندركه من الحسن والجمال لا يمكننا إدراكه إلاّ مع التقابل بين القبح والجمال ، إذ أن وجود القبح والاضطراب هو الذي يعكس ازدهار الحسن والجمال ، وكذلك لو لم يكن في الوجود افتتان وابتلاء وتورط في المعاصي لما تجلّى اعتبار الفضيلة والتقوى ، ولم يكن أيّ موجب لضبط النفس وتهذيبها ، كذلك لو كانت لوحة الرسّام لوناً واحداً لما كانت هناك لوحة فنان ، وإنما تتجلى مهارته في فنه بتنوع الألوان والأصباغ ودقائق التصوير الرقيق اللطيف .

من أجل أن يتعين الشيء بشخصه لا بدّ من أن يختلف مع سائر الأشياء ، إذ لا امتياز لمعرفة الأشياء والبشر ، بعضه عن بعض سوى الاختلاف فيما بينها وبينهم .

بل إن الاختلاف في الاستعدادات والطاقات والقابليات والإمكانات والمواهب ، من عجائب شؤون الخلقة ، إن نظام الخلقة قد وهب لأفراد المجتمع أذواقاً خاصة لصالح استمرار الحياة الاجتماعية واستقرار نظامها ، فكل واحد يقضي جانباً من حوائج المجتمع ويحل قسماً من مشاكله .

إن التفاوت الطبيعي في الطاقات يستوجب حاجة الجميع إلى الجميع ، وتعهد كل واحد من أفراده ببعض أعماله على أساس قواه وأذواقه ، ولا ريب في أن تكامل الإنسان إنما يمكن أن يتحقق في ظلّ الحياة الاجتماعية .

وبإمكاننا أن نضرب لذلك مثلاً بالطائرة، فإنها ذات قطع وأدوات معقدة دقيقة تتفاوت بعضها عن بعض في الحجم والشكل ، هذا الاختلاف يتبع اختلاف الأعمال الموكلة إلى هذه الأدوات والأجهزة ، ولو لم يكن هذا الاختلاف في أجهزة الطائرة لم تكن لتصبح الطائرة طائرة ، بل تشكيلة من أنواع المعادن المختلفة ، ولو كان هذا الاختلاف في الطائرة من العدل ، لا الظلم فكذلك الاختلاف في موجودات هذا العالم من الإنسان وغيره ليس سوى مقتضى عدل الله سبحانه .

أضف إلى ذلك أن التفاوت في موجودات نظام الوجود من ذاتياتها ، فإن الله لا يخلق كل شيء بإرادة خاصة مستقلة منفردة ، بل إن العالم من أوّله إلى آخره وجد بإرادة واحدة؛ فإفاضة الله بالوجود على الموجودات هي التي أخرجت ما لا نهاية له من الأشياء إلى صعيد العالم بإرادة واحدة .

على هذه النظرية ، هناك نظام خاص لخلق الموجودات ينطبق على جميع أبعادها ، ولكل شيء مكان خاص به في نظام العلية ، وإرادة الله في خلق الأشياء وتدبير العالم هي نفس إرادته للنظام ، والدلائل الفلسفية القطعية تثبت هذه النظرية ، والقرآن الكريم ينبىء عن هذه الحقيقة إذ يقول :

﴿ إنّا كلّ شيء خلقناه بقدر * وما أمرنا إلاّ واحدة كلمح بالبصر﴾[1] .

---

(١) سورة القمر : الآيتان ٤٩ ـ ٥٠ .

من الخطأ أن نتصوّر أن نظام خلقة الله كنظام العلاقات الاجتماعية ، فليست علاقة الموجودات بالخالق علاقة وضعية حادثة ، بل هي نسبة الأحداث والإيجاد ، وأمره في ذلك أمر تكويني حقيقي ، وكل موجود يجد من الكمال والجمال ما بإمكانه أن يتقبله من قبل الله سبحانه .

ولو لم يكن لموجودات العالم نظام معيّن كان بإمكان كل موجود أن يصدر منه كل شيء ، وأن يتبادل المعلول مكانه بمكان علته ، علينا أن ندرك ضرورة وحتمية الروابط الذاتية بين الموجودات، وأنها من لوازمها الذاتية في أية رتبة كانت من الوجود، وعلى أية خصوصية كانت، وأنه ليس لأيّ حادث أن يتجاوز عن رتبته الخاصة ويشغل رتبة موجود آخر ، وأن التفاوت والاختلاف من لوازم المراتب السائدة بين الموجودات من حيث الشدة والضعف والنقص والكمال .

وإنما يتحقق التمييز غير الحق فيما إذا كان للحادثين كليهما ظرفية واحدة لتقبل درجة خاصة من الكمال ، فيفاض ذلك الكمال على أحدهما ويمنع عن الآخر .

ولا يمكننا أن نشبه مراتب الموجودات بالمراتب الاعتبارية في المجتمعات البشرية ، بل هي أمور واقعية غير قابلة للانتقال ، فلا يمكن للحيوان مثلاً أن يتبادل مكانه من الوجود مع رتبة إنسان ما ، كما يمكننا أن ننقل الأشخاص من مقاماتهم ومناصبهم ومراتبهم الاجتماعية إلى مراتب أخرى غيرها .

ذلك لأن علاقة العلة بالمعلول والمعلول بالعلة نابعة من ذات العلة والمعلول ، فلو كان الشيء علة كان ذلك للخصوصية غير القابلة للانفكاك عن ذات ذلك الشيء ، والآخر المعلول أيضاً إنما هو معلول بسبب الوضع الخاص في ذات المعلول ، ثم ليست تلك الخصوصية شيئاً سوى نفس كيفية وجود هذه الأشياء .

إذن فهناك نظام ذاتي عميق سائد بين جميع الموجودات ، وكل مرتبة وجودية هي عين ذات ذلك الموجود ، وما دام التفاوت والاختلاف يرجع إلى قصور ذاتي فليس ذلك تمييزاً بغير الحق ، إذ لا يكفي فيض الله لتحقق أمر ما ، بل قابلية المتعلق شرط أساسيّ لتحققه ، هذا هو السبب في حرمان بعض الموجودات وعدم توصلها إلى المراتب الأسمى مما هي عليه ؛ ومحال أن يكون الموجود ذا قابلية لوجود أو كمال آخر ثم يمسك الخالق الكريم ذلك الكمال أو الوجود عنه .

ذلك كالأعداد تماماً ، فلكل عدد مكانه الخاص ، فعدد الاثنين بعد عدد الواحد ، ولا يمكن تغيير مكان الاثنين ووضعه قبل عدد الواحد ، ولو أردنا أن نبدّل مكان عدد بعدد آخر انعدم ذلك العدد في الواقع .

إذن فقد تبيّن أن لجميع الحوادث أساليب معيّنة ، وأنها محكومة بسلسلة من القوانين الثابتة غير المتغيرة .

ولكن ليس معنى ذلك أن هناك قوانين خاصة لخلقة الله سبحانه، بل هي قوانين مفهومة لأذهاننا منتزعة من كيفية وجود الموجودات، على ما هي عليه الآن من مراتب ودرجات الوجود ونظام العلة والمعلول ، والذي لا تجري الأمور خارج ذلك النظام ، وتلك هي سنّة الله كما يقول القرآن الكريم :

﴿ ولن تجد لسنّة الله تحويلاً ﴾(١) .

والنتيجة : إن نظام الوجود مبنيّ على أساس سلسلة من القوانين الذاتية ، التي تعيّن بها مكان كل حادث في رتبة وجوده بها ، وإن وجود الدرجات والمراتب المختلفة للموجودات من لوازم وجود النظام للوجود ، وذلك بالطبع يوجب ظهور الاختلاف والتفاوت بين الموجودات ، إذن فالاختلاف والتفاوت لم يخلق بنفسه بل هو من لوازم ذات الحادثات ، وإن كل جزء من أجزاء هذا العالم قد أخذ ما كان بإمكانه أن يأخذ من مراتب

(١) سورة فاطر : الآية ٤٣ .

الوجود والكمال ، ولم يحكم هذه المجموعة الوجودية في مراتب كمالها تمييز بغير الحق بالنسبة إلى بعض أجزائها ، التي هي فيما بينها كجدول الضرب في الحساب والرياضيات

إن من ينظر بنظرة مادية ويرى الاختلاف والتفاوت في نظام الطبيعة ظلماً، ويظنّ بأن الظلم يسود العالم ، تصبح الحياة عليه مرة صعبة وشديدة ، إنه حينما يواجه الحوادث يحكم ويقضي كما يقضي ويحكم الطفل الذي يرى البستانيّ يقطع الأغصان والفروع الخضراء السليمة من الأشجار في الربيع ، فإن عدم وعيه لحكمة هذا العمل يجعله يقضي على البستاني بأنه مخرّب جاهل ! .

إن الماديّ هذا لو ملك مواهب الدنيا بأسرها لا يشعر بالرضا والطمأنينة ، إذ لو لم يكن الوجود هادفاً وكان أساسه مبنياً على أساس الظلم والجور والعدوان فما معنى أن يطلب الإنسان العدل ويسعى لتحقيقه ؟! إذ كون الإنسان هادفاً في حياة لا هدف فيها لا معنى له أصلاً .

ولو كان مصير الإنسان كما يصوره هؤلاء الماديون كأعشاب الأرض تنبت وتموت ، فلا موجود أذلّ منه ! إذ هو يعيش في عالم لا يناسبه ولا يلائمه ولا ينسجم معه ، والفكر والإحساس والعواطف فيه سخرية من الطبيعة له لتضحك بملء فيها عليه ! إذ هي تزيد في شقائه وعذابه وتعاسته وبؤسه ، وحتى لو خدم الإنسان الإنسانية بنبوغه هذا بخدمات عظيمة حتى كان خادماً مخلصاً للبشرية فما هو الذي يعود له وإليه ؟! إن أيّ تقدير أو تكريم أو مراسيم تقام له بعده على قبره وباسمه لا تفيده أية فائدة أو ثمرة ، وليست سوى أسطورة من الأساطير الفارغة الجوفاء ، إذ الطبيعة هي التي صنعت منه جسداً حركته أياماً كما شاءت ثم ردّته مرة أخرى إلى قبضة تراب ! .

ولو درسنا مصير أكثر البشر الذين يعانون أنواع الهموم والغم والاضطرابات والحرمان وجدنا أمامنا منظراً هائلاً كئيباً . . فهل تصبح جنة

المادية مع هذه الرؤية عن الإنسان سوى جحيم من العذاب الهائل الموحش ؟! .

ويبلغ شقاء الإنسانية أوج غلوائه حينما ندرس نظرة الماديين إلى الإنسان بوصفه مكرهاً لا إرادة له ولا اختيار ، إنّ هذه الرؤية تنظر إلى الإنسان كماكنة أتوماتيكية تعمل الطبيعة حتى في خلاياه من حيث الديناميكية والميكانيكية أيضاً ! وهل يقبل العقل والفطرة وواقعيات الحياة هكذا تفسير عن الإنسانية ومصيرها وحياتها هذه الفارغة الجوفاء الرخيصة الخسيسة ؟! إنها إن قبلت ذلك فليس الإنسان إذن أسعد من الدمية بيد الأطفال ! .

ألا ينبغي للإنسان أن يفسّر أصول إنسانيته وأسس أخلاقه في حياته ومقياس قيمه إلّا في إطار النفع والضرر والمصالح والشهوات الشخصية ؟ ثم يكسر لذلك كل السدود والموانع ما أمكنه، ويطلق هوى نفسه عن كل قيد وحدّ ؟ .

ولو جلس للدراسة والتحليل ببصيرة ورؤية صحيحة بعيدة عن كل جهل ومرض وغرض ليقضي بالحق على هذه النظريات الوهمية القاصرة ، مهما كانت مزوقة بالمغالطات العلمية والسفسطات الفلسفية ، فهل يبقى اعتبار عنده بهذه الأوهام ؟! .

أما في الرؤية الدينية : فالمؤمن بها يرى العالم عبارةً عن نظام حكيم تحكمه إرادة وهدف معيّن ، وأن تلك الحكمة العظيمة والعادلة تحيط بجميع ذرّات الوجود وبكل أعماله وأفعاله هو ، ولهذا فهو يشعر بأنه مسؤول أمام هذا الحكيم الحاكم المحيط بالعالم ، وهو أيضاً يرى العالم منسجماً متوازناً متحداً وخيراً ، وأن لا وجود للشر فيه إلّا بصورة تبعية، وأنه ليس له دور في انسجام العالم واستمرار الخير فيه .

والجانب الآخر من هذه الرؤية التي تصوّر أفقاً رحباً لحياة الإنسان ، هو أنه لا يرى الإنسان الوجود ـ مع هذه الرؤية ـ منحصراً بهذه الحياة الدنيا ، وأن الحياة الدنيا أيضاً لا تتلخص في الرفاه الماديّ بعيداً عن كل ألم أو

تعب ، بل هو يشعر بأن الدنيا قنطرة للمرور عليها والوصول إلى تلك الحياة الأخرى ، وأنها ساحة للامتحان والسعي والعمل الدائب ، يختبر فيها مستوى إيمان الإنسان وصلاح أعماله ، وفي بداية تلك الحياة الأخرى هناك موازين دقيقة تَعيّن للإنسان نتيجة الخير والشرّ في أفكاره وعقائده وأعماله ، وهناك تبدو الصورة الحقة للعدالة الإلهية ، ويجبر الله بجزائه الجزيل كل تخلف ماديّ أو حرمان معنوي كان للإنسان في الحياة الأولى الدنيا ، على أحسن الوجوه وأكملها .

ومع هذه الصورة الرديئة عن ماهية المتاع الماديّ الدنيويّ لا يتحرك المؤمن بها حركة واعية إلاّ إلى الله تعالى ، ويصبح بجميع وجوده وسعيه وهدفه أن يكون محياه ومماته لله ربّ العالمين ، ثم لا يبالي بعالي الدنيا ودانيها ، ولا يقيّم الأمور العابرة إلاّ بالرؤية الحقيقية والواقعية ، ولا يقيد قلبه بأيّ جمال فتّان ، إذ هو يعلم بأن هذا الجمال سيجمّد منابع إنسانيته إن هو استسلم له ، وأنه ينكسه إلى حضيض الضلالة المادية العمياء .

* * *

وهنا كلمة أخرى : هي أنه لو لم يكن امتلاك الموجودات لما هي عليه بالاستحقاق الإمكانيّ ، إذن فلا ظلم مع التفاوت والاختلاف الذي هي عليه ، إذ لا يتحقق الظلم إلاّ مع عمل التمييز غير الحق بالنسبة إلى شيء ما مع استحقاقه للمساواة مع الأشياء الأخرى ، أو في الإنسان مع الآخرين من نوعه ، ولا حق لموجودات العالم على الخالق القدير ، فهي لم تزل ولا تزال غير مستحقة لأيّ حق عليه سبحانه ، كي يكون رجحان بعضها على البعض الآخر مخالفاً لعدله تعالى .

إننا لم نكن نملك شيئاً من أنفسنا ، بل إن كل نفس نتنفسه ، وكل دقة من دقات قلوبنا ، وكل خاطرة من خواطرنا وأفكارنا في أذهاننا إنما هي من رصيد لا نملكه أيضاً ولم نسع لتحصيله ووجوده ، بل إن ذلك الرأسمال هدية

إلهية أرخصها لنا الخالق من بدء ولادتنا بل خلقتنا ، وإذا أدركنا أن ما نملكه إنما هو عطية إلهية ، فالتفاوت الموجود فيما بيننا إنما هو على أساس الحكمة ، وليس ظلماً كما ليس عدلاً (حسب معناه المصطلح) إذ لا استحقاق لأيّ أحد من قليل العطاء أو كثيره ، حتى يكون قليله ظلماً وكثيره عدلاً .

إن هذه الحياة المؤقتة إنما هي هدية وعطية من الخالق القدير ، وهو حرّ مختار في تعيين نوع هذه الهدية ومستواها وله الخيار في ذلك ، ولا حقّ لنا عليه أصلاً ، فلا يمكن أن نعترض على من أعطانا هدية بالمجان ، مهما كانت تلك الهدية قليلة وغير خطيرة .

تحقيق حول

الجبر والاختيار

نظرة بدائية إلى أصل الموضوع

الجبر والاختيار ، من المسائل التي اجتذبت إلى نفسها أنظار المفكرين الذين كانت لهم صلة بشؤون الإنسان ، ولا زالت معترك الآراء والعقائد المختلفة : هل الإنسان حرّ في أعماله ومساعيه واختيار أهدافه ومقاصده وأمور حياته المادية والمعنوية ، ولا دور لأيّ عامل في تصميمه سوى إرادته الشخصية ؟ .

أم أنه مجبر في سلوكه وعمله ، ومكره على اتخاذ أيّ عمل أو تصميم ، وهو آلة طيعة لعوامل أخرى ؟ .

إن طرح مسألة الحرية والاختيار على صعيد البحث لا يقتصر على المباحث العلمية الفلسفية فحسب ، بل إن الحرية تدخل في رؤية وإقدام كل من يعرض وظيفة للإنسانية ويرى البشر مسؤولين عن إجرائها وتنفيذها ، ويدعوهم إلى العمل بها ، إذ لو لم يكن قائلاً معتقداً بالحرية والاختيار لم يكن يبقى أيّ معنى للثواب والعقاب بعد المسؤولية .

بعد ظهور الإسلام أصبح للمسلمين اهتمام خاص بهذه المسألة العقائدية ، إذ أن الرؤية الإسلامية كانت تقتضي البحث والدراسة العميقة في

هذه المسألة ، وأن يحققها العلماء أكثر من أيّ مسألة أخرى بعد التوحيد ، فيبيّنوا أساسها ونقاط الغموض والإبهام منها ، إذ أن هذه المسألة ترتبط بالتوحيد من ناحية وبالعدل أو القدرة الإلهية من ناحية أخرى .

ينقسم المتكلمون ـ سواء في الماضي أو العصر الحاضر ـ في مسألة الجبر والاختيار إلى قسمين :

القسم الأول منهم : أنكروا حرية الإنسان في أعماله بكل تأكيد ، وقالوا بأن ما يبدو له من مظاهر الأعمال والمساعي المختارة إنما ذلك من قصور ونقص في إدراك الإنسان ! .

والقسم الثاني : يقولون بأصالة اختيار الإنسان ، ويقولون بأنه يتمتع في أموره وأعماله بحرية كاملة ، وأن شعاع إرادته واسع وبلا مانع ولا رادع .

إن الإنسان يشعر بأثر الجبر في وجوده من قبل ميلاده ، حسب ملاحظة العوامل التي تحيط به من كل حدب وصوب ، وهو يشعر كذلك بالجبر في مواجهته مع بعض حوادث الحياة حتى أنه يكاد يعتقد بعدم وجود اختيار له ولا حرية ، حيث هو يقدم إلى هذه الحياة بلا إرادة منه ، ويدخل بذلك تحت نظام قسريّ في الحياة لا حرية معه، بل يصبح تحت رحمة هذا النظام كصحيفة ورق بيد الهواء حتى يودع الحياة الدنيا .

وهو من ناحية أخرى يلاحظ حريته واستقلاله بالنسبة إلى كثير من الأمور بصورة جيدة ، حيث لا جبر ولا إكراه عليه فيها ، فله القدرة والنفوذ في مكافحة المشكلات والموانع ، وله أن يبسط سلطته على الطبيعة بالاستناد إلى تجاربه ومستنتجاته السابقة .

ومهما كان مسلكه من الدين والمذهب والمبدأ والعقيدة في الحياة لا يقدر على إنكار هذه الواقعية العملية المحسوسة : إن هناك تفاوتاً عميقاً بين حركات يده ورجله وحركات قلبه وكبده .

فالإنسان في ظل شعوره بإرادته المختارة والنافذة التي هي رمز إنسانيته

وهي أساس مسؤوليته يشعر بحريته واختياره في سلسلة من الأعمال والأفعال ، ولا يرى أيّ مانع عن إجراء إرادته دون قدرته . وهو بنفسه يفقد اختياره ويبقى مغلول اليدين بالنسبة إلى عدد من الأمور المادية والغريزية، والتي تشكّل مساحة واسعة من حياته وجهازه الجسماني الذي لا ينفك تحت أثر العوامل الخارجية .

القائلون بالجبر

ينكر الجبريّون حرية الإنسان في أعماله ، وذهب الأشعريون من الموحدين المسلمين إلى هذا القول مستندين في ذلك إلى المعنى الظاهر لبعض آيات القرآن الكريم ، بلا تدبّر في المفهوم الحقيقي لمجموع الآيات والأحاديث ، هؤلاء ينكرون آثار الأشياء ولا يعترفون بأيّ دور للعلل في عالم الطبيعة ، بل يرون حوادث الطبيعة معلولة للخالق بصورة مباشرة وبلا واسطة ، ويقولون : إن الإنسان وإن كان له قدرة وإرادة إلّا أنه لا أثر لأيّ واحد منهما في أفعاله ، إذ ليست الإرادة والقدرة هي العلة لمعلول العمل بل إن الأصل في الأثر هو إرادة الله ، وإنما بإمكان الشخص أن يصبغ عمله ذلك بقصده وإرادته فقط ، وهذه الإرادة هي التي تجعل ذلك العمل في عداد العمل الصالح أو غيره حسب المقاصد .

وعلى هذا فليس الإنسان سوى آلة ومجرى لإرادة الله وقدرته فقط .

ويقولون : إننا لو قلنا باختيار الإنسان كنا قد حددنا صفة قدرة الله في مخلوقاته ، بينما تقتضي خالقيته المطلقة أن لا يكون الإنسان خالقاً لأعماله ، فالاعتقاد بالتوحيد في حاكميته المطلقة يستلزم القول بأن جميع حوادث الوجود وحتى أعمال الإنسان لا تجري إلّا بإرادة الله سبحانه وتعالى ، ولو قبلنا وقلنا بأن الإنسان هو خالق أفعاله كنا قد أنكرنا حاكميته المطلقة على

جميع عالم الوجود ، وهذا ينافي القول بخالقيته سبحانه ، وعلى هذا فالقول بحرية الإرادة يجرّ إلى الشرك بالله والثنوية .

هؤلاء الجبريّون يقولون : إن جميع حوادث العالم إنما تظهر للوجود بسبب وجود العلل المتقدمة عليها ، وهذه العلل المتسلسلة تنتهي إلى علة أصلية ونهائية هي الله سبحانه .

وليس الإنسان الذي يشعر في الظاهر بالحرية سوى آلة بلا إرادة ، ولا شيء يدخل تحت اختياره بدءاً بعقله وغرائزه وعواطفه وأحاسيسه، ومروراً بآثار العناصر الكيماوية والأمواج غير المرئية عليه، وانتهاء بآثار الماء والهواء وعوامل الوراثة والتربية والبيئة الاجتماعية وكثير من العوامل غير هذه ، فهو في الواقع في حصار هذه السلسلة من العوامل الداخلية والخارجية لا حرية له معها .

وآخرون تذرّعوا إلى أنواع الانحرافات في الفكر والعمل بتقبل القول بالجبر لتبرئة أنفسهم عن ارتكاب الأعمال المخالفة للأخلاق والدين ، وجعلوا الجبر مستمسكاً للفساد والإفساد ، من حيث يشعرون أو لا يشعرون ، منهم بعض شعراء المجون والخلاعة ، الذين وجدوا في التوّسل بالقول بالجبر عذراً مناسباً لما كانوا هم عليه من التلوث والفساد ، ونفسوا بهذا القول عن أنفسهم من سوء الذكر ووخز الضمير .

أجل ، هذه هي خلاصة فكرة القائلين بالجبر .

إن هذه الفكرة تنافي العدالة الإلهية والعدالة الاجتماعية ، بينما :

نحن نرى العدل الإلهي بجميع أبعاده في نظام الوجود بصورة واسعة ، ونصفه سبحانه بنفس هذه الصفة كما جاءت في القرآن الكريم :

﴿ شهد الله أنه لا إله إلاّ هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم ﴾[1] .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٨ .

وكذلك جعل الله استقرار العدل في المجتمع البشري من أهداف بعث الرسل وإنزال الكتب فقال :

﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾(١) .

وكذلك العدل هو أساس عمل الله بعباده يوم القيامة إذ يقول :

﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ﴾(٢) .

فهل من العدل أن نجبر إنساناً على عمل ثم نجازيه بجرمه ؟ لا جرم أن الحكم بجزائه حكم ظالم وبعيد عن أصول العدالة .

ونحن لو أنكرنا أصل الحرّية ولم نعترف بأيّ دور إيجابي لإرادة الإنسان لم يبق هناك أيّ تفاوت أو تمييز بين الإنسان وسائر الموجودات ، فإن حركاتها المستمرة معلولة لعلل خارجة عن إرادتها واختيارها ، وعلى مبنى عقيدة الجبر تصبح أعمالنا وحركاتنا كذلك .

ولو كان الله هو الذي يخلق أعمال الإنسان الاختيارية ، وهو الذي يخلق الظلم والفساد في الإنسان وحتى الشرك به سبحانه ، فكيف يصحّ أن ننزّه ذاته المقدّسة عن تبعات هذه الجرائم ؟ .

إن القول بالجبر يلغي القول بالنبوّة والوحي والإلهام والأوامر والنواهي والأحكام الشرعية والبيانات العقائدية ، وكذلك الثواب والعقاب ، إذ لو قلنا بأن جميع أعمال الناس تتحقق من دون إرادتهم واختيارهم بل بصورة أتوماتيكية ، إذن فما هو دور رسالة الأنبياء المرسلين مدداً لإدراك عقول البشر ـ كما يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) .

---

(١) سورة الحديد : الآية ٢٥ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٤٧ .

وما دام الأمر الإلهيّ خارجاً عن اختيار الإنسان فما هو الموقع من توجيه التكليف إليه ؟

وما دام سلوك الإنسان وحتى روحياته تصدر منه بصورة أتوماتيكية ، إذن فمساعي المربّين لإصلاح المجتمعات والأفراد على الفضيلة والأخلاق والتحرّك الخلّاق ، تذهب أدراج الرياح سدى ، وعلى هذا فما هي فائدة هذه المساعي والمحاولات ؟! ، إذ أن السعي في هذا السبيل لا يصل إلى النتيجة المتوخاة ، إذ لا معنى لتوخي التغيير بالتربية من الموجود المكره المجبور على ما هو عليه .

الحقيقة أن الإنسان مسؤول عن انحطاطه وسقوطه ومكلّف بانقاذ نفسه والآخرين وإسعادهم ، وأن اختياره هو الذي يقرر مصيره ، فهو يختار طريقه بدقة ، ويتوّكل على ربّه ولطفه ، فيوفقه الله بقدرته ونوره .

يقول الفيلسوف الشهير : (سانتي هيلر) :

« إن الذي خلق هذه العوالم ووضع قوانين الوجود لم يخلق شيئاً كالقلب من حيث العظمة ، والحرية ـ مع صغرها ـ هي أكبر من كل الطبيعة ، بل إن من عرف نفسه لم يستطع أن يقايس بين عالم الطبيعة وحريته الذاتية ، فهو قياس هزيل ، فإن عظمة المكانة المعنوية لا تناسب القياس بأية عظمة أخرى غيرها .

إن قدرة الله فينا أكثر جلاء ووضوحاً من قدرته في حوادث عالم الطبيعة، انظروا إلى نقطة واحدة مهمة: هي أن الإنسان حينما يشعر بالاختيار في ذاته بين إطاعة عقله أو عصيانه إياه ، يدرك أنه مسؤول أمام عالم قدير هو صانع الوجود وواضع نواميس الكون .

ينبغي للإنسان حينما يتجاوز الأوامر الإلهية ـ والتي يعترف هو بعدالتها ـ أن يكون مشفقاً من غضبه سبحانه ، ولو كان العاصي نفسه غاضباً على نفسه من الذنب الذي ارتكبه ، فعليه أن يعلم بأن الحاكم المطلق أيضاً

غاضب على مرتكب الخطيئة مع تمكنه من اجتنابها .

إن على من يشعر بلذة خاصة من سيادة قانون الأخلاق أن يدفع حساب هذه اللذة .

ولا يستطيع المجتمع أن يحاسب الأفراد ، فإن المجتمع إنما يعاقب على ما يسبب خسارة اجتماعية ، ولا يستطيع المجتمع أن يحاسب الدور الحقيقي لذلك الفرد المتخلّف ، إذ لا يطلع المجتمع على نيات الأفراد وما تخفي الصدور ، وهي وإن كانت تخفى على العدالة الاجتماعية لكنها لا شكّ دخيلة في الحكم والقانون .

فإما أن ننكر سيادة قانون الأخلاق وحرية الإنسان ومسؤوليته ، أو أن نقبل ونعتقد بالحياة الأخرى فيما وراء هذه الحياة الدنيا يحكم الله فيها بعدالته كنتيجة لازمة ، وقانون الأخلاق إذ يحكم بوجوب وجود العدالة النهائية لعالم الآخرة الأبدية لا يتجاوز في حكمه هذا حدوده ؛ إذ لا معنى لحياة الإنسان الدنيا بدون حياة أخرى بعد هذه »[1] .

قالوا : مع الاعتقاد بعلم الله وأنه عالم منذ الأزل بجميع حوادث العالم ، والاعتقاد بأنه لا تحدث في أية نقطة من العالم حادثة جزئية أو كلية إلّا وهي سابقة في العلم الأزلي لله سبحانه ، إذن فلا بدّ من أن تتحقق جميع السيئات والمعاصي من دون أيّ تغيير ؛ ثم لا اختيار للإنسان لترك شيء منها ، أليس هكذا ؟! .

ونقول : صحيح أن الله عالم بالحوادث الكلية والجزئية ، ولكن لا يؤدي هذا العلم إلى إكراه الإنسان على أعماله ، فإن علم الله إنما هو متعلق بنظام العلية ، ولا يتعلق بالحوادث وأعمال الناس خارج إطار الأسباب والمسببات ، والعلم الذي يتعلق بمجاري العلل والمعلولات لا يوجب الجبر والإكراه ، فإن الله العالم بمجاري الحوادث في العالم يعلم بأن الإنسان

(١) مقدمة عالم الأخلاق : ص ١٩ ـ ٢٠ (بالفارسية) .

يعمل بإرادته واختياره ، وحرية البشر في إرادتهم واختيارهم جزء من سلسلة الأسباب والمسببات والعلل والمعلولات ، والإنسـان هو الـذي يصمم على العمل الصالح وغيره ، وبسوء اختياره يـوجب الفساد والضـلال ، فإذا سـاد البـاطل والـظلم في مجتمع مـا كان ذلـك بفعل النـاس أنفسهم لا خلق الله سبحانه ، ولا أثر للعلم الإلهي في اختيارهم طريق الخير أو الشر .

صحيـح أن أحوال المحيط والـدوافع الفـطرية والهـدايـة الإلهيـة من العوامل التي لها دور فعّال في حرّية واختيار الإنسان ، إلاّ أن دورها إنما هو دور المعدّ والممدّ والممهد ، والمشوّق والداعي والدافـع ، ولا يصل ذلـك إلى إيجـاد الإكراه والجبـر في الاتجاه ، وليس معنى وجـود هذه الأمـور أن الإنسان أسير في مخالبها ، بل له القدرة والخيرة في موافقة أو مخالفة هـذه الدواعي والدوافع أو تحديدها أو تغيير اتجاهها ، وبإمكانه أن يفيد من الهداية الإلهية بالرؤية والبصيرة الواضحة ، وأن يوجّه ميوله ويعـدّلهـا وينظمهـا ، إذ كما لا يصحّ فسح المجال لودائع الطبائع في البشر ومنحهـا الفرصـة لتطغى وتستبدّ ، فكذلك لا يمكن تجميدها لتصبح جافة ميتة .

لنفترض أن عامـلاً ميكانيكيـاً فحص سيارة قبـل حركتهـا وتنبأ أنهـا لا تطوي أكثر من بضعة كيلومترات حتى تقف، لمـا فيها من عـطب فنيّ ، فلو سارت السيارة ثم توقفت كما قال العامل ، هل يمكننا أن نقول بأن تنبؤ العامل هو السبب في توقف الشاحنة ؟ .

بديهيّ أن الجواب الصحيح هو النفي ، فإن عطب السيـارة هو سبب توقفها لا تنبؤ العامل ولا علمـه السابق بتـوقفها الآن ، ولا يصـحّ لعاقـل أن ينسب عطب السيارة إلى علم العامل .

أو نفترض معلماً عالماً بـأوضاع طـلاّب الصف يعلم برسـوب التلميذ فلان بسبب تباطئه في العمل للامتحانات النهائية في آخر السنة الدراسيـة ، فلو أعلنت نتـائج الامتحـانات وعلم أن هـذا التلميذ المتـواني والكسول لم يخرج بنجاح في الامتحانات ، هـل يمكن أن يكون علم ذلـك المعلم سبباً

لرسوب هذا الطالب غير العامل ، أم أن السبب هو كسله وقلة عمله ؟! .

لا ريب أن سبب الـرسـوب هـو عـدم العمـل للدراسـة لا تخمين المدرسين .

بذكر أمثال هذه النماذج نعلم بعدم عليّـة العلم الإلهي لصدور أفعـال العباد .

ومن الآثار السيئة لمدرسة الجبريين ، أنها تطلق أيدي الطغاة الظالمين للضغط الأكثر على أعناق المظلومين وشدّ وثاقهم وضرب رقابهم ، وبالعكس تقيد أيدي المظلومين عن القيام بأيّ ردّ فعل دفاعي أمام الظالمين .

إن الظالم يخلّص نفسه من المسؤولية عن أعماله الظالمـة والخشنة ، بالتمسّك بحجة الجبر ، بل يرى يديه يدي الله والحق ، ولذلـك فهو ينسب عدوانه إلى الله عزّ وجلّ الذي ﴿ **لا يسأل عما يفعل وهم يسألون** ﴾ ، وعلى المظلوم أن يتقبل ويتحمل ما يتجرعه من قبل الظالم ، إذ لا معنى لمقـاومة الظلم والعدوان ، ولا تصل مساعيه إلى شيء في هذا السبيل ! .

أما أتباع المدرسة المادية فهم في تناقض فكري في هذا الموضوع :

فهم من ناحية : يحسبون الإنسان مـوجوداً مـادياً محكـوماً بـالتقلبات الديالكتيكية ، فهو عامل غير مؤثر أمام عوامل المحيط وجبر التأريخ والأوضاع المعينة من قبل ، فاقد الحـرية مقهـور للطبيعة في اختيـار أعمالـه بل وحتى أفكاره ونهجه في الحياة ، ويقولون : إن كل حركة وتطوّر وثورة اجتماعية إنما هي نتيجـة طبيعية لـلأوضاع المـاديـة للمحيط والبيئـة ، من دون أن يكـون لـلإنسان دور في ذلـك ، إذ أن إرادة الإنسان محكـومة بـالأوضاع المـاديـة والاقتصادية للمحيط والبيئة ، وحتى ذهن الإنسان محكوم بالقوانين القسرية لمسيرة حركة التأريخ الجبرية فهو لا بدّ له من اختيار تلك الطريقة التي عينتها له مقتضيات المحيط والتطورات الفكريـة القسريـة هي بدورهـا أيضاً ، إذن

فالطريق مسدود أمام الإنسان لتجلي إرادته واختياره ، ولا دور لمعرفته بمسؤوليته ، هذا من جانب .

ومن ناحية أخرى : يرون أن شخصية الأفراد من الإنسان مؤثرة في مسيرة المجتمعات ، ولذلك فهم يركزون على الانقياد المبدئي والحزبي أكثر من أيّ مبدأ أو حزب آخر ، ويحملون الشعوب المستعمرة (بالفتح) على تنظيم حركات التحرير المسلحة والعسكرية ، ويحاولون تغيير عقائد الناس والقيام بدورهم بالإفادة من حريتهم واختيارهم .

وهذا الاعتراف بدور الإنسان حتى الفرد منه ، تناقض صريح مع شمول المادية الديالكتيكية ، فهو اعتراف بوجود قوة الإرادة والاختيار لدى الإنسان الفرد فضلاً عن المجتمعات .

فإن قالوا : إن استنهاض الجماهير الكادحة وتأييد ودعم الحركات الثورية ، مما يعجل في انبثاق فجر النظام الجديد والتقدمي من بطن العهد البائد التليد والرجعيّ ! .

قلنا : إن هذا كلام غير منطقي ، إذ لا يتحقق التطور الثوري من الكمية إلى الكيفية في غير موقعه وخارج حدود التدرج التطبيقي الديالكتيكي كما تقولون أنتم ! فدعوا الطبيعة لتعمل عملها على الأسلوب الديالكتيكي كأحسن ما يكون ، وليس حتى استنهاض أفكار الكادحين إلا تدخلاً في أمر الطبيعة كما تزعمون .

والقول : بأن الحرية إنما هي أن يدرك الإنسان الضرورة التأريخية وقوانين الحركة ، وكيفية الإفادة منها باتجاه الأهداف والمقاصد المعينة وأن استقلال الإنسان لا يعني مقابلة قوانين الطبيعة ومقاومتها والوقوف أمامها . .

. . إن هذا الكلام لا يرفع الإشكال في هذا المجال ولا الإبهام الموجود في المقام ، إذ بعد معرفة تلك القوانين والإفادة الأصولية منها باتجاه الأهداف الخاصة يبقى الإشكال في : أن المادة والطبيعة هي التي تعيّن تلك

المقاصد الخاصة وتنفذها ؟ أم أن المضمم عليها هو نفس الإنسان ؟! .

ولو كان الإنسان هو المصمم فهل أن تصميماته هي انعكاس لمطاليب الطبيعة فيه ؟ أم هل يمكنه أن يخالفها أيضاً ؟! .

إن الماديين تصوروا : أن الإنسان موجود ماديّ ، وحتى أن أفكاره وعقائده إنما هي نتيجة طبيعية للتطورات الاقتصادية والمادية ، وتابعة لمواقفه الطبقية ، ووليدة لعلاقاته الإنتاجية في المجتمع ، وردود فعل للأوضاع الخاصة والحاجات المادية لحياة الإنسان .

إن الإنسان وإن كان بسبب وضعه المادي متأثراً بالعلاقات المادية والأوضاع الطبيعية والجغرافية والفيزيائية للمجتمع الذي يعيش فيه . . إلاّ أن هناك عوامل أخرى نابعة من ذات الإنسان وفطرته تؤثر فيه وفي مصيره في طول التأريخ لا محالة ، ولا يمكن أن تكون حياته العقلية والفكرية إلهاماً من المادة والعلاقات المادية الإنتاجية للمجتمع فقط .

ولا يمكن أن نغض الطرف عن أهمية دور العوامل المعنوية والدينية والعواطف الروحية في اختيار البشر لطريقته في الحياة ، وأن إرادته هي بدورها أيضاً حلقة أخرى من سلسلة حلقات العمل والأسباب في الفعل أو الترك لأيّ عمل من أعماله في هذه الحياة الدنيا .

لا ريب في أن البشر متأثر ومؤثر فاعل ومنفعل بالطبيعة ، وأن التأريخ وعوامل الإنتاج تمهّد الأرضية لظهور الحوادث في المجتمعات البشرية . . ولكن ليس عامل الانتاج هو العامل الوحيد في ظهور الحوادث التأريخية ، وليس هو الذي له الدور الأصيل في مصير البشر ، وليس بإمكانه أن يسلب منه إرادته وحريته ، فإن الإنسان قد بلغ رتبة من الكمال عرف بها قيمته التي تفوق الطبيعة وعواملها ، وقد توصّل بذلك إلى وعي مسؤوليته في الحياة .

ولهذا فهو ليس أسيراً محكوماً بالمادة والعلاقات الإنتاجية ، بل له سلطان على الطبيعة وحاكمية عليها وله أن يغير العلاقات المادية .

إن (ماركس) وإن كان قد أعطى الدور النهائي في نظرياته إلى الاقتصاد بوصفه البنية التحتية والعامل المصيري ، لكن صديقه : (انجلز) يعلق على هذا الكلام من (ماركس) فيقول :

« إن العامل المصيري في التأريخ ، في آخر نظرية طبق الرؤية المادية التأريخية ، هو تجديد الحياة الواقعية ، ولم نقل نحن ولا (ماركس) أيّ شيء أكثر من هذا .

إنهم إذا مسخوا هذا الاقتراح من (ماركس) بحيث أدى إلى معنى : أن العامل الاقتصادي هو العامل المصيريّ الوحيد . . فقد بدلوا قوله هكذا إلى مجرد عبارة جوفاء وجزافة فارغة .

أجل ، إن الوضع الاقتصادي هو الأساس ، ولكن هناك عوامل أخرى تشكّل البنية الفوقية : الكيفية السياسية للكفاح الطبقي ونتائجها ، والكوادر الحاكمة التي تظهر بعد الانتصار ، والصور الحقوقية ، وحتى ردود فعل هذا الكفاح في أفكار نفس المكافحين ، والنظريات السياسية والحقوقية والفلسفية والثقافات الدينية ، وتطوّر هذه الأمور إلى الثقافة المسيطرة في الساحة ، مما يؤثر في مجاري الكفاح التأريخي ، وفي كثير من الأحوال قد تكون هي التي تقرر المصير .

جميع هذه العوامل لا تزال في فعل وردّ فعل ، وتستمر الحركة الاقتصادية تفتح طريقها فيما لا ينتهي من التناقضات ، كضرورة حتمية »[1] .

ونحن نقول : لو كانت العوامل الفوقية هي التي تقرر مصير الكفاح التأريخي ، فكيف تركّزون أنتم على الدور المصيري للاقتصاد بصورة متفردة ، ولو كانت العوامل الفوقية هي التي تقرر المصير فهي في الواقع من البنية التحتية على الفرض ، بل لو كان شيئان مرتبطان أحدهما بالآخر ، فما هو معنى إعطاء الأولوية للبنية التحتية ؟! .

---

(١) دعوة لتجديد النظر : ص ٢٨١ ـ ٢٨٢ (بالفارسية) .

كما أن التحوّلات في ظواهر الطبيعة تتبع العلل والعوامل الخارجية ، كذلك هناك سنن وقوانين للمجتمعات البشرية يتبعها نموّ الأمم واقتدارها أو انحطاطها وانحدارها ، وعلى هذا فالحوادث التأريخية ليست تتبع الجبر الأعمى ، وليست وليدة الصدفة ، بل إن كل تلك التحوّلات والتطوّرات والتغييرات من سنن الخلق والتكوين ، وللإرادة الإنسان في هذه السنن دور أساس .

كثير من آيات القرآن الكريم تؤكد على أن الظلم والجور والعدوان والطغيان مما يغيّر تأريخ الأمم ، وهذه هي من السنن الإلهية الجارية في المجتمعات البشرية ، كما قال :

﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾[1] .

﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد* إرم ذات العماد* التي لم يخلق مثلها في البلاد* وثمود الذين جابوا الصخر بالواد* وفرعون ذي الأوتاد* الذين طغوا في البلاد* فأكثروا فيها الفساد* فصب عليهم ربّك سوط عذاب* إن ربّك لبالمرصاد ﴾[2] .

إن القرآن يؤكد أن الظلمة الذين يطيعون هوى أنفسهم مهما كانت ، يسببون ظهور الحوادث المؤلمة في التأريخ .

﴿ إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، إنه كان من المفسدين ﴾[3] .

﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾[4] .

---

(١) سورة الإسراء : الآية ١٦ .
(٢) سورة الفجر : الآيات ٦ ـ ١٤ .
(٣) سورة القصص : الآية ٤ .
(٤) سورة الزخرف : الآية ٥٤ .

إن الإنسـان بوصفـه جزءاً يشكـل المجتمع البشـري يتمتـع بـالعقـل والحكمة والإرادة الفطرية ، قبل اتصافه بالصفة الاجتماعية ، وليست الروح الفردية فيه مكرهة على تبعية الروح الجماعية .

يتصور القائلون بـالجبر أن الأفـراد يندكـون في المجتمع كـالجزء في الكل ويخرجون كحقيقة جديدة ، فـإما أن نعتـرف باستقـلال وحريـة الأفراد ونفي الصورة التركيبية للمجتمع ، وإما أن نرفـع اليد عن حـرية واستقـلال الأفراد حتى نعترف بتركيب المجتمع كحقيقة واقعة ، ولا يمكن الجمع بين أصالة المجتمع واستقلال الفرد وحريته ! .

في حين أن المجتمـع وإن كـان يتمتـع بقـوة أطغى من قــوة الأفـراد أنفسهم ، إلّا أن المجتمـع لا يقدر أن يجبـر الأفـراد على شيء في الأمـور الإنسانية وحتى الاجتماعية ، فإن أصالـة فطرة الإنسـان التي هي من صميم الطبيعة الإنسانية تمكّنه من التمتع بحـريته واختيـاره وإرادته ، وبـإمكانـه أن يعصي ما يفرضه عليه مجتمعه .

والإسـلام وإن كان يعتـرف للمجتمع بـالروح والحيـاة والموت والقـوة والقدرة وكأنه شخصية مستقلة ، إلّا أنه يرى الأفراد منه مقتدرين على اتّخاذ المواقف ومقاومة الفساد في مجتمعهم . ولا يعترف بالموضع الطبقي كعامل جبريّ لفرض فكرة أو عقيدة معيّنة على صاحبها .

وليس الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكر ، إلّا أمـراً بعصيان أوامـر المجتمع والخروج على فساد المحيط :

﴿ يـا أيهـا الــذين آمنـوا عليكم أنفسكم ، لا يضــركم من ضـلّ إذا اهتديتم ﴾[1] .

﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا :

---

(١) سورة المائدة : الآية ١٠٥ .

كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً ﴾[1] .

هذه الآية تستنكر على الذين يعتذرون باتباع مجتمعاتهم ولا تقبل لهم عذراً .

لا معنى للتقوى إلّا مع اختيار البشر ، وتقييم الإنسان أيضاً يلازم اختياره ، ولا يجد الفرد استقلاله وكرامته الشخصية إلّا إذا كان سالكاً طريق الحق خلاف النفس وعلى حسابها ، أما لو وضعنا أنفسنا بحيث تحملنا التطورات الطبيعية أو الأدوار الديالكتيكية على المثل والقيم ، فلا قيمة لذلك ولا كرامة لهذه الشخصية إلّا معه .

فليس هناك أيّ عامل يحمل الأشخاص على اتّخاذ طريقتهم في الحياة ، وليس هناك أية قوّة تحمله على ترك بعض الأعمال ، وفي هذه الحالة فحسب يجد القويّ معناه .

ولا يحقّ للإنسان أن يدعي التقوى فيما لو كان تصميمه على تغيير وضعه الفاسد جرياً تبعياً لا شعورياً وفق البرامج والأهداف المرسومة من قبل ، وطبقاً للقانون العام السائد ، بل إنما فيما إذا كانت كل أعماله وأفعاله اختياراً لها من صميم نفسه .

---

(١) سورة النساء : الآية ٩٧ .

القائلـون بالاختيـار

أصحاب هذا القول يقولـون : إن الإنسان يشعـر بالحـرية في العمـل بنفسـه بصورة تلقـائية (أتـوماتيكيـة) ـ إن صحّ التعبيـر ـ فله أن يصمم وفق هواه ، وأن يقدم وفقاً لإرادته وميوله على أيّ عمل مصيريّ بالنسبة إليه أو إلى غيـره ، وأن وجود القـوانين التي تشعر الإنسـان بالمسؤوليـة أمامهـا ، وندم الإنسان على بعض أعماله ، والعقوبات المقدرة في القوانين للمجرمين ، وما قـام به البشـر من الأعمال التي غيـرت مسيرة التـأريخ الـطويلة ، وما قـدمه الإنسـان من العلوم والتكنولـوجيا ، كـل ذلك دليـل على حريـة الإنسان في أعماله .

وكذلك فإن مسألة التكليف وبعث الرسـل ، وعرض البـرامج الإلهيـة على البشر ، وتعيين المعاد ، كل ذلك مبنيّ على حرية واختيار الإنسان في القيام بأعماله وأفعاله .

إذ لا معنى لأن يكلّف الله العباد ، بل يجبـرهم على أعمالهم ثم هـو يثيبهـم أو يعاقبهم عليها .

فليس من العدل أن يسيرنا الخالق بقدرته وإرادته في أيّ مسير تقضيه إرادته ومشيئته ثم هو يعاقبنا على سلوك صادر منا بلا اختيار ولا إرادة .

لو كانت أعمـال العباد في الحقيقـة أفعالاً لله سبحـانه للزم أن تكـون

جميع المفاسد والظلامات من فعله تعالى ، في حين أنه منزّه عن أيّ نوع من الظلم والباطل ، بل لو لم يكن لنا اختيار في أفعالنا لكان أصل التكليف ظلماً وخلافاً للعدل ، ولم يكن لوم على الظالمين والجبارين ، ولم يكن أصحاب العدل يستحقون أيّ حمد أو ثناء أو تحسين، إذ لا معنى للمسؤولية إلّا في حدود الإمكانات والطاقات .

إن الإنسان لا يستحق اللوم ولا التقدير والثناء إلّا حينما يكون حراً في تصميماته وأعماله ، وإلّا فلا لوم ولا تحسين .

وقد أفرطت هذه الفرقة بشأن حرية الإنسان إفراطا حسبت معه الإنسان مختاراً اختياراً مطلقاً وبلا منازع ، وكأنها زعمت عجز الله سبحانه وتعالى عن إصدار أوامره فيما يتعلق بإرادة خلقه ، وأن قدرة الله لا تتعلق بأفعال الإنسان الاختيارية .

إن ما يقوله هؤلاء مبنيّ على أساس أنه سبحانه أسس العالم وظواهره على أساس نظام طبيعيّ وأنهى عمله بذلك ، فما يحدث من الحوادث بعد ذلك لا علاقة له بصورة مباشرة بالله تعالى ، وأفعال البشر هي إحدى ظواهر عالم الوجود المتحررة عن مباشرة مشيئة الله الواحد بصورة تامة ، فلا مباشرة له فيها قطّ .

هذه هي خلاصة ما تقوله هذه الفرقة .

إن الذي يقول بأن ما يوجد ظواهر الطبيعة هي نواميس الطبيعة وإرادة الإنسان ، وأن دوران العالم وأعمال البشر لا علاقة لها بالله تعالى ، إن هذا ينسب التأثير في الكون في الحقيقة إلى مركز آخر هو نفس المخلوقات فيجعلها شريكة مع الله تعالى في الخالقية ، وهو بذلك يتقبل وجود خالق آخر في قبال الخالق العليم القدير ، ويقول بالاستقلال لذوات الموجودات أمام ذات الله تعالى ، من حيث يشعر أو لا يشعر .

إن القول بالحرية التامة لأيّ موجود من الموجودات سواء كان إنساناً أو

غير بشر مستلزم للعقيدة بمشاركة ذلك الموجود مع الله تعالى في الفاعلية والاستقلال .

وهذا لا ريب نوع من أنواع الثنوية حيث يبعد العبد عن قمة التوحيد إلى هوة الشرك ، إذ أن نتيجة قبول هذه الفكرة أن نسلب عن الله اختياره في أوامره بالنسبة إلى نظام الوجود ، ونحسب الإنسان صاحب حكومة مطلقة لا تعارض ، وليس لأيّ موحد أن يتقبل هذه الخالقية للإنسان حتى ولو كانت في إطار أعمال البشر خاصة ، بل على كل موحد ـ في نفس الوقت الذي يقول فيه بالعلل والأسباب الطبيعية ـ أن يرى الله هو المؤثر الحقيقي في الحوادث والظواهر ، وأنه إذا أراد أن يذهب بأثر إرادة الإنسان في أفعاله لفعلَ .

وكما أنه لا استقلال لذوات الموجودات كذلك لا استقلال لها في السببية والتأثير ، وهذا هو ما يصطلح عليه بالتوحيد الأفعالي .

وذلك يعني أن ندرك أن نظام الوجود بما فيه من سنن وعلل هو من عمل الله تعالى ، وهو نابع من إرادته سبحانه ، وأن حقيقة وجود أي عامل وتأثيره إنما هو منه عزّ وجل .

وعلى هذا لا يلازم التوحيد الأفعالي أن ننكر نظام الأسباب لعالم الوجود ، وأن نقول بأن كل أثر إنما هو من الله مباشرة وبلا واسطة في ذلك ، وأن لا نعير للعوامل أية أهمية كانت أم لم تكن ، ولكن تصور تأثير الله في الموجودات كنسبة الفنان إلى الفنّ أو كمبدع لوحة بالنسبة إليها حيث تحتاج اللوحة في وجودها إلى الفنان ، ولكن اللوحة حيث تتم تستمرّ روعتها وجمالها حتى لو مات الفنان ، إن هذا التصور بالنسبة إلى الله لا شكّ أنه من الشرك ولا يلائم التوحيد .

إن من ينكر دور الخالق في ظواهر وأعمال الإنسان يقول بتحديد قدرة الخالق بحدود الطبيعة واختيار البشر ، وهذا كلام مردود لدى العقل والمنطق ، إذ هو مستلزم لإنكار عمومية قدرته من ناحية ، وهو من ناحية

أخرى يولد إحساس الغنى عن ذات الخالق لدى المخلوق ، وهو إحساس ينتهي بالإنسان إلى الطغيان والفساد ، في حين أن التسليم المطلق للخالق والتعلق به ، والتوّكل عليه له الأثر التام في شخصية وأخلاق الإنسان وسلوكه وروحياته ، وحيث لا أمر عنده سوى أمر الله فلا سلطة للهوى ولا لأحد من الخلق عليه .

إن القرآن الكريم ينفي كل شرك في مديرية العالم لأيّ من الخلق مع الخالق فيقول :

﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتّخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليّ من الذلّ وكبره تكبيراً ﴾(١) .

وقد صرّح القرآن الكريم في آيات كثيرة بقدرة الله المطلقة فيقول مثلاً :

﴿ لله ملك السموات والأرض وما فيهنّ وهو على كل شيء قدير ﴾(٢) .

﴿ وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً ﴾(٣) .

إن موجودات العالم بحاجة إلى الله في بقائها ، كما كانت كذلك في حدوثها تماماً ، ولا بدّ للوجود من استفاضة فيوضات الوجود من قبله سبحانه ، وإلا لا نفرط هذا النظام الموجود ، إذ أن ما يصدر من قوى العالم ليس إلّا صادراً عن خالقية الله وفاعليته تعالى ، ولا بد لماهية الموجودات من التعلّق بإرادة الله ، وعلى هذا فلا استقلال لها ذاتاً ، تماماً كالمصابيح

---

(١) سورة الإسراء : الآية ١١١ .

(٢) سورة المائدة : الآية ١٢٠ .

(٣) سورة فاطر : الآية ٤٤ .

الكهربائية التي لا بدّ لها من استمداد البرق من المولد الكهربائي في البداية والبقاء .

والقرآن الكريم يصرّح بكل تأكيد يقول :

﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنيّ الحميد ﴾[1] .

فالحقائق كلها نابعة من إرادته تعالى وهي متعلقة به سبحانه ، وكل ظاهرة فهي تستمد وجودها منه دائماً وأبداً ، ونظام الوجود كلّه يدور حولَ محور واحد فقط . قال الإمام الصادق (عليه السلام) :

« الله أكرم من أن يكلّف الناس ما لا يطيقون ، والله أعزّ من أن يكون في سلطانه ما لا يريد »[2] .

لو لم يكن الله يفيض علينا حرية الإرادة والإمكانات والقوى والحياة ، في كل لحظة لما كنا قادرين على أيّ عمل ، فإن إرادته التامة قد تعلقت بأن نفعل نحن أفعالنا الإرادية باختيارنا ونؤدّي ما أودعه فينا من دور ذلك الخالق القدير ، وقد شاء أن يصنع الإنسان مستقبله الحسن أو السّيىء بتشخيصه وإرادته بنفسه .

إذن فأفعالنا الإرادية ترتبط بنا من ناحية ، وبالله من ناحية أخرى ، إذ نحن نستطيع أن نعمل بفضل الذخائر التي جعلها الله تحت اختيارنا في سبيل البناء والاختيار المناسب واللائق أو في سبيل الفساد والباطل وأن نحقق ما نريد ، وإن كان ذلك في إطار معين من قبله تعالى ، وبعبارة أخرى نقول :

إن القوة من الله والإفادة منها منا .

افترضوا إنساناً يحمل قلباً صناعياً هو تحت اختيارنا عن طريق سلك يتصل بالقوة الكهربائية ، وبإمكاننا أن نوقف عمليات هذا الإنسان ذي القلب

---

(١) سورة فاطر : الآية ١٥ .

(٢) أصول الكافي ج ١ ص ١٦٠ .

الصناعي في أيّ لحظة شئنا ، والذي يمكنه من كل ما يقوم به هو هذا السلك الذي نقوم نحن بوصله ما شئنا ، ونمهله ليقوم بمـا يريـد ، فلو عمل عمـلاً صالحاً أو سيئاً كان ذلك بإرادته ، فإن كيفية الإفادة من القوة المعطاة له تتعلق به ولا علاقة لنا بها .

كذلك كل طاقاتنا من الله سبحانه وتعـالى ، حيث يستطيـع أن يسلبنا قوانا ، إلا أنه قرر أن تكون كيفية الإفادة من هذه القوى تحت اختيارنا بصورة تامة نسبياً .

وهذا هو ما يقول به أصحاب مدرسة الاعتـدال ، وسنوضـح ذلك في الفصل الآتي .

الأمـر بين الأمـرين

إن موجودات العالم حينما تبلغ أيّ مرحلة من مراحـل الكمال تتمتـع بالهداية الخاصة لتلك المرحلة، والهداية بالنسبة إلى درجات الوجود متفاوتة في الرتبة والكمال أيضاً .

بـإمكاننـا نحن أن نعين موضعنـا بين الموجـودات المختلفة في هـذا العالم ، نعلم أن النباتات لا خيار لها بين أيدي قوى الطبيعة القسرية ، ومع ذلك لها ردود فعل قصيرة ومتفاوتة تظهر منها أمام بعض المتغيرات .

وحينما نحلل خصائص الحيوان نشعر بأنه يتمتع بخصائص متفاوتة عن النباتات بصورة تصاعدية وتكاملية ، إن عليه أن يسعى وراء غذائـه سعياً حثيثاً واسعاً ، إذ أن الطبيعة لا تدعو الحيوان إلى موائد معدة ، ولا تحضر له مواده الغذائية ممهدة ، ومن البديهي أنه في سعيه هذا بحاجة إلى وسائل كافيـة ، وهو بنفس المستوى مجهز بأدوات تكفيه لمهمته .

وهو من حيث تأثره الشديد بشهواته الغريزية مـوجود طـائع مكـره ولا يتمتع إلاّ بدرجة واحدة من الحـرية والإرادة والاختيـار ، وهو بـذلك يتحـرر بنفس المستوى من أسر الطبيعة وعسرها .

ويعتقد علماء الحيوان بأن الحيوانات مهمـا كانت عـاجزة بـالنظر إلى الأجهزة والبنية الطبيعية،كانت من حيث الغريزة أقوى وأعتى وأتبع للطبع،

وكلما كانت من حيث القوى الحسية والعقلية أكثر تجهيزاً وأكثر استقلالاً وقدرة ، كانت من حيث الهداية أو القيادة الغريزية أقل وأضعف وأبعد ، فالطفل في أدوار حياته الأولى لا يعيش إلّا تحت ظلّ حماية الأبوين سيما الأم حماية شاملة ، وكلما تدّرج في الرشد والنموّ خرج من تحت رعايتها .

إن الإنسان هو المتصاعد إلى أعلى مراحل الكمال الخلقي ، وهو الموجود الوحيد الذي يتمتع بقوة إرادة مستقلة (نسبياً) وتمييز ومعرفة تامة (نسبياً) نجده من حيث الغريزة إنما هو في مستويات ضعيفة ، بينما هو في مراحل الحرية التدريجية بالنسبة إلى عالم النباتات والحيوانات قد بلغ حدّ الاختيار التام مع ضعف في الأجهزة .

إن الطبيعة ترفع أنواع حاجات النباتات من جهات مختلفة ، وفي الحيوانات على الأم أن تتحمل قسطاً من الأتعاب من الحمل والتغذية والرعاية ، وإن كانت الغرائز في الحيوانات ثرة نشطة من أيامها الأولى وليس على الأم تربيتها ، وهي بذلك فرحة مستبشرة ، وأما في الإنسان فنرى أنه لا يتمتع بأجهزة طبيعية قوية ، ولذلك فإن قوة مقاومته أمام العوامل المضادة والكاسرة أقلّ من الحيوان بمراتب عديدة ولذلك فإن علاقته وحاجته إلى الآخرين،وبخاصة إلى الأبوين،وبالأخص إلى الأم الوالدة تستمر وتدوم مدة أطول من سائر الحيوانات ، حتى يصل إلى حدّ الاستقلال والكفاية الذاتية فيقوم على قوائمه .

فالقرآن الكريم يصرح بضعف الإنسان ، ويقول :

﴿ **وخلق الإنسان ضعيفاً** ﴾[1] .

والطبيعة قد أوكلت الإنسان إلى نفسه أكثر من الحيوان ، ومع طي مراحل النموّ والتكامل نشاهد في أنفسنا اتّساع رقعة الاختيارات والتحرّكات والحرّيات من ناحية ، ومن ناحية أخرى نرى ازدياد نسبة الحاجات والعلاقات

---

(١) سورة النساء : الآية ٢٨ .

والارتباطات ، ولذلك فمع تمتعنا بالقَدر الأكثر من الحرية والاختيارات نرانا ننحدر إلى شدة الحاجة والعجز معها .

والمفكرون يرون هذه الكيفيات من أسباب التكامل في الموجودات ومع ذلك يرون أن الإنسان مهما نما وترقى تقدم نحو الحرية أكثر فأكثر ، وأن التقدم إنما يحصل في ظلّ الحاجات ومع السعي لإيجاد التوازن .

ولكي تتجلى الحرية في الإنسان لا بدّ من وجود عامل مخالف أمام الغرائز الطبيعية في البشر كي يرى الإنسان نفسه بين جاذبتين متخالفتين كل منهما تجره إلى اتجاهها ، فيضطرّ إلى أن يختار بإرادته الحرة طريقته المختارة عن وعي وقدرة وعمل بعيداً عن أيّ جبر أو إكراه أو أصول مسبقة ، ثم يبدأ ببناء نفسه على أساس أصول خاصة يختارها ، وبدون وجود هذا العامل المخالف لا يقدر البشر على أن يقع في طريقته الصحيحة المتعادلة بصورة أتوماتيكية وبلا أيّ سعي من نفسه .

وفي خضم هذا الصراع والنزاع والتخاصم إما أن يقع الإنسان أسيراً لميوله الهوجاء مع تحمله للأمانة الإلهية والموهبة الربانية التي لم تكن السماوات والأرض جديرة بحملها وحملها الإنسان ﴿ **إنه كان ظلوماً جهولا** ﴾ وإما أن يبدأ مسيرته في سبيل الكمال وطريق الرقيّ بالإفادة من استعداداته الفياضة وإرادته النافذة المختارة والمستندة إلى فكرته الرشيدة .

إذا تحرر الإنسان عن الطاعة الجبرية لغرائزه، وقدر على كسر أغلالها من يديه ورجليه ، وداوم على التمتع بقواه الاكتسابية والمكتنزة ضعفت مراكز إحساساته وعواطفه وتضاءلت وسائلها الطبيعية أمام العقل ، فإن كل عضو أو طاقة في الموجود الحيّ إذا تركت بلا أيّ استفادة ضمرت وقصرت ، وبالعكس كلما اشتغل عضو أو طاقة أكثر وبصورة أساسية نمت وتكاملت وتطوّرت .

وعلى هذا فإذا أصبحت الإرادة الخلاقة والواعية للإنسان مستلهمة من وحي العقل ، مصباح الطريق ، استعانت فكرته ببصيرته لسلوك السبيل إلى

الحقائق والواقعيات ، وحملته حالة التحير بين طرفي الترديد على التأمل والمقايسة ، حتى يتعرف على الصراط المستقيم بمدد عقله ، وهكذا تبعث الميول والحاجات على الفكر والفعالية وتتقوّى وتتحرّك وتفيض في الإنسان منابع الفكر .

إن حرية الإرادة ، ومحاولة الخروج من مرحلة التحيّر ، وحب الحياة ، كل ذلك يبعث على الأمل ، ومحاولة سدّ الحاجات وبلوغ الأهداف تصبح دوافع الإنسان لمتابعة مقاصده بالإفادة من قوّة إرادته؛ ولذلك لا معنى للإرادة والأمل في الموجودات المكرهة على التبعية لطبائعها الذاتية ، وإنما ينشأ الأمل وتنبع الإرادة من الإرادة بصورة مباشرة .

وكذلك العلم والتمدّن والحضارة والملكية وإرادة التحرر ، كلها من ثمرات الاختيار ونتائجها المباشرة ، والإنسان بتمتعه بالحرية ومساعيه الإيجابية يقدر على التقدّم باتّجاه نموّه وكماله العلمي في إطار طبيعته وفطرته ، وأن يبلغ ـ بتفتح طاقاته واستعداداته وطبائعه الإنسانية السامية ـ إلى مرحلة يصبح فيها منبعاً فياضاً للفضائل ، وعاملاً مثمراً لمجتمعه ، وذلك كله من آثار الاختيار .

إن نفس وجود هذا النزاع والتخاصم بين معترفي ومنكري الاختيار شاهد بيّن على القبول الضمني لوجود الاختيار في البشر .

ولكن لنر ما هي شروط وحدود الاختيار في الإنسان ؟ وكم هو شعاع نفوذه وإلى أيّ مدى ؟ .

إن الرؤية الإسلامية الأصيلة لدى المسلمين من الشيعة المستلهمة من آيات القرآن الكريم ، وأحاديث أئمة الدين ، اختارت مسلكاً ثالثاً هو الوسط بين مذهبي الجبر المطلق والتفويض المطلق ، لا يحتوي على ما يحتوي عليه مذهب الجبر من نقاط الضعف ، المخالف للعقل والفكر والوجدان والمقاييس الأخلاقية والاجتماعية ، والذي ينسب بالقول بالجبر جميع

الفجائع والأخطاء إلى الله سبحانه وينتهي إلى إنكار العدل الإلهيّ ، ولا يؤدي إلى ما يؤدي إليه القول بالتفويض المطلق من إنكار شمول قدرة الله ، ومخالفة توحيد الله في الأفعال والأعمال والخلق والإيجاد .

بيّن أن هناك فرقاً بين حركاتنا الإرادية وبين حركات الأرض والشمس والقمر والنبات والحيوان ، إنه ينبع من طبيعتنا إرادة تفتح أمامنا أبواب الفعل والترك كليهما ، وتترك لنا حرية الاختيار .

إن تصميمنا الاختياري لتحقيق الأعمال الصالحة والسيئة ، ينبع من طيب خواطرنا وينشأ من قوة التمييز فينا وتشخيص الخير والشر لأنفسنا ، إن الإفادة من هذه الموهبة الإلهية يجب أن تكون عن وعي وشعور وبصيرة ، نقارن ونعيّن ونحاسب ثم نختار ، وهذه هي إرادة الله أن نتمتع نحن بهذه الحرية في عالم لا تجري فيه الأمور إلّا بإرادته وإدارته وإحاطته وعلمه وإدراكه .

وكل ما نقدم عليه من عمل ليس خارجاً عن علمه ، ولا سابقاً لمشيئته وكل أمور الحياة ومصائر البشر مشروطة بعلمه ، ومقيدة ومحدودة بحدود سبقت في علمه ، ولا نستغني في أية لحظة عنه ، ولا يمكننا التمتّع بما فينا من قوى وطاقات بدون إمداده سبحانه .

وهو يراقبنا ببصيرته النافذة وقدرته العظيمة والقاهرة ، ومحيط بجميع نياتنا وأعمالنا ، وله أن يقطع عنا فيضه في أية لحظة .

ولا يخرج اختيارنا وحريتنا عن النظام العام وما وضع له من شروط وحدود ، وعلى هذا فليست هناك أية مشكلة في هذه المسألة من جهة توحيده تعالى .

إن الإنسان الذي يؤثر في ظل طاقاته وإرادته في هذا العالم هو بدوره محكوم بسلسلة من القوانين الطبيعية لنظام الوجود ، فهو يولد بلا إرادته ، ويموت حتف أنفه ، قد أسرته الطبيعة بسلسلة من الحاجات والغرائز

المختلفة وتجره بها إلى نفسها ، وفي نفس الوقت يتمتع بإمكانات واستعدادات ، وفيه جهات من الحرية والغنى ، وهما يمنحانه قدرة وخلاقية يقتدر بها على تسخير جوانب من الطبيعة ويتحكّم في عدد من عوامل المحيط .

ولهذا قال الإمام الصادق (عليه السلام) :

« لا جبر ولا تفويض ، بل أمر بين الأمرين »[1] .

فالبشر له الخيار إلاّ أنه ليس مئة بالمئة ، إذ القول باستقلال المخلوق واختصاصه بمساحة من القدرة والاختيار يؤدي إلى الشرك في فاعلية الله تعالى ! أما هذا الاختيار المحدود فهو حسب إرادة خالق الطبيعة ، وتتجلى أوامر الله بصورة السنن الحاكمة على الطبيعة بما فيها البشر .

الإنسان في الرؤية الإسلامية ليس موجوداً مخلوقاً محكوماً بجبر القدر ، ولا موجوداً مطلقاً في محيط مظلم وبلا هدف ، بل هو فياض بالدوافع والاستعدادات والميول المختلفة والوعي الخلّاق ، معه هداية فطرية وقيادة معنوية .

إن أتباع مذهبي الجبر والتفويض أخطأوا حيث تصوروا أن لا ثالث للأمرين ، فإما أن ننسب أفعالنا إلى الله ، فنسلب الإنسان حريته ونقول باضطراره ، أو لا بدّ لنا من القول بصدور أفعالنا الاختيارية من ذواتنا مستقلة وبدون ارتباط بالله تعالى ، وهذا يؤدي إلى محدودية قدرة الله ، بينما لا تأثير لحرية إرادتنا في شمول قدرته سبحانه ، إذ هو الذي أراد قدرتنا على التصميم بحريتنا ضمن السنن الطبيعية .

بإمكاننا أن ننسب أفعال الإنسان إلى نفسه من ناحية ، وإلى الله من ناحية أخرى ، فنسبتها إلى الإنسان مباشرة وبلا واسطة ، ونسبتها إلى الله مع واسطة الإنسان ، وكلتا النسبتين حقيقيتان وواقعيتان ، وعلى هذا فإرادة

---

(١) الكافي ج ١ ص ١٦٠ .

الإنسان لا تقابل إرادة الله ولا هي مخالفة له سبحانه .

إن الاعتقاد بأثر الأسباب في مسبباتها ، والاعتراف بدور المخلوقات في نظام العالم ، ليس شركاً للخالقية ، بل هو من كمال الاعتقاد بخالقية الخالق وإحاطته وحاكميته المطلقة على الوجود بأسره ومنه الإنسان .

وإن نحن أنكرنا كل مؤثر في الوجود سوى الله سبحانه بصورة مطلقة ، لم نجد أيّ توجيه أو تفسير معقول لحركة المادة ، ومع نفي تأثير الموجودات بعضها في بعض لا يبقى لنا طريق لإثبات العلل للمعلولات .

وليس من المنطق القول : بأن الحوادث كلها تحدث من حركة المادة والله يوجد الحركة في المادة في كل لحظة بصورة دائمة مستمرة .

إذ الحركة حقيقة واحدة ، فلا يمكن أن تصبح بنفسها سبباً للتحوّلات المختلفة للمادة ، بل المادة التي تتشكل بحركتها بأشكال مختلفة لا بدّ أن يكون وجود الصور لها بيد القدرة الخالقة حتى يمكن أن يتحقق تنوّع الموجودات .

ولنتساءل : هل للمادة أيّ أثر في الموجودات والحوادث أو لا ؟ فإن لم يكن لها أيّ أثر فمن أين تنشأ هذه الآثار المتنوعة في نظام الوجود ؟

وإن كانت تؤثر ، فلا بدّ من القول بأن الله لا يخلق جميع الحوادث بصورة مباشرة تماماً كالعلة بالنسبة إلى معلولها الماديّ ، بل المادة مؤثرة ولكنها تأخذ كل طاقاتها واستعدادتها من الله سبحانه ، وهو ليس مادة ولا حركة في المادة .

إن الاعتراف بأن الله أودع في المادة قوى واستعدادات تستطيع بها إيجاد التحوّلات في نفسها وغيرها ، لا يستتبع أيّ إشكال في خالقيته المطلقة ، وإن الفاعلية المحدودة للإنسان بكل ما فيه من فقر وحاجة تحيط بجميع وجوده لا تتنافى مع إرادة الله ومشيئته ، ولا تخل هذه الفاعلية في

خالقية الخالق اللامتناهية ، ولا تؤدّي إلى أيّ إشكال معقول .

جاء في حديث عن أبي عبدالله الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال :

« أبى الله أن يجري الأشياء إلّا بأسباب ، فجعل لكل شيء سبباً . . »[1] .

فمن أسباب خلق الله هو الإنسان وإرادته ، وهذه قاعدة عامة تشمل أفعالنا الاختيارية ، ولا بدّ أن يكون اختيارنا وإرادتنا في آخر الأجزاء من سلسلة حلقات الأسباب بعد حصول سائر الأسباب والعلل المتقدمة ، حتى ينتهي إلى صدور وتحقق عمل من قبل الخالق القدير .

إن آيات القرآن الكريم التي تنسب كل شيء إلى الله سبحانه ، ليست إلّا في مقام بيان الإرادة الأزلية لخالق العالم منذ الأزل ، وبيان الصورة العامة للوجود ، وتثبيت إحاطته الكاملة وقدرته التامة ونفوذ أمره الشامل لجميع العالم بلا استثناء ، ولكن مع هذا النفوذ الواسع الشامل والعامل التام الكامل لا تنافي حرية البشر في اختياراتهم ، إذ اختيار البشر أيضاً جزء من المخلوق ، وهو الذي أفاض هذه الحرية عليه لاتّخاذ طريقته التي يختارها في الحياة .

لو كان الإنسان مجبراً على شيء فإنما هو مجبر على الاختيار - إن صحّ التعبير - وإن حرية الإنسان من مشيئة الله لا خلاف مشيئته .

وعلى هذا فنحن حينما نشتغل بالعمل الصالح نجد الطاقة على العمل منه واختيارنا منا .

والقرآن الكريم يؤكد على دور الإرادة ، ويرد دعوى الجبريين ، حينما يجعل عذاب الدنيا ومصائبها نتائج أعمالهم ، ولا نجد بين مجموعة الآيات

---

(١) الكافي ج ١ ص ١٨٣ .

المتعلقة بالإرادة الإلهية حتى مورداً واحداً تنسب فيه الأفعال الاختيارية إلى إرادة الله .

﴿ فمن يعمل مثقال ذرةٍ خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرةٍ شراً يره ﴾[1] .

﴿ ولتسألنّ عما كنتم تعملون ﴾[2] .

﴿ سيقول الذين أشركوا : لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء . كذلك كذّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا . قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلّا الظن وإن أنتم إلّا تخرصون ﴾[3] .

لو كان الفلاح والضلال من مشيئة الله لما بقي أيّ أثر من الضلال والفساد في الأرض ، ﴿ لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ﴾[4] .

وقد ادعى المنحرفون أن ارتكاب نوع من الفساد إنما هو بإرادة الله كما حكى القرآن عنهم إذ قال تعالى :

﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا : وجدنا عليها آباءنا ، والله أمرنا بها ، قل : إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾[5] .

إن الله كما قرر الثواب للعمل الصالح قرر الجزاء والعقاب للفساد والباطل ، ولكن ليس معنى تعيين العقاب للسيئات أنه قرر وقوع السيئات .

لو شاء إنسان عاقل أن يشعل عود الكبريت (الولاعة) في مخزن من النفط ، فلو أشعل النفط أمكن أن تلتهم النار نفس المشعل الباعث على

---

(1) سورة الزلزال : الآيتان ٧ ـ ٨ .
(2) سورة النحل : الآية ٩٣ .
(3) سورة الأنعام : الآية ١٤٨ .
(4) سورة الرعد : الآية ٣١ .
(5) سورة الأعراف : الآية ٢٨ .

الاشتعال ، إن هذا الاشتعال قاعدة طبيعية تتحكم في هـذا العالم ، ومشعل النار أقدم على ذلك عالماً بهذه القاعدة الطبيعية ، ولم يكن عمله هذا ضرورة طبيعية بل كان على خلاف طبيعة الإنسان العاقل .

إن إرادة الله تتعلق بوجود الإنسان والآثار الطبيعية لأفعاله ، أمـا نفس تلك الأعمال الإرادية فهي تنشأ من إرادة الإنسان نفسه .

الـرؤية الإسـلامية في التصـوّر الشيعي هي : أن البشر ليست إرادتـه مطلقة بحيث يمكنه أن يتجاوز بها ويخالف إرادة ومشيئة الله المتمثلة في قالب القوانين والسنن الكونية الثابتة في العالم ، فليس الله ـ معـاذ الله ـ ضعيفاً أو عاجزاً أو مغلول اليدين أمام إرادة مخلوقـاته ، ولكنـه ليس من ناحيـة أخرى أسيراً لما ركب فيه من عوامل ودوافع وبواعث بحيث لا يمكنه اختيـار سبيله في الحياة كما يشاء كالحيوانات أسيراً لإرادة غرائزه فحسب .

ويصرّح القرآن الكريم بأن الله قد هدى الإنسـان إلى سبيل الـرشاد ، ولكنه ليس مكرهاً على الفلاح والهدى ولا على الضلالة والردى :

﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾[1] .

* * *

(١) سورة الدهر : الآية ٣ .

القضـاء والقـدر

كيف تتحقق إرادة الله

إن مسألة القضاء والقدر من المسائل الضوضائية التي حرفت في كثير من الموارد بسبب عدم الوعي والمعرفـة الدقيقـة أو بسوء النيـة ، ونحن هنا لتحليل الموضوع نلخص بعض نتائج التحقيقات فيه :

لقد ابتني كل شيء في هذا العالم على أساس قوانين دقيقة محسوبـة مقدرة ، وهي تكتسب مشخصاتها وحدودها من قبل عللها وموجباتها ، فكل موجود كما يحصل على وجوده من قبل علته ، كذلـك يأخـذ كل خصـائصه الظاهرية والباطنية من ناحية علته ، ويتحدد بحدودها ويتقدر بقدرها ، وحيث لا بـدّ من المجانسـة والسنخية بين المعلول والعلة لا تعـطي العلة لمعلولها سوى الأثر المناسب لذاتها .

إن القضاء والقدر في الرؤية الإسلامية : يعني الأحكام الإلهية القطعية في مجاري أمور العالم ومقاديرها وحدودها ، وكل ظاهـرة وحادثـة في نظام الوجود ومنها أعمال الإنسان تصل إلى مرحلة التحديد القطعي بعللهـا ، ولا يعني هذا سوى شمول واستيعاب أصل العلية العام حتى بالنسبـة إلى أفعال البشر الاختيارية .

القضاء : يعني العمل المحتوم المبرم الـذي لا رجوع فيـه ، وهو من فعل الله سبحانه .

والقدر : يعني المقدار وكيفية جريان نظام الـوجود الكـونية ، فـالقدر أيضاً من خالقية الله الماضية في جميع موجوداته ، وعلى هذا التفسير فالقضاء والقدر يعني : أن الله هو الـذي خلق التقنية الكـونية ونـظامها ، وهـو الذي قدّرها وقضى بجريانها .

والمقصـود من التقدير هو التحـديـد العملي والعيني الخـارجي ، لا التقـديـر الـذهني كمـا يقـدر المهنـدس حـدود البنـايـة المقصـودة وجميـع خصوصياتها في ذهنه قبل تجسيدها .

والقرآن الكريم يرى هذه الأحجام الثابتة بجميع خصوصياتهـا وحدود كل شيء من قدر الله تعالى إذ يقول :

﴿ إنّا كل شيء خلقناه بقدر ﴾[1] .

﴿ قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾[2] .

نرى في القرآن الكريم أن القضاء جاء تعبيراً عن الضرورات الـطبيعيـة والعقليـة ، وعن العلل وتحقق معلولاتهـا ، وكـأنـه يعني : مـا لم تتم تلك المقادير المعينة بشروطها ولم تتكامـل المقتضيات لا يتحقق القضـاء الإلهي في الوجود .

أي أن الله قدر الموقـع المكاني والـزمني وحدود الحـوادث ثم حكم عليها بقضائه ، فأي عامل يظهر في العالم ويؤثّر إنما هو مـظهر لإرادة الحق وعلمه ووسيلة لتنفيذ قضائه .

إن المادة المحكومة بقانون « الحركة » تضمر استعـداد النمو والتـطور والتكامل ، وهي على استعداد لتقبل الصور المختلفة والحـالات والكيفيات

---

(١) سورة القمر : الآية ٤٩ .

(٢) سورة الطلاق : الآية ٣ .

المتنوعة حسب آثار العوامل ، باصطدامها ببعض العوامل الأخرى ، قد تتقدم وتطرد وتطوي المراحل المختلفة إلى الكمال ، وقد تتوقف في مسيرتها التقدمية ، قد تسرع في حركتها بصورة عاجلة ، وقد تفقد سرعتها اللازمة في طي التقدم والكمال وتبطىء في مسيرتها . .

إذن فمصيرها ليس نوعاً واحداً من القضاء والقدر ، والعلة هي التي تعين مصير المعلول ، وحيث إن الموجودات المادية تتعلق بعلل مختلفة لذلك تجد التفاوت في مصير بعضها عن بعض ، وإن كل علة تجعل الموجود في مسيرة خاصة .

فلو ابتلي أحد بمرض « المصران الأعور = الزائدة الدودية » فهو لعلّة خاصة ، ومصيره أحد أمرين : فإن خضع لعملية جراحية استعاد سلامته وبذلك يتغير مصيره ، وإن لم يخضع للعملية ومات ، كان ذلك مصيره الآخر .

إذن فالمصير مختلف ومتغيّر وتابع لتصميم المريض نفسه ، ولا يخرج تصميمه عن حوزة القضاء الإلهي .

ولا يجوز أن يقعد ويقول : لو كان من المقدر أن أعيش فسوف أعيش ، وإن لم يكن من المقدر أن أعيش فسأموت مهما سعيت للعلاج ، لا يجوز شرعاً ولا يجوز عقلاً ولا يجوز تكويناً أيضاً .

فلو مضيت للعلاج وتحسنت حالك فالتقدير كذلك ، ولو متّ تاركاً العلاج فالتقدير أيضاً كذلك ، إن ذهبت أم لم تذهب ، أو عملت أم لم تعمل كل ذلك من التقدير .

إن الذين تكاسلوا عن العمل ولم يحاولوه كان ذلك باختيارهم ، حتى إذا ما ضاقوا بالفقر حملوا اللوم على تقدير الله تعالى (صحيح أن التقدير هنا هو الفقر ولكن كان ذلك باختيارهم) ولو كانوا يصممون على العمل والفعالية وسعوا للرزق سعيه كان ما يحصلون عليه أيضاً من التقدير ، فسواء إن عملت

أو كسلت لم تعمل شيئاً خلاف القدر .

إذن فتقرير لتغيير المصير المتصور لا يعني مقاومة القضاء والقدر أو خلاف قانون العلية الكلية ، وما يغير المصير هو بدوره حلقة من حلقات سلسلة العلل والمعلولات وعامل آخر من عوامل القضاء والقدر الإلهي ، وبكلمة : إن القضاء والقدر يتغير بحكم قضاء وقدر آخر .

إن القوانين الميتافيزيقية (إن صحّ التعبير) لا تتعلق بالحوادث على وضع واحد فقط ، كما لا تساعد قواعد العلوم على أكثر من ذلك ، إنها ـ أي القوانين الميتافيزيقية ـ تحكم الظواهر والحوادث ولكنها لا تتحكم في اتجاهاتها ، وفي الحقيقة : الحوادث والظواهر واتجاهاتها كلها محكومة للقوانين الميتافيزيقية الشاملة ، فأينما اتّجهت الحوادث كانت في إطارها غير خارجة عنها تماماً كأنما الحوادث موجودات حية متحركة ماشية تسرح في واد معين واسع ، فأينما اتّجهت يساراً ويميناً ، شمالاً وجنوباً لم تكن تخرج عن محيط ذلك الوادي المعين .

إن القضاء والقدر الإلهي هو شمول أصل العلية ، حسب القوانين الميتافيزيقية ، وأصل العلية لا يقول بأكثر من : أن لكل حادثة سبباً ثم لا يهتدي هذا الأصل إلى أي تنبوء بشأن الحوادث ، إن القانون الميتافيزيقي الذي هو صعيد مجاري الأمور المختلفة ، سواء عليه ما يحدث ، تماماً كالشارع العام الذي يمهد المرور للمارة ولكنه لا يختلف عنده اتجاهاتهم .

إن أمير المؤمنين علياً (عليه السلام)عدل من جدار مائل مشرف على السقوط إلى جدار آخر . . . فقيل له : يا أمير المؤمنين . أتفرّ من قضاء الله ؟ ! قال (عليه السلام) « أفرّ من قضاء الله إلى قدره »[1] أي أفر من تقدير إلى تقدير آخر ، فالجلوس والخلوص كلاهما مشمولان للتقدير على سواء ، فلو تهدم الجدار وأصابني منه شيء كان ذلك بقضاء وقدر ، ولو

---

(١) راجع كتاب التوحيد للصدوق (ره) ص ٣٦٩ .

بعدت عن الخطر وسلمت كان ذلك أيضاً قضاء وقدراً ، و هذا هو معنى شمول واستيعاب التقدير .

إن القرآن الكريم يعبر عن قوانين الطبيعة السائدة في العالم والسنن الكونية الحتمية بأنها سنن إلهية إذ يقول :

﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾(١) .

و كذلك يرى من سنة الله :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكّننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً . ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾(٢) .

و كذلك يرى من سنة الله :

﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾(٣) .

وفي الرؤية الإلهية لا تنحصر الواقعيات في العلل المادية ، ولا ينبغي قصر النظر على العلاقات الحسية والأبعاد المادية للحوادث فحسب ، فإن العوامل المعنوية تصل إلى حدود ليس الوصول إليها بإمكان العوامل المادية ، ولها دور مستقل مصيري في وقوع الحوادث .

لا يستوي العمل الصالح والآخر السيّىء ، و لعمل الإنسان ردود فعل في الحياة ، فالإحسان إلى بني نوع الإنسان وإرادة الخير لهم والخدمة والمحبة والمودّة لخلق الله ، كل ذلك من العوامل التي تؤدّي إلى تغيير المصير إلى السعادة والنعيم الدائم ، والظلم وإرادة السوء والعدوان واتّباع

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٦٢

(٢) سورة النور : الآية ٥٥ .

(٣) سورة الرعد : الآية ١١ .

الهوى وحب النفس غير المشروع يستتبع ثماراً مرة وآثاراً مضرة ونتائج خاسرة لا تجتنب ، وكأنما العالم بنفسه بصير سميع ! بل إن عواقب الأعمال أيضاً من القضاء والقدر .

يقول القرآن الكريم بصدد الدور المصيري للعوامل المعنوية :

﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾[1] .

﴿ وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾[2] .

إن مسألة القضاء والقدر أصبحت مستمسكاً للجبريين قائلين : لايستقلّ الإنسان بصدور أي عمل منه ، إذ قد قدر الله أعمال الإنسان كلّيّها وجزئيّها ، صالحها وفاسدها ، وعلى هذا فلا يبقى مورد اختياري للإنسان .

والفرق بين الجبر والمصير المحتوم هو : إن وقوع كل ظاهرة تصبح ضرورة بعد تحقق جميع أسبابها وعللها ومن سلسلة العلل والأسباب إرادة الإنسان ، وبما أن الأنسان لايحقق أعماله إلا بأهداف معينة بصفته موجوداً مختاراً ، إذن فهو لايسير خلف أعماله متابعاً لها كقطرة المطر التي تسقط في مجرى خاص خاضعة لقانون الجاذبيّة ، ولو كان هو أيضاً كذلك لم يكن بمكنه أن يتابع أهدافه التي يفكر فيها ، في حين أن مدرسة الجبر تنظر إلى الإنسان وكأنه موجود قد عطلت إرادته مع حريته ، وترى أن العلل خارجة عن ذات الإنسان ولاتتعلق إلا بالله .

إذن فالقضاء والقدر إنما يؤدي إلى الجبر فيما لو أصبح بديلاً عن إرادة البشر ، ولم يبق أي دور لإرادته في أعماله ، بينما ليس القضاء والقدر الإلهي سوى نفس الأسباب والمسببات .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٩٦ .

(٢) سورة القصص : الآية ٥٩ .

لا شك أننا لا ندرك كل ما نتمناه، إلاّ أن هذه الحقيقة لا تشكل أقل دليل على الجبر ، إذ لا منافاة بين إثبات الاختيار للبشر مع محدودية اختياره لأعماله ، وأدلة إثبات الاختيار لا تتضمن الدلالة على عدم محدودية اختياره .

إن الله قد أجرى عوامل عديدة على صعيد الوجود ، قد تبدو واضحة وأخرى لا تبدو كذلك ، وإن التفسير الدقيق الواقعي لمفهوم القضاء والقدر يبعث الشخص على السعي الأكثر في سبيل استزادة الإفادة من طاقاته في إطار معلوماته ، ولكي يتمكن من التعرّف على الواقع ومحاسبة الواقعيات ، وبالتالي يتمكن من الوصول إلى إمكانات أكثر ، إن محدودية قدرات الإنسان هي العلة في عدم توصله إلى عوامل أكثر في سبيل الوصول إلى انتصارات أكبر ، وبالتالي لا يصل إلى تحقيق آماله .

إذن فمصير كل موجود مرتبط بعلله السابقة على أساس أصل العلية العامة ، وسواء كنا مؤمنين بالمبدأ الإلهي أم لا فإن ذلك غير مؤثّر في مسألة الحرية والمصير ، أي سواء كان الإنسان يرى نظام الأسباب والمسببات في العالم مستنداً إلى إرادة الله ومشيئته ، أو كان يفترض استقلال هذا النظام عن الاستناد إلى الخالق ، إذن فلا يمكن أن نرى أن عقيدة الجبر ناتجة عن العقيدة بالقدر ، إن الغرض من المصير هو علاقة كل حادثة بعللها التي منها اختيار الإنسان وإرادته ، وليس المقصود من تقدير المصير إنكار الأسباب والعلل .

إن الله قد قدر وقضى أن تبدو كل ظاهرة من مجاري عللها الخاصة ، وأن مشيئة الخالق تسود العالم كقانون عام ، وأن كل تغيير إنما يتحقق على أساس السنن الكونية الإلهية ، وإلا فلا يتحقق ذلك ، وأن كل مدرسة علمية تؤمن بأصل العلية العامة لا بد لها من أن تؤمن كذلك بهذه الروابط والعلاقات ، سواء كانت مدرسة مادية أو إلهية .

إذن فلو كان ظهور أية حادثة ـ ومنها أفعال الإنسان ـ قطعياً من قبل علله

وأسبابه ، وكان هذا الحدوث القطعي مفيداً للجبر فما الفرق بين المدرسة الإلهية والمادية ؟ .

أجل ، إن التفاوت الثابت هو أن التصور الديني ـ بخلاف التصوّر المادّي ـ يرى أن هناك سلسلة من الأمور المعنوية هي جزء من العوامل المؤثّرة جداً في حدوث كثير من الحوادث ، إن هذا التصوّر يرى وجود أسرار ورموز معنوية في الوجود هي أدق وأعقد من العوامل المادية ، إن هذا التصوّر يهب الحياة روحاً وهدفاً ومعنى ، والإنسان نشاطاً وعمقاً في البصيرة وقوّة في الفكر واتّساعاً في الأفق ويمنعه من السقوط في هوّة الفراغ المهولة ، ويدفعه في سيره نحو الكمال دون توقف وركود .

وعلى هذا ، فإن المؤمن الإلهي الذي يؤمن بالقضاء والقدر ويدرك أن هناك أهدافاً حكيمة في خلقة الإنسان والعالم ، يكون أوثق وآمل من غيره بنتائج فعالياته وثمارها مع ما هو عليه من الاعتماد والتوكّل على الله في مسيرته في الحياة ، وهو يرى نفسه محاطاً بحماية الله وتأييداته .

أما الأسير في سدى ولحمة التصوّر المادي ، وله تصوره الخاص عن القضاء والقدر في إطار تفكيره الخاص ، فلا يتمتع بهذه المزايا الإيمانية الإلهية قطعاً ، فإنه لا يطمئن بتأييد في تحقيق آماله ، وبدهي ما بين هذين المذهبين من الفواصل العميقة بالنظر إلى الآثار الاجتماعية والتربوية والنفسية .

يقول (أناطول فرانس) : « إن من قدرة الأديان أن تعلّم الإنسان الأسباب والعواقب في الأعمال ، وحينما نطرد نحن أصول فلسفة العقائد الإلهية ـ كما نحن عليه الآن في عصر العلم والحرية ـ لا تبقى أية وسيلة أخرى نفهم منها : لماذا أتينا إلى هذه الحياة ؟ ولماذا أقدمنا إليها ؟ إن سرّ المصير قد أحاطنا بما له من هيمنة ، وعلينا أن لا نفكر في شيء قط كي لا نحس باللغز المبهم للحياة ، وإن جذور أحزاننا وآلامنا إنما هي في جهلنا المطلق بعلة وجودنا في هذه الحياة ، وإن آلامنا الجسمية والروحية كانت

تصبح ممّا يطاق فيما لو كنا ندرك فلسفتها ولو بالاعتقاد بمشيئة الله سبحانه .

إن المؤمن ليلتذ حتى من عذابه الروحي ، وحتى الأخطاء التي تصدر منه لا تسلبه أمله ، أما مع خمود شعلة الإيمان فلا معنى حتى للأمراض والأدواء إلا أن تحسب مزاحاً قبيحاً واستهزاءً من الطبيعة للإنسان » .

تفسير ناقص للقضاء والقدر

إن بعض صغـار المثقفين بسبب تصـورهم الخـاطىء عن القضـاء والقدر ، يزعمون أن العقيدة بالقدر عامل من عوامل الجمود والركـود وعائق للإنسان عن أي سعي أو عمل في الحياة .

إن السبب في نشوء هذا التصـوّر في الغرب هـو عدم اطـلاعهم على المعنى الصحيح لمسألة القضاء والقدر ولا سيما في تعـاليم الإسلام ، وإن سراية ذلك التصوّر الغربي الخاطىء عن القدر إلى أفكار شعوب الشرق إنما هو بفعل تأخّر هذه الأمم وانحطاطها وانهزامها أمام الغرب وكل ما هو غربي ، إن كـل شخص أو أي شعب لم يصل إلى آمـاله وأمـانيه المـادية والمعنـوية يحاول أن يسلي خاطره بكلمات من قبيل : الحظ والمصير والصدفة والتوفيق والقضاء والقدر . .

إن الاعتقاد بالقضاء والقـدر لا يتنافى مع سعي الإنسـان للوصول إلى أهدافه في الحياة ، بل إن المطلعين على الوعي الديني الضروري في هذه المسألة يعلمون بأن الإسلام قد دعا الناس إلى بـذل غايـة الجهد في سبيـل تنظيم الحياة المادية إلى جانب الروح والمعنـى ، وهي دعوة تؤثر في تسريع مساعي الإنسان للحياة .

من هؤلاء المفكرين الغربيين الذين فسروا القضاء تفسيراً قـاصراً هـو

(جان بول سارتر) فقد تصور هذا المفكر الغربي : أنه لا يمكن الجمع بين العقيدة بالقدر الإلهي وقبول اختيار الإنسان وحريته في الانتخاب ، وأن لا بدّ من اختيار أحد الأمرين : إما العقيدة بالله وقضائه أو العقيدة بحرية الإنسان واختياره . . يقول :

« بما أني أعتقد بالحرية فلا أتمكن من أن أعتقد بالله ، إذ لو آمنت بالله وجب علي الخضوع لقضائه وقدره ، وإن قبلت ذلك كان علي أن أغض النظر عن الحرية . . وبما أني أحب الحرية فلا أؤمن بالله » ! .

في حين أنه لا منافاة بين قضاء الله وقدره العام من ناحية وحرية الإنسان من ناحية أخرى ، إن القرآن الكريم يعترف للإنسان بدوره الحر والفعال إلى جانب مشيئة الله العامة ، ويراه قادراً على تربية نفسه تربية واعية بمعرفة الحسن والقبيح واختيار أحدهما ، ويقول : ﴿ **إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً**﴾[1] ﴿**ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً** ﴾[2] ويلوم من يقول يوم القيامة : ﴿ **لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولاآباؤنا ولا حرّمنا من دونه من شيء** ﴾[3] .

ولا نرى في أي آية من الآيات القرآنية نسبة الفساد والضلال ولا منعهم عن إصلاح شؤونهم إلى قضاء الله ، فلا تجد آية أدخلت إرادة الله على إرادة الإنسان ، أو أن تنسب ابتلاء شخص أو شعب إلى اقتضاء القضاء بالباطل ، أجل ، إن القرآن يذكر بغضب الله وأنه يصيب الطغاة من البشر الفاسدين ، وأن لهم بعد ذلك العذاب الأليم .

بما أن الله رؤوف بعباده رحيم بهم منعم عليهم بما لا يحصى فهو قابل التوبة منهم إن عاد منهم عائد إلى طريق الطهارة والصلاح ، يفتح له طريق العودة ويقبل منه التوبة ، وهذه رحمة عظيمة .

---

(١) سورة الدهر : الآية ٣ .
(٢) سورة الإسراء : الآية ١٩ .
(٣) سورة النحل : الآية ٣٥ .

إن نطاق نفوذ إرادة الإنسان وإن كان أوسع وأشمل من إرادة كل الأحياء من الحيوانات المعروفة ، إلاّ أن أثر إرادته ودوره إنما هو فيما حدّده له الله من حدود ، فلا يمكنه أن يحقق ما أراد على طول الحياة .

كثيراً ما يتفق أن يصمم الإنسان على عمل لكنه لا يصل إليه مهما حاول ، وليس سبب ذلك أن إرادة الله قابلت إرادة الإنسان ومنعته عما أراد من عمل ، بل إن هناك عوامل مجهولة خارجة عن علم وقدرة الإنسان تقف حائلة دون وصول الإنسان إلى أهدافه .

إننا حينما ندرك أنه لا يمكن وجود علة بلا معلول ، ومعلول بلا علة ، وأن وسائل إدراكنا محدودة قاصرة ، نعلم أننا لا ندرك كل ما نتمناه قطعاً .

إن الله قد أجرى في نظام هذا الوجود مليارات العوامل ، بعضها مفهومة للإنسان وكثير منها غير معلومة بل لا تدخل تحت أي حساب . . . وعلى هذا المعنى فإن القدر لا ينتهي إلى سلب اختيار الإنسان ولا يمنعه عن السعي والمحاولة للاستزادة من المعلومات والاستفادة والإفادة منها ، ولكي يتعرّف على العوامل التي تمهد طريقه إلى مزيد من التوفيقات في الحياة ، وإن هكذا عقيدة بالقدر لتؤثّر في التقدم بأهداف الإنسان وحاجاته ، لا بالعكس .

وبضمن هذا البحث والذي سبقه حلت مسألة السعادة والشقاء في الإنسان أيضاً ، إذ أنهما إنما هما صفتان للأفعال والحركات الإرادية للإنسان ، وليستا من الأمور غير الاختيارية والعوامل فوق الطبيعية التي تؤثّر في وجود الإنسان أو دوره في الحياة .

إن عوامل المحيط والوراثة وكل ظواهر الطبيعة لا تؤثّر في سعادة أو شقاء الأشخاص (أثراً إلزامياً) فليست هي التي تقرر مصيره بل الذي يصنع مستقبله ويؤدّي به إلى الرقي أو الهبوط هو اختيار الإنسان نفسه ، ويتبع كيفية إفادته من عقله وعلمه وملكاته التي يتمتع بها .

إن السعادة والفلاح لا علاقة لها بكيفية أو كمية تمتع الإنسان بمواهب

الطبيعة ، أجل ، لا شك أن الذي يتمتع بكمية أكثر أو كيفية أقوى من مواهب الطبيعة يتحمل مسؤولية أكبر ، وإن الانحراف الصغير منه لا يعادل انحراف آخر أضعف منه وأعجز ، بل يحاسب بنسبة الإمكانات والاستعدادات التي يتمتع هو بها .

من الممكن للذي لا يتمتع إلاّ بقليل من القدرات والطاقات المذخورة في طبيعته أن يلائم بين وضعه ومسؤولياته المكلف هو بها ، فيصل بذلك إلى سعادة تليق بمقامه الإنساني .

إذ أن ما يصل بالإنسان إلى سعادته وفلاحه هو أن يسعى للإفادة الصحيحة مما فيه من ذخيرة مودعة ، والعكس ممكن أيضاً ، بأن لا يفيد منها الغني الثري بها بل يسيء استعمالها فيسحق بذلك كرامته وشرفه وإنسانيته فيضل ويشقى ولا يفلح أبداً ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾[1] .

وهكذا يرى القرآن أن سعادة أو شقاء كل شخص تتعلق بأموره الاختيارية لا تركيبه الطبيعي والنفسي ، وهذا من آيات عدل الله سبحانه .

و« البداء » من خصائص عقائد الشيعة ، بمعنى أن المصير قد يتبدل بتبدل عوامله وأسبابه ، و أن ما كان يبدو بحسب الظاهر خالداً قطعياً يتغير بتغير أعمال الإنسان وأفعاله وسيرته .

فكما أن العوامل المادية تؤثر في مصير الإنسان أحياناً ، كذلك قد تؤثر فيه عوامل معنوية أيضاً ، فمن الممكن أن تبدي لنا هذه العوامل المعنوية ما كان خلف الستار خلاف المجاري الظاهرية للأمور ، والحقيقة أنه يبدو لنا أمر جديد من طريق تغير الأسباب والشروط ، فينتهي دور حكمة الأمر الأول بحدوث مصالح الأمر الثاني كما في النسخ ، وكما ليس نسخ القوانين السابقة باللاحقة دليلاً على جهل أو ندم المشرع بل إنما هو كاشف عن انتهاء حكم التشريعات السابقة ، كذلك البداء في التكوين .

---

(١) سورة المدثر : الآية ٣٨ .

ويخطىء من يقول في معنى البداء : إن الأمر كـان مخفياً على الله ثم ظهر فغيّره الله ! إذ إن عقيدة كهذه تتنـافى مع علم الله الشـامل ، ولا يمكن لمسلم أن يقبل بذلك .

إن الدعاء من العوامل المعنوية التي لا ينبغي التقليل من أهميتها ، إن الله عالم بأسرار الأمور وبـواطنها ، إلاّ أن دعـاء العبد ربّـه في عالم الـروح والمعنى وعلاقة العبد بربه ، كنظام العمل في علاقة الإنسان بالطبيعة .

في كل لحظة تبدو في الطبيعة ظواهر جديدة كانت لها عوامل سابقة ، وفـي قسم كبير من عالم الوجود يؤثر الدعاء أثره العميق ، فكما جعل الله لكل عنصر من عناصر الطبيعة دوراً في نظام العلية ، كذلك جعل للدعاء دوراً في الطبيعة .

فعلى الإنسـان حينما يقـع في محاصـرة المشكـلات أن لا يتجـه إلى اليأس والقنـوط ، إذ إن أبواب الرحمة الإلهية لا تغلق على وجه أحد أبـداً ، ولـربما جـاء الغد بـوضع جـديـد من حيث لا يحتسب **﴿ كـلَّ يـوم هـو في شأن ﴾**(١) .

و لنفس السبب لا ينبغي للإنســان أن يتـرك السعي والعمـل فـي أي موقعية جنباً إلى جنب مع الدعاء والابتـهال ، فإن الدعاء بـلا عمل كمـا قال الإمام علي (عليه السلام) :

« الداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر » ، بل عليه أن يضع أمنياته مع ربه ضمن محاولاته ومساعيـه بكل إخلاص ورجـاء ، يطلب من القـادر المطلق إمداده و إعانته ، و لا شك في عون الله لعبده المؤمن كما قال في قرآنه :

﴿ وإذا سألك عبـادي عني فإني قـريب أجيب دعوة الـداع إذا دعـان فليستجيبوا لي وليؤمنـوا بي لعلهم يرشدون ﴾(٢) .

---

(١) سورة الرحمان : الآية ٢٩ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٨٦ .

أجل ، إن الروح لا يصل إلى أوج كماله ولا يستغرق في بحار السعادة إلا حينما يجد نفسه منقطعاً عن العلل والأسباب متصلاً بربه وحده ـ من دون الوقوع في حضيض اليأس والقنوط ـ وهنا يرى نفسه مع ربه ويلمس منه عنايته الخاصة ، كما يقول الإمام السجاد زين العابدين في دعائه الذي علمه أبا حمزة الثمالي :

« اللهم إني أجد سبل المطالب إليك مشرعة ، ومناهل الرجاء إليك مترعة ، والاستعانة بفضلك لمن أملك مباحة ، وأبواب الدعاء إليك للصارخين مفتوحة ، وأعلم أنك للراجين بموضع إجابة ، وللملهوفين بمرصد إغاثة » .

وورد في الروايات في أثر الذنوب : « من يموت بالذنوب أكثر ممن يموت بالآجال » ، « ومن يعيش بالإحسان أكثر ممن يعيش بالأعمار » « موت الإنسان بالذنوب أكثر من موته بالأجل ، وحياته بالبر أكثر من حياته بالعمر » (١)

أجل ، إن أثر الدعاء وبركته هي التي وهبت لزكريا يحيى ، والابتهال والتوبة إلى الله هي التي أنقذت يونس بن متّى وقومه من الهلكة والعذاب .

إن القوانين التي أجراها الله في نظام الموجودات في هذا العالم ، لا تحدد قدرته سبحانه ، ولا تشلّ شمولها وعموميتها ، فكما كانت له الخيرة في إيجادها كذلك له الخيار في استمرارها أو تغييرها ومحوها أو إثباتها ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت** ﴾ وليس مغلول اليدين أمام ما وضع هو من قوانين ومظاهر مخلوقة .

ولكن ليس معنى قدرة الله على تبديل بعض ظواهر الطبيعة في كل لحظة ، أنه سبحانه يخرق مقرراته التي أثبتها هو في نظام العالم ، وأنه يقلب القوانين والسنن والأصول ، بل إن نفس ذلك التغيير والتبديل أيضاً يتبع

---

(١) سفينة البحار : ج ١ ص ٤٨٨ .

أصولاً وموازين أخرى لا ندركها أحياناً ، وإن حساب الاحتمالات وبعد النظر فيها تمنع الإنسان عن التنبؤ القطعي بالحوادث وفق مجاري الطبيعة وأصولها في أي زمان .

ما نعلمه إنما هو صورة من مظاهر الطبيعة في بعض أبعادها وليس كلها ، وهي قاصرة عن درك الأجزاء والعلاقات وكيفياتها ومقاديرها ، ولا تدخل كل إمكاناتها وضروراتها في حدود ما نعي وندرك ، وإن دعوى معرفتها وإظهار النظريات الحتمية بشأن المسائل الطبيعية المعقدة وأبعادها المختلفة ونظام الوجود العظيم ، إنما هي مجرد دعوى بلا دليل .

مهما كانت نظرياتنا بشأن الحياة ، فليس في علم الله أيضاً كذلك كي يؤدّي التغيير فيه إلى الاختلاف في علم الله أيضاً ، بل إن كل الأجزاء والشؤون لهذا الجهاز الوجودي العظيم من الأزل إلى الأبد ومجموعة الحوادث المتحققة والتي ستتحقق ، لا تشكل أي تبدل أو تغيير في علم الله الأزلي ، أقل تغيير أو تبدل .

لقد تم ـ و الحمدلله ـ الجزء الأول من هذا الكتاب : (أصول العقائد في الإسلام) الذي قد حوى بين جناحيه البحث عن موضوعي : (توحيد الله و عدله) .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

أصول العقائد

في الإسلام

الله

بسم الله الرحمن الرحيم

أصول العقائد
في الإسلام

تأليف
السيد مجتبى الموسوي اللاري

الجزء الثاني

تعريب
محمد عبد المنعم الخاقاني

الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ ١٩٨٨م

الدار الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع
لبنان

كورنيش المزرعة / بناية الحسن سنتر / الطابق الثاني
هاتف ٨١٦٦٢٧ / ص . ب : ١٤٥٦٨ تلكس ٢٣٢١٢ ـ غدير
فرع ثاني / حارة حريك مفرق الحلباوي / هاتف ٨٣٥٦٧٠

مقدمة المؤلف

إنّ ما يبعد الإنسان بشكل مستمر عن الواقعيات ويلقي به في أحضان المستنقعات المتعفّنة إنما هو « الفراغ الفكري والآيديولوجي » .

ونحن نشاهد اليوم تبعثر قسم عظيم من الطاقات المنتجة الخلّاقة، تلك التي أشاحت بوجهها وأغمضت عينيها عن أثرى البحار الثقافية وأنقى العقائد الدينية . ثم ضحّت بأفكارها في مذبح الآيديولوجيات الحديثة الشائعة في العالم اليوم ، وتعرض على الأجيال الراهنة المتعطّشة والثائرة ومن قنوات مختلفة أفكار ناقصة صاغها على عجل فلاسفة وعلماء محدودون في تفكيرهم ، وتبدو هذه الأفكار في الظاهر أنها مفيدة وتلبّي مطالبهم ، ولكنه في ظلّها لا العالم يصبح ذا معنى ومفهوم ولا الحياة تغدو ذات هدف وغاية .

ولن تكون أمثال هذه الاتجاهات ذات البعد الواحد ، غذاءً صحيّاً ونافعاً لتلك العقول الحسّاسة ، بل وحتى ليس من المناسب عرضها في جوّ

لم يمت فيه العقل والمنطق .

ولا شك أن ما نلاحظه من ألوان الظلم والقسوة والعذاب والاضطراب مما يملأ الساحة التأريخية هو ناشيء من التناقض الذي يملأ العالم ويغطّي حياة الإنسان .

ونحن نعتقد ، أن للإسلام وعقيدة التوحيد التي تتضمّن تحليلاً فلسفيّاً وعلميّاً شاملاً وعميقاً للعالم الواقعي والأمور الخارجية ،والتي تتناول الإنسان بكل أبعاده لتفهمه وتعالج أدواءه ـ نعتقد أن للإسلام قدرة وطاقة يستطيع بها أن يحلّ التناقضات الفكرية من جذورها ، وأن يقود الإنسان نحو البناء والاستمرار في التحرّك الأصيل الباني للمستقبل ، ونعتقد أن أيّ عقيدة وإن كانت أسسها عالمية وجذورها خالدة ، فإنها تحتاج إلى عرض جديد تقدّم به إلى الجيل الحديث بحيث يتناسب مع مقتضيات ذلك العصر .

ولهذا السبب فإنه لا بدّ للعلماء والمفكّرين والمدركين لروح العصر الذين يحسّون بالحاجة الملحّة للبحث حول الأمور الأساسية لمواجهة ما يملأ دنيا العالم والفلسفة من جديد ـ لا بدّ لهؤلاء من الالتفات والتعمّق في المسائل المختلفة معتمدين على المصادر الإسلامية الأصيلة ، ودارسين إيّاها بشكل جادّ وواسع ، وذلك ليظهروا الوجه الناصع للحقائق كما تقتضيه الرؤية التقدمية الشاملة للإسلام ، وعندئذٍ يطّلع العالم على الأسس الفكرية للإسلام .

وهذا الكتاب هو بحث مبرمج ، سعينا ما أمكننا لنستعرض فيه : « أصول العقائد » الإسلامية بشكل حيّ وبصورة تقييمية ، بحيث يشتمل على الناحية الاستدلالية ، ولا يبتعدِ في نفس الوقت عن البساطة والوضوح في التعبير .

وكان الهدف المهم من وراء هذا الكتاب هو أن يخرج بحجم صغير لتسهل الاستفادة منه ، ولهذا فقد أحجمنا عن التبسّط في نقد آراء ونظريات الفلاسفة والعلماء .

وهذا هو الجزء الثاني من الكتاب المذكور وهو يشمل :

« النبوّة العامة » و « النبوّة الخاصة » .

ونرجو أن يعتبر خطوة ولو قصيرة في طريق توضيح نظرات الإسلام في المسائل الأساسية « الخفائض » .

ومن حسن الحظ أن يكون هذا الكتاب تحت الترجمة الآن إلى اللغة الإنجليزية والعربية ، نأمل أن نوفّق لنشرها قريباً بإذن الله تعالى .

مجتبى الموسوي اللاري

الأصل الثالث

دراسة حول رسالة الانبياء

التعرّف على مذهب الأنبياء

نحن لم نر ولم نسمع أبداً في هذا العالم الذي نعيش فيه أن دائرة أو مؤسسة قد تركت بدون مدير أو مسؤول ، والعقل الإنساني يرفض المؤسسات الاجتماعية التي لا رئيس لها ولا مسؤول ، ولا يستطيع أيّ مفكّر أن يضفي الصحة على الهيكل التنظيمي الذي لا مدير له ولا مسؤول .

وإذا عرفنا أن العقل والمنطق يؤكدان على ضرورة وجود مدير ورئيس للتشكيلات الصغيرة كالمؤسسات الاجتماعية ، فكيف يمكن إذن أن يصل المجتمع البشري من خلال حركته الإنسانية إلى أهدافه الأساسية من دون قائد وأسوة ؟ وكيف يستطيع أن يظفر بالقيمة الرفيعة المناسبة له ؟ .

فالخالق الذي وفّر في نظام التكوين كل ما يلزم لإيصال أيّ موجود إلى كماله اللائق به ، ووضع تحت تصرّفه الوسائل اللازمة لذلك ، وأعطى كل عضو من أعضاء الحيوانات والنباتات ما يحتاج إليه ، كيف يصدّق أنه يغفل عن موضوع بعثة الأنبياء في نظام التشريع، مع ما لها من دور فعّال في التكامل الإنساني من النواحي المختلفة ؟ وكيف يعقل أنه يواجه أهم ركن من أركانه باللامبالاة وعدم الاعتناء ؟ .

ومن ناحية أخرى : هل يوجد عاقل يقبل أن يكون نظام الوجود الواسع العظيم ـ بكل ما يحتوي من مظاهر الحياة المحيّرة ـ قائماً بلا هدف ،

ومؤسساً على العبث ؟ .

وهل يمكن نسبة مثل هذا العمل اللامعقول إلى الخالق العـظيم ؟ لا سيّما إذا التفتنا إلى وجود موضوع الثواب والعقاب وبهذه الصورة الدقيقة؟ .

إنه من الأصول العلمية المسلّمة أن يكون وراء الحياة والفكر والإرادة هدف؛ وليس من الممكن إطلاقاً أن يقدم موجود عاقل واع على إنجاز عمل دون أن يكون له أيّ هدف أو مقصود من وراء ذلك .

وهل يمكن أن يكون الله ذو الرحمة والشفقة اللامتناهية غير مهتمّ بمصير الإنسان ، وقد ترك أمر الناس لأنفسهم كي يسفك أحدهم دم الآخر، ويرتكب من يشاء منهم أيّ جريمة، فتتحوّل الدنيا إلى جهنّم محرقة ؟ .

ولو ترك أمر الإنسان لنفسه في هذا الوجود لأصبح حكم أيّ فرد مبنيّـاً على طبعه وذوقه ، فهو يعمل ما يحبّ وما يتلاءم مع رغباته ، وحينئذٍ يسلك كل إنسان ذلك السبيل الذي يؤمّن له مصالحه ، ويؤدي بالنتيجة إلى تصادم الرغبات والمصالح ويجـرّ إلى تقطّع العلاقات الفردية والاجتماعية ، وينتهي إلى الفساد والهرج والمرج .

يقـول الدكتـور والعالم الفـرنسي (أميل درمنكـام) في كتابـه (حيـاة محمد) :

« إن وجود الأنبياء ضروري لهذه الـدنيا بمقـدار ضرورة وجـود القوى الطبيعية النافعة والعجيبة ، كالشمس والمطر وطوفان الشتاء الذي يهزّ الأرض اليابسة الميّتة ويشقّقها لتغطّيها الخضرة والبهاء .

ولا يمكن الحكم على أحقيّة وعظمة مثل هذه الحوادث إلّا من خلال النتـائج المتـرتبـة عليهـا ، من قبيـل الاستعـدادات الهـائلة التي اطمـأنّت واستحكمت ، والقـلوب التـي استقـرّت ، والإرادات التـي قـويـت ، والاضطرابات التي هدأت ، والأمراض الأخلاقية التي شفيت، وأخيراً الأدعية

والتضرّعات التي ارتفعت نحو السماء »[1] .

وفي الأديان الإلهية تـشكّل معرفة أبعاد الإنسان المادية والمعنوية ـ في حدود سعة إدراكه ـ البناء التحتي للعقيدة والعمل ، فالإنسان لا يقتـرب إلى سعـادته الـواقعية ، ولا يتمكّن من نيـل كمالـه ونضجه مـا لم يعرف مـطالبه الأسـاسية ورغبـاته الحقيقيـة أولاً ، ثم يعمل على إشبـاعها بصـورة متـزنـة فيحفظها من الانحراف .

والـذي يعذّب البشـرية إنمـا هـو روح عـدم الإشباع ، أو روح التمرّد والطغيان ، وتعدّ السيطرة على هذا الاندفاع وتهدئة هذا الطغيان من الأمـور الأسـاسيـة في منـاهـج الأنبيـاء ، ولهـذا نـلاحظ في أديـانهم أن اللذات لا تحارب ، وأصالتها وقيمتها لا تنكر .

فالأمل الكبير للأنبياء الذين هم مركز الفضيلة والمنبـع الثرّ للأخلاق الإنسـانية هـو معالجـة وتغذيـة الروح البشـرية للوصـول إلى الحقيقة العليـا والارتفاع في اتجاه القيم الأخلاقية ، فيتحرّك الإنسان في ظل التربية الواقعية والواعية للأنبياء في اتجاه اللانهاية ، ويبتعد عن الغربة ، ومن الضروري أن يكون المخططون لمثل هذا المنهج هم الذين اصطفاهم الله العـالم بأسـرار الوجود وحاجات الإنسان النفسية .

واختيـار الأنبيـاء يتم على أسـاس أنهم النمـوذج الكـامـل للطاقــات والاستعدادات البشرية ، وإذا أراد الناس لوجودهم الارتفاع ولروحهم الشفاء فلا بدّ لهم من تطبيق تعاليم هؤلاء الأنبياء حتى يتم لهم الوصول إلى الآفاق السمـاوية الـرحبة الغنيّـة ، وعندئـذٍ فقط تتّجه إنسـانيّـة الإنسـان في طـريق التكامل .

والعنصر الإنساني في هذا العالم ليس مطروداً ولا منفيّاً ، ولا أن الله قد شاء أن يترك مصير الناس بيد الأقوياء العابدين لأهوائهم الغارسين أظافـرهم

(١) مسألة الوحي ص ٣١ .

المسمومة في أرواح الإنسانية وأفكارها ، وهم يبدأون استغلال الناس بالاستغلال الفكري لكي يمنعوهم من التكامل الواقعي، ويجرّوهم نحو رغباتهم المنحطّة وأهدافهم الساقطة .

ولمّا كانت المعايير الفكرية والعقائدية تتمتّع بدور مهم ، وهو كونها معطية للاتجاه، ومن العوامل المؤثرة جداً في شكل الحياة، فقد استغل الأنبياء هذا السبيل وحطّموا ما في المجتمع من مقاييس فكرية تصطبغ بالصبغة الجاهلية ، وقدّموا مكانها معايير جديدة غنيّة إيجابيّة .

وهؤلاء هم ثوّار التأريخ الذين أشرقوا في أعماق الظلمات ، وقاوموا مراكز الضلال والفساد الفكري ، ووجّهوا أقدس وأجمل تجلّيات الروح الإنسانية نحو مجراها الواقعي الصادق ، وحرّروا الإنسان من العبادات المخجلة التي لا تناسب مقامه الرفيع ، وحالوا دون انحرافه خلال البحث عن الله، ودون تورّطه في التفكير المعوج والخسائر الناشئة من ذلك . وقادوه من مستنقعات الجهل إلى آفاق النور والوعي ، وذلك لأن جميع السبل التي تضمن السعادة والفلاح تنتهي إلى التوحيد .

وإذا دقّقنا النظر في محتوى تعاليم الأنبياء المعيّنة لاتجاه حركاتهم الإصلاحية والتحررية وجدنا أن هدفهم الوحيد هو إيصال البشرية إلى السعادة الحقيقية .

ولمّا كان الله سبحانه ينظر إلى عباده بعناية خاصة فإنه يصطفي أكمل الناس وأرقاهم لكي يتغلغلوا في البداية إلى أفكار الناس وعقائدهم، ثم يوجدوا فيها قفزة هائلة ويسحبوهم إلى ساحة العمل والأخلاق ، ويحوّلوا أنظارهم من الطبيعة إلى ما وراء الطبيعة ، ويحرّروا البشرية من الاختلافات الضحلة والمعبودات المتنوّعة، والتهالك على الدنيا والمظاهر المادية ، ويطهّروا العقول والقلوب ويربطوها بمركز الأمل والرحمة، فتطمئن الأرواح وتسكن النفوس .

يقول الإمام علي (عليه السلام) في أول خطبة من نهج البلاغة :

« واصطفى سبحانه من ولده ـ ولد آدم ـ أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم ، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم ، لمّا بدّل أكثر خلقه عهد الله إليهم فجهلوا حقّه ، واتّخذوا الأنداد معه ، واجتالتهم ـ صرفتهم عن قصدهم ـ الشياطين عن معرفته ، واقتطعتهم عن عبادته ، فبعث فيهم رسله ، وواتر إليهم أنبياءه ، ليستأدوهم ميثاق فطرته ، ويذكّروهم منسيّ نعمته ، ويحتجوا عليهم بالتبليغ ، ويثيروا لهم دفائن العقول ، ويروهم آيات المقدرة » .

ويتضمّن الدين الذي شيّد أساسه الأنبياء لوناً من النظرة الكونيّة والرؤية الاجتماعية ، حيث تجعل تفكير الإنسان سائراً في اتجاه خاص، ولا شكّ أن تصوّر الإنسان للكون وحقائق الحياة ، عامل مهم يجرّ خلفه قسماً واسعاً من محاولاته وجهوده .

ويعتبر « التوحيد » أول درس وأهم أساس في العقيدة الدينية السماوية .

والأنبياء منذ بعثتهم يرفعون أصواتهم بالتوحيد، راغبين في تحرير عقول الناس من قيود الأوهام ومن الاستسلام والتذلل والخضوع أمام المعبودات الكاذبة ، وقد أبلغوا الدعوة الإلهيّة في مدة قصيرة للمرأة والرجل ، للشيخ والشاب ، للحكّام والطغاة ، ولجميع طبقات مجتمعاتهم ، وعقدوا العزم على قطع كل أغلال العبودية وتمزيق كل أستار الجهل والخرافة بنور العقل والفكر البشري ، وأرادوا إيصال المجتمع إلى نضجه في ظلّ التوحيد ، وحاولوا إزالة الصبغة غير الإلهية عن أرواح الأمم .

ولم يكتف أنبياء الله بتربية الأفكار كما يفعل الفلاسفة ، بل اتخذت محاولاتهم في مجال التوحيد طريقها إلى أعماق القلوب ، وبعد أن قاموا بتطهير العقول راحوا يملأون القلوب بالحب الصادق الناتج من الارتفاع المعنوي ، وهذا هو الحبّ الواقعي الذي يدفع الناس للشوق والحماس

والحركة ، ويصنع منهم أناساً أحياء متوثبين .

والحبّ والتعلّق بمنبع الحياة الذي لا يتناهى هو المحرّك للحياة ، وإذا قدّر للإنسان أن يسلب منه هذا المحرّك فسيصبح جسداً هامداً لا حركة فيه .

وأصل التوحيد هذا هو الذي يميّز مجتمعنا من حيث التكوين الداخلي ، والشكل الخارجي من سائر المجتمعات ، وهو الذي يوجد تحوّلات عميقة وجذرية فيه ، بحيث لا يمكن مقارنة ما فيه من سلامة في بناء الفرد والمجتمع مع سائر الحركات التأريخية ، وذلك لأنه بالإضافة إلى كونه محدداً لعلاقة الإنسان بمبدأ الوجود ـ أي أنه يقصر العبادة على خالق الكون الذي هو الحاكم والمالك على الإطلاق ـ فهو محدّد أيضاً للعلاقات الاقتصادية والسياسيّة والقانونيّة العائدة له .

وتستعمل المصادر الإسلامية كلمة « البعثة » للدلالة على وظيفة الأنبياء ، ويكمن فيها معنى التحرّك والسرعة في العمل والمحاولات الخطيرة ، ولا نعرف كلمة أوضح ولا أجمل من هذه الكلمة للدلالة على الحركة الجذرية والعميقة .

* * *

وتنشأ من توحيد الله وحدة الحاكمية ، وذلك لأن المرجع الوحيد في تشريع القوانين وإصدار الأوامر هو ذات الله الذي لا شريك ولا شبيه له ، فحق الأمر والنهي مقصور على خالق الوجود ، ولهذا السبب فإن التوحيد عبارة عن هذا الأمر، وهو أنه لا يوجد أحد غير الله يتمتّع بحق السلطة والحكم وتشريع القوانين .

فالتوحيد الخالص ليس هو أن نعترف فقط بأن للعالم خالقاً ، وإنما لا بدّ أن نعترف بالإضافة إلى ذلك بأن له حاكماً واحداً ومقنّناً واحداً، وعندئذٍ يقضي مفهوم وحدة الحاكم والمقنّن على استبداد الحكّام الطغاة المنفردين

في قراراتهم .

وكل من يدّعي شيئاً من هذه السلطات فهو في الواقع قد ادّعى الألوهيّة ، وذلك لأن من مظاهر الشرك هو حق التقنين بلا شرط ، وتصوّر أن الإنسان يملك حق الحاكميّة لنفسه ، وهذا مخالف للتوحيد وللعقائد الأساسيّة للأديان، وهو من شؤون الأديان السماوية التي جاءت لنجاة الناس، فدعت إلى عقيدة التوحيد الخالص من كل شائبة ، وذلك لكي تنقذهم بهذه العقيدة من الاستسلام للمستبدّين ومن الخضوع لسلطة حكّام الجور .

ولو لم يكن هذا العمق والسعة المحيّرة والباعثة على الإعجاب في محتوى الأديان الإلهيّة . ولو لم تكن الحركة ذات الاتجاه المحدّد والصيحات الباعثة على الوعي واليقظة للأنبياء ، ولو لم تتغيّر أوضاع المجتمعات البشرية في ظلّ الحركات الفكرية والاجتماعية الأصيلة للأنبياء ، لما وجدنا اليوم أيّ أثر للإنسانيّة ، وما سلكنا الطريق إلى مقرّ الحبّ الحقيقي .

والدين وحده على طول التأريخ هو الذي استطاع أن يسعف الإنسان بعموميّته وشموله ، وهو الذي استطاع أن يمسك بأيدي الناس ، وقد قام بدور مهم جدّاً في توجيههم نحو الرقيّ والارتفاع .

ولم يخل أيّ بُعد من أبعاد الإنسان من تأثير الأنبياء فيه تأثيراً إيجابياً ، ويبدو أثر نهضاتهم واضحاً في المجال العلمي وبشكل واسع .

ودراسة تأريخ دعوة الأنبياء وما نتج من نهضاتهم من نضج سريع غير مسبوق وهائل يثبت لنا أنهم كانوا قبل أيّ شيء آخر منشأ للتحوّل والتغيّر الفكري العميق في المجتمع ، وأنهم الذين أمدّوا أجساد الناس بروح الأخوّة والمحبّة وخدمة النوع البشري ، وقدّموا للإنسانيّة أفكار العدالة والسلام والوحدة .

ولو لم تتحقق في التأريخ البشري مثل هذه الحركة الإلهيّة لبقيت الإنسانية تتخبّط دائماً في وحل الضلالة والذل ، ولتوقّفت حركتها للظفر

بالفضيلة والتكامل ، وحتى أولئك الذين لم يعتقدوا بنبوّتهم فإنهم لم يحرموا من التراث الغنيّ والبحار الثقافية الموّاجة، التي أهـداها لـلإنسانيّـة عباد الله هؤلاء، فأصبحت المنشأ لتحوّلات تأريخية جبّارة .

وعلاوة على هذا فـإنه يـوجد ارتبـاط عميق بين حركـة الأنبياء والعلم بمعناه المطلق ، فلقد كانت المراحل التأريخية التي قاد الحركة فيها الأنبياء الإلهيّـون من أجمل وأروع مـراحـل التـأريـخ البشـري من حيث النهضـات العلمية .

فـطريقـة التفكيـر الأصيلة في الأديـان الإلهيّـة والمبـادىء والأصــول المطروحة من قبلها قد أوجـدت أرضيّة فكـرية وعمليـة مناسبـة فى الأنظمـة الاجتماعية أدّت إلى تقدّم العلوم، وما أكثر الفلاسفة والعلماء الذين ظهروا في العالم وقد استلهموا تفكيرهم العميق من زعماء التوحيد وهداة البشرية .

يقول (اسبنسر) :

« لقـد كانت الشخصيّـات الدينية أول أدبـاء العـالم ، وأول علمـائـه أيضاً »(١) .

* * *

---

(١) تاريخ الأديان .

لمن يليق منصب التقنين

لنأخذ بعين الاعتبار موضوع التفكير في الإنسان منذ بدء حياته على وجه الكرة الأرضية وحتى الوقت الراهن، حيث ارتقت قوّة التفكير لديه إلى هذا الحد الرفيع ، ولندرس ما يتمكّن منه وما يعجز عنه، والمشاكل والمصاعب التي تواجهه؛ فهل هو مع كل هذه الميزات قد استطاع أو يستطيع أن يسير بفكره في الطريق المستقيم، ويطوي طريق التكامل ويحفظ نفسه من السقوط والانحرافات القاتلة ، ويضع خاتمة لاضطراباته ؟ وهل استطاع أن يغرس بذور الفضيلة والتقوى في أعماق وجوده بوساطة جهوده الشخصيّة ومن دون أن يستعين بما جاء به المرّبون الإلهيّون ، وأن يفجّر ما يكمن في ذاته من استعدادات وإمكانيّات من دون أن يعتمد على برامجهم ؟ .

وإذا لم يستطع لحدّ الآن أن يحقق هذا الأمل عمليّاً فإنه لن يستطيع في المستقبل ما عجز عنه في الماضي .

وصحيح أن الإنسان ستزداد إمكانيّاته في المستقبل ، ولكنه لا بدّ من الاعتراف أيضاً بأن مشاكله ومشاغله ستتعقّد أكثر وستزداد كميتها كما ازدادت مشاكله اليوم عمّا كان يعاني منه أمس .

وبقطع النظر عن هذا فإن هناك منطقة محدودة تقع تحت نفوذ العقل ومجال حكمه ، وهي التي يمكن أن يضيئها العلم بأشعته ، وأما ما وراء ذلك

فهو مغلق بأستار من الإبهام والظلام، وخارج عن مجال تفكيرنا، بينما يتركّز القسم الأعظم من مناهج وتعاليم أنبياء الله على الحقائق المجهـولة لـدينا ، وهي تبيّن لنا الحقائق التي لا تصل إليها حواسنا الظاهرية .

ونحن جميعاً بحاجة إلى معلّم ربّاني لكي نتعرّف بشكل أوضـح على مبدأ الوجود وواجبات الإنسان والحقائق الأخرى ، ولكي يرشدنا إلى السبيل التي توصلنا إلى الكمال والهدف من الوجود ، ويلقي علينا تعليماته الجامعة البليغـة في هذه المجـالات ، ولا يمكن أن يتحقق هذا الأمـر إلاّ عن طريق الوحي وتعاليم الأنبياء المرتبطين بشكل مباشر بمبدأ الوجود، والذين اقتبست عقولهم من الشعلة الخالدة لعلمه اللانهائي .

وهناك أيضاً جانب من تعاليمهم يتعلّق بالإصلاح ورفع مانقع فيه نحن من أخطاء ، فلّما زلّت معلوماتنا أو انحرفت امتدّت إليها يد الأنبياء لتصحح مسيرها ، وتكمّل النقص الذي يحدث فيها ، وعندئذٍ نجد أنفسنا سائرين في طريق نعجز عن السير فيه لولا عون هؤلاء القادة الإلهيين .

ومن هنا ندرك مدى أهميّة وقيمة الخدمة التي يقوم بها الأنبياء في هداية الإنسان ورفعه إلى قمّة النصر والكمال .

* * *

ونحن نعلم أن التكامل العلمي للإنسان يتم بشكل تدريجي ، فالعلم إذا كان يريد أن يقدّم للبشرية أصول تكاملها ، فلا بدّ أن يكون ملمّاً من قبل بجميع قواها واستعداداتها وأسرارها الداخلية ، وعالماً بكل حاجاتها المتنوّعة . يعتقد المفكّرون في العالم اليوم والمتخصصون في التربيـة والتعليم وعلم الاجتماع والسياسة أن التخطيط الآيديولوجي للإنسان يظل عقيماً بدون معرفة الإنسان .

هل يمكن معالجة مريض مزمن من دون أن نعرف ونشخّص مرضه ؟ .

إن التخطيط وتشريـع القوانين لـلإنسان الـذي لم تعرف ماهيّته، وهو

مغلف ببحر من المجهولات ،هو بمثابة معالجة ذلك المريض المجهول مرضه .

ولهذا ، وبسبب أن ماهيّة الإنسان لم يعرفها أيّ مذهب ، فإن أيّ اقتراح في هذا المجال لا بدّ أن يصاب بالفشل .

وعلى الرغم من كل الجهود المبذولة لمعرفة أسرار الوجود خلال هذا الإنسان الذي يعدّ وحدة صغيرة من مجموع الموجودات المتنوّعة التي لا عدّ لها ولا حصر ، وعلى الرغم من الدراسات الكثيرة التي قامت بها المؤسسات العلمية بما تملك من وسائل علمية معقّدة ودقيقة للتحقيق في هذا المجال فإن أحداً لا يستطيع أن يتردد في أننا ـ مع كل هذه المعلومات الهائلة ـ لم نقترب لحدّ الآن إلى قمم كثيرة ، ولا سيّما في المجالات الروحية للإنسان وعالمه الباطني ، فنحن ما زلنا نجهلها تماماً ولم تخترقها أشعة علومنا .

فقد يكون الإنسان ملمّاً بكثير من الحقائق العلمية والفنيّة ولكنه جاهل تماماً بالنسبة إلى موضوع من المواضيع ، وهذا هو معرفة حدوده ومقدار طاقته ؛ فكل ما يعلمه لا يساوي شيئاً إزاء هذا الذي يجهله ، وقيمته اتجاهه تعادل الصفر ، والجهل بمحدودية جهازنا الإدراكي وأفكارنا هو الذي يدفع بنا إلى عوالم من الجهل ، وهو الذي يحمل الإنسان على الإعراض عن كثير من الحقائق، وعلى الإشاحة بوجهه عن كثير من الواقعيات .

فلو أن الدراسات المتعلّقة بجسم الإنسان قد كشفت له كل النقاط المبهمة لأصبحت التحقيقات العلمية التي تنهض بها المؤسسات العلمية في كل أرجاء العالم والتي تضمّ ملايين العلماء ـ لأصبحت عبثاً لا طائل تحته .

يقول العالم الفرنسي المشهور الدكتور (الكسيس كارل) :

« نحن كلّما تعمّقنا في التفكير فإننا لا نستطيع أن نقرّب إلى أذهاننا هذه التنظيمات ، والذي نعلمه فقط هو أن انتظام أجزاء بدننا أكثر من ألف جهاز ميكانيكي عظيم يدبره أفضل المتخصصين وأمهر المهندسين ، وأشدّ

حساسيّة منه .

وإذا لم تعتبروا عقيدتنا إهانة أو تحقيراً فنحن نؤكد أن جميع المتخصصين المجدّين في عملهم يعتقدون بأن ما ظفروا به لحد الآن ضئيل جداً ولا أهميّة له بإزاء المسائل التي لا بدّ أن نعرفها فيما بعد .

والواقع أن الإنسان مجموعة واحدة معقّدة مبهمة ليست قابلة للتفكيك ولا يمكن معرفتها بسهولة ، ولا تتوّفر لحدّ الآن الأساليب التي يمكن استخدامها في دراسته جزءاً جزءاً أو بصورة مجموعة واحدة، ودراسة علاقاته بالبيئة المحيطة به ، وذلك لأن مثل هذه الدراسة تحتاج إلى عمليات كثيرة وعلوم متعددة ، وكل واحد من هذه العلوم يتناول بالدرس جانباً واحداً من هذه المجموعة ويؤدي إلى نتائج معيّنة فيها ، وهو يتقدّم في هذا المجال بالمقدار الذي يسمح به تكامله التكتيكي ، ولكن مجموعة المفاهيم المنتزعة تبقى عاجزة عن فهم وإدراك الواقع بأكمله في مجال الإنسان ، وذلك لأن هناك جوانب مهمّة وذات خطر كبير غارقة في الظلام ، وأما علم التشريح والكيمياء والفسيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) وعلم النفس والتربية والتأريخ والاقتصاد بجميع فروعها فهي لا تستطيع الغور إلى كنه وجود الإنسان .

وعلى هذا فإن الإنسان الذي يعرفه المتخصصون في كل فرع من هذه العلوم ليس واقعيّاً أيضاً ، وإنما هو شبح يصنعه ويعرضه في ذلك العلم »[1] .

ولا شكّ أن الإنسان من حيث النشاط الروحي العجيب بحر عميق لا قاع له ، ومن المؤكّد أن معلوماتنا الحاضرة عنه ضئيلة جدّاً وحقيرة للغاية .

فمن الذي يستطيع أن يزعم أنه قد اكتشف كل استعدادات هذا الموجود الغامض وجميع تفاصيل روحه وتكوينه الباطني ؟ ومن يستطيع أن

(١) الإنسان ذلك المجهول ص ٢ ـ ٣ ـ ٤٩ ، ١ ـ ٧ .

يدّعي أنه عالم بكل ما هو مؤهّل له وبجميع مراحل الكمال الميسّرة له ؟ ومن هنا فإن علمنا سيكون قطرة ضئيلة من المعلومات المليئة بالشك والترديد في مقابل بحر خضمّ من الجهل والغموض .

إذن فالموضوع قد أعاننا على معرفة حدود القدرة البشرية ومقدارها ، وسعة وعمق الكون والإنسان ، والحيرة والخضوع الذي اضطرّ إليه العلم اليوم ، والعلم نفسه يحملنا على الاعتراف بأن معرفة هذه المسألة المتعلّقة بدراسة الإنسان لم تبيّن لنا إلّا قسماً صغيراً وجانباً بسيطاً من هذه الأرض الواسعة .

والآن لا بدّ أن ننظر لنرى هل يستطيع العلم والفكر وحده أن يأخذ على عاتقه رسالة تكامل الإنسان ؟ هل يستطيع شيء لا يملك معرفة دقيقة عن الوجود ، ولا يعرف ما هو هذا الموجود من حيث الجسم والروح ، ويجهل كل العمليات الاجتماعية الغامضة الناتجة عن خصائصه الروحية والجسمية ، ولا يعلم شيئاً عن باطن العلاقات التي تربط الأفراد فيما بينهم ـ هل يستطيع هذا أن يضع له قوانين على أساس فكره وعقله، وعلى أساس معرفته الناقصة لحاجات الإنسان الواقعية في مختلف المجالات ، بحيث تؤمّن له سعادته الحقيقية وتلبّي جميع حاجاته فيخطو الإنسان بفضل ذلك إلى المقام اللائق به ويسير في الطريق المناسب له ؟ .

* * *

وما دمنا لا نعرف ماذا نريد أن نصنع وفي أيّة جهة ولمن ، فكيف نستطيع أن نتحدّث عن المشاريع والمناهج ؟

وتلك المذاهب التي تدّعي أنها قد اكتشفت أبعاد الإنسان، كيف استطاعت اكتشاف هذا الموجود المجهول الغامض لحدّ الآن ؟ وكيف يستطيعون أن يجعلوه موجوداً يستحق كل هذه الجهود والمحاولات ؟ .

وليس همّ البشرية اليوم أن تملك القدرة والقوّة فقط ، بل همّها الأكبر

هو أنها في مقابل هذه السبل المتنوّعة الموجودة أمامها أيّ سبيل منها تختار وفي أيّها تتحرّك ؟ .

وما أكثر المواضيع العلمية التي اتحدت بشأنها آراء المفكّرين في الماضي ولكن مرور الزمان وتقدّم العلم أثبت بطلانها وبيّن عدم صحتها .

ولو ألقينا نظرة على تأريخ التقنين في أمم العالم لوجدنا كثيراً من القوانين التي كانت حصيلة الدقّة في النظر والدراسة الطويلة ونتيجة عمر المتخصصين ، وقد نظّمت بجهود علمية وفكرية هائلة ، ولكن مرور الزمان عليها ودراستها بشكل أدقّ قد بيّن قصورها وخطأ المقّنين لها ، فما كان يعدّ مفيداً للمجتمع أمس قد أصبح يعدّ اليوم قانوناً غير مفيد بل هو مضرّ .

وعندئذٍ تحلّ محلها قوانين جديدة وهي معرّضة أيضاً للإصلاح والتعديل نتيجة للتكامل العلمي والفكري .

ولكن هذا لا يعني أن جميع ما ينبع من فكر الإنسان خطأ ولا فائدة فيه ، وإنما الكلام في أن مثل هذه الأنظمة لا تستطيع تأمين حاجات الإنسان المختلفة ولا قيادة المجتمع بسبب وقوعها في الاشتباهات وعدم مصونيّتها من الخطأ .

ونحن نشاهد بوضوح أن الأنظمة العالمية المستلهمة من تلك القوانين تفيض نقصاً وقصوراً ، وذلك لأن النقائص المادية والمعنوية وألوان التلوّث القاتلة للشخصية والدافعة للانحطاط معلولة لمقررات مستقاة من أفكار هؤلاء ، ويكفينا هذا وثيقة ودليلاً لإثبات هذه الحقيقة : وهي أن القوانين البشرية قاصرة جدّاً وضعيفة للغاية .

وحتى مع معرفة أصول التكامل ، فإن العلم والفكر لا يستطيعان وحدهما توفير الرسالة التي تضمن ارتفاع الناس ورقيّهم ، وإنما يحتاج أداء هذه الرسالة إلى البعد عن الهوى ، وعن الحرص على المصالح أيضاً ، وتصبح هذه العوامل معيقة للإنسان عن تطبيق ما يعلمه وما يعرفه نظريّاً .

فحبّ الإنسان وتعلّقه بنفسه وبجميع مصالحه ، وما يرتبط به بأيّ صورة من الصور عميق جدّاً وبشكل واسع شعوري أو لا شعوري يجعله ينظر إلى المواضيع المختلفة من زاوية مصالحه ، فحبّ الذات إذن يسلب منه القدرة على النظرة الواقعية الكاملة .

وحتى أنه في بعض الأحيان يفرط الإنسان في عبادة منافعه فيصبح ذلك عاملاً قويّاً في تحطيم شرفه والقضاء على قيمته ، ويوجد حالة في الإنسان تجعله دائماً يفكّر في الخروج على الضوابط والتجاوز على حقوق الآخرين ، وذلك لكي يجلب المنافع كلها لنفسه ، ولهذا فلا يوجد ما يضمن لنا أنه يحلل المسائل بحياد كامل ، ويشرّع القوانين العادلة بنزاهة تامة .

وهؤلاء الذين وضعوا الأنظمة الفردية والجماعية وهم قد درسوا الإنسان دراسة تجريبية ، أهم قد شخّصوا المرض وعرفوا الدواء وتحرروا من عبادة الذات وتخلّصوا من الحرص على المصالح ومن الوقوع في الاشتباه ومن حبّ الترجيح بلا مرجّح ؟ ثم ألم تتغلغل هذه الأمور إلى أفكارهم وعقولهم ؟ .

ثم أهم مطّلعون تماماً على أمراض الفئات الأخرى المنتشرة في أطراف الأرض وما يتعالجون به من دواء ؟ .

وأخيراً أهم مصونون من هوى النفس وتهديد وخداع الزعماء ذوي القدرة والنفوذ والمغرضين المسودّة قلوبهم ؟ .

وفي مقابل هذه الأسئلة المطروحة يمكن أن يعرف الإنسان أن هذه العناصر إيجابيّة ومثالية ومطلوبة أم لا .

وعلى هذا فكيف يمكننا تأمين سعادتنا ـ بثقة وحماس ـ في تطبيق مثل هذا النظام المشكوك ؟ .

ولو كانت هذه الأنظمة لتعديل وتنظيم كل استعدادات وطاقات الإنسان وقدرته على الإدراك والانتخاب لأصبحت في مستوى أعلى منه ، وكيف

يمكن أن يكون صحيحاً ومنطقياً أن يصبح المنظَّم هو المنظِّم بنفسه ؟ .

وفي الظروف التي يندفع فيها المنظَّم لوضع نظام معدّل ومصحح ألا يجب عليه أولاً ، أن يعيش في إطار لا ينفذ إليه منه شيء وذلك لكيلا تتسلل إليه عوامل الانحراف والاشتباه ؟ .

وإذا سلّمنا بضرورة تحقق هذا الأمر فبأيّ صورة يمكن أن يتحقق ؟ وإلى أيّ حدّ تصل رؤية الإنسان وإدراكه وإمكانيّاته حتى يريد أن يقف هذا الموقف الذي لا يقوى عليه،ويحاول وضع أنظمة تتضمّن الأبعاد المختلفة لوجود الإنسان وتنظّم جميع شؤون الأفراد والفئات البشرية وتحلّ جميع المشاكل الحاضرة وتضع الحلول للمشاكل القادمة في المستقبل ؟ ! .

لا شكّ أن الواقعيّات الخارجية تثبت لنا عجز الإنسان في معرفة عالمه الفردي والكون الخارجي ، وتطرح أمامنا مسائل غامضة ومعقّدة وحيوية لم يجد الإنسان لها حلاً .

وبهذا يثبت لدينا عدم قدرة العلم والفكر على إنجاز مثل هذه الرسالة وحتى لو استطاع العلم في يومٍ ما أن يوضّح كل جوانب وجود الإنسان وأن يكتشف كل أسراره الغامضة فإنه لن يكون قادراً أيضاً على إسعاد الإنسان ،لأن الإنسان تسيطر عليه بشكل طبيعي منافعه ورغباته النفسيّة .

ومن ناحية أخرى فإن المقنّنين عادة يراعون في تدوين القانون رغبة الأكثرية ولا ينظرون إلى الحقيقة ، وحتى إذا لم تحقق رغبة الأكثرية نفعاً حقيقياً ، أو حتى إذا كانت ضارّة بالفرد والمجتمع .

ولمّا كانت المذاهب الفكرية مليئة بالنقائص بحيث تحوّلت إلى عوامل ضدّ التكامل وضدّ مصالح الإنسان فقد كتب المفكّر الفرنسي (جان جاك روسو) بواقعية قائلاً :

« إنه يلزم لوضع أفضل القوانين التي تنفع الأمم أن يكون هناك عقل كلّي ينظر إلى جميع شهوات الإنسان ولكنّه هو لا يحسّ بها ، وأن لا تكون له

علاقة بالطبيعة ولكنّه يعرفها بدقّة ، وأن لا تكون سعادته متوقّفة علينا ولكنّه على استعداد ليعيننا من أجل أن نصل إلى سعادتنا »[1] .

ويقول العالم المحقق الدكتور (الكسيس كارل) :

« إن ألوان الأنظمة والحكومات التي يصوغها فكر وتصوّرات المنظّرين ليست شيئاً سوى قصور من رمال ، فالإنسان الذي تهدف الثورة الفرنسيّة الكبرى لصياغته والإنسان الذي سوف يبني مجتمع المستقبل حسب الرؤية الماركسيّة واللينينيّة كلاهما غير واقعيين .

ولا ننسى أن قوانين العلاقات بين الناس ليست معروفة لحد الآن ، وأما علم الاجتماع وعلم الاقتصاد فهما علمان ناقصان ، وفي الواقع فإن كلاً منهما شبيه بالعلم .

وبناء على هذا يبدو لنا أن البيئة التي أوجدناها حولنا بمساعدة العلم ليست مناسبة لنا ، وذلك لأننا أوجدناها بالصدفة وبدون معرفة كافية للفطرة البشريّة وبدون التفات إلى الطبيعة الإنسانية »[1] .

* * *

---

(١) العقد الاجتماعي ص ٨١ .

(١) الإنسان ذلك المجهول ص ٣٠ .

النظام الغنيّ والمذهَب الثريّ

إن الشـرط الأول للوصول إلى الأهـداف الواقعيـة للحيـاة وإلى مقـام السعادة الرفيع ، وبالتـالي لتحقيق نظام جـامع وأصيـل ، هو إدراك ضـرورة وجود الرسالة والنبوّة بصورة علمية ودقيقة ، وبهذه المعرفـة نكون قـد منحنا أنفسنـا رؤية واسعـة ، واقتحمنا الآفـاق البكر في مجـال التفكيـر الإنسـاني العظيم .

فالإنسان بما يملك من طاقـات هائلة ، سـواء أكانت في ذاتـه أم في العـالم الذي يعيش فيـه ، لو أنـه تمسّك بهـدايـة وقيـادة نـظام مصـون من الانحراف والخطأ وقد أمّن له هذه الصيانة خالق العالم العظيم ، لما شكّ أيّ إنسان يستلهم فكره السليم في أن مثل هذا النظام قادر على توفير المصـالح الواقعيّة للإنسان ، المادّيّة منها والمعنويّة .

وتنصبّ جهـود الأنبيـاء في دعـوتهم على تجسيم حكـومـة الله على الناس ، وهي أعظم ما يتصوّر من الأنـظمة عـدالة ، ففي هـذا النظام يلغى المفهوم الواقعي لتسلّط الإنسان على الإنسان ، ويندّد بخضوعـه للطواغيت وأصحاب السيرة الملوّثة ، وحتى أن قيمة كلام النبيّ هي من ناحية أنه حامل للرسالة الإلهيّة .

إن معرفة الإنسان الواقعي والـواقع الإنسـاني تشـكّل الأسـاس للرؤية

الكـونيّة والتخـطيط في الأديان الإلهيّـة ، تلك الأديان المشيّـدة على أساس الوجود الإنساني ، وهي تعرف جميع أبعاده ، وتتمتّع بعلم واسع يأخذ بعين الاعتبار جميع خصائصه الطبيعية ، فهي إذن قادرة على التخطيط والتقنين له بحيث لا تغفل عن أيّ مسألة أساسيّة وأصيلة .

وتستمد حركة الأنبياء قوتها من الإرادة الإلهيّة ، على الرغم ممّا يشيع لدى الإنسان من عبادة للذات ، وحبّ للشهرة ورغبـة في التسلّط على قوى الطبيعة ، وإن الله سبحانه هو منبع حركة الأنبياء ، والمجال الأساسي الذي يجري حوله الصراع إنمـا هو التفكيـر المحدود لـلإنسان ، والأنبيـاء يعلنون أصـل الإيمان بعـالم أفضـل لكي يقضـوا على النـظرة الضيّقـة والمحـدودة للناس ، ولكي يحملوهم على التفكير الحرّ المثمر .

وأوضـح علامـة لنظام الأنبيـاء هي تحقق العدالـة بمفهومهـا الـواقعي الواسع ، ففي ظلّ هذه النهضة تتحقق أكثر العـلاقات الاجتمـاعية عـدالة ، بحيث تصوغ الإنسان من الداخل ، وتتجسّم المساواة الإنسانيّة على أساس الأخوّة ، ولهذا فإنه لا يمكن تنفيذ العدالة الاجتماعيّة بمفهومهـا الواقعي إلاّ عن طريق الدعوّة الإلهيّة .

ومن ناحية أخرى ، يلبّي مذهب الأنبياء الحاجة للحريّة لدى الإنسان ، تلك التي يشعر بها من أعماق نفسه ، وعلى هذا الأساس فهو يكسّر الأغلال الباطنيّة التي تشلّ قوى النـاس واستعداداتهم وإراداتهم ، وتبـدّل اندفـاعهم وحماسهم إلى ركود وتوقف ، وهو في عرض تحريره له من الأغلال الباطنيّة يحقق لـه الحريّـة في الحياة ، وينجيـه من الخضوع والاستسـلام لجبّـاري العصر .

وفي مثل هذه الظروف لا يوجد أثر من سنّ القوانين القاصرة ، ولا من وضع القوانين المؤسسة على الخطأ ، ولا من الإرادة المقهورة لسلطة الحكّام التابعين لأهوائهم الغارقين في لذاتّهم .

فعندما يكون المشرّع للقانون هو الله ، ذلك الخالق الذي أبدع كل العالم وما فيه ، فإنه يعلم بدقّة كاملة كيف يؤمّن للإنسان حاجاته الواقعية ، وبكل أبعادها الواسعة .

وعندئذٍ ، لا يتصوّر في هذا المجال الجهل ولا القصور العلمي ولا الظلم ، وينعدم حبّ الذات وطلب المنافع ، وهذه واقعيات لا بدّ من الالتفات إليها بكل جديّة ، ولا بدّ من دراسة تأثيرها الخارجي ، والنتائج المترتبة على تلك المقررات التي جاءتنا هادفة إلى بعث الإنسان من جديد وإعادة الحياة لمجتمعه .

يقول الله تعالى في كتابه العزيز :

﴿ **أفحكم الجاهليّة يبغون ومن أحسن من الله حكماً . .** ﴾[1] .

ومن الميزات المنحصرة بمذهب الأنبياء ، أن المصالح الاجتماعية في تعليماته تعاد إلى المصالح الشخصيّة ، وبهذه الرؤية فإن الحياة لا تصاب بالانقطاع ، ولهذا فإن المصالح الشخصية تؤمّن على خط طويل يستمر حتى بعد موت الإنسان .

وهناك إشكال وجد في مجال التقنين البشري ، وهو أن اختلاف البيئات التربوية والثقافية التي يعيشها الأفراد بدرجات متفاوتة يؤثّر في آراء الإنسان بالنسبة للواقعيات الموجودة ، والمفاهيم والعادات القومية ، وكثير من الأمور الأخرى التي تنمو في مختلف الظروف التربوية والثقافية والاجتماعية ، ولا تتفق حتى وجهة نظر طبقة واحدة من مجتمع معيّن بالنسبة إلى جميع المواضيع . فالأفراد ينتزعون مفاهيم متفاوتة من مجموعة من الكلمات المستعملة لديهم جميعاً .

لاحظوا كيف يختلف الفهم لكلمات من قبيل السلام والعدالة والمساواة ، وكيف تتعدد المفاهيم ، ويتوقّف انتزاع المعنى لأيّ فرد أو فئة

---

(١) سورة المائدة : الآية ٥٠ .

من هذه الكلمات على سعة رؤية وعمق فكر ذلك الشخص أو تلك الفئـة ، وعلى وجهات نظرها .

فالناس العاديّون يدركون مفهوماً واضحاً وإنسانيّاً لهذه الحقائق ، بينما الحكّام والزعماء الاجتماعيّون ينظرون إلى هذه الكلمات ومـا يتعلّق بها من مسائل نظرة أخرى .

* *

ولا شكّ أن تأثير البيئة في الإنسان هو من أهمّ عوامل نقص القـوانين البشرية وعدم كفاءتها ، فالمشرّعون وعلماء القانـون يتلقّون بعض الحقـائق بشكل قطعي متأثرين بأفكار وعقـائد مجتمعهم ومـا اكتسبوه من بيئتهم ، ثم إنهم عند تنظيم القانون يتّجهون إلى نفس الجهة التي يعيّنها ميراثهم الفكري والعقائدي ، الذي اكتسبوه من مجتمعهم ، بشعـور منهم أو لا شعور ، ومن هنا فإن الجوّ الثقافي الخاص السائد في المجتمع يسلب منهم روح البحث عن الواقع ، ولا يسمح لهم بإدراك الحقائق كما هي موجودة .

وكذا فإن آراء الإنسان ووجهات نظره تتغيّر وتتبدّل عند تغيّـر الظروف وتبدّل البيئات ، ويتغيّر موقفه ورأيه فيما يحدث في حياته من تقدّم وتحوّلات ووقائع .

فـالإنسان الجـالس على كرسيّ الحكم لا تتفق أفكـاره وأحكامـه مع الإنسان العادي الفـاقد للقـوّة ، فهما في هـاتين البيئتين ينظران من زاويتين مختلفتين ، وأحيـاناً عنـدما تتغيّـر ظروف الإنسـان تنقلب أفكاره رأسـاً على عقب ، بحيث لا تشبه إطلاقاً حالاته السابقة ، وكأنـه قد أصبـح لكل شيء أمامه مفهوم آخر .

وهذه واقعيات واضحة تمامـاً ، وكل واحـد منّا قـد صادف في حيـاته نمـاذج من هذا الانقـلاب الذي يحـدث في حيـاة الأفـراد خـلال هبـوطهم وارتفاعهم اجتماعيّاً .

وأما إذا تجلّت القوانين السماوية وتحققت الرسالة بعنوان أنها ظاهـرة إلهيّة ، فإنها تأخذ على عاتقها مسؤولية تلبية كل الحاجات الأصيلة الفكرية ، والروحيّة والمادّية للإنسان ، وتعيد صياغة الفرد والمجتمع ، وعلى هذا فإن هذه القوانين لا تعكس إلاّ الواقع ، ولا يتصوّر في حق الله سبحانه تأثير البيئة أو التأثّر بأفكار المجتمع والثقافة العامّة ، أو تأثير التغييرات الخاصّة في اتّجاه أفكـاره ، وتنعدم في هـذه الحال جميـع العوامـل التي تسلب ثقـة الإنسـان بحصوله على الواقعيات ، وظفره بالمصالح الحقيقية .

وفي الدين الإلهيّ يصبح (الإيمـان) الذي هـو سرّ ارتفـاع الفكر الإنسـاني خلفيّة قويّة تضمن تنفيذ القانون ، وهذه هي ميزة أخرى يمتاز بها النظام القائم على أساس الدين وعلى أساس منبع الوجود الفيّاض .

* *

وفي المجتمع الذي يؤسسه الأنبياء يترك أمر تنظيم الناس في أيديهم ، ويُعتمَد على إنجازاتهم وجهودهم ومكتسباتهم ، وعندما يكون الإنسان حـرّاً فإنه يشعر بالمسؤولية أمام الله بشكل حادّ ، وكـل عمل يـريد أن يقـوم به أو موقف يريد أن يتّخذه فهو يقيسه قبل ذلك إلى المعايير الدينية ، ثم يأخذ على عاتقه ضمان تنفيذه ، وهو يعلم أن العمل المؤدّى على أساس الواجب لا بدّ أن تكون له ثمرات مباركة ، وأما إذا أعرض عن واجباته فلا بدّ أن يعدّ نفسه لقبول نتائجه الضارّة ، ولتحمل عواقبه السيّئة .

ويؤدّي الشعور بالمسؤوليّة أمام قوانين الله الشاملة لكل أبعاد الحياة إلى استسلامه بكل وجوده لإرادة الله العظيم .

وتتمّ تربية الإنسان في هذا الدين بشكل تتضـاءل فيه رغبـات الإنسان الملوّثة بالهوى ، لتحل مكـانها الـرغبات الإنسـانية والميـول الإلهيّة ، حتى يصل إلى أرفع المقامات المناسبة للعبودية ، ويرتقي ليصبح حقـاً خليفة الله في الأرض ، وهذا هو معنى واقع الإنسان المتكامل .

بينما الحال في جميع الأنظمة البشرية يختلف عن ذلك ، لأنه لما لم يكن هناك إيمان بالمقنن فقانونه إذن لا يتمتّع بالنفوذ العميق الشامل ، ولا تسنده خلفيّة معنوية ، وكل واحد يفكّر بطريق للفرار ليتخفف من حمل القوانين الثقيل ، ومن هنا فإن تنفيذ مثل هذه القوانين يواجه صعوبات متعددة ، ولا بدّ من تعبئة قوى هائلة في المجال العام من أجل تطبيق ذلك القانون .

ولا سيّما إذا كان القانون مخالفاً لأهواء الناس ورغباتهم فإن مشكلة التطبيق سوف تتعقّد أكثر ، ويرافق حينئذٍ مرحلة التطبيق بحر هائج من الغضب والنفور والكره والضغط وإكراه النفس .

وقد يوجد في المجتمع من يلتزم بالقوانين ويحبّها ويعمل على تطبيقها من دون مراقبة ، ولكنّه لا بدّ من معرفة أن أمثال هؤلاء الأفراد قليلون جدّاً ، ونادرون ويعدّون استثناء من القاعدة ، وليسوا شائعين في المجتمع بصورة واسعة ، ولا يمكن اعتبارهم أصلاً اجتماعيّاً أساسيّاً .

ومثل هذه الرقابة الوجدانيّة التي لا تعتمد على الإيمان الديني ليست مبدأ مضموناً ، وقدرتها على التطبيق ضئيلة جدّاً بالقياس إلى ما تتمتّع به العقائد الدينية من قدرة تنفيذية .

وعلى هذا فإنه لا بدّ من الاعتراف بأن هذا مما تمتاز به تعاليم الأنبياء ، وهو مقصور على القوانين السماوية ، فإذا غذّيت روح الناس بالإيمان بالله ، وأصبحت العقيدة الدينية خلفيّة للأسس القانونيّة تحوّلت تلك القوانين إلى عالم شامل عالمي ، وارتفعت قدرتها التنفيذية إلى حدّ لا تطمح إليه القوانين البشرية ، ولا تستطيع أن تخضع الناس لمثل نفوذها وتأثيرها عليهم .

ولمّا كانت جذور الإيمان متغلغلة إلى أعماق وجود الإنسان ، وهي تؤثّر بشكل فعّال في صميم الشخصيّة ، وتغيّر الوضع النفسي بشكل عميق فهي تحمله على أن يكون أميناً على القوانين ومتمسّكاً بها لا بعقله فقط ،

وإنما بكل وجوده ، وتستتبع يقيناً يشعّ كالنور في أعماقه فيضيئها ويدفئها .

والدافع الذي يحييه الدين في الإنسان لا يتوفّر مثله في أيّ مذهب غير ديني ، وتشير التجارب في هذا الشأن إلى أن المذاهب الأخرى لم تكن موفقة ، وذلك لأن الدين يعتمد في النهاية على القلب وكلّما رسخت العقيدة في القلب فإنها بذلك المقدار تصبح منشأ للعمل والحركة والنشاط .

* *

والإنسانيّة اليوم تشاهد بنفسها وضع قوانين من قبل مؤسسات تعترف للأفراد بمجموعة من الحقوق والقيم ، من دون التفات إلى الاختلافات القومية والدينيّة والجغرافية ، ومع أن التقدّم العلمي الراهن قد وفّر أرضيّة فكريّة مناسبة أكثر للاعتراف بالواقعيات ولكنّه مع الأسف الشديد حتى تلك الفئات التي أصدرت هذه القوانين قد قابلتها بسلبيّة تامّة ، ولم تكن لها أيّ قيمة أو نفوذ في أعماق أنفسهم .

فهم بأنفسهم لا يلتزمون بما يعترفون بقانونيّته ، فعندما يتعلّق الأمر بهم وتتعرّض مصالحهم للخطر فإنهم لا يتورّعون عن تجاوز الحدود القانونيّة ، وعن الإقدام على أيّ عمل مخالف للإنسانيّة ، وعن القيام بأيّ دس أو تخريب ، وبهذا يتّضح لنا أن تعامل الآخرين مع هذه القوانين لن يكون بصورة إيجابيّة .

فعدم الاهتمام بالقيم الإنسانيّة ، ونقض القانون ، واتّساع مجال الصراعات السياسية ، والتنافس الاقتصادي غير السليم الذي يجري بين الدول القوية القليلة والدول الضعيفة الكثيرة ، وانتشار المفاسد الأخلاقية ، وكثرة الأمواج والانقسامات الاجتماعية ـ كل هذه الأمور توضح لنا الموقف المهتزّ والمتزلزل للقوانين البشرية من حيث نفوذها وقيمتها حال التنفيذ ، ومن حيث ضيق المجال الذي تسيطر عليه .

وتكفينا نظرة عاجلة إلى كيفية تطبيق واحترام البيان العالمي لحقوق

الإنسان لندرك بوضوح أنه لم يبق له أيّ أثر يدل عليه ، سوى ما يقام من حفلات وخطابات فارغة عارية عن الحقيقة .

* *

لو أننا تتبّعنا الأفكار الدينية المغروسة في عقول الناس خطوة خطوة ، ألا يوقفنا ذلك على ما في الأسس اللادينية من ضعف وقصور لأنها غير نابعة من المفاهيم الرفيعة المنشأ ؟ ثم أليس يثبت لنا ويزيد اعتقادنا بصدق وأصالة الخطط الدينية المستلهمة من القوّة المديرة للعالم ، وبالتأثير العميق والشامل للثقافة والآيديولوجية الدينية على دراسات العلماء وعلى جميع آفاق الثقافة الإنسانيّة ، الذي يزداد باستمرار ؟ .

لا بدّ من النظر في النتائج وفي الثمرات التي تعود على المجتمعات الإنسانيّة .

وأخيراً ، أليس إفلاس الفلاسفة وعجز القوانين البشرية عن تحقيق تكامل الإنسان وسعادته ناشئاً من بقاء حقيقة الإنسان مجهولة ومن الغفلة عن حاجاته الواقعية واستعداداته وقواه الخلّاقة ؟ .

هذه جميعاً تثبت لنا هذا الواقع ، وهو أن الإيمان بدين الأنبياء يضمن الحياة للمجتمع ، ويحافظ على تماسك العلاقات السليمة بين جميع الناس ، ويرعى المستضعفين الذين يشكّلون الأكثرية الساحقة من الشعوب ، ويتحف البشرية دائماً بالحريّة والأخوّة .

وكل جماعة وفئة ونظام لا يسلك هذا الطريق ولا يلبّي دعوة الرسل للتحرّر وصياغة حياة أفضل فإنه لن يظفر بالفلاح ولن ينعم بالاستقرار .

وهذه وثيقة ناطقة صريحة

إنّ أول شيء يجلب النظر في رسالة الأنبياء هو موضوع حريّة الإنسان واختياره ، فلو لم يكن للإنسان نصيب من الحريّة والاختيار لما احتاج أبداً إلى أيّ نبيّ ، لأنه حينئذٍ يقطع مسيراً جبريّاً ، ويتقدّم إلى الأمام بصورة ذاتيّة .

إذن مع الاعتراف ببعثة الأنبياء ، لا بدّ من الإقرار بحريّة الإنسان ، وفي غير هذه الصورة لا يمكن طرح مسألة بعثة الأنبياء من الأساس ، ولا يمكن تبرير أصل رسالتهم ، تلك الرسالة التي أيقظت النائمين وصنعت منهم أناساً أحراراً واعين ، ولم تتركهم قطيعاً لا إرادة له ، أو تجمّعاً لا حركة فيه .

فقانون الهداية العامة قانون عام يشمل أرجاء الوجود كافة ، وإذا أخذنا بعين الاعتبار عدم كفاءة الغريزة في هداية الإنسان ، وعدم سيطرة الجبرية على حركته ومشاكل أخرى تثبت لنا أن العقل لا يمكن أن يكتفي بذاته في قيادة الإنسان إلى كماله وسعادته ـ إذا أخذنا كل هذا بعين الاعتبار فلا بدّ من البحث عن سبيل يسدّ هذا النقص ويملأ هذا الفراغ .

وهنا يفتح عالم الخلقة والتكوين أمام البشرية سبيل النبوّة للوصول إلى الأهداف التي ترفض التغيير ، فالنبيّ يستطيع بما زوّد به من وسائل ومصادر لكسب المعرفة والعلم أن يقدّم قوانين وإرشادات معيّنة واضحة لا تقبل الخطأ ، تقود الإنسان إلى السعادة وتلبّي كل طلباته الدائمة والمتزايدة .

وتوجد هنا ملاحظة مهمّة وهي أن الادّعاء من دون دليل لا يمكن قبوله من أيّ أحد ، لا سيّما إذا ادّعى شخص دعوى عظيمة رفيعة ، فعندئذٍ يجب عليه أن يقدّم أدلّة داعية لليقين أكثر وموجبة للاطمئنان أعظم وشاهدة على صدق حديثه .

ولهذا السبب فالذين قبلوا الرؤية الكونيّة المبنيّة على التوحيد بعنوان أنها البناء التحتي لعقيدتهم، وهم ينظرون إلى العالم من تلك الزاوية عندما يطرح أمامهم موضوع علاقة خاصة لإنسان معين بالله سبحانه، فإن أهميّة الموضوع تفرض عليهم أن يحققوا بدقّة في أطراف ذلك، وأن يدرسوا الشروط والخصائص اللازمة لهداة البشرية، حتى يكتشفوا على أساسها النبيّ الصادق .

ولأهميّة منصب النبوّة، وللمسؤولية العظيمة والدور الحسّاس الذي تؤديه رسالتهم في مختلف شؤون الحياة الإنسانيّة فإنه يجب على الأنبياء أن يقدّموا دليلاً قطعيّاً على إثبات ما يدّعونه من نبوّة ، دليلاً لا يمكن الحصول عليه إلاّ من طريق القدرة الإلهيّة اللانهائية وقوّة ما وراء الطبيعة .

ويشهد التأريخ على أن الأنبياء قد جاءوا ليعرضوا طريق النجاة على الإنسان الذي أصبح خاوياً من داخله ، وليزيلوا الموانع الكبيرة التي تقف أمام نضجه الفكري ومنابعه الفطرية، وتدفعه ليصبح غريباً عن نفسه ـ ليزيلوها فيجد ذاته الضائعة، وتهيّىء الأمور لإقامة العدالة وإنشاء مجتمع على أساس القسط ، وإيجاد بيئة تصلح لتعاليه ورفعته .

والوفاء بمثل هذا التعهّد يستلزم التمتع بإمكانيّات معنوية واسعة ، فلا بدّ أولاً من كونهم مزوّدين بسلاح « الإعجاز » ، يقتحمون الميدان بمثل هذه القوّة الهائلة ليبدأوا رسالتهم في الحياة .

فالمعجزة عمل يؤدّيه الأنبياء لإثبات صدق نبوّتهم، ولا يكون إلاّ بإذن وإرادة الله سبحانه ، وتكون مثل هذه الوثيقة علامة واضحة على ارتباطهم

بمنبع الوحي وخالق الكون .

وذلك لأن من يدّعي الرسالة السماوية واستلامها من قبل الله وارتباطه بعالم الغيب، لابدّ أن يقوم بعمل خارج عن إطار الظروف الطبيعية،ليعدّ ذلك مصدّقاً له من قبل الله ويكون شاهداً على أن حديثه متعلّق بالوحي .

ولكي لا ينخدع الناس ويقعوا في شباك الكاذبين من مدّعي النبوّة فقد جعل الله هذا المشعل الوضّاء والعلامة الواضحة بيد سفرائه الحقيقيين،حتى يستحيل على أيّ أحد تغطية الحقيقة بستار من الخداع والالتواء .

فكما أن نظام الكون ووجود الظواهر آية واضحة على إثبات وجود الله وعلامة على التوحيد الأزلي ، فكذا المعجزة دليل واضح أيضاً على ارتباط النبيّ بمنبع الوحي .

فالدين بدون اعتماد على الوحي لا يقوم على أسس ثابتة صحيحة، وتكون جميع مسائله ـ بدون الارتباط بالوحي ـ غير ذات مفهوم ومحرومة من القيمة العلميّة

فالنبيّ الذي يدّعي أنه مختار من قبل الله يدعو الناس بكل ثقة لينافسوه ويعارضوه ويدخلوا في صراع عنيف واسع معه ويعبّئوا كل إمكانيّاتهم وقواهم لذلك ، ولكنّهم مع كل محاولاتهم اليائسة لا يصلون إلى هدفهم ، وبالتالي يستسلمون لعجزهم الفاضح .

وذلك لأن معجزة الأنبياء تثبت بطبيعتها انتسابها إلى عالم الوحي ومبدأ الكون ، وتكون خصوصيّاتها بشكل بحيث يعجز عن مقابلتها من الناس من كان غير مرتبط بعالم ما وراء الطبيعة ، وحتى لو أنه استفرغ كل جهوده واستغلّ كل طاقاته .

إذن ينحصر طريق إثبات النبوّة في القيام بعمل خارج عن حدود النواميس الطبيعية والقوانين العادية ، ومن المعلوم أن تحقق مثل هذا العمل غير ممكن بدون إذن الله سبحانه ، ويعدّ هذا معياراً يمكن التمييز بوساطته

بين الحق والباطل .

ومن الطبيعي أن التفاوت بين المعجزة وظواهر العالم الأخرى يكون من جهة نظرنا ، ولا يوجد تفاوت بينهما بالنسبة إلى من له علم دقيق وتسلّط كامل على جميع أسباب الوجود وعلله .

إن برهان صدق الأنبياء في اتجاهه العام يشبه الإنجازات المهمة التي تجتذب أفكار الناس في كل عصر وتتجّه إليها أنظارهم ، وذلك ليعلم المتخصصون في الفن الشائع في ذلك العصر أن هذا العمل خارج عن حدود القدرة البشرية ، وهذه نقطة البدء لعمل الأنبياء ، ومنها يستطيعون ـ مع الأخذ بعين الاعتبار مدى نضج الأفكار ـ أن يفتحوا آفاقاً واسعة في عقول الناس، وأن يعملوا على التسريع في الحركة لكي يصلوا إلى أهدافهم الرفيعة .

* * *

أما الذين يتصوّرون موضوع الإعجاز أمراً مستحيلاً ولا يمكن قبوله ، فلا بدّ أن يعلموا أن عدم تصديقهم ناشيء من سطحيّتهم في التفكير وبساطتهم في تكوين الرأي .

وهناك حوادث كثيرة تقع في العالم والإنسان يعلم بعللها ، وتقع حوادث أخرى في عالمنا تعجز العلوم الطبيعية عن تفسيرها وتبريرها ، ولهذا لا ينبغي الاعتماد تماماً على معلوماتنا الضئيلة ، ومن ثم نقوم مغرورين بنفي وإنكار كل ما نجهل علّته .

والخطأ الأساس في عمل الإنسان هو أن يتصوّر أنه يعلم كل شيء؛ فعندما يعجز عن الوصول إلى كنه مسألةٍ ما فإنه يلجأ إلى الإنكار ، بينما لا شكّ أن بُعد تفكيرنا لا يتجاوز حدوداً معيّنة ، فكلّما اتسع مجال المعرفة البشرية فهي لا تزال محدودة ، وليس من المعقول أن نعمم القوانين والمعرفة المحدودة على الوجود اللامحدود ، إذن وسائلنا العلمية لا تملك القدرة

الكافية ولا تتلاءم مع دراسة كثير من المسائل الحيوية ، ولا تنحصر العلل والعوامل فيما نعرفه نحن وفيما تناله وسائلنا العلمية .

ولا تخرج معجزات الأنبياء أبداً من نطاق النظام الشامل للوجود ، ولكننا نحن الذين لا نملك القدرة على اقتحام الأراضي البكر المجهولة من الوجود لأن مجال معرفتنا محدود وعقلنا لا يقوى على التحرّك في حدود ما وراء الطبيعة .

والوجود لا ينتهي من حيث الزمان والمكان ، والقسم الواقع منه تحت طائلة الإنسان لا يمكن أن يعطي الإنسان فكرة عن كل الوجود ، إذن فما المانع من أن تبقى أسئلتنا المتعلّقة بطلب توضيح العلل الطبيعية لمعاجز الأنبياء بلا جواب ؟! .

وليس صحيحاً أن نقارن المعجزة بما يفعله المروّضون من أعمال غير عادية ، لأن مثل هذه الأعمال لا تخرج عن نطاق المسائل الفكرية والنظرية والأمور التابعة للتعليم والممارسة ، وهذه الأمور تستلزم نتائجها شئنا ذلك أم أبينا ، ويحتمل أيضاً أن تصدر هذه الأعمال نفسها من أفراد آخرين يسيرون في هذا الاتجاه ، وعلاوة على هذا فإن هذه الأعمال لمّا كانت ناشئة من القوّة الإنسانيّة المحدودة فهي لا يمكن أن تتحقق في كل الظروف ولا بجميع الوسائل ؛ لأن لها ظروفها الخاصة ووسائلها المعيّنة .

وفي كثير من الحالات التي تحدث فيها هذه الحركات والنشاطات ، تعتبر ضمن التلهّي الذي لا حاصل له ، والذي ليس له دور إيجابيّ فعّال في حياة الإنسان وليس له عائد ذو قيمة ، ولا يقول أحد بأن مثل هذه الأعمال إعجاز وعلامة على الارتباط بالله .

* * *

وأعمال النوابغ أيضاً ناشئة من التمتع بقوّة العقل ، والدقّة في العمليّات

الذهنيّة ، والإحاطة بمجموعة من الأسرار العلمية الدقيقة ، حيث يكون استنتاجها والاستفادة منها متوقّفين على الإلمام بقواعدها المعقّدة والدقيقة ، ولا ربط لها إطلاقاً بالمعجزة ، وكل من يتتبّع مقدّمات ذلك العلم فإنه سيصل إلى نتائجه ، لأن القيام بمثل هذه الأمور محتاج إلى التربية والتعليم ، وهو محدود بموارد خاصة قابلة للمعارضة ، أما الإعجاز فهو متعلّق بالوحي ومعتمد على القوّة الإلهيّة اللامحدودة التي لا حاجة بها إلى التربية والتعليم ، ولا يمكن أيضاً منافستها ومعارضتها .

فالنبي عيسى (عليه السلام) يتكلّم وهو في المهد من دون أن يتدخّل أيّ معلّم أو مربّ في هذا الحادث ، ومن دون أن يمكن مجاراة هذه الظاهرة غير العادية .

« عن أبي بصير ، قال : قلت لأبي عبد الله الإمام الصادق (عليه السلام) : لأيّ علّة أعطى الله (عزّ وجل) أنبياءه ورسله وأعطاكم المعجزة ؟ فقال (عليه السلام) : ليكون دليلاً على صدق من أتى به ، والمعجزة علامة لله لا يعطيها إلاّ أنبياءه ورسله وحججه ليعرف به صدق الصادق من كذب الكاذب »[1] .

ولهذا السبب لا يقوى العمل الخارق للعادة على الارتفاع إلى مستوى المعجزة ، ولا يستطيع منافستها ، وفي ساحة الصراع يفقد القدرة على المقاومة والصمود وينتهي إلى نتيجته الحتميّة وهي الهزيمة .

وينبغي الالتفات إلى أن المعجزة لا تنقض أبداً قانون العليّة ولا تخرج على سنن الوجود ، والله القادر الذي أوجد النظام الحالي بين العلل والمعلولات السائدة لدينا لن يخضع ولن يكون مقيّداً بهذه العلل ، ولايوجد مانع بالنسبة إليه حيث هو القاهر والمتسلّط عليها أن يحدث بشكل استثنائي تغييراً موقتاً في النظام العادي ، ويجري هذا التغيير على أساس مجموعة من

---

(١) بحار الأنوار ج ١١ ص٧١ .

العلل الغامضة التي تعجز علومنا اليوم عن تفسيرها ، وهي لا تزال مجهولة حتى بالنسبة للنوابغ من العلماء .

وإذا أخذنا بعين الاعتبار محدودية معرفتنا والقوّة التي نقيّم بها والوسائل التي نقيس بها فمن المحتمل أن لا يظفر الإنسان بمثل هذه العلل التي هي تحت تصرّف وإرادة الباري جلّ وعلا ، ولكنّه في نفس الوقت لا ينبغي عدّ تلك السنن المجهولة خارجة عن نطاق قانون العليّة .

قلنا إن معجزات الأنبياء تحكي عن رابطة تنتسب إلى ما وراء الطبيعة ، وهي ناشئة من تجلّي نور التوحيد وجزء من إرادة الذات الإلهيّة الموجودة لجميع الظواهر ، والمبتكرة لهذه الأنظمة العامة والقوانين الاستثنائيّة .

ونحن نعرف بعض النماذج من هذه السنن الاستثنائية في العالم، فنلاحظ في البرد القارص للشتاء حيث تسلب الطراوة والبهجة من جميع النباتات تبقى ـ استثناء ـ الأشجار الدائمة الخضرة صامدة في وجه البرد القاتل ومحتفظة بنضارتها وبهجتها .

هل يعدّ هذا الاستثناء في مثل هذه الأشجار وخروجها عن الوضع العام للنباتات إلغاء للقانون السائد في النباتات ؟ .

لا شكّ أن هناك عللاً وعوامل أخرى في هذا المورد مغايرة للسنن الكليّة الشائعة في عالم النباتات .

ونحن لا نملك دليلاً نثبت فيه بالتجربة واليقين أن ما وصلنا إليه لحد الآن من علل وعوامل للحوادث هي خالدة ودائمة ، وأن تحققها بغير تلك الأسباب والعلل من الأمور المستحيلة .

فكثير من العلماء المعاصرين يصرّحون بأنه لا ينبغي إنكار وجود مجموعة من الحوادث التي لا تتلاءم مع الأسباب والعلل الطبيعية ، وذلك لأننا لا نملك دليلاً قاطعاً على نفي الحوادث الخارقة للعادة .

يقول المحقق الفرنسي الشهير الدكتور (الكسيس كارل) في كتابه : (الإنسان ذلك المجهول) :

« لقد كان الناس في كل بلد وفي كل عصر يعتقدون بالمعجزة وبالشفاء السريع للمرضى ، ـ قلَّ أو كثُر ـ في أماكن الزيارة والأراضي المقدّسة ، أمّا اليوم فقد تزلزلت أسس هذه العقائد ، وذهب عدد من الأطباء لإنكار وجـود المعجزة ، ولكن هذا الموضوع يستحق التعمّق في دراسته لوجود مشاهدات عديدة تشير إليه .

وقد قامت مؤسسة (لورد) الطبيّة بجمع موارد كثيرة من هذا اللون من المشاهدات ، وتعتمد معلوماتنا الحالية حول التأثير العاجل للدعاء في شفاء الأمراض على شرح أحوال المرضى الذين تمّ لهم الشفاء من أمراض كسلّ العظام وسلّ الجلد والسرطان والجروح المتعفّنة وغيرها ، ولا تتفـاوت كثيراً المعالجة عند هذا أو ذاك ، فغالباً يحسّ المريض بألم شديد وبعد ذلك يتم شفاؤه بصورة كاملة ، وتلتئم الجروح بعد عدّة ثوان أو دقائق ، والحد الأقصى بعد عدّة ساعات ، وتزول العلامات الدالـة على المرض ، وتعـود للمريض شهيته للطعام » .

* * *

جواب الوحي

لطلب المشركين اللامنطقي

لا شك أن حب الذات المفرط وتجاهل الواقعيات والتفكير فيها بصورة معوجّة يؤدي إلى زيادة الضلال والانحراف و إلى تسلط الرغبات الملوثة على أفكار الإنسان ، أما الالتزام بالواقعية والسير في طريق الحق والحقيقة فهو يستلزم خلو الذات من دوافع العناد التي لا يمكن إزالة نتائجها السلبية ، فالبحث عن الحقيقة هو واجب الإنسان الخاص به ، والوصول إليها هو وحده طريق الفلاح .

والقرآن الكريم يعد طلب الإعجاز من الأنبياء الشاهد على صدق مدّعاهم أمراً منطقياً ، وهو ينقل بالتفصيل الجواب العلمي الإيجابي للأنبياء على طلب الناس، ولكنه كان في تلك العصور بعض الأفراد المصابين بالعناد واللامنطقية فلم يكونوا مستعدين لقبول الحق، ومع ذلك كانوا يطلبون من الأنبياء معاجز حسب ما تهوى أنفسهم ، وحتى أنهم طلبوا في بعض الأحيان أموراً مستحيلة التحقق عقلاً، ومن الطبيعي أن لا يلتفت الأنبياء المرتبطون بمنبع الوحي لهذه الطفولية الناشئة من العناد واللجاجة .

وذلك لأن المقصود من المعجزة هو الشهادة على صدق الرسالة ، ويتم هذا الأمر بأي إعجاز يصلح لأن يبعث الاطمئنان في النفوس بالرسالة الإلهيّة .

ولكنه هل هناك ما يلزم الأنبياء بأن يأتوا لكل إنسان بـالمعجزة حسب سليقته ورغبته ؟ .

و هل لا بد للمعجزة الإلهية من أن تكون تابعة لإرادة الناس المتغيـرة حسب الهوى والسـائرة بلا هدف ؟ .

وقد أعلن الأنبياء للناس أنهم مأمورون بإرشاد الخلق و هدايتهم ، و لا يصدر الإعجاز إلا بإذن الله وإرادتـه ، وحسب ما تقتضيه الضرورات و يستلزمه الـوضع المـوجود ، وليـس هـو وسيلة لإشباع الـرغبات والتلهيـة لأفـراد لا يلتزمون بمنطق ولا يتورعـون عن عناد .

يقول القرآن الكريم :

﴿ و ما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ﴾[1] .

والله سبحانه يستطيع دائمـاً أن يجتذب انتبـاه الناس للمعجـزة بصورة قاطعة ، فمثلاً يدفع الجمادات والنباتـات للكـلام باستمـرار وأداء حركـات محيرة ليؤيد بها أحقية دين الله ، ولكـن هذه الأساليب لا تتناسب مع نضـج الإنسان وحريتـه وانتخابـه الواعي ، ومن المؤكد أن الله تعالى لا يقدم على مثل هذه الأمور ، لأنه لم يشأ أن يهدي عقـول الناس بثمن بـاهظ هو ركـود أفكارهم وتعطـل طاقاتهم .

والذيـن يشيحون بوجوههم عن الحق فـإنهم سيجدون بشكـل طبيعي نتائج أعمالهم وردود الفعـل على سلوكهم ، ومن هنا فإن كل شيء في هذا العالم يسير بتناسق كامل مع سائر الأمور ، ولو أن الله يبتلي بالعذاب أولئك الـظالمين والمنحرفـين بمجـرد قيامهم بتلك الأعمـال ، لما أمكن لأحـد أن يتحمل ذلك فتنتفي الغاية من وجودهم .

ولـو أن الفئة المعـارضة كـانت تهـدف إلى كشف الحقيقـة لاعتنقت

---

(١) سورة المؤمن : الآية ٧٨ .

الحقيقة نتيجة للتحقيقات الواسعة الشاملة ورؤية المعاجز الواضحة البينة ، ولكن كيفية طلبهم تبين سوء نياتهم وتكشف عن أنهم لم يكونوا يطلبون الحقيقة ، وإنما كانوا يريدون إلقاء الإشكالات غير الواردة .

ولم يكن لهؤلاء الذين ماتت قلوبهم من عمل سوى التكذيب والإعراض عن الحق ، وإلا فمع وجود تلك المعاجز البينة لم تكن هناك ضرورة لإعادتها وحتى لو لبيت لهم طلباتهم فإنهم لا يؤمنون .

يقول الله تعالى في كتابه الكريم :

﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى ، أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل ﴾(١) .

* *

حتى أن كثيراً من طلباتهم لا ينطبق على شروط المعجزة ، كما يذكر القرآن الكريم أنهم اقترحوا على نبي الإسلام «ص» :

﴿ و قال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ، لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوّاً كبيراً ﴾(٢) .

ويبين القرآن في آيات أخرى بعض الإشكالات والانتظارات اللامعقولة التي تجري على هذا المنوال :

﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزّل علينا كتاباً نقرؤه

---

(١) سورة الفرقان : الآية ٢١ .

(٢) سورة الإسراء : الآيات ٩٠ - ٩٣ .

قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾[1] .

ويظهر لنا من هذه الآيات أن أصحاب الإشكال يريدون من رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن يقوم بإعجاز ليثبت لهم أنه المختار من قبل الله سبحانه ، وأنه مرتبط بمبدأ الوجود ارتباطاً خاصّاً فيطلبون منه أن يفجّر لهم من الأرض ينبوعاً ، أو تكون له جنة مليئة بألوان الفواكه ، أو يكون له بيت مزيّن مزخرف ، وهذه هي مظاهر النبلاء في ذلك العصر .

* *

وصحيح أن الاستجابة لهذه الطلبات ممكنة ، وهناك كثير من الناس ممن يملك واحداً أو أكثر من هذه الأمور ، ولكنهم ليسوا أنبياء .

إذن ليس ملاك الإعجاز والرسالة أن يكون للرسول مثل هذه الإمكانات المادّية ، ولا يمكن قبول هذه من شخص على أساس أنها سند ودليل على نبوّته ، ونستطيع أن نفهم من وراء هذه الطلبات أنهم إلى أي حد كانوا مبتذلين ومحرومين من الرؤية البعيدة الواضحة ، حيث يظنون أن معيار القيادة الواقعية هو الرفاه والثروة والقوّة المادّية الفارغة من المعنويات .

والطلب الآخر الذي تقدم به هؤلاء اللاعبون الذين لا يهدفون إلا إلى التلهّي ، كالتلهّي الناشىء من عمل المروضين، هو نزول العذاب الذي ينتهي بالقضاء على حياة الناس ، بينما الهدف النهائي من الإعجاز هو إرشاد الناس وتوعيتهم وتربية قواهم وتحريرهم من العبودية، ومن أجل أن يتحرّك الإنسان بعد اعتناقه للحق من خلال نظام فكري جديد .

أما الطلب الذي يريدون به نزول الله والملائكة ، فإنه ناشىء من الفكر المتخلف والنظرة اللامنطقية، لأن الله سبحانه ليس جسماً ولا محدوداً

---

(١) سورة القصص : الآية ٤٨ .

بزمان ولا مكان ، ولهذا فإنه لا يمكن أن يكون له مظهر مادي أو تجلّ نسبي .

وفي الختام يأتي جواب الباري (عز و جل) على الإشكالات غير الواردة ، التي تقدم بها الطالبون للمعجزة ، وهو جواب صريح وواضح :

﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ .

وبهذا القول يبرّأ الله سبحانه من العجز والقصور،ويدل عجز النبي المطلق هنا على أن أمر الإعجاز متعلق بالذات الإلهية اللانهائية ، وليس النبي إلا تابعاً لإرادة خالقه ، وليس له أن يتصرف في عالِم التكوين من دون إذن الله ، ولا يستطيع أن يوافق على أي طلب يتقدمون به لإحداث المعجزات .

ويجيب ضمناً في هذه الآية على إشكال آخر لهم،حيث يعتبرون كون الأنبياء من البشر نقطة ضعف في رسالتهم ، و يظنون أن الأنبياء لا يمكن أن يبعثوا من صميم المجتمع ومن بين الناس ، ويندد بشدة بهذه النظرة المحدودة والملوثة بالشرك،. الناتجة من عدم فهم مفهوم البعثة ، و بهذه الدعوة السليمة الواضحة يحول دون انتشار التصور الخاطىء المنحرف لموضوع النبوّة .

و الأعجب من هذا أنهم يقولون ما تنقله لنا الآية الشريفة :

﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ماأوتي رسل الله ﴾[1] .

إذن لا فائدة إطلاقاً من تكرار الإعجاز للذين لا يملكون إرادة التحوّل ولا يرغبون في التحرّر من الأفكار المشيدة على التعصّب ، ولا يجدون دافعاً في أنفسهم للسير على الصراط المستقيم .

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٢٤ .

ويفسر الذين أساسهم الفكري لا ديني مسألة الوحي وتعاليم الأنبياء بأنها غير نابعة من منبع سماوي ، وإنما هي ناشئة من النبوغ العقلي لتلك الشخصيات المحبة للبشر ، الطاهرة الضمير ، الرفيعة الأهداف ، ولما كانت الأمم التي عاشت في عصور الأنبياء لا تخضع لمنطق العقل فقد قام الأنبياء بوضع قوانين ومقررات لإصلاح تلك المجتمعات الفاسدة ، ولكي يضمنوا طاعة الناس حينذاك فقد نسبوها لله .

وهذا الكلام ليس منطقياً ولا واقعياً، لأن الإنسان ولو كان مزوّداً باستعداد ضخم ونبوغ ذاتي هائل، فهو إذا لم يصادف تربية ولا تعليماً فإن استعداده يذبل ونبوغه يموت ، بينما علم الأنبياء لم يكن مكتسباً بوساطة تعليم ، ولم يتلقّوا معلوماتهم من أساتذة الفن في عصورهم .

ومن ناحية أخرى فإن جميع أعمال النوابغ تجري حسب الأصول المادية والطبيعية ، أما معجزات الأنبياء فهي لا تحدث طبقاً للقوانين الطبيعية العاديّة .

ولو لم يكن لهم منبع سوى النبوغ والذكاء الحادّ، ولو لم يكن تحت تصرفهم عامل جديد ، لوجب أن تكون لتعليماتهم التي أعلنوها بعد ادعاء النبوة سابقة تأريخية ولاضطروا لإعلان رؤيتهم وأفكارهم بشكل تدريجي لا دفعة واحدة ، بينما نجد أن جميع التحولات العميقة بلا استثناء قد بدأوها من تلك اللحظة التي أعلنوا فيها أنهم مختارون من قبل الله ، أما قبل ذلك فإن وضع جميع الأنبياء قد كان عادياً تماماً ، مع غض النظر عن معنوياتهم الفيّاضة ونظافتهم الكاملة .

فهذا التحول الفجائي والعرض غير المنتظر للتعاليم ، يدفع أفكار الناس وأعمالهم خلال نظام فكري وعملي كامل الجوانب جامع الأطراف نحو هدف محدّد معيّن ، وهو تحرير الإنسان من سلطة الطبيعة وسلطة المجتمع ، وتعيده إلى الله ، إنما هو شاهد واضح على أن هؤلاء قد زوّدوا بعامل جديد ومنبع فيّاض يكتشفون به الحقيقة ويدركون به الواقع .

ولا نصادف في تأريخ البشرية أفراداً قد تفجر استعدادهم وظهر نبوغهم بشكل قفزة وبصورة دفعية ، بينما قد كان وضع أنبياء الله بهذه الكيفية تماماً .

وكل باحث محقق غير متعصب لو أنه اكتفى فقط بدراسة سريعة لتأريخ الأنبياء لوجد أن حياتهم الكريمة بأجمعها مليئة بالصدق وعبادة الحق وحبّ الإنسان والإيثار الغريب وتحمّل الضغوط الشديدة والمشاكل العنيفة ، ولشاهد تجلياً خاصاً لمواقفهم البناءة في سبيل تحقق آمالهم ، بحيث اضطر كثير ممن يعتبر عدواً لدوداً لهم للاعتراف بميزاتهم الاستثنائية .

وتبيّن هذه الخصائص بوضوح موقف الأنبياء في طلب الحق والحرص على القيم الإنسانية في مقابل الموقف اللاإنساني الذي تفقه العناصر الملوثة التي تواجه رجال الله دائماً بالمعارضة والخلاف .

وعلى هذا فكيف يمكننا نسبة إدعاء خلاف الواقع من أجل تحقيق نفوذ أعظم في المجتمع لرجال كانوا المثال الأكمل للبعد والنفور من العصيان والاعوجاج والعصيان ؟ .

هل من اللائق والمناسب أن تتهم مثل هذه الشخصيات ـ التي لم يلاحظ عليها أبداً أي صبغة لحب الذات في سلوكهم ـ بالقول العبث وبالكلام الذي لا أساس له ؟ .

وليس سلوكهم الرفيع فقط هو الذي عجل بإنقاذهم البشرية من اللجة التي تختنق بها في النظام الجاهلي ، وإنما من ناحية التعليم أيضاً كان هناك من أهم أهداف الدين الذي جاء به رجال الحق هؤلاء هو الدعوة للصدق والصراحة والنقاء ، والتنديد بالرياء والسلوك الذي يكون فيه الإنسان ذا وجهين .

* *

يتناول الإمام علي(ع) في إحدى خطبه شرح أحوال الأنبياء ويذكر فيها أرفع نماذج الفضائل فيقول :

« وإن شئت ثنيت بموسى كليم الله (صلى الله عليه وسلم) إذ يقول : « رب لما أنزلت إلي من خير فقير » والله ما سأله إلا خبزاً يأكله لأنه كان يأكل بقلة الأرض ، ولقد كانت خضرة البقل ترى من شغيف صفاف بطنه[١] لهزاله وتشذب لحمه[٢] .

وإن شئت ثلثت بداود (صلى الله عليه وسلم) صاحب المزامير وقارىء أهل الجنة ، فلقد كان يعمل سفائف الخوص بيده ويقول لجلسائه : أيكم يكفيني بيعها ، ويأكل قرص الشعير من ثمنها .

وإن شئت قلت في عيسى بن مريم (عليه السلام) فلقد كان يتوسّد الحجر ويلبس الخشن ويأكل الجشب ، وكان إدامه الجوع وسراجه بالليل القمر وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها، وفاكهته وريحانه ما تنبت الأرض للبهائم ، ولم تكن له زوجة تفتنه ، ولا ولد يحزنه ولا مال يلفته . ولا طمع يذلّه ، دابته رجلاه وخادمه يداه .

فتأسَّ بنبيِّك الأطيب الأطهر (صلى الله عليه وآله وسلم) فإن فيه أسوة لمن تأسى وعزاء لمن تعزى ، وأحبّ العباد إلى الله المتأسّي بنبيّه والمقتص لأثره ، قضم الدنيا قضماً ولم يعرها طرفاً ، أهضم أهل الدنيا كشحاً وأخمصهم من الدنيا بطناً ، عرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها ، وعلم أن الله سبحانه أبغض شيئاً فأبغضه ، وحقّر شيئاً فحقّره ، وصغّر شيئاً فصغّره ، ولو لم يكن فينا إلّا حبنا ما أبغض الله ورسوله ، لكفى به شقاقاً لله ومحادّة عن أمر الله ، ولقد كان (صلى الله عليه وآله وسلم) يأكل على الأرض ويجلس جلسة العبد ويخصف بيده نعله ، ويرقع بيده ثوبه ، ويركب الحمار العاري ويردف خلفه ، ويكون الستر على باب بيته فتكون فيه التصاوير فيقول : يا

---

(١) الصفاف : الجلد الأسفل تحت الجلد الذي عليه الشعر .

(٢) التشذب : التفرق ، وانهضام اللحم : تحلل الأجزاء وتفرقها .

فـلانة ـ لإحـدى أزواجه ـ غيّبيـه عني ، فإني إذا نـظرت إليه ذكـرت الدنيـا وزخارفها ، فأعرض عن الدنيا بقلبه ، وأمات ذكـرها من نفسـه ، وأحبّ أن تغيب زينتها عن عينه ، لكي لا يتّخذ منها رياشاً ، ولا يعتقدها قـراراً ، ولا يرجو فيها مقاماً ، فأخرجها من النفس ، وأشخصهـا عن القلب[1] ، وغيّبها عن البصر ، وكذلك من أبغض شيئاً أبغض أن ينظر إليه ، وأن يذكر عنده .

و لقد كان في رسول الله (صلى الله عليه وآلـه وسـلم) ما يدلك على مساوىء الدنيا وعيوبها : إذ جاع فيها مع خاصّته ، وزويت عنه زخارفها مع عظيم زلفته فلينظر ناظر بعقله أكرم الله محمداً بذلك أم أهانـه ! فإن قـال : أهانه ، فقد كذب ـ والله العظيـم ـ بالإفـك العظيم ، وإن قــال : أكرمـه ، فليعلم أن الله قد أهان غيره حيث بسط الدنيا له ، و زواها عن أقرب الناس منه .

فتـأسى متأس بنبيـه ، واقتص أثره ، وولـج مولجـه ، وإلا فـلا يـأمن الهلكة فإن الله جعل محمداً (صلى الله عليه وآله) علماً للساعة ، و مبشراً بالجنة ، ومنذراً بالعقوبة ، خرج من الدنيا خميصاً[2] ، وورد الآخرة سليماً ، لم يضع حجراً على حجـر ، حتى مضى لسبيله ، وأجاب داعي ربّـه ، فما أعظم منّة الله عندنا حين أنعم علينا به سلفاً نتبعه ، وقائداً نطأ عقبه »[3] .

و طريق معرفة الأنبياء لا ينحصر بالمعجزة ، بل يكون الأسلوب العقلي والعمـلي في عصـر نمو العقـل وتكامـل العلـم أفضل طـريق وأعمـق سبيل لتشخيص النبوّة الصادقة، فالدراسات الدقيقة والبحوث النزيهة المحايدة ـ مع الأخذ بعين الاعتبار الخصائص الفردية والاجتماعية ومضمون الدين ـ يمكن

(١) أشخصها : أبعدها .

(٢) خميصاً : خالي البطن .

(٣) نتبعه خطوة خطوة .

نهج البلاغة شرح و تعليق محمد عبده ج ٢ ص ٥٧ ـ ٦٠ طبع بيروت

و نهج البلاغة شرح الدكتور صبحي الصالح ص ٢٢٦ ـ ٢٢٩ طبع بيروت .

أن تدلنا على النبي الصادق ، وهـذا الطريق يكشف عن الرسـالة السمـاوية بشكل أعمق بكثير من أولئك الذين كانوا يشاهدون المعاجز عن كثب .

فبالنسبة إلى المؤسسات العلمية والشـخصيات الباحثة المحققة تكون معرفة المـذهب أكثر تـأثيراً وأشـد جاذبيـة من أي إعجاز لأنهـا تكشف عن أصالته وتبيّـن دقائقه .

و أول شـاهـد نـاطق واضـح على الـدين الحقيقي في عصـر العلـم والمعرفة هو انطباقه الكامل على المقاييس العلمية والواقعيات المنبثة في نظام الوجود. وعلى هذا لا بد أن ننظر إذا كان هناك مذهب لا ينسجم مع الموازين العلمية، ومن حيث المحتوى والمضمون كان مناقضاً للعلم والأفكار الحرّة، فإننا نقطع بأن هذا المذهب ليس متعلقاً بالله سبحانه .

من هنا وبفضـل تقدم العلم والنضـج الفكري للمجتمع فإن تعليمات الأنبيـاء الأصيلة ، الداعيـة للتكامـل ، المؤمنة لجميـع الحاجـات المـاديـة والمعنوية المحققة لنمو وتعالي الفرد والمجتمـع تتلألأ من بين الظلمـات والخـرافات والمـوهومـات ، وتتجلى صورتهـا الجميلة بشكل أكثـر جاذبيـة وأعمق نفوذاً .

معرفة الوحي وتوضيحه

إن الوحي في نظام الوجود مسألة دقيقة ومعقّدة ، تحكي العلاقة الخاصة بين الأنبياء وربهم ، وهو المنبع الوحيد للمعرفة في النبوة السماوية ، والخلفية الأصيلة لعلوم الأنبياء ومعارفهم ، و أخيراً فهو الحامل للرسالة العظيمة التي أوجدوا بها تغييرات هائلة وتحوّلات إيجابية وعميقة في المجتمعات البشرية .

فالأنبياء بهذه المعرفة الواضحة المباشرة لحقائق الوجود،قد استلهموا التعاليم والقوانين السماوية من عالم الملكوت من الله (عز وجل) ، ثم وضعوها تحت تصرف الناس بعنوان أنها رسالة قادمة من الغيب .

إن الأنبياء الذين أشرقوا من أعماق الظلمات وفي أوج الضلال و الظلم واللاعدالة والاختلافات قد بدأوا حركتهم بأمر الوحي ، ووجهوا اهتمام الناس في ظل حركة فكرية أصيلة نحو إدراكات فطرتهم الرائعة ، وبذلوا كل جهودهم ليزيلوا عنها صبغة العقائد والعادات المكتسبة من البيئة المحيطة بهم ، وذلك لكي تتفتح الاستعدادات والدوافع الإنسانية الرفيعة ،وفي ظل هذا النمو والوعي يجد الناس طريقهم إلى الخير والسعادة .

* *

وليس من الواضح لدينا ماهية الوحي ، ولا لون الإدراك الذي ينتهي إليه ، وذلك لأنه ليس من سنخ الإدراكات العادية ولا يشبه المعارف المألوفة أو المعلومات التي يكتسبها الإنسان بنشاطه الذهني الخلاق ، ونحن لا نستطيع أن ندرك خصائص هذا الارتباط بما وصل إلينا من ميراث علمي ومعنوي،وقد بقي هذا الجانب مظلماً في حدود فكرنا ، ولعله سيبقى حتى النهاية مغلقاً بالإبهام والسرية .

و لكن المعنوية الفياضة والطهارة الباطنية الفائقة في شخص ما تهيّئه لاستقبال الوحي عندما يفيضه الله عليه فيبعث رسولاً للناس .

وفي نفس الوقت فإن استقبال الأوامر السماوية والاتصال بمنبع الوحي الثري منوط بالإرادة الإلهية الخاصة ، ولن تكون طهارة الإنسان واستعداده هو العامل الوحيد في إيجاد ذلك الارتباط الخاص .

ولما كان الهدف من النبوة هو قيادة الفرد والمجتمع من جميع الجوانب نحو الكمال ، والتخطيط لنظام قانوني منسجم مع الحياة ونظام اجتماعي مناسب للبشرية ، إذن لا بد من إسناد مثل هذه المسؤولية الهائلة والحمل الثقيل لشخص يتمتّع باستعداد عظيم وطاقة جبّارة ، والله سبحانه لا يمنح هذا المنصب إلا لمن لديه القابلية لتحمل مسؤولية النبوة العظيمة ، ومن يستطيع تعيين المسير العملي للناس مهتدياً بنور الوحي .

ويعتبر هذا البعث بمثابة طوفان يغمر كل أبعاد وجود النبي،ويسلّح ذهنه بنور البصيرة والحكمة، ويزوّد رؤيته بالوضوح والصفاء ، فيتمكن بفضل هذه الرؤية الواضحة ، وبالابتعاد عن الهوى وعبادة الذات والانحراف في التفكير من تعبئة كل طاقاته للتحرك بشوق وحماس لا نهاية لهما في سبيل أداء ما أمر به من قبل الله .

* *

وهنـاك حديث للعالم الباكستـاني الشهير « إقبـال » يشرح فيـه تفاوت الأنبيـاء مع الشخصيـات المعنويـة الأخرى التي يسميها بالرجـال البـاطنيين فيقول :

«إن الرجل الباطني لا يريد العودة إلـى حياة هذا العالم بعد أن يظفر بالهدوء والاطمئـنان خلال مسيـره المعنوي ، أمـا عندمـا يضطر للعـودة فإن عودته حينذاك لن يكون فيها نفع مهم للبشرية كلها .

ولكـن عودة النبي تتميز بـأنها مثمـرة خلاقـة ، فهو يعـود ليقتحم تيار الزمان ويسيطـر على مسير التأريخ ، ومن هذا الطريق يخلق عالماً جديداً هو كمال المطلوب..

فللرجل الباطني يكون الهدوء هو مرحلته النهائيـة ، أما بـالنسبة للنبي فإنه عندما تستيقظ قواه الجبارة يهز بها العـالم ، وتكـون هـذه القوى بحيث تغير العالم البشري بأكمله »[1] .

فلا ظاهرة الوحـي تنـاقض قوانين الـوجود ، ولا نجــد أي دليل على استحالة مثل هذا الارتباط بين الله و الإنسان في الفلسفـة والعـلوم الطبيعيـة التي لـم تخلط بالأحكام اليقينية المسبقة ، وذلـك لأن محتوى الـوحي ليس مناقضاً للعلم ، بل يحتمل أن يصل العلم في حركتـه وتكاملـه خـلال تقدم الزمان إلى الحد الذي يستطيع فيه أن يقدم نتائج رائعة في هذا المجال .

وكمـا نعلم فإن الوجود لا نهائي ، وعليـه فإن معرفتـه وإدراكـه أيضـاً يتصلان باللانهاية، ونحن خلال تعاملنا مع الأمـور لا ينبغي أن نتصور أننـا سوف ندرك جميع حقائق الوجود المعقدة التي لا عد لهـا ولا حصـر ، بـل علينا أن نأمل خلال الحركة المتنامية للعلم البشري في الوصول إلى معرفة ما هو مجهول لدينا اليوم .

---

(١) إحياء الفكر الديني في الإسلام : ص ١٤٣ .

فجهاز الارتباط للأنبياء الذي يستقبل و يبث الأخبار والرسائل من عالم الغيب من دون الاستعانة بالوسائل المادية ليس هو أقل من جهاز للبث والاستلام، إلا أنه أقوى بكثير من الأجهزة التي يصنعها الإنسان .

فالبواخر في المحيطات تعتمد في الليل على الرادار لكي يخبرها باقترابها من الساحل ، وتوجد طائرات تحلق بلا طيار وإنما هي تعتمد على توجيه الرادار ،وهي ترسل إلى أي مكان يشاء لها ، فإذا كان الفكر البشري قادراً على صناعة الرادار الذي يعمل بوساطة الأمواج فلماذا لا يمكن وجود أمواج أخرى يستفاد منها للبث والاستقبال وهي مجهولة بالنسبة إلينا ؟ .

هل يكون الإنسان أقل مما تصنعه يداه ،أي من ذلك الجهاز الذي اخترعه ؟ .

ويحملنا فهم الواقعيات على أن لا نقف موقف الإنكار والعناد في مقابل المسائل المجهولة والمعقدة بدون دليل ، وإنما بتعمق عظيم للظواهر وأمل كبير في المستقبل ننتظر أن تصل ثقافة الإنسان ووعيه إلى الحد الذي يؤهله لإدراك كثير من الحقائق واكتشاف كثير من الأسرار .

ومع إن الإنسان والحيوان مشتركان في المعرفة الحسية ، ولكن بعض الحيوانات يزيد مداها على الإنسان كثيراً ، وتلاحظ بعض الإدراكات المجهولة في الحيوانات والتي يعجز جميع العلماء عن معرفة كيفيتها ، وليس من الحتم أن تنتشر الأمواج عن طريق الأجهزة التي يصنعها الإنسان، فالفراشة مزودة بلون من الأمواج تشبه الرادار ، إذن من الممكن إنتاج الأمواج من اللحم والعظم والجلد ، فهي تبث وتستقبل ، فهل من الصحيح أن نعتبر الإنسان أحقر من فراشة صغيرة ؟ .

وهناك حيوان مغمض العينين يبعد عن مكانه مئات الكيلومترات ولكنه يعود بشكل غريب إلى مكانه الأول ، فما هي تلك القوة التي تجعله قادراً على العودة إلى مكانه الأصيل ، من أي قوة ينشأ هذا الحس الذي يعرف

الاتجاه بحيث لايخطىء أبداً ؟ وأي جهاز ينتج هذه الأمواج وبأي مقياس يقيسها ؟

لقد قام العلماء بتجارب متنوعة لمعرفة حقيقة العوامل المدركة للاتجاه التي زودت بها الطيور ، ولكنهم لم يوفقوا لتعطيلها حتى في حيوان واحد .

وتبثّ أمواج كثيرة من أطراف العالم ، وقد تؤخذ وتستلم من نقاط أخرى نحن بها جاهلون ، وما دمنا لا نعرف شيئاً عن ماهية الطاقة والنور والأمواج فكيف نجيز لأنفسنا إنكار الوحي الناشىء من ارتفاع الإنسان والرؤية الواضحة والعلاقة النفسية التي تتمتّع بها الشخصيات الإلهية ؟ .

فإذا لم تتوفر لنا مثل هذه العلاقة أيصلح هذا دليلاً على أنها غير ممكنة أيضاً للآخرين ؟ .

فلا يوجد أي دليل علمي على نفي كون الوحي ممكناً أما عدم قدرة العلم اليوم على معرفة منابع الوحي فهو لا يستلزم أن نعتبر حقيقة الوحي ظاهرة غير علمية .

إذا كنا لا نستطيع معرفة الإحساسات الخاصة والإدراكات المحيرة التي تهدي الحيوانات في حياتها الغريبة ، ولا نستطيع تفسيرها بطرقنا العلمية ، ولا معرفة حقيقة جهاز الإرسال السري الذي يجعل بعض الطيور قادراً على الارتباط من بعد بجنسها المخالف ، فكيف نصرّ على حلّ مسألة الوحي ، تلك العلاقة الخاصّة لإنسان رفيع بمبدأ الوجود ، وذلك بمجموعة من العلوم التجريبية ؟! .

وإذا كانت ظاهرة الوحي خارجة عن نطاق الحس والتجربة ، وكان العلم البشري عاجزاً لحد الآن عن توضيح مثل هذه الواقعيات ، فلماذا يدفعنا عجز العلم في هذا المضمار نحو الشك والترديد ؟! .

يقول العالم الفرنسي « دي لامنه » :

« ما أكثر حماقة ذلك الشخص الذي ينكر المبدأ ، والـذي يقول : ما دمت لا أفهم حقيقته فهو غير موجود ، إنه لو استطاع أن يعـرّف لي حبة من الرمل لوضعت الله تحت تصرفه » .

إن الوحي معرفة وإدراك خـاص يظهر في أفراد نادرين ، وكيفيـة هذه المعـرفة واضحـة لهؤلاء الأفراد ، أمـا لماذا لا يتيسـر للآخـرين معرفـة هذا الإدراك الخاص ، فذلك يعود إلى أن هؤلاء لا يجدون في أنفسهم مثل هذه المعـرفة الـراقية ، ولكنـه بالبحث والـدراسة لآثـار هؤلاء وخـواصهـم يمكن الوصول إلى صحة أو عدم صحة كلام المدّعين لمثل هذه المعرفة ، وهل هم في الـواقـع مـزودون بهـذا المنبـع العـظيم للمعـارف وهـذه الخصـائص الاستثنائية أم لا ؟ .

وقـد استعملت كلمة الوحي كثيراً في القرآن ، وتشيـر الموارد المختلفة لاستعمالها أن للوحي مراحل مختلفة، ومراتبه متناسبة مع تكامل الموجودات؛ وأرفـع مرحلة للوحي يصلح الإنسان لاكتسابهـا من عالم الغيب ، هي تلك المـرحلة التي يتمتع بهـا من اصطفـاهم الله واختـارهم على أسـاس حاجـة الإنسان إلى الهداية الإلهية .

إن جميع الظواهر: سواء منها ما كان في عالم النباتات، التي تخرج من الأرض الباردة ومـا كان في سائر الكرات والمجـرّات والقمـر والشمـس التي تنفعنا وتساعدنا بحرارتها وضوئها ودورانها كلها تؤدّي واجباتها وتنفع الإنسان بفضل ما يوحى إليها .

إن القوانين والنظام المسيطر على كل أرجاء الوجود ، والذي على أساسه يتحرّك كل شيء ويعمل ويتجه يبين هذه الحقيقة، وهي أن قانون الوحي قد ترك أثره على كل أرجاء الكون ، إذن لا ينفصل هذا العالم لحظة واحدة عن ألطاف الطبيعة والقوانين الإلهية .

فمن خـلال هذه الـرؤية أيّ ظـاهرة يمكن عـدها خـارجـة عن نـطاق

الوحي ؟ و هل التبعية لما يتضمنه نظام الوجود هي لون من التعبد اللامنطقي واللاعلمي ؟ .

وكما أن الله سبحانه قد أمن للرضيع ما يحتاج لحظة بلحظة، وادّخر له الغذاء الكامل المناسب ـ أي اللبن ـ في مخزن الثدي، فعندما يخطو الوليد خطوته الأولى نحو هذا العالم فإنه يجد غذاءه معدّاً، فما المانع من أن يعدّ الجهاز الإلهي من قبل الغذاء الذي يمنح الحياة للناس والمجتمع المتحوّل، ويوصل للبشرية وللأجيال التي سوف تأتي الغذاء اللازم والمناسب لها ؟ .

إذن إذا أخذنا بعين الاعتبار قبول الوجود بأجمعه للوحي، وأن يد الله وإرادته هي المؤثّرة في تدبير القمر والشمس وتعاقب الليل والنهار، فإن الوحي للأنبياء يحتل مكانه في هذا التيار العام ويتبع نفس هذا القانون الكلي الشامل، ولكنه بميزات تختص به، وفي نفس الوقت فإنه لا يسلب من الإنسان الذي يعيش في عالم الإمكانات دوره الذي يمثل فيه موجوداً حراً مستقلاً مختاراً، وسوف لن تنقص من قيمته تلك المساعدات التي تقدمها الطبيعة بلا عوض .

أما لماذا لا تصبح أرواح جميع الناس مهبطاً للوحي، ولا يستطيع أي إنسان الارتباط المباشر بعالم الملكوت، ولا يتمكن من استلهام النظام السماوي من الله بلا وساطة ؟ فجوابه : إن نوع الإنسان معرض بشدة لنفوذ وضغط الرغبات الغريزية والقيود والعوامل المادّية، وهذا مانع يحرم الإنسان من الشروط الضرورية اللازم توفرها فيه لكي يتم الارتباط بينه وبين عالم ما وراء المادة .

كما أننا لا نستطيع بدون وساطة شيء أن نسمع الأمواج المختلفة التي تبث من أجهزة الإرسال في العالم . ونحن لا تتوفر لنا إمكانية الاستفادة من الأمواج المبعثرة في الجو ما لم يكن لدينا جهاز فيه سنخية ذات جانبين، أي أنه من ناحية يستقبل الأمواج المبثوثة في الفضاء بنفس الصورة التي تبث بها، ثم يرسلها بشكل تصل فيه إلى مسامعنا .

ومن هنا نشعر بحاجة البشر الماسة إلى أفراد من الناس ممتازين يتمتعون بخاصية الثنائية ، فمن ناحية يرتبطون بالجوانب البشرية والمادّية ، ومن ناحية أخرى فإنهم يستطيعون الارتباط بعالمين في زمان واحد بسبب ما يتميزون به من ميزات معنوية وروحية راقية ، وهؤلاء الأفراد هم الأنبياء الذين اختارهم الله لتمتعهم بالخصائص السابقة الذكر ، ولكونهم أناساً متكاملين لأخذ رسالة الحق الصانعة للإنسان والثقافة الإلهية الرفيعة من مبدأ الوجود ثم إبلاغها للعالمين .

وعلاوة على هذا فإن موضوع القيادة أمر جدّي تماماً ؛ فكما أن المجتمع محتاج إلى القانون فهو أشد حاجة إلى القائد والأسوة ، والمجتمع المحروم من القائد لا بد أن يقع في لجج الاضطراب والهرج والمرج ، وإذا أحسسنا بضرورة القيادة فمن أليق من الأنبياء لتحمل مسؤولية قيادة المجتمع والحراسة لقانونه والإشراف على تنفيذ مقرراته ؟ .

أليست الشخصيات التي لا شك في طهارتها وفضيلتها ومعنوياتها الفياضة والبعيدة عن الرغبات الشخصية ، أنسب من غيرها وأليق لاستلام منصب قيادة الناس وإدارة شؤونهم ؟ .

إن الأنبياء وحدهم ـ إذا أخذنا بعين الاعتبار خصائص القيادة ـ هم الذين يستطيعون تلبية حاجة البشر المزدوجة ، أي استلام القوانين من عالم الملكوت والتوسط في الفيض بين الخالق والمخلوق ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى تحمل مسؤولية الحكم وقيادة المجتمع وحراسة القوانين .

ولا بد من الالتفات إلى هذه الملاحظة وهي أن مراحل نضج الإنسان تتحقق خلال مراحل التأريخ المختلفة ، وقد سايرت خصوصيات وشكل ومحتوى الوحي نضج الإنسان التدريجي ، ولهذا فإن الوحي يتفاوت حسب النمو الثقافي والاجتماعي للإنسان ، وقد كانت نشاطات الوحي بشكل

تكاملي ، وقـد رتّب مرحلة بمرحلة تماماً مثل الخلقة التدريجية لنظام الوجود التي نظمت على مراحل .



صمود الأنبياء في إبلاغ الدعوة

من الذي يستطيع إنكار صدق الأنبياء ، والإيمان العظيم المتغلغل في أعماق وجودهم ، وجهودهم الخلاقّة المنتجة في إبلاغ رسالتهم وتعاليمهم، أو ينظر بعين الاستخفاف إلى نضالهم العسير الذي لا يقبل المساومة ضد الظالمين والفاسدين في عصورهم ؟ .

إن نفي الأنبياء وحسن نيّتهم يؤدي إلى بقاء مسألة تقدّم دينهم ، وانتشار تعاليمهم التي احتلت قلوب الأمم وأرواحها من دون تفسير .

فالحسم المقصور على الأنبياء في إبلاغ دعوتهم ودفاعهم المستميت عنها ، وإحساسهم الحاد بضرورتها كان قد وصل إلى حد حيث إذا قارناه إلى آراء العلماء في كل أرجاء العالم ، لوجدناه متميزاً عنها ، وذلك لأن الشخصيات العلمية عموماً عندما تريد عرض آرائها فإنها لا تغض النظر عن احتمال نقضها ولو كانت مبنية على أرقى المعلومات العلمية ، ولما كان التوقف والركود مرفوضاً في طريق التكامل فإن الباب سيبقى مفتوحاً للتحقيق الأعمق والدراسة العلمية الأوسع في جميع الأبعاد ، لكي تؤدي الجهود المتواصلة والحركة المستمرة إلى إصلاح الآراء والنظريات العلمية أوإكمال النقص فيها .

أما أسلوب الأنبياء فلم يكن بهذه الصورة ؛ فإنهم كانـوا يؤمنون بعمق فيما يقولون ، ولا يتزلزلون ولا يترددون أبداً في تطبيق رسالتهم والعمل على تقدمها ، ولم يتأخروا خطوة واحدة في نشـر هذه الـرسالـة التي أمدّهم بهـا الوحي ، بل كانوا دائماً صامدين على مواصلتهـا ، ويخاطـرون بحياتهم في سبيل إحداث الحركات والتغييرات الصانعة للتأريخ ، وإيجاد أمواج الثقافـة الإلهية التي تصوغ الإنسان الرفيع .

ولا شك أن السير في الخط المنحرف يبعث على الخوف ، والاتّجاه بخلاف الحقيقة يوجد الاضطراب ، ولم يسجل التأريخ إطلاقاً نموذجاً واحداً يبيّن فيه أن حاملي الرسالة الإلهية قد أصيبوا بالخوف والاضطراب في إبلاغ دعوتهم .

وهـذه الميزة الواضحة في الأنبياء تبين لنا هذه الحقيقة التي لا بـد لنا من استيعابها ، وهـي أنه لماذا كان الأنبياء في أحاديثهم و خطاباتهم صريحين للغاية ، وهم يبلغون دعوتهم بلا مقدمات وبنهاية اطمئنان النفس ، ويبشرون الإنسانية بالنجاة لو أنها اقتفت أثرهم واتبعت تعاليمهم ؟ .

أليس هذا دليلاً على أن لتعاليمهم جذوراً في أعماق حقائق الوجود ، وارتباطاً بالمنبع الأصيل للعلم والمعرفة ؟ .

وبغـض النظر عن هذا فإن العلماء كثيراً ما يتورطون في الخطأ ، فما أكثر ما لاحظنا محققاً واحداً قد أظهر في عصره وخـلال بحوثه آراء متناقضة في موضوع بعينه ، وبالتالي فإننا لا نستطيع أن نجد عالماً قـد برئت حيـاته العلمية من أي خطأ و اشتباه .

يقـول أنشتاين :

« لا نجد في عالم اليـوم إلا قليلاً جـداً من العلماء ـ مـع الأخذ بعين الاعتبار الأخطاء الماضية ـ ممن يجـد نفسه مؤهـلاً للتحدث بمـواضيع على أساس أنها الحقائق النهائية ، وهـذا بعكس أصحاب الرأي والنظـر من قبيل

نيوتن، ممن يذعن بأنه من الممكن أن يصبح ما هو واضح ومسلم اليوم مبهماً ومشكوكاً لدى الأجيال القادمة ، وقد ينظر من يعقبنا بنفس النظرة التي ننظر بها نحن إلى أعمال أسلافنا »(١) .

وكما أن جهاز الخلقة لا يقطع طريقاً خاطئاً في هداية الإنسان إلى حاجاته المادية ، فكذا هدايته إلى مقصده النهائي ؛ لأن الوحي النابع من صميم قوانين الوجود الهادفة يهديه إلى مسير لا يقبل الخطأ ، فلا توجد في تأريخ الأنبياء سابقة تشير إلى أنهم قد تراجعوا عن برنامج إلهي سبق لهم أن أعلنوه، أو أنهم اعترفوا بخطأ المنهج السابق فألغوه و أحلوا محله منهجاً جديداً ، كما نشاهد حدوث هذا الأمر بكثرة في أفكار العلماء والمفكّرين في عصورنا ، حيث يغيّرون آراءهم ويجدّدون أساليبهم تبعاً لاتساع أفق تفكيرهم العلمي .

وعادة يظفر علماؤنا بكشف الحقائق خطوة فخطوة ، ولا بدّ لهم من اجتياز دورات مختلفة علمية وتجريبية ، فالعالم عندما يبدأ عمله لكشف المجهول يحتاج إلى زمان طويل منذ المرحلة الأولى لعلمه وحتى وصوله إلى المرحلة النهائية منه .

أما عندما ننظر إلى حياة الأنبياء من هذه الزاوية نجد أنهم لا يحتاجون إلى أي مقدمة للظفر بالحقائق، ولا ينفتح أمامهم باب الترديد والشك، ولا يسلكون طريقاً متعرجاً للوصول إلى هدفهم ، وإنما هم يستلهمون جميع الحقائق وفي كل الأبعاد من مبدأ الوجود ويعلنونها مرة واحدة .

ومن ناحية أخرى فإن معرفة الأصول الأساسية لتعاليم الأنبياء وما يلاحظ فيها من تنوع وشمول في جميع المجالات ، لا بدراسة سطحية وذهنية، ولا بنظرة ضيقة وفي قوالب محدودة ، وإنما بتحليل دقيق ودراسة علمية متفحصة ستقودنا يقيناً إلى الإحساس العميق بأن هذا الدين هو

---

(١) العالم و أنشتاين : ص ١٣٠ .

المذهب الكامل والعقيدة المحررة .

ولإثبات هذه الحقيقة، فعندما نطرح للبحث البناء التحتي المحكم الجذور وأصول برامج الأديان ، نجد أن الآفاق الرفيعة لا تجانس ولاتشبه أقوال العلماء وخططهم في تلك العصور ، وإذا أخذنا بعين الاعتبار الظروف اللامساعدة لبيئاتهم ، وانحطاط أفكار المجتمعات التي تربى فيها الأنبياء ، لتأكدنا أنه من غير الممكن أن تكون هذه الأسس المحكمة والمحتوى الغني الرفيع للأديان نابعاً من فكر إنسان محدود ضعيف .

وذلك لأنه لم يشاهد في أي عصر نظير تلك الأحاديث المليئة بالحب والوعي، والمتعلقة بجميع الشؤون الفردية والاجتماعية، وجميع مراحل الفرد والمجتمع البشري ، وهي تتميز بانعكاسات عميقة خارجية وعينية لم يشاهد نظيرها لدى رجال العلم والفكر الذين ساهموا في إحداث التطورات العامة للمجتمعات واشتركوا في حركة التاريخ البشري ، وقد كانت تعاليم الأنبياء أغنى وأعلى أمواج البحر الثقافي في عصورهم ، وهي تتمتّع بخصائص ممتازة .

واختيار طريق الأنبياء لا يعني البقاء في حالة ذهنية وعقائدية لا تتعدى حدود الاعتقاد الصرف ، وإنما الواقع أن الناس يختارون ـ بقبولهم هذا الطريق ـ مسير حياتهم ونظام معيشتهم الخاص ، ويطبعون بطابعة سلوكهم الخارجي العيني ، وذلك لأن للرؤية الكونية الإلهية ـ التي تمثل البناء التحتي الفكري ـ أبنية فوقية خاصة تعطي السلوك الإنساني والهيكل الاجتماعي شكلهما المعين ولونهما المحدد .

أيمكن نسبة مثل هذه المنابع البكر والتعاليم الشاملة الجامعة في السلوك الإنساني التكاملي إلى أمور أخرى غير الوحي الإلهي ؟ إنها تعليمات تفوح منها رائحة الرسالة الإلهية الحقيقية .

وشيء آخر لا بد من ذكره، وهو أن دراسة كيفية تحقيقات الباحثين

توضح لنا هذه المسألة : وهي أن محاولات وجهود رجال العلم والمعرفة منفصلة عن بعضها ، وكل واحد منهم يسلك طريقه الخاص في اكتشاف المسائل العلمية ، ولا تعنيه شيئاً دراسات المحققين الآخرين ، وإذا صادف أحياناً اتفاق آرائهم خلال البحوث والتجارب فإن ذلك يجري بسبب العلاقات المتبادلة بين المسائل العلمية ، دون أن يكون هذا الاتفاق مقصوداً للباحثين أنفسهم .

و لكنه بالنسبة للأنبياء فإن الموضوع يكون بشكل آخر ، فإن كل نبي لا يكتفي بعدم تكذيب الكتب السابقة عليه و إنما هو يقوم بتأييد الأنبياء الآخرين ، ويبدي إكباره وإعجابه بتلك الطلائع العظيمة ، ويثبت أن لجميع الأديان الإلهية منبعاً واحداً فحسب .

يقول القرآن الكريم مخاطباً رسول الإسلام (صلى الله عليه وآله وسلم) :

﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحقِّ مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ﴾[1].

وينقل الإنجيل عن النبي عيسى (عليه السلام) قوله :

« لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمّل »[1] .

إن هذه الحقائق دليل ناطق على وحدة رسالة جميع الأنبياء ، وعلى أن تعاليمهم تتصل باللانهاية ، وهي ليست منقطعة عن المشيئة الإلهية البالغة ، ولا خارجة عن نطاق منبع الوحي الإلهي ، ولما كان إيمان الأنبياء الواعي مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بمبدأ الوجود أصبح الحسم والاستقلال وعدم التزلزل من صفاتهم الخاصة .

---

(١) سورة المائدة : الآية ٤٨ .

(١) إنجيل متى الإصحاح الخامس : الآية ١٧ .

أبعاد عصمة الأنبياء

إن الظفر بمنصب النبوة الحساس وقيادة المجتمع ذات الأهمية الاستثنائية يستلزم التمتع بمجموعة من الميزات الراقية القيمة ، وبدون هذه الميزات لا يصلح الإنسان إطلاقاً ليحتل كرسي القيادة .

ومن جملة هذه الصفات غير العادية وجود قوة باطنية رادعة ناشئة من كمال إيمان الأنبياء وشدة تقواهم تعصمهم من الفساد الأخلاقي والذنوب ، وحتى من إرادة ذلك والتفكير فيه، بحيث تكون حياتهم بأجمعها قبل أو بعد الرسالة مبرّأة من كل وصمة ذنب خالية من كل نقطة سوداء .

ولا شك أن مركز الإنسان الاجتماعي كلما كان أكثر حساسية أصبح محتاجاً بنفس تلك النسبة إلى اعتماد اجتماعي أعمق وإلى اطمئنان أوسع ، فهل نجد مسؤولية أخطر من منصب زعامة المجتمع ، مضافاً إلى أنها زعامة تمتد إلى جميع شؤون الحياة المادية والمعنوية ؟ .

إذن لما كان الهدف الأرفع من بعثة أنبياء الله في ساحة الوجود هو هداية الناس وتربيتهم في ظل مجموعة من التعاليم والأوامر السماوية ، ولما كان الناس ـ بحكم واجبهم الديني ـ ملزمين بتطبيق جميع مقررات الدين التي جاء بها النبي معلناً أنها قوانين الله المستقاة من الوحي ، فمن المؤكّد عندئذٍ أن يندفع الناس من أعماق قلوبهم لتطبيقها وإعطائها القيمة اللائقة بها ، ولكن

هذا مشروط بأن يظفروا باليقين بأن هذه التعـاليم صادرة من مبـدأ الوجـود وخالق العالم .

فأي إنسان يستطيع أن ينال اعتماد الناس إلى هذا الحد بحيث يطبق الناس أوامره من أعماق قلوبهم وعـن طيب خاطر دون مناقشة أو اعتراض ؟ .

أهنـاك من يستحق مثل هـذا الاعتماد غير من كان مسلحاً بالعصمـة وبالفضائل في أوسع أبعادها ؟ .

ولـو لم يطمئن الناس مائة بالمـائة بـالمبعوثين من قبـل الله لم يتحقق الهدف من رسالتهم الذي هو تكامل الإنسانية ، لأنه في حالـة عدم عصمـة الأنبياء في إبلاغ أوامر الله لا نأمن من انحراف المجتمع عن اتّجاه التكامل .

فلو لم يتم حفظ الأنبيـاء من التلوث بجراثيم الـذنوب ومـن إصـابتهم بالأمراض المعنوية ، ولـو لم يبتعدوا عن الدناءات النفسية تمامـاً لكان من المحتمل دائماً أن يزلّـوا أمام مظاهر العالم المـادي الخداعـة وأن يتحـرّفـوا تحت تأثير الجاه والمنصب، أو من أجل الأهداف الشخصية ، وحتـى لو كانوا مزودين بصفات إنسانية عالية ، ومـن المؤكد أن وجود مثل هذا هذا الاحتمال يؤدي إلى وقوع أتباعهم في الشك والترديد بشأن تطبيق أوامر قادتهم.

هل يمكن نفي احتمال الكـذب والخيانـة والتحـدث خـلاف الواقـع بشكل مطلق عمن يدعي النبوة والقيـادة الشعبية، ويلزم الناس باتّباعه من أجل أن يوصلهم إلى قمة التكامل في جميع أبعاد الحياة، فيما إذا كانت له سوابق في الكذب والانحراف والتوّرط في الذنوب ؟ .

ثم هل من الممكن اعتباره دليلاً ومثـالاً للفضيلة و النقاء ؟ .

لا شك أن العقل والمنـطق يجيبان بالنفي ، لأنه لا يستـطيع أحـد أن يقبل بإطمئنان حديث شخص بعنوان أنه وحي سماوي وقوانين إلهية إذا كانت في حياته صفحـات غير مضيئـة ، وكان ـ قبل إدّعائه النبـوّة ـ غير مبـرّأ من الذنوب وداعيةً للفساد وملوّثاً بالسيئات الأخلاقية ، ولو أنه تغيّر معنـوياً بعـد

ذلك وثار على وضعه السابق . أيستطيع إنسان أن يمنع نفسه من الشك في سماويّة دعوته وإلهيّة رسالته ، لا سيما في المسائل التي لا دخل للتجربة في إثباتها ؟ .

إذن أول شرط لا بد منه لتجلي الوحي هو الإخلاص الكامل والنظافة الباطنية المطلقة للأنبياء ، ولا يتحقق حب الناس الملتهب للأنبياء و تعلقهم المفرط بهم النابع من أعماق أنفسهم إلاّ في ظل الإيمان بعصمة الأنبياء وكمالهم والاعتقاد بالله وأوليائه والقيم المطلقة .

إن تأثير السلوك وكيفية العمل أوسع بكثير من الحديث والكلام ، ولأعمال وصفات المربّي دور مهم وأساس في تربية أولئك الذين هم تحت نفوذه ، وذلك لأنه في التربية تتغلغل الناحية العملية إلى أعماق الشخصية ، بحيث لا يمكن مقارنة أثرها الحاسم بأثر الكلام والحديث ، أما الشخص الذي يسند إليه المنصب المعنوي الرفيع والمقام الاجتماعي المهم ، إذا كان غارقاً في السيئات ملوثاً بالذنوب فإن ذلك سيكون منبع الكوارث والفواجع للبشرية .

وهل يستطيع من كان محروماً من الوعي الكامل وفارغاً من التقوى الخلاقة الفعالة أن يوجد جواً مناسباً لنمو الفضائل ، وأن يكون له نشاط مستمر في إقامة الثورة وإيجاد التحول الداخلي في الناس ؟ .

وهل يصلح ليعهد إليه تربية النفوس وقيادة الناس الأخلاقية ؟ .

وهل يستطيع أن يوسع للفضيلة والنقاء مكاناً في عقول الناس وأفكارهم ؟ .

إذن ، فارتكاب ذنب واحد من قبل الأنبياء يؤدّي إلى عقم تربية الناس ودفعهم للتكامل ، الذي هو هدف رسالتهم .

و كيف يمكن للملوث بالذنوب أن يطهّر الناس منها ؟ .

و من لا يكون كاملاً من النواحي الروحية والأخلاقيـة لا يمكن أن ينجح في تربية الإنسان الكامل .

إذن يجب علينا أن لا نكتفي بدراسة أعمالهم وسلوكهـم أيام النبـوّة ، ولا نقتصر على البحث في خصائصهم الروحية والأخلاقية خلال هذه الفترة المحدودة وبشكل منفصل عن سائر أيام عمرهم ، بل لا بدّ من توسيع مدى الدراسة ، لأنه لا يغنينا إلاّ أن يتّجه الأنبياء إلى الطهارة منذ بدء بعثتهم .

إنه من الضروري أن تكون للأنبياء رابطة قوّية ودائمة بمبدأ الوجود، وأن يكونوا مبـرئين من الذنـوب في جميع مـراحل حيـاتهم ، ولا بـدّ أن تكـون الشخصيات الإلهية غير ملوثة إطلاقاً بالرذائـل ، وذلـك لأن السـوابق السيئة ستصبح موانع كبيرة في طريق أهداف رسالتهم السماوية، التي تتلخص في إرشاد العباد وهدايتـهم إلى الله ودعوتـهم إلى الطهارة والبعـد عن القبائح .

إن الناس لا يمكن أن تنسى الخواطر المرّة الحيّة في أذهانهم عن ذلك الشخص الذي كان إلى حد الأمس في عداد المنحرفين والفاسقين، وقد أنفق جانباً من عمره في الذنوب والمعاصـي ، و إنما هم بالتأكيد سوف يجرّون إلى ساحة البحث تفاصيل حياته الماضية، ويجلسون للتحليل والحكم عليها ، وأمّا البدء بتحوّل روحي عميق وبعث معنوي واسع فإنه لا يستطيع أن يغسل من الأذهان صور تلك المفاسد الماضية والانحرافات السابقة .

لا ينبغي لنا أن نمر بشكل سطحي سريع خلال دراستنا لتأريخ الأنبياء على معرفة الأبعاد المختلفة لحياتهم قبل وصولهم إلى منصب النبوة ، بل لا بد لكل باحث واع أن يفتش عن جواب واقعي لهذا السؤال :

لماذا لم يتهم الأعداء الحاقدون المتعنـدون الأنبياء بفسـاد الأخـلاق وتلوّث السيرة مع أنهم لم يتورعوا عن أي مؤامرة للحيلولة دون انتشار الدعوة الإلهية ، ولم يترددوا في بذل كل الجهود اللاإنسانية في سبيـل ذلك ، حتى إنهم اتهموهم بالجنون و السحر ؟ .

والجواب هو أن شخصية الأنبياء كانت معروفة ومشرقة وباعثة على الفخر للناس في عصورهم ، بحيث تدفع هذه الملصّقات السخيفة ـ لو أنهم قاموا بها ـ المجتمع لئلا يصدق الاتهامات الأخرى التي توجه إليهم ، وحينئذٍ يخسر الأعداء كل جهودهم وتنهزم مقاومتهم .

ولو أن نقطة سوداء واحدة قد التصقت بشخصية الرسل قبل بعثتهم لاستغلت بشكل حربة حادة يطعنون بها قيمتهم ومركزهم الاجتماعي ، ومن البديهي أن وضع الإصبع على نقاط الضعف الماضية،والتذكير بما حدث سابقاً من انحرافات والتواءات هو أقوى حربة يستطاع بها تحطيم شخصية الأنبياء،وزعزعة عقيدة الناس بهم واعتمادهم عليهم،وهذا بنفسه شاهد حي وناطق على أن أنبياءالله يتمتعون بالعصمة والنظافة التامة ، وأنهم يتصفون بالقداسة حتى قبل بعثتهم ، وأنهم قد نقلوها من مرحلة الفكر والوعي إلى مرحلة العمل و التطبيق .

وإذا التفتنا إلى هذه الملاحظة وهي أن البيئة التي عاش فيها الأنبياء كانت حاشدة بظلمات المفاسد ، ولم تكن بيئة تساعد على أن تنمو في جوّها التقوى والفضيلة ، ولا تمنح الجذور والبناء التحتي للحقائق الفطرية حركة ولا طاقة ، عرفنا أن تلك الأرضية الأساسية تستتبع جوّاً غير مساعد جداً بحيث يدفعهم ـ تبعاً للظروف الاجتماعية ـ ليتلونوا بلون الجو الملوّث .

ولكنه على الرغم من هذا الوضع نجد أن الوعي والفضيلة والشرف الإنساني يولد في وسط أكثر المجتمعات انحطاطاً ، وكأنه جوهرة تتلألأ على مفرق البشرية ، وهذا بنفسه دليل واضح يبين لنا أبعاد شخصية الأنبياء وماهية عصمتهم الأخلاقية الكاملة .

و يستفاد من القرآن الكريم بوضوح أن الوصول إلى المنصب الرفيع للنبوة والإمامة لا يتم إلا في ظل البراءة من جميع ألوان الذنوب والسيئات الروحية والمعنوية .

يذكر القران الكريم أن النبي إبراهيم (عليه السلام) قد طلب من الله (عز وجل) أن يختار من ذريته أفرداً لمنصب الإمامة :

﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي ؟ ﴾ .

و لكن القرآن يجيب بصراحة ويعتبر الخلو من الظلم شرطاً مؤهلاً للإمامة و القيادة ، فيقول :

﴿قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾ (١) .

وعلى هذا فإن من الشروط اللازمة لأنبياء الله - من وجهة نظر القرآن الكريم - اتصافهم بالعصمة وعدم التلوّث بالظلم ، الذي يعتبر لوناً من التعدي على ساحة القدس الإلهية .

أما موضوع نسبة الذنب لبعض الأنبياء الواردة في القرآن الكريم فإننا ندرك حقيقته إذا عرفنا نوع الذنب، لأن للذنوب درجات متفاوتة ومراتب متعددة .

فهناك نوع من الذنوب واقعي ومطلق ، وهو الناشىء من عصيان الأوامر الإلهية ، الذي يستلزم العقوبة والمجازاة على ذلك ، ومن المؤكد أن أنبياء الله مصونون من أمثال هذه المعاصي .

ويوجد لون آخر من الذنوب وهو نسبي ، أي أن الإنسان عندما يقوم به فهو لا يستحق عقوبة عليه حسب القوانين السماوية ، ولكنّ مثل هذه الأمور تقلل من ارتفاع الأنبياء إلى القمة ، ولا تنسجم مع نظرتهم الرفيعة وثقافتهم الواسعة وعلوّ هممهم .

ونحن نلاحظ في الأمور الاجتماعية والدينية أن التوقعات لا تكون

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٢٤ .

على مستوى واحد من الشخصيات المختلفة ، وما ينتظر من الشخص يتوقف على مدى قدرته ومعلوماته ومركزه خصوصياته .

فلو إن إنساناً أمياً، أورد خطابة جذابة حلوة لاستحسن الناس منه ذلك، حتى و إن كانت المحتويات لا أهمية لها وكان المضمون نابعاً من فكر فرد ضحل، ولكنه لو أورد عالم متضلّع مثل هذه الخطابة لغدا ذلك قبيحاً منه ولدفع الناس للاعتراض عليه،لأنهم ينتظرون منه كلاماً يحتل العقول ويوجد طوفاناً من الأمواج .

وبهذه الرؤية فإن شخصية الأنبياء العظيمة تقاس بسلوكهم،فهم بما يملكون من رصيد عظيم في العلم والإيمان،وبما أنهم يعيشون في صميم الواقع ويتّصلون بأغنى منبع للعلم والمعرفة، فإن أقل غفلة منهم عن الله، مما يعد بالنسبة لغيرهم غير باعث على التوبيخ، يعتبر بالنسبة إليهم زلة واضحة تثير الغبار على وجوههم النبوية المشرقة فتنطبع بطابع الذنب ، وهذا مما لا يناسب شخصياتهم الرفيعة ومكانتهم العالية ، وبالإضافة إلى هذا فإن الظفر بمنصب قيادة الناس حسّاس جداً، بحيث إذا صدر خطأ من القائد أو زلّت قدمه فإنه يعرض شرف أمته للخطر،وتبقى وصمة العار منطبعة على ذلك المجتمع .

ويطرح أمامنا ها هنا إشكال ، يقول : إذا كانت العصمة موهبة إلهية تستلزم صيانة الأنبياء من القبائح والذنوب فهي إذن غير اختيارية،وتتمّ بلا شعور ، ولا يعد هذا فضيلة لهم ولا يرفع من منزلتهم ، وذلك لأن جهازهم الفكري حينئذٍ قد خلق بشكل يمتنع عليه الذنب طبيعياً و بأمر من الله .

وهذا الإشكال وارد لو كانت العصمة أمراً غير اختياري،وكان صدور الذنب منهم مستحيلاً، وكانوا مجبورين على طاعة أوامر الله وعلى مجموعة من فضائل النفس ونقائها،ولكن موضوعنا الذي ندرسه ليس من هذا القبيل؛

فـالعصمة مبنيـة تماماً على الإيمان والـوعي ، وهي تتجلّى عملياً ولا تنفي الإرادة ولا الاختيار إطلاقاً .

إن جميع أعمال الزعماء الإلهيين نابعة من حـرية إرادتهم وشعورهـم ، تماماً مثـل الناس الآخـرين ، فما الـذي يحملنا على أن نقـول بقوة جبـرية خارجية ترفع الإنسان إلى حد العصمة ؟ .

وإذا كانـت رؤية الإنسان بحيث تجعله مؤهلاً لإسنـاد هذه المسؤوليـة إليه أيوجد ذلك إشكالاً ؟ .

فالأنبياء بنظرتهم العميقة وفكـرهـم الصافي يدركون بشكل رفيع جـلال وقدرة ذلك المطلق، المنبثة في كل أرجاء الوجود، وفي هذه المرتبة العالية تفيض قلوبهم وعقولهم وأنفسـهم بحب الله ، فكيف نصدق أن هذه العناصر الواعية الممتازة تتورط في الذنب أو تعصي أوامر الله محبوبها العظيم ؟ ! .

ومن ناحية أخرى ، فإنهم على علم تام بنتائج الذنب المخيفة ، وبهذه المعـرفة الـدقيقة فـإنهم لا يـديـرون في خـواطـرهم حتى تصـوّر الـذنـوب والسيّئات .

صحيح أن كل لون من العلم بمفاسد الذنوب لا ينتج العصمة ، ولكن عصمـة رسل الله نـاشئة من علم قـوي كاشف عن الواقع، بحيث يشـاهدون بقلوبهم عـائد الـذنب وآثـاره بشكـل واضـح يجعـل صـدور الـذنب منهم مستحيلاً .

فالطبيب مثلاً لا يستعمل إناءً ملوثاً بالمكروبات لأنه يعـلم بالعواقب الخطيرة لهذا العمل .

وكذا المتسلقون للجبال فإنهم ينفقون أعمارهم في هذا التسلّق، ولكن عقلهم ووعيهم لا يسمـح لهم بإسقـاط أنفسهم عمداً من فـوق الجبـل لكي يقدموا عليه و ينفذوه عمليّـاً .

أتكون عصمة الطبيب ومتسلق الجبال من تلك الأعمال اللامعقولة عملاً بدون إرادة ؟ وتركهم للشيء الذي يقضي عليهم عملاً غير اختياري ؟ لا شك أن أولهما قادر على الأكل وعدمه، وثانيهما قادر على السقوط وعدمه ، ولكن تجسّم النتيجة وعاقبة العمل أمام أعينهما أوصلت احتمال الإقدام عليه إلى مرحلة الصفر .

ومن هنا نستطيع إدراك علاقة العلم ـ الذي يمثل النواة للمعرفة الواعية ـ بالعمل الذي هو التجلي الخارجي لها ، ونعرف أيضاً كيف تتحول الأفكار الذهنية الدقيقة العميقة إلى واقع عيني ، وما هو موقع الإنسان بين هذه التأثيرات والتأثّرات ، وما هو موقفه من الأفعال والانفعالات الذهنية والخارجية ؟ .

وفي الأنبياء تكون العصمة والرؤية العميقة لجميع تأثيرات الذنب والغضب والعقوبة الإلهية واضحة ، إلى حدّ أن إلغاء الفواصل الزمانية والمكانية لا يترك أثراً في إيمانهم الحاسم العميق .

وإرادتهم الفولاذية أيضاً التي يحصلون عليها نتيجة لجهودهم وتضحياتهم، وتوجههم الدائم إلى مبدأ الوجود، وعدم الخوف من المشاكل والمصاعب التي تملأ طريق الحق وتقف في وجه استقرار العدالة، وبذلهم كل ما لديهم من أجل الفوز برضي الحق ، إنما هيَ عامل مهم في تمتع رجال الله بالعصمة، فهم قادرون كغيرهم على القيام بالمعاصي،ولكنهم لا يستغلون هذه القدرة ، وحتى تصور الذنب فإنه لا يقتحم أفكارهم الطاهرة النظيفة .

إن هذه العصمة الشاملة هي أثر مباشر لعلمهم الدقيق بعقوبة العمل ، ومعرفتهم التامة لعظمة مقام الربوبية ، وهي تدل على معنوية رفيعة باعثة على الاعتزاز ، مسيطرة على جميع الرغبات القوية في وجودهم لكيلا يتجاوزوا الحدود المعيّنة لهم أبداً .

دع الأنبياء جانباً فلهم مكانتهم الخـاصة ، إن في كـل زمان تـوجد شخصيات طاهرة القلب تغير جذرياً محتوى الأفكار، وتناضل ضد العبودية، وتحطم أغلال الأسر، وتحرّر الفكر والعمل من سجن التبعيات، وليس لها هدف في حياتها سوى الحب للحق وطاعة أوامره والسير إليه، وهذا الحـب الملتهب ناشيء من سلامـة عقولهم وأفكـارهم، ومن قوة عقيـدتهم بأصـالة الدين ، وهو يمنحهم لوناً من الصيانة في مقابل كثير من الذنوب والرذائل .

ومـا أكثر ما يكونون غير عـالمين بنتائـج الذنب الضارة، ولكن حسّ طاعتهم لله يكون قـوياً ومتـدفقاً فـي ضمـائرهم بحيث يصبـح سداً محكمـا يمنعهم من التورط فيه ، وتصـل قوته إلى الحد الذي لا تستطيع فيه الرغبات النفسية المعجونة بالهوى كسره و تحطيمه .

ينقـل محمد بن أبي عميـر رواية عن هشـام التلميذ الممتـاز لـلإمـام الصادق (عليه السلام) نثبت نصها :

«عن محمد بن أبي عمير قال : ما سمعت ولا استفدت من هشام بن الحكم في طول صحبتي إيّاه شيئـاً أحسن من هذا الكـلام في صفة عصمـة الإمام فإني سألته يوماً عن الإمام أهو معصوم ؟ قال : نعم ، قلت لـه : فما صفة العصمة فيه وبأي شيء تعرف ؟ قال : إن جميع الذنوب لها أربعة أوجه لا خامس لها : الحرص والحسد والغضب والشهـوة ، فهذه منفيـة عنه : لا يجـوز أن يكون حـريصاً على هـذه الـدنيـا وهي تحت خـاتمـه لأنـه خـازن المسلمين فعلى ماذا يحرص ، ولا يجوز أن يكون حسوداً لأن الإنسان إنمـا يحسد من هو فوقه وليس فوقه أحد ، فكيف يحسد من هو دونه ، ولا يجوز أن يغضب لشيء من أمور الدنيا إلا أن يكون غضبه لله (عز وجـل) . فإن الله (عز وجل) قد فرض عليه إقامة الحدود ، وأن لا تأخذه في الله لومة لائم ولا رأفة في دينه حتى يقيم حدود الله (عز وجل) ، ولا يجوز أن يتبع الشهوات ويؤثر الدنيا على الآخرة ، لأن الله (عز وجل) حبّب إليه الآخرة كمـا حبّب

إلينا الدنيا ، فهل رأيت أحداً ترك وجهاً حسناً لوجه قبيح ، وطعاماً طيباً لطعام مرّ ، وثوباً ليناً لثوب خشن ، ونعمة دائمة باقية لدنيا فانية ؟ »[1] .

إذن الدافع لارتكاب الذنب هو أحد عاملين : أولهما عدم معرفة قبح العمل ، و ثانيهما كون العقل مغلوباً على أمره أمام ضغط الشهوات .

و لهذا فإنه إذا كان هناك شخص عالم بمفاسد وقبح جميع الذنوب ، وهو أيضاً مسيطر على كل رغباته و يوجهها حيث يشاء ، فمن غير الممكن أن تتلوث يداه بالذنوب .

يقول الإمام الصادق (عليه السلام) :

« إنما قدّر الله عون العباد على قدر نياتهم ، فمن صحت نيته تمّ عون الله له ، و من قصرت نيته قصر عنه العون بقدر الذي قصر »[1] .

أما موضوع عصمة الأنبياء من الاشتباه والخطأ فذلك بسبب أنهم يعيشون في صميم الواقعيات ، وعندما يكون الإنسان مواجهاً للواقعيات بشكل مباشر بفضل ما لديه من حس خاص فإن الاشتباه والخطأ لا معنى لهما بالنسبة إليه ، وذلك لأن إمكان الخطأ وارد في حالة تطبيق الصور الذهنية على الواقعيات الخارجية ، وأما إذا ارتبط الإنسان من باطنه بواقع الوجود استحال عليه الخطأ ، ولهذا فقد أصبحت أفكار النبي في هدايته ودعوته مصونة من الزلل و الخطأ .

وفي غير هذه الصورة فإننا كلما وضعنا إصبعنا على أمر من أوامره المأخوذة من الرسالة الإلهية ترددنا فيه وشككنا ، وسوف لن نجد في أنفسنا ما يلزمنا بطاعته و تنفيذه .

و بالإضافة إلى هذا في مسألة استلام الرسالة فإن جميع الأمور تحت

---

(١) أمالي الصدوق : ص ٣٧٦ .

(٢) بحار الأنوار : ج ٧٠ ص ٢١١ .

تصرف الله سبحانه ، ولا دخل لأي أحد فيها ، ونحن نعلم أنه لا سبيل لاحتمال الخطأ في علم الخالق وقدرته اللانهائية ، وحرص الله الكامل على إيصال الرسالة تامة ينفي أي أمر يؤدّي إلى حدوث الخطأ والاشتباه ، وكما أن الأوامر الإلهية تستلم بإشراف الله فكذا إبلاغ الرسالة فهو يتمتع أيضاً بهذه الميزة ، إذن من الضروري جداً توفر عصمة الأنبياء الشاملة للفكر والكلام والعمل ليقوموا بأداء واجبهم في قيادة المجتمع وهدايته ، ولن يرسل الله أبداً أنبياء خطائين لأن ذلك يحول دون تحقيق هدف الرسالة .

ومن جملة شروط النبوة والتهيؤ لاستقبال الوحي السلامة من مجموعة من العيوب الجسمية والنقائص الروحية ،فالأمراض السارية والشهرة السيئة للعائلة والأخلاق الخشنة المتهورة من العوامل التي تنفر الناس وتخلق في أنفسهم عدم الرغبة والاشمئزاز ، فهي إذن تعطل الهدف من البعثة وهو تربية وصياغة الإنسان .

ولما كانت رسالة النبي إلهية فلا بد أن لا تكون متناقضة مع الأصول اليقينية للعقل والعلم البشري ، وأما إذا كانت الدعوة متعارضة معها فإنها لا تستحق الاهتمام ولا المطالبة بالدليل والمعجزة .

ونحن نقصد من هذه الأصول الأحكام المسلمة والقوانين الثابتة للعقل والعلم ، ولا تدخل في هذا المجال الفرضيات والنظريات .

إن تعاليم الأنبياء هي النظام التشريعي المرسل من قبل الله ، أما النظام التكويني فهو القوانين والمواضيع العلمية، ومقررات هذين النظامين نابعة من مبدأ واحد؛ ولا بد أن تحتفظ بانسجامها في كل المجالات ، فمن المستحيل أن يختار الله نبياً يدعو الناس في رسالته إلى أشياء تناقض المقاييس العقلية ، لأن الله الذي خلق العقل وجعله معياراً لتمييز الحق من الباطل لا يمكن أن يصدر أمراً مخالفاً لأحكامه أبداً .

وكذا من المستحيل أن تتناقض المقررات السماوية مع العلم ، أي

مع ذلك النظام الذي جعله الله سائدا بين الأشياء .

و لكنه يجب الالتفات إلى العلم إذا عين طـريقاً للوصـول إلى هدف ما ، فإنه لا يعني أن يكون الطريق العلمي منحصراً بهـذا الفـرد ، والطـرق الأخرى كلها تغلق ولا يمكن الوصول إلى ذلك الهدف من سائر الطرق .

إذن لا بد من الاحتياط تماماً في مسألة مخالفة العلم ، و يجب الامتناع عن الأحكـام المتسرعـة في مجال انـطباق القـوانين الدينيـة على المسـائـل العلمية ، وذلك لأن العلم في عصورنا الراهنة يـواجه طـريقاً لا نهـاية لـه ، ويبقى هذا الاحتمال موجوداً باستمرار وهو أن المسائل العلمية أحيانـاً تصبح مورد الشكّ والاعتراض عندما تتسع الدراسات وتتعمّق التحقيقات .

الرسالة الخاتمية

إشراقة نبي الإسلام

لقد بشّر الأنبياء السابقون في كتبهم السماوية بخروج نبيّ الإسلام ، وذكروا لأتباعهم شيئاً من خصائص هذا النبيّ الكريم (صلى الله عليه وآله) .

وكان الانحطاط الثقافي والأخلاقي وظلمات الشرك وعبادة الأصنام ، قد خيّم على جوانب ذلك العالم المتحيّر ، ومع أن هناك أتباعاً للأديان السماوية في مختلف أجزاء العالم ولكنّه بمرور الزمان وتغيير حقيقة تلك الأديان قد فقدت قدرتها على القيادة والتحرّك ، وأرغم أفضل قسم منها وأكثره حيوية على الانحطاط والهبوط ، وفقد الأمل في إمكانيّة إعادة الروح إلى ذلك الجسد الهامد أو إجراء الدم في تلك الشرايين المتّصلة .

ولهذا فإن العلماء كانوا ينتظرون انفجاراً عميقاً وجذرياً لتنهض شخصيّة سماوية وتحمل مسؤولية الحمل الثقيل في قيادة البشرية وإرشادها ، وتنقذها من تلك الأنظمة المتخلّفة ، وتمنحها عقيدة جديدة وتقدّمية .

في مثل هذه الظروف والأوضاع ، ولد الموعود لإنقاذ البشرية « محمد » (صلى الله عليه وآله) في ليلة الجمعة السابع عشر من ربيع الأول ، قبل ثلاث وخمسين سنة من الهجرة الموافق لسنة (٥٧٠) م ، في مكّة المكّرمة أي في تلك الأرض المضطربة ، والتي تعدّ رمزاً للمجتمع

المتخلّف المريض المنمّي للجهل، والذي تلتقي عنده كل النفايات وتدفن فيه الإنسانيّة ، وأشرق نور على الحياة البشرية فأوجد هذا ـ الذي يعدّ عصارة الوجود ـ بشائر النضج في الأفكار، وولّد القوى المتحرّكة وذات العطاء الخالد في أفراد الإنسان .

ويشهد التأريخ أن ظهور هذا الوليد المبارك الذي تلألأ في حضن آمنة قد أضاء كل جنبات العالم وأسّس أعمق إيمان وأوجد أوسع القفزات العلمية والمعنوية ذات الأبعاد الواسعة في كل أرجاء العالم .

ففي ظلّ تعاليمه اختفت عبادة الأصنام ، ليحلّ التوحيد محلّها ويعبد الواحد الأحد ، وتضاءل الجهل ليحلّ محلّه العلم والمعرفة ، وانكمشت الأحقاد والعداوات والاختلافات لتقوم مقامها الأخوّة والتعاطف والفضائل الإنسانية ، وأخيراً فإنه غيّر بيئة الفساد والجهل إلى أروع صورة من ظواهر الوجود .

وكان اسم أبيه عبد الله، وهو من سلالة إسماعيل (عليه السلام) وقد توفّي قبل ولادة هذا الطفل[١] ، أمّا أمّه فقد غادرت هذا العالم إلى جوار ربّها وهو في السادسة من عمره[٢] ، فأخذ جدّه عبد المطّلب بعد وفاة أمّه على عاتقه تربية هذا الطفل الذي كان ذكرى ولده عبد الله في تلك المرحلة من الحياة ، التي تتفتّح فيها الأبعاد الفكرية والروحية للإنسان، فكان يجد في ذلك تهدئة لروحه وتسلية لخاطره ، وبقي محافظاً على هذا الوليد بكل جدارة ودقّة .

ولمّا بلغ وليدنا الثامنة من عمره ، فارقه جدّه عبد المطّلب إلى العالم الآخر فظهرت بوادر الحزن والألم على قسمات محمد (صلى الله عليه وآله) ، واحتلّ الغمّ روحه القويّة التي لم تضطرب طيلة حياته المليئة بالمخاطر .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٦٧ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٧٧ .

ولكنّ العنـايـة الإلهيّـة منحتـه القـدرة على قبـول وتحمّـل كـل هـذه المصائب ، لأنه كان من اللازم لمن سوف يصبح أباً للإنسانيّة وحاملاً لأحزان المحرومين والمعذّبين أن يتعرّف منذ الصغر على الكوارث والمحن، لتتربّى في أعماقه روح صلبة شامخة شموخ الجبال، ليتمكّن من الاضطلاع بالحمل الثقيل للرسالة الإلهية ، فالوقوف والمقاومـة في مقابـل الموانـع والمصاعب والعوامل المضادّة يتطلّب روحاً رفيعة بمقدار عظمة العالم .

ومنذ هذا الوقت تولّى تربيته عمّه أبو طـالب تلك الشخصية الكـريمة الفذّة[1] .

وقد وجد المؤرّخون في أبعاد وجوده علامات على حركـة ثريـة وروح جيّاشة ونهضة رفيعة تتناسب مع قائد سماوي كبير .

ولا يستـطيع أيّ محقق ، أو بـاحث أن يدّعي أن شخصيتـه الكريمـة خلال كل مراحل حياته، قد تعرّضت لأدنى انحراف خلقي أو روحي أو تشنّج عصبي ، ومع أن خصائص رسـول الإسلام (صلى الله عليـه وآله) أوضـح وأجلى بكثير من أولئك الذين كان لهم دور في التـأريخ البشـري ، فإنـه لم يلاحظ عليه التأريخ أدنى سفاهة أو تمرّد أو سوء خلق أو سلوك غير مناسب، أو حتى مرّة واحدة من الزلل والانحراف .

وفي هذا المعرض التأريخي يبرز الماضي العجيب ، لقائد المسلمين قبل ولادته وأثناء طفولته وشبابه؛ وآدابه وأخلاقه وأسفاره وزواجه وحربه وصلحه بصورة واضحة تماماً .

والتأريخ الصادق شاهد على أن هذه الـظلمات والأمـواج من العقائـد الفاسدة لم تترك أيّ أثر على ملامحه الإنسانية المشرقة ، فمع أنه لم يتلقّ أيّ لون من التربية والتعليم فإنه لم يرتبط بالجاهلية ولم تمتد إليه يد الرذيلة .

فقد تربّى في بيئة عقائدية مليئة بألوان الشرك وعبادة الأصنام، ويشهد

---

(١) تأريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٠ ـ ١١ .

لذلك المقاومة الشديدة للتوحيد التي لقيها من سكّان تلك المناطق ، ومع أنه قضى كل حياته بين أمّة جاهلة سيّئة ولم يغادر الجزيرة العربية إلاّ في أسفار قصيرة ، مرّة وهو طفل في أوائل العقد الثاني من عمره مرافقاً لعمّه أبي طالب ، ومرّة أخرى في منتصف العقد الثالث من حياته للتجارة بأموال خديجة . ولكنّه لم يكن هناك أيّ تناسب بين شخصيّته الرفيعة ومجتمعه الذي عاش فيه .

فقد كان يعتزّ في هذا الجوّ الملوّث والمفسد بأسمى خصائصه : وهي الصدق والأمانة والعدالة الخالصة ، والروح ذات الأبعاد المختلفة ، والعداوة لكل الحقارات التي تعاني منها البشرية .

وتجلّت في هذه الشخصية العظيمة ميزات متعددة من الكلام العميق الثري ، والأحكام العادلة ورجاحة العقل والمعرفة والطينة الطاهرة والفكر الخلاّق ، وبرزت الحياة الإنسانيّة بصورة عجيبة في كل مراحل حياته ، وفي كل الساحات المختلفة والبيئات المتناقضة ، وعاش بشكل نظيف وطاهر حتى أنه كان يلقّب قبل نبوّته بسنين عديدة بـ : « الأمين » ذلك الوصف الحاكي عن أسلوبه وطريقته في حياته الكريمة[1] .

واتّجه نحو العزلة في مرحلة النضج الجسمي والعقلي ، ولكنّه لا بصورة مستمرّة ولا دائمة ، والسبب الذي كان يحمله على هذه العزلة هو عدم انسجام البيئة مع أفكاره العميقة .

ولم يكن في دراسته للظواهر متعجّلاً ولا واقعاً تحت تأثير الرغبات والميول الشخصية ، وإنما كان يرى بوضوح وعمق طابع النظام المحيّر للوجود ، وهو بيد إرادة جبّارة تركت آثارها بارزة على صفحات كتاب الطبيعة ، وهذا يحكي عن عمق تفكيره وارتفاع نظرته .

واستغلّ بأفضل صوره هدوء الظلام وسكون الليل في شهر رمضان ،

---

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٨٠ ، وتاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٥ .

فكان يخلو فيها وحـده إلى هذا الغـار أو ذاك في أطراف مكّـة ، ليبتعد عن الناس وعن الآثام ، ويجهزّ نفسه بسلاح الإيمان ، ويتفرّغ للدعاء والرياضة . ويغـرق هناك في العبـادة والخضوع إزاء الـربّ الجليل الـذي استبـدّ بكـل وجـوده ، وتنبعث من أعماق روحـه أفكاره الحيّـة وحكمه الـرضيّـة ، ضمن منهجه في صياغة ذاته ، ثم يعـود إلى حياتـه اليوميـة مليئاً بـالإيمان واليقين والحماس والشوق .

وتنعكس على ملامحه أمواج العطف والحبّ للحق ، ويعاني كثيراً من سفـاهة قـومه الـذين ذبحوا العقـل أمام أصنـام صنعوهـا بأيديهم، فينـدفـع لمصارعتها ويقذف نفسه في تيّارات المحن والشدائـد لكي يؤسس للحقيقة أركاناً ثابتة .

وكلّمـا امتدّ بـه العمر واقتـرب نحو الأربعين كـانت تظهـر في سلوكه وكلماته علامات الحزن، فينقل إلى زوجه العطوف تلك الأصداء التي ترنّ في أذنه وتغرقه في بحر من النور .

بدايـة البعثة

وانتهينا إلى اللحظة المرتقبة التي بشّـر بها من قبـل الأنبياءالسابقون، وارتفع يتيم عبد المطّلب في سنّ الأربعين إلى منصب الرسـالة السمـاوية ، فعندما كان يتعبّد في إحدى زوايا غار حراء في قلب الليل سمع فجـأة ذلك الشخص الذي لم يتعلّم ولم يدخل مكتباً ولا مدرسة ، سمع من يقول : يـا محمّد (صلى الله عليه وآله) ثم أمره : « اقـرأ » فارتجف من طـلائع هـذا الوحي ،وزحفت عليه موجة من المحيط الإلهي اللانهائي ،وشقّت صدر هذا المضطرب المتحيّر وأسعدت روحه ، فرجع إلى بيته من غار حراء وهو يحسّ بسعادة تبعث على الألم في أعماق قلبه، وهو يحمل على عاتقه أثقل مسؤولية تحمّلهـا طيلة حياتـه ، ليصبح معلّم كـل إنسان وقـائد البشـريـة على طـول مسيرتها ، ومنذ ذلك الوقت فما بعد كان يأتيه الوحي بشكل متناوب ويتلو عليه الآيات البيّنات ، تلك الآيات العميقة التي تدفع إلى الحيرة،والتي لا تشبه الأحـاديث الرزينـة للنبيّ الكريم لا من حيث تـركيب الألفـاظ ولا من حيث المفاهيم العجيبة ، ولا تشبه أيضاً من قريب ولا من بعيد شعر أو نثر الشعراء والخطباء في ذلك العصر .

ومع أن العرب الجاهليين لم يعرفوا القراءة ولا الكتابة ، ولم يكن منهم فيلسوف ولا مؤرّخ ولا عالم،ولكنّهم اشتهروا بالشعر السلس والفصاحة في

الكلام ، وعلى هذه الحال فالرسول الكريم لم يشترك قبل بعثته في فنون الشعر ولا في ألوان الخطابة .

ويشهد سلوكه وآيات القرآن على أنه (صلى الله عليه وآله) لم تبد عليه أيّة مظاهر ذاتية خلال قيامه بأداء مسؤوليّة إبلاغ الدعوة ، وإنما هو قد أبلغ تلك الرسالة الملقاة على عاتقه بكل صراحة، وعلى العكس من رغبات الناس وعقائدهم، وعلى خلاف مصالحه الخاصّة هو، وقد أعلن للناس جميعاً ـ ولا سيّما لهؤلاء الأشرار الجاهلين وتلك الأمّة الفاسدة الممسوخة التي تعبد ما تصنعه بأيديها من الأصنام ـ أعلن لهم جميعاً أن الفلاح فقط في الاتجاه والعبادة للواحد الأحد .

فالعامل الجديد الذي برز في موقع وزمان معيّن ، ودفع النبيّ الكريم (صلى الله عليه وآله) ليبدأ في المرحلة الثالثة من عمره نشاطه الذي لم يسبق له مثيل،والذي أصبح منبع كل خير وسعادة هو تلك الظاهرة الغريبة « ظاهرة الوحي » ، حيث اختير هذا الإنسان العظيم واللائق لتلقّي الرسالة السماويّة ، مع أنه لم تلاحظ عليه قبل ذلك أيّة مقدّمات أو أيّ ميول خاصّة نحو التغيّر المدهش والمفاجىء .

أجل،إن العامل الذي أثّر في شخص محمد (صلى الله عليه وآله) فغيّر ذلك الهادىء الوقور إلى إنسان يتفجّر حماساً ليؤسس نهضة ويقيم ثورة ، ليغيّر بها الظلام الجاهلي المتراكم في دنيا البشرية ، ويوجد فيها تحوّلاً عميقاً ـ لم يكن هذا العامل سوى « الوحي » أي ذلك النداء الذي ينفذ إلى أعماق النفوس ويوجّه حركة الإنسان نحو كماله .

وقد أبطل نداء الوحي كل المقاييس المصطنعة الكاذبة التي كانت سائدة يقيس بها عامّة الناس أمور الخير والشر،والحق والباطل،فيظهرون الباطل في لباس الحق ، وليس هناك غيرها مقاييس لتقييم الأخلاق والعادات ، وأوجد مقاييس واضحة وجديدة تحقق للإنسان أهداف التكامل وتولّد له الحركة والنهضة ، وتمزّق أستار الجهل والسكون ،وتستغلّ قوى

الإنسان وتبعث فيه قدرته على التفكير ، وترفع فيه روحه نحو قمّة الوجود اللامتناهية .

وبدأ نبيّ الإسلام (صلى الله عليه وآله) دعوته بعقيدة ورؤية القائد العالمي ، وبشعار التوحيد ، مبتدئاً بدائرة محدودة وفي محيط مغلق تسيطر عليه الروح القبليّة بشدّة ، وتعتبر فيه الأصنام أقدس وأحبّ الموجودات ، ولم يكن فيه أيّ استعداد لقبول عقيدة التوحيد .

ولم تكن الثقافة والمعارف الإسلامية السماوية أرفع من الجوّ الفكري للمجتمع المقدّس للأصنام فحسب ، وإنما كانت تفوق كل المعارف والثقافات الدينيّة الموجودة في العالم آنذاك .

وعرضت مناهج لإصلاح الأفكار والثقافات الماضية من الأخطاء والانحرافات من قبل إنسان أمّي ، لم يحضر درساً من قبل ولم يطّلع على الكتب الدينيّة والحضاريّة لعصره إطلاقاً .

ودعا في البداية عشيرته لعبادة الخالق الواحد ، ثم عمّم دعوته لتشمل أهل مكّة ثم الجزيرة العربية ، ثم انتقل ليعلن أنه آخر نبيّ عالمي .

وقد كان عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) أوّل رجل آمن بهذه الدعوة[1] وكانت زوجه خديجة أوّل امرأة آمنت بهذه الرسالة السماوية ، ثم تبعهما بقيّة الذين آمنوا بهذا النبيّ الجديد .

قال عليّ (عليه السلام) :

« قال لي النبيّ (صلى الله عليه وآله) : اجمع لي بني عبد المطّلب حتى أكلّمهم وأبلّغهم ما أمرت به ، ففعلت ما أمرني به ثم دعوتهم له . . . ثم جمعتهم ثم دعاني بالطعام فقرّبته لهم ففعل كما فعل بالأمس فأكلوا . . . وشربوا . . . ثم تكلّم رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال : يا بني عبد

---

(١) تأريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٨ .

المطّلب إنّي والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به ، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه ، فأيّكم يوازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم ؟ قال : فأحجم القوم عنها جميعاً ، وقلت وإني لأحدثهم سنّاً وأرمصهم عيناً وأعظمهم بطناً وأحسنهم ساقاً : أنا يا نبيّ الله أكون وزيرك عليه ، فأخذ برقبتي ثم قال : إن هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم ، فاسمعوا له وأطيعوا ، قال : فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع »(١) .

وأظهر النبيّ المصطفى (صلى الله عليه وآله) قدرة خارقة للعادة على القيادة ونضجاً سياسيّاً مدهشاً، وبدأ يصوغ أعماق الإنسان من جديد، وحاول بكل ما أوتي من قوّة أن يعرّف الإنسان على الوجود اللامحدود عن طريق التوحيد الفطري والمطالعة بدقّة في أسرار الكون والحياة .

إن ابن هذه البيئة التي كان أهلها مشغولين بالأفكار الضحلة والانقسامات القبليّة والتفاخر العشائري، والمشيّدين كل الامتيازات والقيم على أساس الأوضاع الاجتماعية والتعصّب المقيت ـ ابن هذه البيئة نهض فجأة وأقصى كل الامتيازات المتوهّمة، وصاغ قيماً ومفاهيم جديدة للحياة والعمل والعلاقات الاجتماعية ، أظهرها في قالب من الأحكام والمقررات ثم طبّقها بشكل واقعي في حياة الناس ، وحاول أن يركّز كل الأهداف والأفكار في نقطة مركزية تضمن التحرّر للأمم من العبودية، وتؤمّن للمظلومين والمعذّبين النجاة من الاستبداد والجور المسلّط عليهم من قيصر وكسرى وأمثالهما .

وتعتبر هذه القوانين والأفكار من أنفس وأرفع الأمور التي يفتخر بها تأريخ البشرية في مجال القيم والمقررات الاجتماعية ، حتى من جهة نظر الأشخاص الذين لا يعتقدون بمصدرها السماوي .

---

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٣١٩ ـ ٣٢١ .

وبدأت الدّعوة سرّية . واستمرّ هذا الوضع لمدّة ثلاث سنوات شيّد فيها الإسلام خفية ثم تجاهروا به ؛ فقام في وجهه وعارضه زعماء الشرك الذين أدركوا خطورة الموقف بكلّ ما يملكون من قوّة للحفاظ على عقائدهم وسننهم ومناصبهم الجاهليّة ، وتحمّل النبيّ الكريم عبء الرسالة الثقيل في مكّة لمدّة ثلاثة عشر عاماً ، لقي فيها من المشركين أشدّ العداوة وأكثر الأساليب وحشيّة ، تلك التي واجهوا بها المسلمين الجدد ، فكانوا يوثقون بالحبال أولئك الضعفاء لأنهم قبلوا الإسلام ، ويلقون بهم على الأرض وهم يعانون الجوع والعطش وتحت شمس مكّة المحرقة ، ثم يضعون على ظهورهم وصدورهم العارية صخوراً ثقيلة وساخنة ، ثم يدعونهم إلى التنكّر لشريعة محمّد (صلى الله عليه وآله) .

وقد تعرّض البطلان ياسر وسميّة لأشدّ ألوان العذاب وحشيّة ، وتحمّلا ضغط الصخور الضخمة التي كانت توضع على صدورهما من قبل قريش تحت الشمس الصحراوية المحرقة ، وبذلك أصبحا أوّل شهداء الإسلام ، حيث استشهد الزوج تحت التعذيب واستشهدت الزوجة على يد أبي جهل[١] .

إن قريشاً حاولت بهذه الأساليب أن تقضي على الثورة وهي في المهد ، لأن هذا النضال كان نضالاً بين الموت والحياة ؛ فإذا قدّر لدعوة النبيّ (صلى الله عليه وآله) أن تنجح ، فلا بدّ لقريش من أن تنفض يدها من كل سلطة وامتياز كانت تتمتّع به ، ولا ينبغي إغفال عامل آخر كان له دور في تشديد مقاومتهم وهو عامل الحسد .

وأدّى هذا الوضع السيّىء إلى أن تصبح مدينة مكّة سجناً ومكاناً لتعذيب المسلمين الذين لا نصير لهم ولا معين ، وحتى الاستماع لآيات القرآن الكريم قد منع من قبل المشركين ، فعيّنوا أناساً يستقبلون القوافل التجارية

---

(١) السيرة الحلبيّة ص ٣٣٧ .

عند دخولها مكّة فينذرونها بالخطر ويحذّرونها من الاتصال بالمسلمين .

واضطّر كثير من المسلمين الجدد لترك مكّة والهجرة إلى الحبشة، لوجود الضغوط المتعددة عليهم من قريش والتشدد في معاملتهم ، فاتّخذوا هذا القرار لكي يظفروا بالأمن والهدوء، ويقيموا شعائرهم الدينية وعبادتهم للواحد الأحد بعيداً عن الكفّار ، ولكنّ القوى المعارضة لم تكفّ عن تتبّعهم وإيذائهم .

وأرسل القرشيّون رجلين منهم إلى حكّام الحبشة لكي يعيدوا المسلمين ، ولكنّ النجاشي ملك الحبشة استقبل المهاجرين المسلمين استقبالاً حسناً ولم يبخل عليهم بحمايته .

فانطلق المسلمون في الحبشة يؤدّون واجباتهم الإسلامية بصورة حرّة كريمة، وقام مبعوثو قريش بتقديم هدايا للنجاشي وبطانته وطلبوا أن يعاد المسلمون إلى المدينة ، فأجاب النجاشي بأنّ هؤلاء قد اختاروني من بين جميع الملوك والحكّام ولجأوا إليّ ، وأنا لا أستطيع أن أبعدهم عن بلادي ما لم أتأكّد من وضعهم .

ولمّا استمع النجاشي ـ بعد التحقيق ـ إلى حديث جعفر بن أبي طالب ممثّل المهاجرين حول عقيدة المسلمين بالمسيح عيسى (عليه السلام) أعجب وتأثّر به كثيراً ، وقال :

« والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود ، قالت : فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال ، فقال : وإن نخرتم والله ، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي ـ والشيوم : الآمنون ـ من سبكم غرم ، ثم قال : من سبكم غرم ، ثم قال من سبكم غرم ، ما أحبّ أن لي دبراً من ذهب ، وأني آذيت رجلاً منكم ـ قال ابن هشام : ويقال دبراً من ذهب ، ويقال : فأنتم سيوم ، والدبر (بلسان الحبشة) : الجبل ـ ردّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها فوالله ما أخذ الله منّي الرشوة حين ردّ عليّ ملكي فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس

فيّ فأطيعهم فيه »(1) .

وبهـذا فقد عـاد ممثّلو قـريش يـائسين مهزومين ، وانتصر النـور على الظلمات وظهر الحق واندحر الباطل .



(1) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٦١ ـ ٣٦٢ .

تكتيك العدوّ في المعارضة

عندما لاحظ أعداء الإسلام تزلزل سلطتهم أمام عقيدة التوحيد وأحسّوا بأنّ أيّ صنم طبيعي أو اجتماعي ، ذهني أو عيني ، يتحطّم بفأس التوحيد ، فإنهم حاولوا الاستفادة من التهديد ، ولمّا يئسوا منه لجأوا إلى التطميع والوعود ، وأظهروا استعدادهم لإعطاء النبيّ أيّ امتياز على أن لا يواصل طريقه ، ولكنّ هذه المحاولات بقيت عقيمة ، وردّ النبيّ بالحسم اللائق برسالة سماويّة كل اقتراحاتهم القاضية بمنحه سلطة وثروة ورفاهاً ، وأعلن بكلّ قوّة :

« يا عمّ ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته »(١) .

يقول اليعقوبي في تأريخه :

« فاستهزأت منه قريش وآذته وقالوا لأبي طالب : إن ابن أخيك قد عاب آلهتنا وسفّه أحلامنا وضلّل أسلافنا فليمسك عن ذلك وليحكم في أموالنا بما يشاء ، فقال : إن الله لم يبعثني لجمع الدنيا والرغبة فيها وإنما بعثني لأبلّغ عنه وأدلّ عليه . وآذوه أشدّ الإيذاء فكان المؤذون له جماعة منهم أبو

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٨٥ .

لهب والحكم بن أبي العـاص وعقبة بن أبي معيط وعـدي بن حمراء الثقفي وعمرو بن الطلالة الخزاعي ، وكان أبو لهب أشدّ أذى له »[1] .

وعندئذٍ سلك العدوّ طريقاً آخر، واستغلّ كل سلاح ضدّ هذه النهضة، وأراد هدم أساس الإسلام هذا الدين الجديد .

وتصالح الأعداء القدماء لكي يقضوا على الـدين الجديـد ، وحاولـوا تلويث سمعته الحسنة وتأريخه النيّر بالهمز واللمز ، لكي يحولوا دون تقـدّم دعوته من ناحية، ولكي يطفئوا لهب حقدهم الأسود عليه من ناحية أخرى .

وفي كل مكان كانوا يقولون: إنه ساحر وشاعر ومجنون ، وأثاروا عليه الجهلاء والسفهاء ، وهذا هو الأسلوب الشيطاني الذي يستغلّه أعداء الحقيقة لتحطيم وتكذيب الشخصيات العظيمة .

والقرآن الكريم لا يعدّ هذه الظاهرة خاصة بعصر رسالـة النبيّ (صلى الله عليه وآله)

وإنما هو يقول :

﴿ كـذلك مـا أتى الذين من قبلهم من رسـول إلاّ قـالـوا ساحر أو مجنون * أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾[2] .

ولكنّه كان (صلى الله عليه وآله) يبتعد عن إتّخاذ مواقف متهوّرة اتّجاه أعـدائه ، ويقـابـل تعصّبهم وقصـر أنـظارهم وتعنّـدهم وعبـادتهم للمـاضي وإلقاءهم الأحجار في طريق دعوته بتعقّل وحكمة ، فمع وجود تلك المشاكل الضخمة التي تتضاعف بها متاعبه فإن تلك المعوقات لم تثر غضبه، بل سعى بكل جهده أن يجتذبهم بالطرق المعنوية نحو الواقعية .

فلا الضغط ولا الترغيب ولا الحرمان ولا التشريد ، كل هذه لم تستطع

---

(١) تأريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٩ .

(٢) سورة الذاريات : الآيتان ٥٢ ـ ٥٣ .

إذابة صمود النبيّ (صلى الله عليه وآله) ، ولم يظفر الأعداء بأيّ نفع من وراء نشر التهم المؤلمة التي لا أساس لها من الواقع ، وذلك لأن المنطق الجذّاب للوحي والنغم الحلو العميق للقرآن لم يترك السامع دون أن يؤثّر في أعماق روحه ويجتذبه ويغيّره ، وحتى أنه كان يدفع العدوّ أحياناً للاعتراف بالحقيقة .

فقد جاء الوليد بن المغيرة إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فلمّا قرأ عليه القرآن كأنّه رقّ إليه ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال له : يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه ، فإنك أتيت محمّداً لتتعرض لما قبله ، قال الوليد : لقد علمت قريش أني من أكثرها مالاً ، قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وكاره ، قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم منّي بالشعر لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجنّ ، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمنير أعلاه ، مشرق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى ، وإنه ليحطّم ما تحته . . . فألحّ عليه أبو جهل بأنه لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه ، فقال الوليد : دعني أفكّر ، فلمّا فكّر ، قال : هذا سحر يأثره عن غيره[1] .

ومع أن صبر النبيّ (صلى الله عليه وآله) كان عظيماً فإنه كان يضيق أحياناً بالسلوك الأبله للقوم وتبطىء حركته ، ولكنّ الوحي الإلهي يستحثّه لتحمّل مسؤوليته الخطيرة فيقول :

﴿ يا أيّها المدّثر * قم فأنذر * وربّك فكبّر * وثيابك فطهّر * ﴾[2] .

ومن الأسباب المهمّة لنجاح نهضة الأنبياء هو ما يبديه أولئك المصطفون من الله سبحانه من صبر ومقاومة وتحمّل ، ويشرح القرآن نماذج واقعية من طريقة سير الأنبياء والنهضات التابعة لها لكي يحذّر النبيّ الكريم

---

(١) النبأ العظيم/ للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٩٢ ، ويوجد مثله في مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٨٧ .

(٢) سورة المدّثر : الآيات ١ ـ ٤ .

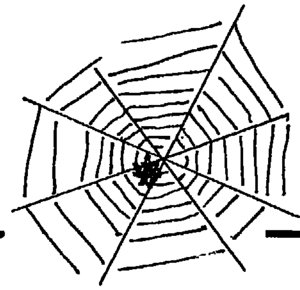
(صلى الله عليه وآله) من أن تسيطر عليه آلام وأحزان الهزائم والمصاعب والتعذيب والصراعات ، فيقول :

﴿ وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين ﴾[1] .

أجل إن المبعوثين من قبل الله سبحانه تحمّلوا كثيراً من الآلام والعذاب وأظهروا صموداً رائعاً في مقابل الإنكار والتكذيب حتى فازوا بنصر الله وتأييده .

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٨٥ .



بـدء الهجـرة

كانت الظلمة تخيّم على مكّة ، وكان جوّها إرهابياً يلقي بالمسلمين دائماً في حمم التعذيب ويعرضهم للمطاردة والموت والسجن ، ولم يشعر المسلمون حينذاك أن قوّتهم قد ارتفعت إلى مستوى المقابلة العسكرية ، لهذا صدر إليهم الأمر بالهجرة ، وأوصاهم النبيّ (صلى الله عليه وآله) بترك مكّة إلى يثرب بصورة مفرّقة ، كلّ على حدّة .

ولكنّ قريشاً أحسّت بالخطر بشكل واضح ووقفت حائلاً دون هجرة أصحاب النبيّ (صلى الله عليه وآله) ، وحتى أنهم استعملوا مع بعض المسلمين اخذ زوجاتهم رهائن عندهم ليمنعوهم من الهجرة ، ولكن المسلمين أصرّوا على مغادرة معقل الشرك والجهل والظلم ، وعلى التنكّر لكل ما تعلّقت به قلوبهم ، وعلى التغرّب عن الأهل والأقارب ليظفروا بالهجرة ، واستقبلهم أهل يثرب بأذرع مفتوحة كأنهم أعزّاء قد مضى أمد طويل على فراقهم .

وغادر مكّة أكثر المسلمين ففرغت منهم هذه المدينة ، وتغيّر الوضع وأصبح غير عادي في المدينة ، وأخذت الأخبار المرعبة تصل من المدينة إلى قريش فتحملها على التفكير .

ولمّا لم يظفر سادة قريش بأيّ عائد نتيجة هذه الأساليب الخشنة ، فإن

زعماء الكفر والإلحاد جمعوا شملهم وبعد البحث في أطراف الموضوع اتّخذوا قراراً خطيراً جدّاً وهو التخطيط لقتل النبيّ (صلى الله عليه وآله) ، واتّفقوا على أن يقوم بهذه المهمة مجموعة من الإرهابيين عندما يخيّم الظلام على مكّة[1] .

وجاؤوا إلى بيت النبيّ (صلى الله عليه وآله) وحاصروه ليلاً وراحوا ينتظرون النبيّ (صلى الله عليه وآله) ليخرج عند الفجر، وراقبوا حجرته طول الليل بدقّة ، واطمأنّوا إلى أن ابن عبد الله الذي ليس له نصير في البلد سوف لن يفلت من حلقة المحاصرة هذه دون أن يلقى حتفه ، وسوف تكون خاتمته فيما يجري فجر هذه الليلة .

ولكن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أمر عليّاً (عليه السلام) أن ينام في فراشه ، ذلك الإنسان الذي تربّت روحه في أحضان الإسلام، ولم يكن يفكّر في الموت من أجل الله وحفظ حياة النبيّ الكريم (صلى الله عليه وآله) ، ثم خرج النبيّ من بيته متخفّياً ومعه أبو بكر .

وفي هذه الأثناء وصل رجل وسأل شابّاً من هؤلاء المتعطّشين لدم الرسول : تنتظرون من ؟ .

قالوا : ننتظر محمّداً(صلى الله عليه وآله) ، فقال : إنه قد أفلت من مصيدتكم .

وعندما أسفر الصبح الصادق شاهدوا بأعينهم والحسرة تملأ قلوبهم أن عليّاً قد نهض من فراش النبيّ (صلى الله عليه وآله) .

وليس من الواضح كيف استطاع النبيّ (صلى الله عليه وآله) أن يكسر حلقة المحاصرة دون أن يلتفت إليه المكلّفون بقتله ، ولكنّ الشيء الذي لا شكّ فيه أن إرادة الله قد تعلّقت بأن ينجي قائد الإسلام العظيم من حبائل هؤلاء الساقطين .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٢٦ .

فقد خرج النبيّ (صلى الله عليه وآله) في قلب الليل تاركاً مكّة ولاجئاً إلى غار خارجها، ثم قطع الصحارى لكي يصل يثرب، وبهذا فقد انقلب هذا التآمر الدنيء الذي دبّرته قريش فكانت النهاية لصالح المسلمين وضدّ الكافرين ، واستطاعت تلك اليد القديرة ـ التي حفظت هذا المشعل المنير طيلة ثلاثة عشر عاماً من كل التيّارات المعادية ـ أن تجعل هذه الخطّة هباءً منثوراً .

قبل هجرة الرسول (صلى الله عليه وآله)جاءت مجموعة من سكّان المدينة إلى مكّة لأداء مراسم الحج ، وقبلوا هناك دعوة رسول الله وأسلموا ، وبعد أن عادوا من مكّة إلى موطنهم بذلوا كل جهودهم لتنوير عامة الناس وإيصال الرسالة الإلهيّة إلى مختلف الفئات والطبقات ، وكان هذا صفعة قويّة لأسس النظام القائم على عبادة الأصنام .

أما أهل المدينة فقد كانوا متعبين من حروب قبليّة طويلة الأمد ، ولهذا فإنهم استقبلوا دعوة الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) على أنها أمل الخلاص من هذه النار التي تأتي على بيوتهم وكل ما فيها .

وما لم نعرف وضع الجزيرة العربية في ذلك العصر فإننا لا نستطيع أن ندرك جيّداً حاجة ذلك المجتمع إلى نهضة إسلامية عظيمة .

ولا نستطيع أيضاً أن نفهم تأثير الإسلام في تحطيم الفساد والضلال .

قال الإمام علي (عليه السلام) :

« إن الله بعث محمّداً (صلى الله عليه وآله) نذيراً للعالمين ، وأميناً على التنزيل ، وأنتم معشر العرب على شرّ دين ، وفي شرّ دار ، منيخون بين حجارة خشن وحياة صم ، تشربون الكدر وتأكلون الجشب ، وتسفكون دماءكم وتقطعون أرحامكم ، الأصنام فيكم منصوبة ، والآثام بكم معصوبة »[1] .

---

(١) نهج البلاغة للفيض ص ٩٢ .

لقد أصبحت هجرة الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) إلى المدينة بداية لتأريخ الإسلام وافتتحت فصلاً جديداً في تأريخ الشريعة المحمّدية ، ومنذ هذا الوقت فما بعد فقد تتالت الضربات القاصمة على قوى الضلال والباطل .

واستقرّت نهضة الرسول (صلى الله عليه وآله) في المدينة وتسرّبت دعوته من بيت إلى بيت ، وامتدّت جذورها وتبلورت لتشكّل مجتمعاً .

وكان منطقه من القوّة وتفكيره من الإبداع بحيث استطاع - إلى حد بعيد - تمزيق النظام الفكري والأخلاقي والاجتماعي المتحكّم في حياة الناس ، وتحطيم القيود والأغلال والظلم السائد ، واستطاع أيضاً أن ينزل الأقوياء الظالمين من عروش كبريائهم ليلقي بهم إلى الحضيض ، وأن يمنح البشريّة بشريعته الخالدة الحيّة أسلوب العدالة والثقافة والأخلاق الرفيعة ، واستطاع أيضاً أن يجعل من المدينة - بسرعة فائقة - قاعدة دينية اجتماعية عسكرية محكمة .

ومن ناحية أخرى فإن تجارب مكّة من ألوان المقاطعة والتعذيب وبرامج صياغة الذات ، كل هذه كانت عوامل دفعت المهاجرين ليقطعوا مراحل مهمّة من التكامل ، وكما أصبحت المدينة مركز القوّة المعنوية والسياسية للجزيرة العربية فقد أصبحت قاعدة لامتداد واتّساع رقعة الإسلام في مختلف أرجاء العالم .

ومن هذا المكان قدّم قائد الإسلام شريعته للأمم الحيّة التي عاشت في العالم آنذاك ، ودعا جميع الناس لينضمّوا تحت لواء التوحيد وتعاليمه الحيّة المتحرّكة ، وامتدّت ظلاله لتشمل في أقل من نصف قرن الدول الكبيرة والمعمورة في ذلك الزمان ، وراحت تهطل كالمطر رحمة وبركة على النفوس والقلوب المستعدّة للخير والاستقامة .

أمّا الذين لا يدركون مدى عمق الحوادث والقضايا فإنهم ينسبون سرعة

انتشار الإسلام إلى الصدفة .

والواقع أنه لا يمكن تفسير ظواهر العالم بالصدفة ، فهل يمكن عدّ تأسيس نظام أخلاقي أو فلسفي أو قانوني تابعاً للصدفة ؟ .

هل يمكن أن يكون من الصدفة أن يتحقق هذا على طول التأريخ مرّة واحدة على أرض الجزيرة العربية ثم لا يتكرر بعد ذلك إلى الأبد ؟ .

إذا كانت العوامل الاجتماعية المتنوّعة هي البطل الذي عرض على العالم مثل هذه النهضة العظيمة ، فلماذا لا يتكرر هذا البطل الطبيعي في هذه الأرض على أساس من القوانين العلمية وقواعد علم الاجتماع ؟ ولماذا كانت هذه الحادثة التأريخية منفصلة عن الحوادث الأخرى وتشكّل وحدة مستقلّة وهي تدور في حلقة مغلقة ؟ .

فكل حركة ثورية تكامليّة تحدث في المجتمع إذا كانت وليدة الظروف فليس من الممكن أن تحدث بصورة مفاجئة وبدون سوابق ممهّدة بحيث لا ترتبط إطلاقاً بالمقدّمات السابقة عليها ، وإنما لا بدّ أن تبدأ بصورة موجة من السابق ، ثم شيئاً فشيئاً يتّسع مجال الموجة ، وبالتدريج تتكامل شروط القيادة والزعامة في وجود شخص من الأشخاص .

ولكنّ نبيّ الإسلام (صلى الله عليه وآله) لم يكن في تأريخ رسالته الجديدة حلقة من سلسلة حلقات تحدث خلال الحركة الفكرية في كل مجتمع ، ولم تكن هناك أرضيّة في بيئته تساعد على حياة ونموّ المفاهيم والقيم والأفكار الرفيعة التي جاء بها ، ولم يسبق أن أسس لها أساس من قبل .

فتيّار الثورة لم ينبعث إلّا بوجود النبي (صلى الله عليه وآله) من دون أيّ تمهيد سابق ، والرسالة لم تتضح في حركة ثورية ، وإنما بدأت الحركة الثورية منذ بداية البعثة فاقتبس أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) من وجود الرسول حياة وحركة ، وكانت أمواجاً جديدة منبعثة من ثورة محمّد

(صلى الله عليه وآله)، ولم يكن شخصه الكريم جزءاً من أمواج الثورة. إذن هناك مسافة شاسعة تفصل بين الحركة الثورية لنبيّ الإسلام وسائر الحركات التأريخية .

فنحن نلاحظ في النهضة الإسلامية حركة واسعة شاملة لكل جوانب الحياة ، تشكّل ثورة عميقة في جميع المفاهيم والقيم الإنسانيّة .

واهتزّ المجتمع القبلي نتيجة لتعاليم الإسلام فأصبح أمله متعلّقاً بتشكيل مجتمع عالمي ينضمّ فيه كلّ الناس تحت لواء التوحيد .

ومن المفيد أن ننصت قليلاً لنستمع الحقائق في هذا المجال من أفواه غير المسلمين ، فهذا « نهرو » الشخصيّة السياسية الكبيرة في آسيا يقول :

« من الغريب أن العرب الذين كانوا لقرون طويلة وكأنهم يمرّون بكابوس مزعج ، ولم يكونوا ـ كما يظهر ـ على علم بما يجري حولهم في سائر أنحاء العالم ، فجأة استيقظوا وقلبوا العالم رأساً على عقب بقوّة مدهشة .

فماضي العرب وكيفية سرعة تغلغلهم في آسيا وأوربا وأفريقيا وإيجادهم ثقافة ومدنيّة رفيعة وعظيمة ، كل هذا من عجائب التأريخ البشري .

والقوّة والفكر الذي أيقظ العرب ومنحهم الثقة بالنفس والشموخ إنما هو الإسلام الذي جاء به نبيّ جديد هو الرسول محمّد (صلى الله عليه وآله) .

فقد بعث محمّد (صلى الله عليه وآله) قبل فتح مكّة ومن مقرّه في المدينة إلى حكّام وملوك العالم رسائل يدعوهم فيها إلى الإيمان بالله الواحد الأحد وبرسوله (صلى الله عليه وآله) . ونستطيع أن نتصوّر من إرسال هذه الرسائل مدى ثقة محمّد (صلى الله عليه وآله) واعتماده على نفسه واطمئنانه برسالته ، وقد استطاع بهذه الثقة وهذا الاعتماد على النفس أن يلهم الناس

أيضاً ذلك ، بحيث استطاع هؤلاء الناس الجوّالة في الصحراء وبدون صعوبة أن يسيطروا على نصف العالم المعروف آنذاك .

وجاء الإسلام لتعميق الأخوّة والمساواة بين كل من يؤمن بالإسلام ، وكانت هذه الدعوة الإسلامية للأخوّة ـ بالقياس إلى المسيحيّة الفاسدة لذلك الزمان ـ جذّابة ليس للعرب فحسب وإنما لكل سكّان الدول الأخرى التي يصل إليها المسلمون »[1] .

إن ظهور كل هذه التحوّلات والتطوّرات المحيّرة في التأريخ البشري مرهونة ببروز شخصية فريدة ، ما كانت مزوّدة بالقوى الماديّة الظاهرة ، ولم تكن متميّزة بالمعلومات العلمية والفنيّة ، ولم تغترف من منابع الآخرين حتى قطرة واحدة من العلم ، وليس هذا أمراً غير طبيعي ولا عادي فحسب وإنما هو شاهد حيّ على أنه مزوّد بقوى أرفع من المستوى البشري ، ولو لم يشغل الأعداء الداخليّون تلك الشخصية الممتازة بالحروب الداخلية لاستطاع دعوة وإقناع الأمم الأخرى بسرعة فائقة وقوّة عظيمة ، ولكنّ الصراعات المتنوّعة والحملات المختلفة التي أثارها الأعداء فسلبوا منه الأمن اضطرّته لينفق جانباً مهمّاً من وقته وإمكانيّاته للدفاع عن كيان الإسلام .

واليوم بعد مرور أربعة عشر قرناً نشاهد بوضوح ما حققه من إنجازات في العالم الإنساني ، فكتابه ومذهبه الذي يتضمّن سعادة الناس تحمله البشرية في قلوبها ، واسمه الكريم تلتذّ بذكره ملايين الأفواه وتتحدّث به بكل إجلال واحترام وهو يرنّ من أعلى قمم المآذن بروحانيّة خاصّة في كل أطراف العالم ، وكما جاء في الوعد الإلهي فإنه سوف يعمّ كل مكان ، وينفذ إلى أعماق النفوس ، ويشرق في جنبات القلوب ، لأن الله قد أكّد في كتابه الكريم :

﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾[2] .

---

(١) نظرة نحو تأريخ العالم ، تأليف نهروج ١ ص ٣١٧ ـ ٣٢٢ .

(٢) سورة الانشراح : الآية ٤ .

لنعرف القرآن أفضل

لكي نثبت أن لمحمّد (صلى الله عليه وآله) رسالة إلهيّة لا بدّ من توفّر كل الظروف والعلامات الواضحة الضرورية لسائر القادة السماويين .

فلا يمكن الفصل أبداً بين النبوّة والرسالة المصحوبة بالمعجزة التي تثبت علاقة مدّعي النبوّة بعالم ما وراء الطبيعة ، فهي برهان يبيّن نموذجاً عينياً للارتباط ، ويجرّد الذين يقفون موقفاً سلبيّاً ويسلكون سبيلاً غير منطقي من سلاحهم ، ويثبت أنه في إدّعائه معتمد على الواقع .

ومع أن جميع الأنبياء في إنجاز الرسالة الإلهيّة يتميّزون بوحدة الهدف ، وحتى أنهم كانوا متشابهين في لون تعليماتهم بقطع النظر عن ما يختص بكل واحد منهم ، ولكنّ نوع سلوكهم وطريقة عملهم كانت تتّجه نحو التكامل بناء على الضرورات الموجودة والخصوصيّات الزمانيّة التي تتميّز بها كل مرحلة .

ونظنّ أن فلسفة تنوّع المعجزات هي أنه في المراحل التأريخية للأنبياء السابقين كان الناس يميلون إلى ما يدرك بالحواس من دون محتوى، خالياً من المعنويات ، وقد دفعت القيود والأغلال التي كان الكهنة والنوابغ يفرضونها على أفكار الناس ـ دفعت أفكار عامة الناس للتركّز في نطاق خاص ، وأصبح هذا أهمّ عامل لبعد الناس عن الله ولتحجّر وجمود الفكر البشري ، ولا بدّ من

الالتفات إلى هذا الأمر ، ومعالجته بأن نجعل تحطيم ذلك هدفاً كبيراً من أهدافنا السلبية .

لهذا أمر الأنبياء من قبل الله أن يوجّهوا أعنف حملاتهم وأقوى ضرباتهم إلى أكثر نقاط الانحراف حساسيّة ، وأن يعارضوا مثل هذه الأعمال بكل صلابة ، وأن يفتتوا بقدرتهم المعجزة ذلك العامل الذي يفصل الناس عن الله ويدفعهم لتركيز أفكارهم حول نقاط محدودة وأعمال غريبة يأتي بها كهنة وأبطال تلك العصور، فيسجنون بها روح الإنسان ، وأن يعرضوا بكل ما يملكون من قوّة الأسس الواقعية للدين الإلهي ، وأن يفتتحوا أمام الناس أبواب الهداية والنضج والتكامل ، وأن يربطوا أبعاد الحياة وحالاتها وحركاتها بخالقها وموجدها ، وهذا جانب واحد من جوانب الإعجاز في الواقع .

وخرج رسول الإسلام (صلى الله عليه وآله) وحمل الرسالة السماوية من بين مجتمع تدور أفكاره العامّة حول محور الفصاحة وإنشاء الكلام البليغ وإنشاء الشعر في الهجاء والمدح وسائر الإبداعات الأدبيّة ، ودوران الفكر حول محور واحد ، وهو محور لا يشكّل جزءاً من المسائل الأساسية للحياة الإنسانيّة ، هو من أهم العوامل لجمود وتحجّر الأفكار وبعدها وعدم التفاتها إلى مبدأ الوجود .

في مثل هذه الظروف زوّد الله سبحانه نبيّه بسلاح « القرآن » يشبه الآثار المحيّرة لأدباء ذلك العصر ، مع أنه يمتاز عليها بامتيازات مقصورة عليه .

فحلاوة البيان وجاذبيّة آيات الله قد ملأت قلوب العرب بالإدراك والإحساس، ولفتتهم بعمق إلى هذه الوديعة الإلهيّة التي لا يمكن منافستها، وتيقّن هؤلاء المتضلّعون في فنّ البلاغة وأسرارها وخفاياها أن بلاغة القرآن الخارقة للعادة خارجة عن قدرة البشر ، وليس من الممكن أن ينصت إليها إنسان ويستوعب معناها ثم لا تجرفه جاذبيّتها القويّة ، ولهذا فمنذ اللحظات الأولى لنزول الوحي كان ذلك عاملاً مهمّاً لجذبهم وإيمانهم .

ومن ناحية أخرى، لو أن نبيّ الإسلام (صلى الله عليه وآله) قد توسّل بمعجزة أخرى غير القرآن لما أمكن تبرير ذلك بالنسبة إلى تلك الأمّة ، ومن هنا فإن باب الشك سوف ينفتح على مصراعيه ، ولكن العرب الذين عاشوا في ذلك العصر وكانوا المخاطبين بالقرآن لا يشكّ أحد في بلاغتهم الفائقة فهم كانوا ملمّين بدقائق فنّ الخطابة ، وكان من بينهم أساتذة الأدب واللغة وأبطال البيان .

أمّا معجزات الأنبياء السابقين فقد كان زمانها محدوداً ، ويعتبر هذا علامة على عدم استمرار تلك الأديان والشرائع ، ولمّا كانت نبوّة رسول الإسلام (صلى الله عليه وآله) عالمية ومكمّلة لكل الشرائع الإلهيّة فإنها لا يمكنها أن تكتفي بالمعجزة الموقتة ، وإنما لا بدّ أن تعتمد على معجزة خالدة ، ولا بدّ أن يقدّم آيات واضحة وصريحة دالّة على خلوده .

فالرسالة الدائمة لا بدّ لها من أن تقدّم للبشرية معجزة دائمة وخالدة ، وأن تتقدّم مع تقدّم الزمان ، حتى تتم الحجّة على اللاحقين كما أتمّت الحجة على السابقين ، لأن المعجزة ذات العمر القصير والتي لا يمكن رؤيتها للأجيال الآتية لا يمكن الاستناد إليها في المستقبل ، ولا إصدار الحكم اليقيني بحقها ، ولهذا فإن القرآن المجيد يعتبر معجزة أبدية ويعدّ آخر مظهر للوحي .

وقام النبيّ (صلى الله عليه وآله) بدون مقدّمات ، ومن أوّل يوم يعرض شريعته بصورة دين عالمي على البشرية، لا تحدّ منطقة نفوذه الحدود الجغرافية أو القوميّة ، وهذا سند خالد على أن بعثته قد بدأت للعالم أجمع ، ليكون ذلك برهاناً حيّاً وساطعاً على أن نهضته الثورية هي آخر فصل في تأريخ بعثات الأنبياء وثوراتهم .

فالقرآن ليس سلاحاً آيديولوجيّاً عابراً ينقل الإنسان من نظام أضيق وأخفض إلى نظام أوسع وأرفع في مرحلة خاصّة ، وإنما هو آيديولوجية

مستمرّة للإنسان داخلة تحت نظام سياسي اجتماعي وفكري للإسلام ، ولهذا اعتبرت معجزة بعثة رسول الإسلام (صلى الله عليه وآلـه) خاتمـة للبعثات العابرة ، والقرآن بأسلوبه الفريد الخاص به في كل مكان، وفي ظلّ ظـروف نزول الآية أو من خلال بيان القصص التأريخية ، أو شرح الحوادث الواقعة في عصر النبيّ (صلى الله عليه وآله)، أو بصورة التمثيل حول مسائل الحياة المختلفة لهداية البشرية نحو القمم الرفيعة للحياة، قد قدّم الإرشادات اللازمة بحيث يمكن استخراج الأصول الكليّة للتحوّلات من خلال تحليل القصص والحوادث الواقعة من وجهة نظر القرآن .

إن التحـوّل الروحي والحـركة التـأريخية والاجتمـاعية التي أوجـدهـا الإسلام سرّ لا يمكن تفسيره إلاّ في فلسفة نزول القرآن تـدريجيّاً ، فمـع أن تقييم الناس السطحيين والجاهلين لنزول القرآن تدريجيّاً والظاهـرة المنظّمـة للوحي يعتبر ذلك نقصاً، ولكن التعمّق في الحوادث التأريخية والالتفات إلى الزمان يضطرّنا لاعتبار ذلك من العوامل الأساسيّة لنجـاح دعوة النبيّ (صلى الله عليه وآله) .

فكما أن الأمراض المزمنة تحتاج إلى علاج طـويل ، كـذلك النضـال الحثيث ضدّ العوامل التي تمنع الإنسان باستمـرار من أن يصل إلى حقـائق الوجود، وتحول بينه وبين نضجه وارتفاعه أيضاً يحتاج إلى نظام فكري أصيل، وتنسيق اجتماعي شامل يستطيع أن يتقدّم في محاولاته باستمرار، وخلال كل المراحل التأريخيّة، ليقود الإنسان إلى هدف واضح يخلّصه من أغلال الغربة عن الذات ، وفي غير هذه الصورة يصبح الحلّ الـذي لا يتجاوز في أبعـاده نطاق الحوادث الزمانيّة والمكانيّة عاجزاً وكسيحاً ، والإسلام هو النظام الوحيد الذي يتمتّع بهذه الخصائص ، وهو الوحيد الذي يستطيع أن يلبّي كـل هذه الحاجات بعناية تامّة .

والمسلمون لهم عقيدة دينيّة بإعجاز القرآن ؛ أمّا المحققون والبـاحثون فلهم في إعجازه عقيدة علميّة ، لأن القرآن يحفـل بشمول وثـروة زاخرة من

حيث النظرة الكونيّة ، والمحتوى العلمي والتربوي والقدرة على قيادة الفرد والمجتمع ، ويملك آفاقاً ومجالات واسعة تحتاج إلى التحقيق العلمي والمحاولات العلمية أكثر من أيّ وقت مضى .

والقرآن هو المنبع الأساسي للتحقيق والبحث في الدين الإسلامي ، ويمكن أن يكون ـ في كل عصر وكل مرحلة وفي أيّة نقطة من العالم ـ الأساس المحكم لبناء مجتمع متكامل حرّ تتفتّح في ظلّه كل القوى والطاقات الكامنة في الإنسان ، ويمكن أن يتجلّى ذلك في كل أبعاده ، ويستطيع أن يفتح سبلاً تؤدّي بالإنسان إلى المجتمع المثالي الذي تتحكّم فيه حاكميّة الله .

ويمرّ الآن على نزول القرآن أكثر من أربعة عشر قرناً اجتازت فيها الإنسانيّة تحوّلات ضخمة ، وقطعت مراحل من النضج والتكامل في مجال أسرار الوجود ، وظفرت بالوعي بمقدار لا يستهان به ، ومع هذا كلّه كان القرآن حاضراً مرفوع الرأس خلال كل مراحل هذه السلسلة من التأريخ ، وكان في كل زمان معرّفاً لنفسه .

فهذه المعجزة ـ في بداية عمرها عندما كانت القدرة الفكرية غير متكاملة عند الناس ـ أثبتت رسالة النبيّ (صلى الله عليه وآله) بشكل يقيني ، وكذا في هذا العصر الحالي حيث ظفرت البشرية بذخائر متناسبة مع مستوى تكاملها في الوعي والعلم والمدنيّة ، فإنها ترى في القرآن دلائل تبعث على الإعجاب تشهد على أنه معجزة تأريخية مستمرّة ، ويعتبر ذلك سنداً حيّاً وعالميّاً على أحقيّة خاتم الأنبياء ، وحتى أن اتساع حجم معلومات الإنسان وافتتاح آفاق جديدة في الفكر هيّأ لنا إمكانيّات ضخمة للاستفادة من القرآن تفوق كثيراً ما كان متوفّراً للناس الذين عاشوا في العصور الماضية .

لو كان للقرآن القدرة على الصمود في فترة زمانيّة خاصّة وفي محدودة مكانيّة معيّنة فقط ، لما أصبح قادراً على التقدّم خلال الزمان بنفس تلك الخصائص المعجزة .

فسّر حياة وأصالة القرآن الخالدة هو أنه دائماً المنبع الأصيل للهـداية المعنويّة اتّجاه كل الحوادث المتجددة على مرّ الزمن .

والتـأريخ شـاهـد على أن ظهـور خـاتم الأنبيـاء وأسلوبـه في العمـل الاجتماعي كان بشرى بوصول الإنسان إلى مـرحلة التفكير والتعقّـل واتّساع مجـال استقلال إرادة الإنسـان ، وهذا يعني أن الإنسـان في مرحلة النضـج العقلي قد انتقل من البحث بالرؤية إلى مرحلة التفكير ، وفي مجال الظواهر الـطبيعيّـة تخلّى عن التفكيـر السـطحي ليبـدأ الـدقّـة في النـظر والعمق في الملاحظة ، وهكذا فهو لا يستسلم لعرض المعاجـز من ألوان الـظواهر غيـر الطبيعية والخارقة للعادة لكي يوجد الإيمان الواقعي كما كان هذا سـائداً في رسالة الأنبياء السابقين .

إن الاتجاه الإيماني بوساطـة العلم والتفكير الـذي يدعـو إليه القـرآن بصورة مستمرّة هو الإعجاز للرسالة السماوية الإسلامية .

والاعتماد الكلّي على المعجزة الحسيّة لا ينسجم مع طبيعـة الرسـالة الخاتمة ، ولا يتلاءم مع تكامل العقل وهدف التحرير ، ولهذا فإن الله سبحانه قد أعدّ البشريّة تدريجيّاً وعلى طول آلاف السنين لهذه الهداية النهائية .

ولا تتحقق قيمـة البحوث القـرآنيـة إلاّ إذا خـلا الـذهن من القـوالب المصنوعة من قبل ومن الترسبّـات السابقـة ، لأن التعصّب والحكم المسبق على أسـاس مفاهيمـه لا ينتج سـوى التحجّر والجمـود ، وهذا هـو المصير المحزن الذي لا بدّ أن يفرّ منه كل باحث منصف واع .

وهناك أمر واقع لا بد من الإذعان له ، وهو أن القرآن أرفع بكثير من أن يعتبر وليد تفكير مجموعة من العلماء ، فضـلاً عن أن يكون نتيجـة جهود أو اقتباس شخص واحد ، بالإضافة إلى أنه إنسان أمّي لم يدرس على يد أحد ، وناشىء في بيئة جاهلة هي بيئة الجـزيرة العـربية التي لم تكن لهـا في ذلك اليوم أيّة علاقة بالعلم والفلسفة .

وكلّما تأمّلنا المنهج الذي قدّمه القرآن لتعالي الإنسان ، ثم قارنّاه بالأنظمة السابقة فسوف نقطع بأنه ليس مقتبساً منها بل هو لا يشبهها ، وإنما هو ظاهرة جديدة تماماً بماهيّة أصيلة غير مسبوقة ، ومن جملة أهدافها تغيير المجتمعات البشرية وتجديد نظامها على أساس العدل والمساواة وحرّية الناس المحرومين والمظلومين .

يتحدّث القرآن الكريم عن تأريخ الأمم السابقة وأحوال الأنبياء الماضين، ويشير بالتفصيل إلى الحوادث والأوضاع التي عاشوها ، ونحن نلمس الواقع بفخامة لا مثيل لها فيما يتناوله القرآن من قصص وحوادث ، ونلاحظ في كل إشارة منه سدى الحقيقة ولحمتها .

واحتمال أن تكون قصص القرآن نسخة طبق الأصل مأخوذة من التوراة والإنجيل ـ هذا الاحتمال منفيّ تماماً ، وذلك لأن للقرآن دوراً إيجابيّاً في بيان تأريخ الأنبياء ، فهو يصحح ويغيّر قصص الأنبياء ويجرّدها من الافتراءات التي لا تلائم فطرة التوحيد وتخالف العقل والرؤية الدينية الأصيلة ، بينما للاستنساخ دور سلبي، فهو دائماً يتميّز بالتقليد والاقتباس .

وللدكتور (موريس بوكاى) وجهة نظر في هذا المضمار يقول فيها :

« في الدول الغربية يتّفق اليهود والمسيحيّون واللادينيّون ـ من دون أيّ دليل ـ على هذه العقيدة، وهي أن محمّداً (صلى الله عليه وآله) قد كتب أو استكتب القرآن مقلّداً للكتاب المقدّس ، ويؤكّدون أن القرآن ينقل في قصصه قصص العهدين حرفيّاً ، إن هذا الموقف يشبه ذلك الموقف القائل أن عيسى قد استلهم العهد القديم في مواعظه وقد خدع معاصريه ، وهو مثله في عدم الصحة؛ فكما لاحظنا من قبل أن جميع إنجيل متى مبني على الاتصال بالعهد القديم ولكن أيّ مفسّر يحمله هذا على سلب صفة النبوّة عن عيسى ؟ .

كيف يمكن تصوّر أنه قبل أربعة عشر قرناً يستطيع رجل أن يتناول قصة

شائعة ويحذف الأخطاء الواردة فيها من وجهة النظر العلمية، ثم يبينُ الواقعيات التي أثبت العلم صحتها في زماننا هذا ؟ .

إن مثل هذا الفرض لا يمكن الدفاع عنه ، فقصّة الخلق في القرآن تختلف اختلافاً كاملاً عمّا ورد في « الكتاب المقدّس » .

ووجود بعض أوجه الشبه بين قصص العهدين والقصص القرآني في مجال التأريخ الديني لا يمكن إنكاره ، ولكنّه من الغريب جدّاً أنهم لا يعترضون على عيسى (عليه السلام) ، بأنه يستنسخ أموراً من هذا القبيل في الإنجيل من تعليمات العهدين ، بينما في الدول الغربية لا يشعرون بتأنيب الضمير عندما يهاجمون محمّداً لهذا السبب ويقولون : لمّا كان يعلن ذلك بما أنه وحي فهو إذن كذّاب ، ولكنّ أحداً لا يسألهم : ما هو دليلكم على أنّ محمّداً قد ذكر في القرآن ما علّمه إيّاه الربّانيّون أو ما أملوه عليه ، وأين هو هذا ؟ إن مثل هذا القول لا أساس له من الصحّة إطلاقاً ، وكذا لا أساس من الصحّة لادعاء القائل ، إن هناك قسّيساً مسيحيّاً قد علّمه تعليماً ممتازاً »[1] .

إن الالتفات إلى هذه الأمور يحمل الإنسان الباحث عن الحقيقة على الاعتقاد بأن منبع القرآن هو الوحي الإلهي ، فهو كتاب كريم وبرهان محكم على الرسالة، ومظهر رائع لإعجاز النبيّ (صلى الله عليه وآله) .

ولهذا أصبح القرآن معجزة عميقة ومضيئة وأبدية للرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) ، بحيث تحفظ دائماً وعلى مرّ العصور التعاليم والأحكام والقوانين الإلهيّة ، فهنا تتجلّى القوانين الإلهيّة في قوالب الألفاظ والجمل المعجزة ، وجرت إرادة الله من هذا الطريق لحفظ دينه مما يكيده الأعداء الحاقدون ، وعندئذٍ تمنى مؤامراتهم كلّها بالخيبة والفشل .

فثبات القوالب التي صبّت فيها الأحكام هو من الخصائص المنحصرة

---

(١) كتاب : « مقارنة بين التوراة ، الإنجيل ، القرآن والعلم » تأليف الدكتور موريس بوكاى ، نقلاً عن الترجمة الفارسية ص ١٧٨ و ص ٢٠٧ .

به ، وحينئذٍ تقطع اليد المتلاعبة للخصوم الذين يحاولون تحريف النصوص والاعتداء على حرمة الأحكام الإلهيّة لتغييرها وتبديلها ، ويمنون باليأس منها إلى الأبد ، وتستمرّ التعلمات والقوانين الإلهيّة الخالدة على مرّ الزمن دون أن تمسّها يد التغيير .

وهناك وجه آخر من أوجه إعجاز القرآن وهو عميق وجذّاب ، إنه الثورة العالمية والحضارة الضخمة التي أوجدها الإسلام في الحياة البشرية ، وتوجد ملاحظة في دراسة الإسلام تستحق النظرة العميقة ،وهي أنه لم يستعن بأيّ عامل خارجي في تشكيل أمّة ومجتمع عالمي ، وذلك من بين شعب يطلب الحرب وهو مبعثر مشتّت محروم من العلم والتفكير الحر ،وما كان حريصاً حتى على اتحاد قبائله ، ثم يضع بهذا أسس حضارة واسعة الأبعاد ، ولا مثيل لها معنوياً ، بل أوجد عوامل لتغيير العالم وقوانينه بالدعوة إلى وحدة الأمم والقبائل والطبقات الاجتماعية،والتحرّك في اتجاه حرّية الفكر والروح العلمية واحترام العلم ، فكل هذا قد نبع من صميم الثقافة القرآنيّة والنظام الإسلامي ، ولم يعتمد في إيجاد شيء من هذا على حكومة أو قوّة خارج المجتمع الذي ربّته يداه وتغلغلت في أعماقه روحه السمحة .

وحتى أولئك الذين احتلّوا الأراضي الإسلامية وهاجموا المسلمين بقوّاتهم المسلّحة وانتصروا عليهم عسكريّاً فإنهم ما لبثوا حتى فقدوا القدرة على مقاومة القوّة المعنوية للإسلام فجاؤوا واعتنقوا دين الأمّة المغلوبة والمهزومة عسكريّاً .

ولم يذكر التأريخ أن مهاجماً ينتصر ثم يعتنق دين الأمّة المهزومة ، ويستثنى من هذا ما جرى بالنسبة للإسلام ! .

طلب القرآن للمعارضة وجهاً لوجه

لقد نزل القرآن باللغـة العربية، وهي إحدى أغنى اللغـات العالميـة ، وتتمتّـع بتركيب محكم وسعـة ثريّـة في المفـردات ، وقـد أشـرق فجـأة في الظلمات الجاهليّة ، ولكنّه لم يكن يشبه اللغة العربيـة المتداولـة آنذاك في خصائصه وطريقة تناوله للمواضيع المختلفة وأدائها في أقصر جملة .

ففي عصر نزول القرآن كانت الملكة الأدبيّة والنشر الأدبي العربي في أوج تفتّحه ، وكانت تجتذب الأنظار تلك الآثار التي أنشأها الشعراء والأدباء الفصحاء في الشعر والخطابة ، وهي تتميّز بجاذبيّـة باعثـة على الإعجاب ، وكانت الآداب تعدّ من مختصّات ومميّزات الطبقة الاجتماعية الممتازة .

في مثل هذه الظروف نزل سنـد النبوّة الإسـلامية « القـرآن » ، وموادّه الأوليّة هي نفس تلك الحروف والكلمات التي كانت متوفّرة لجميع الناس ، وذلك في فترة زمنيّة استمرّت ثلاثاً وعشرين سنة حسب الضرورات الخاصّة ، وهو يهدي النبيّ (صلى الله عليه وآله) وأصحابه خطوة فخطوة نحو الأهداف الرفيعة والمقاصد العالية .

ألفاظه وكلماته وعباراته موزونة ، وتركيب كلماتـه يأسـر القلب ويتميّز بأرفع ألوان الجمال واللطف وبمعان دقيقة ، وهذه الميزة العـظيمة وهي أنـه يحمل في تلك الألفاظ الـرائعة مثـل هذه المعـاني الدقيقـة لهي من مظاهـر

إعجاز القرآن الحكيم .

لقد واجه الشعب العربي عند نزول القرآن كلاماً جديداً وطـازجاً ليس هو شعراً ولا نثراً، ولكن له نغمة أحلى من الشعر وبياناً أبلغ وأسلس من النثر، بحيث كلّما أنصت إليه سامع اجتذبه وأحدث في نفسه انقـلاباً ، وكـان هذا الكلام يختلف بصورة أساسيّة عن كلام الناس من جهة ارتفاع المفاهيم ونقاوة الأسلوب وجمال الظاهر وتقديم المعاني الدقيقة في قوالب لفظيّة قصيرة .

وهو يوفّر للإنسان بقوانينه المحكمة المستقيمة وبمنطقه الواضح طريق الصحّة المعنوية والسلامة البدنيّة ، ويدفع إرادته لتحقيق حماسة تـأريخية لا نظير لها ، ويشعل ناراً تأتي على ركام الخرافـات التي يتعلّق بها الـظالمون ومن يسايرهم .

واتّخذ القرآن طريقة للتفكير تنتهي بالإنسان إلى قلب الحقيقة ، وهـو يشجّع على التفكير بعيداً عن اللجاجة وخلوّاً عن الهوى والتعصّب ، ومنذ بدأ النبيّ (صلى الله عليه وآله) دعوته لتعميم التوحيد دعا الإنسانيّـة إلى النظرة الواقعيّة ، وبيّن لها كيف يتمتّع الإنسان بعيون ينظر بها فيعتبر ، وبآذان يسمع بها فيفكّر؛ إنه يصنع منه مفكّراً عالماً، ويحطّم عنه سلاسل العرف والعادة والتمسّك الأعمى بميراث السابقين ، ويحاول بكل قوّة أن يـذيب إصرارهم على العقائد الملوّثة بالشرك والعصبيّة الممزوجة بالعناد ، ورغم كلّ ما لاقاه من مرارة وعذاب في هذا السبيل فإنه لم يتملمـل ولـم ينهزم حتى قـام بكل الدور الذي أوكله الله إليه لكي ينقذ الإنسان .

ويوجد كثير من المشركين لم يسمحوا لأنفسهم أن يستمعوا للقـرآن ، لأنهم كانوا على علم تام بتأثيره الجارف ، فهم كانوا خائفين أن يتسرّب إليهم وينفذ في قلوبهم فيحتلّها، ثم يجتذبهم نحوه بقوّة لا يستطيعون مقاومتها .

يقول المؤرّخـون :

لقد وصلت شدّة الرغبة والانجذاب الروحي لاستماع القرآن إلى حـد

أن بعض كفّار قريش كانوا يأتون متخفّين ويكمنون ليلاً خلف بيت النبيّ (صلى الله عليه وآله) حتى انتشار ضوء الصباح ، وذلك لكي ينصتوا إلى تلاوة القرآن الساحرة للقلب، التي تتدفّق على لسان رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، وقد تكرر هذا الأمر كثيراً[1] .

ومنذ نزل القرآن الكريم أعلن النبيّ (صلى الله عليه وآله) بكل صراحة أن القرآن من قبل الله سبحانه ، ولا يستطيع أيّ إنسان أن يأتي بمثله ، وإن لم تصدّقوا فجرّبوا ، واطلبوا العون في هذا السبيل من أيّ شخص ليساعدكم ، ولكنّ هذا التحدّي لم يجد جواباً عمليّاً على الإطلاق ، فلم يقم أحد بتقديم ولو سورة قصيرة من مثل القرآن .

ولم يتحدّ القرآن الناس الذين عاشوا في عصر الرسالة وإنما خاطب العالم جميعاً ودعا البشرية في كل عصر وتحدّاها ، ولكي يظهر عجز الناس جميعاً فقد قال في نداء عالمي :

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾[2] .

ثم غيّر أسلوب التحدّي وتنازل ، فقال :

﴿ أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سورٍ مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾[3] .

ثم قلّل شروط التحدّي في المرحلة الثالثة إلى أدنى حدّ فطلب الإتيان بسورة من مثله ، وأعلن :

﴿ وإن كنتم في ريبٍ مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورةٍ من مثله وادعوا

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٢ ـ ٢٣ .
(٢) سورة الإسراء : الآية ٨٨ .
(٣) سورة هود : الآية ١٣ .

شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾[1] .

بينما نحن نعلم أن بعض السور القصار لا تتجاوز آياتها عدّة جمل قصيرة ، وقد أثبت القرآن بهذا التحدّي عجزهم حتى عن الإتيان بسورة قصيرة من مثل القرآن .

والعجيب أن نبيّاً بمثل هذه الذخيرة الأدبية يدعوهم ويتحدّاهم بمثل هذا التحدّي القاسي المتتالي ، وقد كان شخصاً عاش بينهم أربعين سنة لم يساهم خلالها في أيّة مسابقة شعرية ، ولم يحقق عليهم أثناءها أيّ امتياز في فنون الخطابة .

ولا ينبغي لنا أن ننسى كون هذا التحدّي قد حصل بين أمّة قد تعرّضت لخطر جدّي نتيجة لهجوم القرآن ضدّ حاملي لواء الشرك ، وهذا يهدد أموالهم وأنفسهم وشرائعهم القديمة ومراكزهم الاجتماعية بالزوال ، ولو كان بإمكان الشعب العربي معارضة القرآن لاستجابوا لتحدّيه مستعينين بأساتذة الفصاحة والبلاغة الذين لم يكونوا قلّة في ذلك العصر ، ولردّوا برهانه وأبطلوا حجّته ولحقّقوا نصراً تأريخيّاً خالداً .

ويقطع النظر عن هدا فإن ممارسة أيّ أسلوب وطريقة أيّ إنسان في الحديث تجعل الممارس قادراً على تقليده ، ولكنّ هذه القاعدة لا تجري في مورد القرآن الكريم ، فالمداومة على أسلوب القرآن لا تجعل أيّ إنسان قادراً على أن ينشىء مثله ونظيره، وهذا يكشف النقاب عن واقع عميق وخطير،وهو أن تقليد القرآن خارج عن إطار التعليم والاكتساب ، ولم يسجّل التأريخ أبداً تزلزلاً لهذاالإعجاز السماوي ولم يطلعنا على كتاب في وزنه ، ولا نجد حتى بين خطب الرسول (صلى الله عليه وآله) وأحاديثه ما يشبه القرآن من حيث الأسلوب والبلاغة الرفيعة .

ولو كانت القوى المضادّة والخطباء قادرين على إنشاء آثار ترتفع إلى

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٣ .

مستوى القرآن ، لما احتاجت إلى تحمّل الخسارات الباهظة الناشئة من الحروب الدموية ، والمقاومة الصعبة ، والمشاكل العسيرة وإنفاق الأموال ، والبعد عن الوطن؛ بل كانت تحقق النصر عن طريق سهل يسير هو الهجوم الإعلامي والحرب الباردة ، فتخنق النهضة في مهدها في وقت لم تتجاوز فيه مكّة وتجمّد نشاطها .

ومع ان المعارضين قد استخدموا كل قواهم وإمكانيّاتهم للقضاء على هذا الاتجاه ولكنّ مساعيهم قد انتهت إلى العجز ، ولم يستطيعوا تسجيل حتى خطأ أو تقصير واحد في بيان القرآن ، واعترفوا هم بأنفسهم أن لهذا الكلام منزلة أرفع من فكر الإنسان وقدرته على البيان .

لقد سلكت آيات القرآن طريقها إلى أعماق القلوب بسرعة غير مسبوقة ، فتهالك عليها الأبطال ذوو الأفكار الحرّة والحماس المتأجج في الساحات التأريخية الفريدة، وضحّوا من أجلها بالأرواح والأموال ، وتحرّك ضدّها وخالفها عشّاق الجهل والجمود الفكري الذين يحبّون خفّة العقل وسطحية الفكر، ويقضون حياتهم في آبار الجهل المتعفّنة وسراديب الغفلة المقفلة ، ويحاولون أن يسدلوا ستاراً على حقيقة الإعجاز فينسبون « السحر » للقرآن ، ولا يقصد من السحر شيء سوى الجاذبيّة الخارقة والنفوذ العجيب للآيات الإلهيّة .

فأحياناً كانوا يواجهون المسلمين الجدد بالتعذيب والتحقير ، ويخطّئونهم ويهزأون بهم ، أو يضغطون على عقول الناس وأفكارهم فيحولون بينها وبين التفكير الحرّ ، ثم يعارضون بأسلوب طفولي ينمّ عن العجز الواضح ، فيأمرون فئة منهم مثلاً بإيجاد الضجّة والتصفيق أثناء تلاوة الرسول (صلى الله عليه وآله) آيات الله ، لئلا ينجذب الناس لحلاوة الآيات .

ويدلّ الأسلوب الذي اتّخذه زعماء قريش وإصرارهم على الحيلولة دون وصول الدعوة القرآنية إلى مسامع الناس على مدى جديّة النضال

الجاري بين الحق والباطل، وعلى كونه نضالاً مصيرياً .

يقول القرآن الكريم فاضحاً أسلوبهم في الحرص على الحرب والجدال، ومبيّناً دورهم السلبي :

﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوْا فيه لعلكم تغلبون ﴾[1] .

ولكنّ قطع العلاقة الفكرية هذه والتي كانت تتم عن طريق الضغط وفرضها على الناس لم تكن إلّا قصيرة العمر ، وعندما تلقى الأغلال ويزول الخوف عن الأفكار فإن الوضع يتغيّر وحتى بعض زعماء الشرك المتعلّقين بقوّة بأساليب الجاهلية فإنهم كانوا يجلسون على بعد قريب من النبيّ (صلى الله عليه وآله) وبصورة خفيّة خلف ستار الكعبة لكي ينصتوا إلى الآيات التي تمنح الحياة عندما يتلوها النبيّ أثناء الصلاة ، ويدلّنا هذا على أن الصورة التي رسمها القرآن لنفسه إلى أيّ حدّ قد تغلغلت في أرواح الناس وأعماق قلوبهم ، ويعدّ هذا دليلاً على أن المشركين لم يستطيعوا عمليّاً أن يظهروا ردّ فعل إيجابيّاً في مقابل الدعوة القرآنية ، وهذا انهزام في ساحة الصراع المصيري الذي يقرر الحياة أو الموت .

إن هذا الإعجاز يتعلّق بعصر ظهور الإسلام حيث عجز أبطال الأدب عن تقليده ومنافسته ، والآن يمرّ على إعلان تحدّي القرآن أربعة عشر قرناً وقد فتح التقدّم العلمي أمامنا آفاقاً جديدة ، وهيّأ لنا أن نعرف بالإضافة إلى تركيب القرآن الفريد الذي لا يمكن تقليده وبلاغته التي لا يمكن مجاراتها ، هيّأ لنا أن نعرف وجوهاً لإعجازه اللامتناهي في الحقول المختلفة ، ويقودنا هذا إلى الاعتراف بمصدره الإلهي وأنه معجزة مفتوحة وخالدة ، وقد بقي موقف الوحي من المنكرين ثابتاً بلا تغيير ، وبقي النداء السماوي يرنّ في الفضاء ليعلن للعالم أجمع وبصوت مسموع :

---

(١) سورة فصّلت : الآية ٢٦ .

﴿ وإن كنتم في ريبٍ مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾[1] .

ويستطيع الإنسان اليوم أن يستجيب استجابة إيجابيّة لتحدّي القرآن ويأتي بسورة من مثله ليحتلّ قلعة الإسلام ويلغي نبوّة رسوله (صلى الله عليه وآله) في الماضي والحاضر ، ويوجد من بين المتخصصين في اللغة والآداب العربية من هو أشدّ عداوة للإسلام من أيّ إنسان ، ولو كانوا يستطيعون الإتيان بسورة من مثل القرآن بإعجازه الخالد وانسجامه التام لأقدموا على ذلك بلا شكّ ولا ترديد ولقطعوا النزاع وحققوا الانتصار .

لماذا لا يسلك المنكرون لنبوّة محمّد (صلى الله عليه وآله) ، هذا الطريق السهل الذي يقدّمه الإسلام للنضال ضدّه، ويفضّلون الطريق الأبعد الأصعب ويتركون هذا السبيل الذي لا عسر فيه ، ثم يسحقون به الإسلام ؟ .

ألا يدلّ هذا على أن الأبواب موصدة على الإنسان في أن ينافس القرآن ؟ .

يقول العالم الإنكليزي (كيب) :

« حتى إذا بعثرنا كلمات القرآن فإننا لا نستطيع إعادة صياغتها إلّا إذا أعدنا كلّاً منها إلى مكانه الأصيل » .

فمع مرور زمان طويل ولكنّه يوجد لدينا صورة واضحة لخصائص نبيّ الإسلام رسمتها الوثائق التأريخية ، ويتفق المؤرّخون على أن النبيّ قد نهض وهو أمّي لم يعرف الكتاب ولم يتعلّم الكتابة ولم يكن له أستاذ ، ويصرّح القرآن بهذا أمام مجتمع عاش النبيّ (صلى الله عليه وآله) بين ظهرانيهم طيلة حياته فيقول :

﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطّه بيمينك إذاً لارتاب

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٣ .

المبطلون ﴾[1] .

وهو يعتمد على هذا السبيل لإثبات كون رسالته إلهيّة .

أيمكن أن يعلن إنسان على خلاف الواقع الموجود ، وأمام عامّة الناس في مجتمعه أنه أمّي لم يشارك في درس ثم لا يفتح أحد فمه بالاعتراض عليه ؟ .

وقد كانت بيئة ذلك اليوم مظلمة وغريب عليها الأستاذ والعالم ، ولا يتوفّر فيها درس ليحضر فيه ، وكان عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة ضئيلاً جدّاً لا يتجاوزون عدد الأصابع ، ولم يشر المؤرّخون إلى مورد واحد يؤكّد أنه قرأ سطراً أو كتب كلمة قبل بدء رسالته .

والأعجب من كلّ ما مرّ أن إنساناً أمّيّاً لم يتعوّد الدرس يصبح بطل الحركة العلمية وحامل لواء الحريّة الفكرية .

وافتتحت البشرية مرحلة جديدة من التقدّم ببدء نبوّته واقتحامه الساحة التأريخية، وقد قفز بأمّته بما يشبه البرق فأوردها عالم الكتابة والعلم، وأسس نهضة للمجتمع العربي المتأخّر جعلته يبني حلقة ضخمة من الحضارة والثقافة العالمية ، وبعد مرور عدّة قرون قدّم للعالم أعظم المؤسسات العلمية وأعمق العلماء الباحثين .

يقول (كونستان ورجيل جيورجيو) :

« مع أنه كان أمّيّاً فأوّل آياته النازلة تتحدّث عن القلم والعلم والتعلّم والتعليم ، ولا نعرف شريعة اهتمّت منذ بدايتها بالعلم والمعرفة إلى هذا الحد، ولو كان محمّد (صلى الله عليه وآله) عالماً لما أثار نزول القرآن في غار « حراء » أيّ غرابة ، لأن العالم يعرف قدر العلم ، ولكنّه كان أمّيّاً لم يتعلّم عند أيّ أستاذ. وأنا أهنّىء المسلمين على أن دينهم في بدايته يهتمّ

(١) سورة العنكبوت : الآية ٤٨ .

بكسب المعرفة ويعيرها قيمة عظيمة »[1] .

يقول الدكتور (واجليرى) الأستاذ في جامعة نابل في كتابه :

« إن الكتاب السماوي للإسلام نموذج معجز ، لا يمكن تقليده ، وهو غير مسبوق في أسلوبه وتنظيمه في الآداب العربية ، وتأثيره الخاص في الروح الإنسانية ناشىء من امتيازه وروعته ، فكيف يمكن أن يكون مثل هذا الكتاب من إبداع محمّد (صلى الله عليه وآله) ، بينما كان محمّد عربيّاً لم يدرس العلم من قبل .

ونحن نلاحظ في هذا الكتاب خزائن من العلوم تفوق سعة عقل أكبر الفلاسفة والسياسيّين ، ولهذا السبب أيضاً فإنه لا يمكن عدّ القرآن أثراً من آثار فرد متعلّم قد اكتسب العلم »[2] .

ويقول (بورس ورث سميث) في كتابه المسمّى (محمّد واعتناق الإسلام) :

« إنني أؤمن بكلّ جرأة أنّ يوماً سوف يأتي تشهد فيه أرفع الفلسفات والعلوم الإنسانيّة ، وأصدق أصول المسيحيّة أن القرآن كتاب إلهيّ وأن محمّداً رسول الله ، أجل إنه نبيّ لم يدرس في مدرسة ولم يدخل مكتباً، قد اصطفاه الله وأنزل على يديه القرآن فشيّد المكتبات المليئة بألوان الكتب ، ووضع تحت اختيار الناس مذاهب وفلسفات وقوانين وأنظمة تربوية وفكرية وآيديولوجية ومعارف متنوّعة .

بزغ في بيئة لم تخبر العلم ولم تجرّب الحضارة، وكان في المدينة بأجمعها أحد عشر إنساناً يعرف القراءة والكتابة ، وكان في قبيلة قريش الكبيرة والمنتشرة في مكّة وأطرافها سبعة عشر رجلاً فقط يقرأون ويكتبون .

فأوجدت تعاليم القرآن الذي تكرّم أولى آياته العلم والقلم تحوّلاً عظيماً

---

(١) محمد ذلك النبيّ الذي لا بدّ أن يعرف من جديد ص ٤٥ .

(٢) التقدّم السريع للإسلام ص ٤٩ .

في هـذا المضمار ، وأصبح العلم بحكم الإسلام فـريضة على كـلّ مسلم ومسلمة ،وغدا مداد الكاتبين والعلماء أفضل من دماء الشهداء .

فعن طريق توجيه القرآن ، وفي ظـلّ العلوم والمعارف القـرآنيّة تـربّى عدد لا حصر له من العلماء ، وألّفت كتب لا عدّ لها ، ونشـأت تخصصات علميّة متنوّعة استمدّت حياتها من القرآن، ثم نشرها المفكّرون المسلمون في أرجاء العالم، فاستنارت الدنيا بفضل نور القرآن والمجتمع الإسـلامي الذي أحياه القرآن » .

*

علاقة القرآن بالعلم الحديث

يمكن للباحث أن يقيّم القرآن من جوانب مختلفة ، منها ناحية الألفاظ والجمال الفنّي ، فنظامه ليس شعراً ولا نثراً ، ليس شعراً لأنه يفتقد الخصائص الشعرية من تخيّل ومبالغات مجازية ، وليس نثراً عاديّاً لأن فيه نغمة خاصّة به تلائم الانفعال المعنوي والروحي الذي ينكر الصبغة القومية والثقافة المغلقة، ويسري تأثيره وجاذبيّته المنقطعة النظير لتشمل جميع أفراد الناس الذين يفهمون لغة القرآن .

أمّا من الناحية الفكرية والعلمية فالقرآن الكريم ، لم يكن هدفه اكتشاف الظواهر العلمية والحركات الطبيعية ، والحوادث الجارية في نظام الوجود،ثم إخضاعها لسيطرة مجموعة من القوانين لتوضيح خواصّها وطريقة عملها ، ولا بدّ أن لا ننتظر من القرآن أن يتناول البحث في التخصصات العلمية المختلفة وأن يبيّن المسائل المتعلّقة بمثل هذه المواضيع ، وأن يحلّ المشكلات المتنوّعة التي تملأ ساحة البحث العلمي ، وذلك لأن القوّة التجريبية والاستعداد للقيام بالبحوث العلمية مغروسة في أعماق النفس البشرية ، ويستطيع الإنسان بما لديه من قوّة التفكير أن يظفر بالعلم وفنون الحياة ، وأن يتقدّم بخطوات واسعة جدّاً في سبيل بسط سلطته على العوامل الطبيعية نتيجة لمحاولاته المستمرّة ، وبالإضافة إلى هذا فإن جميع هذه الأمور خارجة عن أهداف كتاب تربوي .

إن الهدف الذي يحرص عليه القرآن هو تربية الإنسان ليعرف واجبه، وتقوية وتسريع حركته للتعالي الروحي والتكامل المعنوي بكلّ أبعاده وآفاقه، لإيجاد الإنسان الرفيع والفاضل .

وإيجاد مثل هذا الإنسان يحتاج إلى إصلاح الجيل من جميع الجهات وتغييره من كل الجوانب، وإلغاء القيم الفارغة والمقاييس الجاهلية الفاسدة، وبالتالي تربية القوّة المنتجة التي لا تيأس من المحاولة ، ويذيب هذا الاتجاه القرآني روح الإنسان ثم يصوغها من جديد في قالب آخر فيمنحها تركيباً جديداً قيّماً ثريّ المحتوى .

ولهذا يصرّ القرآن على دعوة الإنسان إلى التأمّل والتفكير والرؤية الواقعية لكي يحمله على التعقّل والتعليم والتعلّم .

وفي الآيات الأولى للقرآن تعظيم رائع للقلم وطلب العلم ، وهو يشجّع على مطالعة الطبيعة التي هي من أقوى منابع المعرفة للإنسان، للتعمّق فيها والانتقال إلى حدود ما وراء الطبيعة ، وقد تمّ كل هذا في ظلّ تعاليم الإسلام والنهضة العلمية التي أوجدها القرآن، فكوّن أمّة متحرّكة منتجة تتمتّع بالعلم والفضائل العالية . وقد كانت وجهة نظر الإسلام هذه هي التي فتحت الباب على مصراعيه لسائر التحوّلات التي سجّلها التأريخ .

يقول المحقق المعروف إقبال اللاهوري :

« إن ظهور وولادة الإسلام هو ظهور وولادة العقل البرهاني والاستقرائي ، إن الالتفات الدائم للعقل والتجربة في القرآن، والأهميّة التي يعيرها الدين الإسلامي المبين للطبيعة والتأريخ بعنوان أنهما منبعان للمعرفة البشرية ، كل هذه علاقات مختلفة تشير وتؤكّد شيئاً واحداً، وهو أن هذه الرسالة هي خاتمة الرسالات .

والتجربة الباطنيّة هي منبع واحد من منابع المعرفة البشرية ، ويوجد حسب مقياس القرآن منبعان آخران للمعرفة هما التأريخ وعالم الطبيعة ، ولا

تتجلّى الـروح الإسلاميـة بأرفـع درجاتهـا إلّا بـاستفـراغ الجهـد في هـذين المجالين من المعرفة »[1] .

وكـل لون من المحـاولات العلمية المبنيّـة على أساس تكـريم العقل والنضج الإنساني ، وتحرير الفكر من أغلال الأسر ، وتوفير الأرضية الصالحة لنموّ واتّساع العلوم الطبيعية ـ كل هذه مدينة للطريق والأسلوب الذي أشاعه الإسلام .

والقرآن ضمن حرصه على هذا الهدف العظيم القيّم فإنه يتضمّن بعض المعـارف البشريـة في التخصصات المختلفـة ، بمـا يتنـاسب مـع الـزمـان والضرورة ، وهو يحتوي أسراراً من عالم الوجود لا يمـكن اعتبارهـا حصيلة العلوم في زمان نزول القرآن أو معلولة للصدفة ، وذلك لأن المعارف القرآنية في تجلّياتها الرفيعة تنعكس بمـوازاة سعة دائـرة المعارف البشـرية مـع تلألؤ أعظم ،ونلاحظ ذلك في جميع المجالات العلمية المختلفة .

إن الإنسانيّة في العصر الراهن وارثة للعلوم والتحقيقات التي قـام بها مـلايين المفكّرين والعلمـاء ، الـذين تفـرّغـوا للبحث والتحقيق في الأسس العلمية ، وقد عبّدوا الطريق لاكتشاف أسرار الـوجود بـإبداعهم وخـلّاقيّتهم الـذهنيّة ومحـاولاتهم الخطيـرة ، أما في عصـر نزول القرآن، ذلـك العصـر المشهـور بالعصـر الجاهلي الفـارغ من العلم ،فلم يكن هناك تفكير ناضـج ومبتكـر بحيث تسيـطر الـروح العلميـة على جميـع جـوانبـه ، ولم يكن من الممكن لأيّ إنسان معرفة أسرار هذه الآفاق المجهولة .

والقرآن في بيانه لأسرار الوجود يتناول المسائل بالتصريح عندما تكون الصراحة مطلوبة ، وهو يتناولها بالإشارة والتلميح عندما يتعقّد إدراك الحقائق ويصبح من العسير على الناس في ذلك العصر هضمها ؛ فهو يشير إليها حتى تتهيّأ الأذهان ، وبتقدّم الزمان ونضج العقل واتساع العلم وفكّ أسرار الطبيعة

---

(١) إحياء الفكر الديني في الإسلام ص ١٤٦ .

تصبح هذه الأمور قابلة للإدراك من قبل الناس .

ويقدّم العلماء والمحققون المسلمون في مجال بيان محتوى القرآن وضخامة ثروته المعنوية كل يوم جديداً نتيجة للتحقيقات والدراسات المكثّفة ، ولا يعقل بإزاء هذه الثروة المعنوية أن يكون هذا المنبع العظيم الذي لا ينفد من نتائج فكر واستعداد إنساني .

إن عملاً من الأعمال إذا تحقق من طريق العلل الطبيعية فإن هناك احتمالاً في نفس ذلك العصر أو في المستقبل بأن يقوم أفراد بما يشبه ذلك العمل ، أمّا إذا تمّ العمل خارج المجرى الطبيعي الظاهري بحيث يفوق القوانين والمقاييس الطبيعية ، فإن جميع الناس سوف يكونون أمامه عاجزين صاغرين .

وبالنسبة إلى إعجاز القرآن فإنه قد فاق كلّ الموازين والأصول، وغدا هذا الكتاب بأسره خرقاً للعادة .

يقول الدكتور (واجليري) الأستاذ في جامعة نابل :

« يخبر القرآن المقدّس عن حوادث المستقبل علاوة على تناوله للمواضيع المتنوّعة ، وهو يبيّن بعبارات جذّابة وواضحة حوادث الماضي التي لا علم للناس بها من الطرق العادية ، وعلاوة على هذا فهو يضمّ آيات عديدة تبيّن القوانين الطبيعية والعلوم المختلفة ، وتناوله لهذه المواضيع العلمية دقيق وبعيد عن الأخطاء إلى الحدّ الذي تهبط أمامه منزلة رجال العلم والفلاسفة والسياسيين »(١) .

قلنا إن إشارة القرآن إلى الحقائق العلمية هي بعنوان كونها مقدّمات ومسائل ثانوية للوصول إلى الهدف الكبير المهم ، إذن لا يمكن اعتبار القرآن كتاباً فنّياً متخصصاً يتناول هذه المسائل من وجهة النظر العلمية .

---

(١) نداء الإسلام من قلب إيطاليا ص ٥٥ .

لقد أشار القرآن إلى شيء من جوانب الوجود في مجالات الإنسان والأرض والسماء والنبات، ولكنّه ليس صحيحاً أن نتصوّر أنّ تناوله هذا كان بهدف عرض مسائل العلوم الطبيعية ورفع الإبهامات المتعلّقة بها ، وإنما هدف القرآن هو توضيح الأمور المتعلّقة بالحياة المعنوية للإنسان ، والتي تساعد على تأمين حياة سعيدة وتؤدّي إلى ارتقاء وارتفاع النوع البشري .

وعلاوة على هذا فإن القرآن يتناول الواقعيات العلمية ، بحيث يمكن إفراغها في قالب الاصطلاحات العلمية لكل زمان من دون أن يستغل الاصطلاحات الفنّية الخاصّة ، وذلك لأن الحقائق العلمية والقوانين المسيطرة على الظواهر وإن كانت ثابتة ولا متغيّرة في حقيقتها فقد كانت منذ البدء وسوف تبقى إلى النهاية ، ولكنّ الاصطلاحات العلمية تتغيّر صورتها في كل زمان وتقدّم للناس في قوالب جديدة .

وهذه نماذج من هذه المسائل نتناولها بشكل مختصر مقيّمين ذلك ، وتجدر الإشارة إلى أن دراسة القرآن لما يجري في عالم الوجود إنما هي تقرير لمجموعة من الحقائق التي لا يمكن إخضاعها جميعاً لعالم الحسّ، بل يستطيع الإنسان إدراكها بفضل الوسائل العلمية الخاصّة والمعارف المتميّزة .

* *

(١)

إن فرضيّة (لابلاس) هي أشهر فرضيّة في مورد ظهور المنظومة الشمسية ، وقد ردّ العلماء بدراساتهم وبحوثهم معظم آرائه فيها ، ولنا معه كلام آخر في مجال عوامل إيجاد هذه المنظومة ، ولكنّ الذي يجمع على صحّته اليوم كلّ الأوساط العلمية في العالم إنما هو الأصل الذي جاءت منه هذه الكرات وهو « السديم » الذي هو كتلة من الغاز، وقد كانت السماوات والأرض قطعة واحدة متّصلة ثم انفصلت عن بعضها .

والقرآن أيضاً يذكر هذا الأمر قبل نشر هذه الفرضيّة العلمية بقرون متطاولة ، فهو يقول عند الحديث عن كيفيّة خلق السموات :

﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾[1] .

﴿ أو لم ير الذين كفروا أنّ السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ أفلا يؤمنون ﴾[2] .

يقول العالم الأمريكي المشهور (جورج جاموف) :

« كما نعلم أن الشمس قد وجدت من غازات سابقة قد تراكمت، ثم أخذت الشمس تبعث من داخلها مجموعة من الغاز إلى الخارج ، وبعد أن انقطعت عنها كوّنت السيّارات ، أمّا كيف وجدت هذه المواد السديمية الحارقة وما هي العوامل التي ساهمت في إيجادها ومن الذي وفّر المواد الأوليّة اللازمة لتركيبها ؟ .

إن هذه أسئلة مطروحة للبحث في مورد كرة القمر وكلّ سيّارة أخرى في المجموعة الشمسيّة ، وهي تشكّل العماد الأساسي في نظريّات « معرفة الكون » ، وهي أيضاً من المعمّيات التي شغلت عقول علماء الفلك والهيئة قروناً من الزمن »[3] .

ويقول العالم الإنكليزي (جيمس جينز) ؛

« قبل قرون عديدة تقدّر بالمليارات مرّ نجم بالقرب من شمسنا فأوجد فيها ضباباً مهيباً ، وأصبحت المادة المنفصلة من الشمس بصورة سيجارة طويلة ثم انقسمت هذه المادة ، فالقسم الأكبر من السيجارة كوّن السيارات الأضخم والقسم الأصغر منها كوّن السيّارات الأقلّ حجماً »[4] .

تلك الآية القرآنية تصرّح بأن المادة التي خلقت منها السموات هي « الدخّان » أو الغاز ، وهذا يدلّ على عمق وواقعيّة محتوى هذا الكتاب ،

---

(١) سورة فصّلت : الآية ١١ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٣٠ .

(٣) تاريخ الأرض ص ٤٣ .

(٤) النجوم بلا تلّسكوب ص ٨٣ .

والعلماء جميعاً يعتقدون أن السديم غـاز فيه خليط من المـواد الحديـدية ، وكلمة الدخّان تشمل الغـاز والحديـد ، وهذا هـو أفضل تعبيـر علمي يمكن استعماله في هذا المجال .

أليس تناول هذه المسألة بهذا العمق، وتوضيح أن السيّارات قد جاءت من شيء واحد عظيم ثم تفكّكت عن بعضها ـ وقد كشف الستـار عن هذا السرّ العظيم في عالم الطبيعة بينما كـان مستوى أفكـار الناس وعلمهم أيّـام نزول القرآن متـدنّياً إلى حـدّ بعيد ـ أليس هـذا دليلاً على الإعجـاز العلمي للقرآن ؟ .

ألا يثبت بيان هذه الأسرار وتطابق ذلك مع أحدث ما اكتشفه المحققون في علم الفلك على أن صـاحب هـذا الكتـاب عـالم بكـلّ أسـرار وحقـائق الوجود ؟ .

* *

(٢)

من المسائل العلمية الدقيقة مسألة الاتّساع المستمرّ في الكون ، وقد كانت هذه المسألة من المجهولات حتى القرن الأخير ، أمّا القرآن فهو يذكر هـذه الحقيقة المجهـولة لـدى الناس ممـا يـدلّ على عمق نـظرتـه في هـذا المضمار ، فيقول :

﴿ **والسماء بنيناها بأيدٍ وإنّا لموسعون** ﴾[١] .

فهذه الآية تتحدّث بشكل قاطع عن توسعة العالم والسحب والمجرّات بينما لم يمرّ على اكتشاف الاتّساع في العالم من وجهة النظر العلمية قرن من الزمان لحدّ الآن .

يقول العالم الشهير (لنكلن بارنت) :

---

(١) سورة الذاريات : الآية ٤٧ .

« إن علماء الفلك يلتفتون شيئاً فشيئاً إلى أن هناك حركات منتظمة يشاهدونها في المجرّات البعيدة جدّاً ، والتي تقع في آخر مدى تلّسكوباتهم ، وتبدو هذه المجرّات أنها تبتعد عن بعضها وعن الشمس وأقمارها ، وهذا الابتعاد المنتظم لهذه المجرّات التي تقع أقربها إلينا على بعد خمسمائة سنة ضوئيّة يختلف اختلافاً أساسيّاً عن الحركة الهادئة التي تحدثها الجاذبية عندنا ، وقد يكون لهذه الحركات المنتظمة دور في أنحاء الكون ، إذن ليس العالم في حالة سكون ولا تعادل ، وإنما هو كفقاعات الصابون في الماء فإنها تنتفخ وتتسع .

ولكون هذه المجرّات تبتعد باستمرار عن بعضها وعنّا ، إذن يمكن فرض مجيء زمان في عمر الكون تجتمع هذه مع بعضها لتشكّل شيئاً واحداً ملتهباً حارقاً »[1] .

ويقول (جان ففر) :

« العالم في حالة انبساط، فإلى أيّ جهة نظرنا وجدنا المجرّات تبتعد عن بعضها وتزداد المسافة الفاصلة بينها كلّ آن ، وتبتعد عنّا أبعد المجرّات بأقصى سرعة ، فمثلاً بعض المجرّات في الفترة التي تقرأ فيها أنت هذه الجملة تكون هي قد أضافت إلى المسافة التي تفصلها عن الأرض ما يقارب المئتي ألف ميل .

والكائنات تعيش حالة الابتعاد عن بعضها كأنّها رصاصة قد انفجرت في الهواء ،وهذه المجرّات هي شظاياها التي تبتعد عنها بسرعة .

وفي الواقع فإن نظرية الانفجار العظيم قائمة على مثل هذا الفرض ، وحسب هذه النظرية كان هناك زمان مجتمعة فيه مادة الكون موجدة جرماً متراكماً عظيماً،ثم اصطدم معدن معلّق في الفضاء مع جرم أكبر من الشمس مئات المرّات ، أو كانت قنبلة معدّة للانفجار في ذلك الوقت قبل عشرة

---

(١) العالم وأنشتين ص ١١٢ .

بلايين من السنين وانفجرت باعثة كميّات هائلة من الإشعاعات تبهر العيون ، وتبعثرت مادة في الفضاء على أثر هـذا الانفجار العـظيم ، وهي باقيـة الآن بشكل غازات وإشعاعات ومجرّات في الفضاء،وهي في حالة انبساط مبتعدة عن بعضها بسرعة عظيمة »[1] .

وقد لفت القرآن الكريم أفكار الناس وأنظارهم إلى مـا في العالم من نظام وعظمة وتعقيد في الخلق ، ويذكّر بأن آيات صنع الله منتشرة في جنبات الوجود بحيث إذا فكّر فيها الإنسان بشكل صحيح فإنه لا بدّ أن يؤمن بالقدرة اللامتناهية للخالق العظيم،ولابدّ أن يخشع أمامها، ونحن نقرأ في سورة آل عمران :

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب * الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكّرون في خلق السمــوات والأرض ربّنـا مـا خلقت هـذا بـاطـلاً سبحـانـك فقنـا عـذاب النار ﴾[2] .

* *

(٣)

يتحدّث القرآن عن العامل الذي يحفظ كلّ كـرة سماويـة في مدارهـا الخاص بها ، فيقول :

﴿ الله الذي رفع السمـوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش ، وسخّر الشمس والقمر كـلّ يجري لأجـل مسمّى يدبّـر الأمر يفصّـل الآيات لعلّكم بلقاء ربّكم توقنون ﴾[3] .

---

(١) من المجرّة إلى الإنسان ص ٤٧ .

(٢) سورة آل عمران : الآيتان ١٩٠ ـ ١٩١ .

(٣) سورة الرعد : الآية ٢ .

ونحن نعلم أنه قبل (نيوتن) الشخصيّة العلمية المعروفة عالميّاً لم يكن أحد يعرف الجاذبيّة العامّة ، وصحيح أن نيوتن قد قام باكتشافات كثيرة في جوانب علمية مختلفة ، ولكنّ اكتشافه الجاذبيّة العامّة قد منحه الشهرة العالمية أكثر من أيّ شيء آخر .

فقد أثبت نيوتن أن سقوط الأجسام على الأرض ودوران القمر وأقمار المشتري وكلّ حركات السيّارات إنما هي تابعة لقانون واحد وهو قانون الجاذبية العامّة ، ومن أعقد المسائل التي واجهها نيوتن هي إثبات كون قوّة الجاذبيّة المنبعثة من جسم كرويّ هي نفسها فيما إذا تركّز الجسم كلّه في مركز تلك الكرة ، وما لم يتمّ إثبات هذه القضيّة فإن نظرية الجاذبية العامّة تبقى بصورة لون من الإبهام والمكاشفة دون أن تكون مبنيّة على أساس حسابات دقيقة وبرهان رياضي محكم »[1] .

إن الآية السابقة الذكر تنسب بقاء الكرات السماوية في الفضاء ودورانها في مدارها إلى أعمدة غير مرئية ، أفتكون هذه الأعمدة اللامرئية التي تحفظ الكرات من الاصطدام والسقوط شيئاً غير القوّة التي نسمّيها بالجاذبية العامّة ، والتي هيّأها الله سبحانه للكرات السماوية ؟ .

لقد استعمل القرآن لنقل هذه الحقيقة العلمية تعبيراً يدركه الإنسان في كل عصر .

وقال الإمام الثامن (عليه السلام) في مورد هذه العبارة العامّة مخاطباً أحد أصحابه :

« سبحان الله ، أليس الله يقول : بغير عمد ترونها ؟ قلت : بلى ، فقال : ثمّ عمد ولكن لا ترونها »[2] .

* *

(١) العلماء الكبار البارزون في آفاق العلم ص ٤٩ .
(٢) تفسير البرهان ج ٢ ص ٢٧٨ .

(٤)

إن القرآن ضمن إبطاله لرأي الماديين القائلين بفناء الإنسان وانعدامه فهو يثبت الحركة التكامليّة للكون ، فيقول :

﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها وما لها من فروج ﴾. ﴿ أفعيينا بالخلق الأوّل بل هم في لَبْس من خلق جديد ﴾[1] .

يعني أن الذين يظنّون كون العالم في حالة وقوف وركود إنّما هم مخطئون، وقد حصل هذا نتيجة لقصر أنظارهم ولضيق آفاقهم، بل العالم في حركة مستمرّة وتتصل الحركة العامّة للكون بحركة الإنسان، وحتى بعد الموت أيضاً فإن الحركة الروحية للإنسان تمتدّ حتى مجيء اليوم الموعود الذي ينال فيه الإنسان ما وعده الله ، ولا تتوقّف حركته بالموت إطلاقاً .

ولا يكتفي القرآن بعرض هذا الموضوع العلمي الدقيق من الناحية الفلسفية الجافّة فقط ، وإنّما تطرح هذه المسألة المثيرة للاستغراب من قبل شخص أمّيّ لم يمارس الدراسة ، وهو يعيش في بيئة مظلمة محرومة من أيّ سابقة فلسفية خلال تأريخها، ثم يضيف إليها حقيقة حيوية بالنسبة للإنسان وهي مسألة بقاء الروح ووجود يوم البعث والحساب ، وبالتالي بيان مسؤوليّات الإنسان في ساحة الحياة .

ويشير القرآن أيضاً إلى حركة الأرض الداخلية « حركة الأرض حول محورها » ، فيقول :

﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب صنع الله الذي أتقن كلّ شيء إنه خبير بما تفعلون ﴾ [2] .

إن هذه الآية تشير إلى الحركة الداخلية الديناميكية للجبال ، فتقول بأنكم وإن ظننتم الجبال جامدة لا نموّ لها ولا حركة داخلية ، ولكنّ الواقع

---

(١) سورة (ق) : الآيتان ٦ و ١٥ .

(٢) سورة النمل : الآية ٨٨ .

ليس كما تظنّون ، فهذه الجبال التي تبدو لكم جامدة لا حركة فيها إنما هي مثل السحاب الذي تحسّون به وترونه وهو ينمو ويتقدّم ، ولا يتم تحوّل أيّ شيء ولا يستحكم نظامه إلاّ بوساطة هذه الحركة ، وهذا من صنع الله وتفضّله ، أي أن قانون الحركة مسيطر على كلّ أجزاء الطبيعة وظواهرها وهو سبب استحكامها واستقرارها .

ويحتمل أن يكون اختيار هذا التعبير في القرآن لجهة وزن الجبال الثقيل وشدّة استحكامها ، ولإظهار قدرة الخالق العظيم وأنه قادر على إنجاز أيّ شيء .

* *

(٥)

مع أنه لم يمرّ أكثر من ثلاثة قرون من الزمان على نظرية (جاليليو) ، بشأن حركة الأرض التي فاجأ بها الأوساط العلمية مدعمة بأدلّة كافية ، ولكن حديثه الذي كان في عصر قريب من عصرنا ـ وهو يعتبر سكون الأرض وكونها مركز العالم من الأصول المسلّمة والضروريات العلمية التي لا تقبل الترديد ـ قد أثار موجة من المعارضة مقرونة بالغضب والكره ، أمّا القرآن الكريم فهو يشير إلى ملاحظات مهمّة تتعلّق بحركة الأرض وأسرار الجبال ، وذلك وسط بيئة جاهليّة غارقة في الظلام ، وهي تبيّن حقائق علمية معقّدة في ذلك العصر ، حيث يقول :

﴿ **ألم نجعل الأرض مهادا * والجبال أوتادا *** ﴾[١] .

﴿ **وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم** ﴾[٢] .

فالقرآن يشبّه الأرض بالمهد لأن المهد مكان آمن وهو في نفس الوقت

---

(١) سورة النبأ : الآيتان ٦ و ٧ .

(٢) سورة لقمان : الآية ١٠ .

متحرّك ، ويغيّر التشبيه في آية أخرى ، فيقول :

﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا ﴾[1] .

إشارة القرآن إلى حركة الأرض جاءت في عصر كانت تسيطر عليه منذ خمسة عشر قرناً نظرية (بطليموس) القائلة بسكون الأرض وكونها مركز الكون، وكان العلماء والمفكّرون جميعاً حينذاك تابعين لها ، والقرآن هو الكتاب السماوي الذي سبق (جاليليو) بألف عام رادّاً هذا الطراز من التفكير المبني على الظن .

والسبب في أن الآية السابقة تعتبر الجبال بمنزلة مسامير تحفظ الأرض من التشتت ، هو أن هناك طبقة خفيفة وناعمة من التراب والرمال تغطّي قشرة الأرض، فإذا كانت خالية من الجبال الصلبة الثقيلة الوزن فإنها سوف تقع تحت تأثير جاذبية القمر، ويزول منها الاستقرار وتتعرّض للهزّات والاضطرابات الخطرة، ويكتسح المدّ والجزر كرتنا الترابية ويدمّرها .

ولكنّ وجود الجبالِ يكون كالمسامير الشديدة المقاومة تحفظ الأرض من الدمار والتفتّت، وتؤدي دوراً حسّاساً للغاية في هذا المجال، وتبقى هزّات خفيّة واضطرابات لا ترتفع إلى الحدّ الذي تسلب فيه الراحة والاستقرار من حياة الناس .

وعلاوة على هذا فإن الكيان الصلب للجبال العظيمة يقف حائلاً أمام القوّة المخرّبة لأمواج المواد الذاتية وغازات باطن الأرض ، وينظّمها ويمتصّ منها القدرة التخريبية إلى حدّ بعيد ، ولو لم تشهق رؤوس الجبال من على سطح الأرض لعرّضت كرتنا المسكونة دائماً لضغط المواد الذاتيّة، ولغدت بحراً هائجاً متلاطماً، ولتغيّرت صورتها الحالية تماماً .

إذن بما أن الجبال كالمسامير للأرض فهي التي تضمن لهذه الكرة الترابية السكون والهدوء .

---

(١) سورة الملك : الآية ١٥ .

أمّا مسألة كون الأرض كروية فالقرآن يتعرّض لها بصورة كناية ، فيقول :

﴿ **فلا أقسم بربّ المشارق والمغارب** ﴾[1] .

ومن الواضح أنه يلزم من تعدد المشرق والمغرب أن تكون الأرض كروية ، فبسبب حركتها الوضعية حول محورها يصبح عدد المشرق والمغرب ونقاط طلوع الشمس وغروبها كثيراً جدّاً ، وذلك لأن كل نقطة من الأرض وفي أيّ لحظة تكون مشرقاً لأناس ومغرباً لآخرين .

ألا تفتح هذه الحقائق أعيننا وبصائرنا على ما في هذا الكتاب السماوي من عمق في المعاني وواقعية في الرؤية .

* *

(٦)

يتناول القرآن العوامل المكوّنة للّبن الحيواني بطريقة تتّفق تماماً مع نتائج العلم الحديث ، وهذا هو حديث كتاب الله :

﴿ **وإنّ لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم ممّا في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين** ﴾[2] .

يقول الدكتور (موريس بوكاى) في كتابه :

« من وجهة النظر العلمية لا بدّ لفهم معنى هذه الآية من الاستعانة بعلم وظائف الأعضاء .

إن المواد الأساسية التي تؤمّن للبدن ما يحتاج من غذاء تأتي من التبدّلات الكيميائية الحاصلة في طول جهاز الهضم ، وتتكون هذه المواد من

(١) سورة المعارج : الآية ٤٠ .

(٢) سورة النحل : الآية ٦٦ .

العناصر الموجودة فيما تحتويه الأمعاء ، وعندما تصل هذه العناصر في الأمعاء إلى مرحلة التغيّر الكيميائي تمرّ عبر جدار الأمعاء نحو التيّار العام المتحرّك، إن هذا العبور يتمّ عن طريقين : إمّا مباشرة بوساطة العروق اللنفاوية ، وإمّا بطريق غير مباشر بوساطة الدوران، وفي هذه الصورة تذهب هذه الموادّ أوّلاً إلى الكبد وتحدث فيها هناك بعض التغييرات ، ثم تخرج منه لتلتحق بالتيّار العام ، وعلى هذا فإن جميع المواد تنتقل بوساطة حركة الدم .

والعوامل المكوّنة للّبن تترشّح من الغدد المغروسة في الثدي ، وتتغذّى هذه الغدد من نتائج هضم الغذاء التي تأتيها بوساطة حركة الدم .

إذن أصبح للدم دور امتصاص ونقل المواد المستخرجة من الأغذية لحمل الغذاء إلى غدد الثدي المولّدة للّبن ، وهو نفس الدور الذي يقوم به لخدمة أيّ عضو آخر .

فهنا في مجال الأمعاء كلّ شيء يعمل من أجل المواجهة واللقاء بين محتويات الأمعاء والدم ، إن هذه الحقيقة الرائعة من نتائج ومنجزات كيمياء وفسلجة الهضم ، التي لم تكن معروفة على الإطلاق في زمان النبيّ محمّد (صلى الله عليه وآله) ، وقد بدأت معرفة ذلك في النهضة الحديثة عندما اكتشفت الدورة الدموية بعد الوحي القرآني بقرون .

وأنا أعتقد أن وجود آية في القرآن تشير إلى هذه المعلومات التي لا يمكن الظفر بها عن طريق العلل الطبيعية المتوفّرة في ذلك الزمان إنما هو دليل على أنه ليس صنيعة الفكر الإنساني »[1] .

*

(٧)

لم تمض فترة طويلة لحدّ الآن على اكتشاف العلماء الباحثين لموضوع

(١) مقارنة بين التوراة والإنجيل ، القرآن والعلم ص ٢٦٨ .

التلقيح في النباتات ، وعرفوا أن النبات يأتي من اتصال خليّتين مختلفتين من حيث الذكورة والأنوثة .

فقبل اكتشاف المجهر (المكرسكوب) ووصول الإنسان إلى عالم الذرّات ودراسة الموجودات المجهرية ، لم يكن هناك أحد يعرف شيئاً عمّا يجري من أفعال وانفعالات بين الخلايا المذكّرة والمؤنّثة ، لا في المرحلة الجاهلية ولا حتى في مرحلة تدوين علمْ النبات الكلاسيكي ، وقد أثبتت الدراسات والتجارب المتعددة للعلماء في هذا المجال ، أن إنتاج المثل لا يمكن أن يتمّ بدون تلقيح ، إلاّ في بعض النباتات التي يتمّ فيها إنتاج المثل بطريقة انقسام الخلايا .

وأوّل شخص بيّن هذه الحقيقة العلمية بشكل صريح وواضح هو العالم السويدي المعروف (شارل لينه) - (١٧٠٧ - ١٧٨٧) .

إذن ماهيّة إنتاج المثل في النباتات تتمّ عن طريق التلقيح بذرّات مجهرية خاصة ، كما يثبت ذلك العلم الحديث ، والعامل الذي ينقل هذه الملّقحات هو الحشرات والبعوض والنحل وعوامل أخرى، أهمّها وأعمّها هو انتقال اللقاح عن طريق الهواء الذي يحمل الذرّات الضئيلة الوزن ويوزّعها على النباتات .

وينبّه القرآن في آياته من دون إبهام على مسألة الزوجيّة في عالم النباتات ، ووجود خلايا مذكّرة ومؤنّثة ، ممّا بقي علم النبات يجهله حتى فترة قريبة ، ولم يكن الإنسان على علم به ، أمّا القرآن فقد أوضح ذلك وهو يقول بكلّ صراحة :

﴿ **أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كلّ زوج كريم** ﴾[1] .

﴿ **وأنزل من السماء ماءً فأخرجنا به أزواجاً من نباتٍ شتّى** ﴾[2] .

---

(١) سورة الشعراء : الاية ٧ .

(٢) سورة طه : الآية ٥٣ .

﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلّها ممّا تنبت الأرض ومن أنفسهم وممّا لا يعلمون ﴾[1] .

فالقرآن بعد بيانه للزوجيّة في مورد الإنسان والحيوان ثم في عالم النبات يقوم بتوسعة دائرة ذلك إلى الحدّ الذي يشمل كل أجزاء عالم الوجود ولا يستثني من ذلك أيّ شيء يصدق عليه عنوان كونه موجوداً بل يدخله ضمن إطار هذا القانون العام ، فيقول :

﴿ ومن كل شيءٍ خلقنا زوجين لعلّكم تذكّرون ﴾[2] .

وقد أدرك الإنسان في العصر الراهن بمعارفه العميقة أن جميع مواد العالم ، ومن دون استثناء تنتهي في تحليلها النهائي إلى أصغر جزء في تركيبها وهو الذرّة ، ولهذا الجزء المتناهي في الصغر زوج من القوّة الكهربائيّة : كهربائية موجبة وأخرى سالبة ، فهاتان وإن كانتا متشابهتين من حيث ماهيّة وجودهما ولكنّ لإحداهما كهربائية موجبة وللأخرى كهربائية سالبة بحيث تجذب إحداهما الأخرى .

وفي الواقع فإن الاندفاع نحو القطب المخالف كامن في أعماق كل شيء ، وعندما يتحقق هذا الجذب والانجذاب فإن موجوداً ثالثاً يتكوّن وهو متعادل من حيث القوّة الكهربائية .

والتعبير بوجود الزوجية في كل شيء في بيئة نزول القرآن، تلك البيئة الجاهلة اللاواعية يبعث على الحيرة ، وذلك لأن الجاذبية بين جسمين مزوّدين بنوعين من الكهربائية يشبه تماماً علاقة الزوجية وخصائصها والتجاذب بين جنسين مختلفين ، فاستعمال عنوان الزوج مناسب لبيان هذه الحقيقة العلمية في حدود فكر ذلك الزمان ،وحتى وقت قريب من زماننا حيث لم يكن أحد يعلم شيئاً صريحاً وحاسماً عن كيفية هذه المسألة فيزيائيّاً ، فهو تعبير

(١) سورة يس : الاية ٣٦ .
(٢) سورة الذاريات : الآية ٤٩ .

رائع ودقيق ، وبناءً على هذا فإن تعميم الزوجية في أعماق الذرّات يؤدّي بنا إلى هذه النتيجة: وهي أن العالم الماديّ مبنيّ على أساس الزوجية، ولا يوجد شيء في العالم الماديّ مستثنى من شمول هذه القاعدة العامّة .

يقول المحقق الإنكليزي (بال رابراك) :

« يوجد في مقابل كل جزء من المادة جزء يسمّى بضدّ المادة ، وقد أثبت علماء الفيزياء في العالم سنة ١٩٥٥ م هذا الأمر بالتجارب العلمية ، واستطاعوا بفضل الأجهزة المحطّمة للذرّات أن يكتشفوا ضدّ البروتون وضدّ النيوترون وضدّ المادة أيضاً ، وهم يعتقدون أن للعالم المسمّى بضدّ المادة نظاماً يشبه نظام عالم المادة ، وهذان هما مترافقان دائماً »[١] .

أو كما يقول فيزيائي القرن العشرين (ماكس بلانك) :

« إن كل جسم ماديّ فهو مركّب من الألكترونات والبروتونات »[٢] .

ومن معطيات العلوم الطبيعية والكيمائية الثابتة مختبريّاً هو موضوع زيادة حجم الأرض بوساطة جذور النباتات .

فعندما يدخل الماء إلى مسامات الأرض فإنه يدفع الهواء الموجود فيها نحو الداخل وعندئذٍ تتمّ في أعماق الأرض حالة هيجان خاصة .

يبدأ المطر يهطل وينفذ الماء إلى أعماق الأرض ، وتتحرّك جذور النباتات وتواصل تقدّمها داخل التراب ، وخلال هذا تنفصل أعداد كبيرة من الجذور الرقيقة الطريّة عن الجذور الأصليّة وتنتشر في أطرافها ، وقد يصل عدد الشعيرات الجذرية في السنتمتر المربّع الواحد ما يناهز أربعة آلاف ومئتي شعيرة .

يقول الباحثون في الجذور إنها تؤمّن خمسة وتسعين في المائة من

---

(١) مجلّة دانشمند (العالم)/السنة التاسعة / العدد الرابع .

(٢) صورة العالم في الفيزياء الحديثة ص ٩٥ .

احتياجاتها من الهواء ، والخمسة الباقية من المائة تأخذها من الأرض ، وعلى هذا فإن ما تمتصّه الجذور من الأرض تضيف عليه بقدر حجمه عدّة مرّات ، إذن عندما ينمو النبات في الأرض فإنها تتضخّم ويكبر حجمها .

والآن لننظر ماذا تقول لنا الآية الخامسة من سورة الحج :

﴿ وترى الأرض هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت وأنبتت من كل زوجٍ بهيج ﴾[1] .

وهذا هو مورد آخر من موارد تطابق القرآن مع معطيات العلم الحديث .

* *

(٨)

ويذكر القرآن الكريم أيضاً دورة ظاهرة طبيعية أخرى هي الرياح باعتبار كونها عاملاً للّقاح ، فيقول :

﴿ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء . . ﴾[2] .

في هذه الآية يكشف القرآن الكريم النقاب عن سرٍّ من أعظم أسرار الوجود ، وهو اللقاح للسحاب والدور الأساسي الذي تقوم به الرياح في تلقيحها ، وقد حقق الإنسان المتحضّر تقدّماً هائلاً في السنين الأخيرة في مجال الدراسات الجويّة مستفيداً من الوسائل الصناعية والكهربائية فأسس علم الظواهر الجويّة .

لا بدّ أن نعرف أنه لا يكفي توفّر شرطين هما وجود بخار الماء في الهواء ، ثم حصول حالة الإشباع لكي يتكّون السحاب ويمطر ، وإنما لا بدّ من توفير شرط ثالث وهو عمليّة اللقاح .

---

(١) سورة الحج : الآية ٥ .

(٢) سورة الحجر : الآية ٢٢ .

إن وجود الظواهر الطبيعية قد يتأخّر أحياناً ، فالماء الخالص والراكد مثلاً قد لا ينجمد حتى ولو كانت درجة حرارته تحت الصفر ، ويتأخّر غليانه ولو ارتفعت درجة حرارته إلى المائة ، بخار الماء أيضاً قد يصل إلى حالة الإشباع ولكنّه لا ينزل بصورة قطرات مطر ، أو يتحول إلى قطرات ولكنّها ضئيلة جدّاً وتبقى معلّقة في الجوّ ، ولا تسقط مطراً ما لم تتجمّع على ذرّات من الملح غير مرئية تأتي بها الرياح من البحار فتكون مركزاً يجذب البخار فتتضخّم ، أو يجتمع البخار حول بلوّرات الثلج في الارتفاعات الشاهقة حيث تدفعها الرياح نحوها .

وبالتالي تختلط وتتصادم ذرّات البخار الضئيلة وتدفعها الرياح لتجمعها حول البلوّرات، فإذا كبر حجمها وازداد وزنها فإنها تسقط من السحاب بصورة قطرات مطر .

إن التفريغ الكهربائي الذي يحدث بين طبقات السحاب نتيجة للاصطدام بظواهر الأرض والأجسام المعلّقة في الهواء فتوجد التيّارات الكهربائية المتضادّة ، ويرافق هذا التفريغ الكهربائي ضوء وصوت شديد ، وتحدث أثناء ذلك ظواهر طبيعية أخرى تساعد كثيراً على تكاثف البخار ليتحوّل إلى قطرات وينزل بصورة مطر .

وخلاصة القول ، فإن تكوين وتكاثف السحاب ولا سيّما نزول المطر أو الثلج لا يمكن أن يتمّ بدون عمليّة اللقاح .

وفي المطر الصناعي فإنهم يوجدون تلقيحاً صناعياً بهذا الشكل، وهو أن الجوّ إذا كان معدّاً لتكاثف السحاب ولكنّه يتأخّر فيه التعادل فإنهم يقومون بوساطة الطائرة ببثّ غبار الماء أو بلّورات الثلج لكي يتجمّع حولها البخار .

يقول الدكتور (موريس بوكاى) العالم الغربي الشهير منوّهاً بمحتوى القرآن الثري بالعلم والمعرفة :

« بينما نلاحظ وجود أخطاء علمية عظيمة في العهدين ، فإننا لا نجد

أثراً لتلك الأخطاء في القرآن ، وقد اضطّرني هذا الأمر لأسائل نفسي : لو كان مصنّف القرآن بشراً فكيف استطاع أن يكتب في القرن السابع الميلادي ما يتّفق تماماً اليوم مع معارف العلم الحديث ؟ .

وأيّ تفسير بشري يمكن تقديمه لهذا الواقع الصارخ ؟ .

إنني أعتقد أنه لا يوجد له أيّ تفسير ، وذلك لأننا لا يمكن أن نجد علّة خاصّة تجعل أحد سكّان شبه الجزيرة العربية في زمن كان يحكم فرنسا الملك (داغوبر) قادراً على الإلمام بمعارف علمية تتقدّم معلوماتنا في بعض الجهات بعشرة قرون »[1] .

---

(١) مقارنة بين التوراة ، الإنجيل ، القرآن والعلم ص ١٧٣ ـ ١٧٤

التنبّؤ بهزيمة قوة عظمى

منذ البداية عندما كان المسلمون ضعفاء كانت هناك قوتان عظميان تقتسمان الشرق والغرب هما : إيران والروم ، وقد نشب نزاع مسلح بين هاتين الإمبراطوريتين قرب حدود الجزيرة العربية وانتهى بانتصار الجيش الإيراني و هزيمة القوات الرومية .

و أدى انتشار خبر هزيمة الروم المؤمنين بالله على يد الأمة العابدة للنار إلى فرح و سرور عبدة الأصنام في مكة،وأغرق المسلمين في بحر من الغم والحزن،وذلك لأن هذه الحرب قد انتهت باحتلال الفرس لبيت القدس ، وتفاءل المشركون خيراً بهذه الحادثة واعتبروها بشارة وطليعة النصر على المسلمين في المستقبل .

و كان هذا الاستنتاج صعباً على المسلمين و،وقد نشر بينهم الاضطراب وأخافهم من المستقبل،وفي هذه الأثناء نزل الوحي مبشراً بنصر جديد للروم المؤمنين على الفرس،و أشاع سراً مهماً وهو أن الروم المهزومين سوف يجبرون هزيمتهم في أقل من عشر سنوات وسوف يدخلون في نزاع مسلح آخر مع الفرس وينهونه لصالحم ، وهذا هو حديث القرآن الكريم :

﴿ غلبت الروم* في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون* في

بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذٍ يفرح المؤمنون* بنصر الله ينصر من يشاء و هو العزيز الرحيم* وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون* ﴾[1] .

إن هذا التنبؤ القرآني جرى في سنة (٦٢٥) ميلادية الموافقة للسنة الثانية الهجرية ، ولم تمر عشر سنوات حتىٰ نشب صراع مسلح شديد بين الدولتين وانتهى باحتلال الجيش الرومي للأراضي الإيرانية .

كيف نستطيع تفسير التنبؤ بانتصار أمة مهزومة على أمة منتصرة وبكل تأكيد وقطع مع أنه لم يكن هناك أية قرائن تشير وتؤيد مثل هذا التنبؤ ؟ .

بينما المواجهة الواقعية للأمور الاجتماعية ومسير الظواهر تناقض أي لون من ألوان التنبؤ الدقيق اليقيني .

فمن أين ظفر نبي الإسلام بهذا التقرير العسكري اليقيني بانتصار سوف يحدث في ا لمستقبل ؟ .

أمن الإنصاف و التعقل أن نجعل هذا الخبر مرادفاً لسبق الحوادث الذي به يقوم السياسيون ومفسّرو الأحداث السياسية ؟! .

هل يوجد هناك معيار نستطيع على أساسه أن نجري محاسبات دقيقة تقودنا إلى اعتبار أمة مهزومة في حرب مهلكة قد انتزعت منها أنفاسها وسلبت منها ثقتها بنفسها ، ولكنها تعود خلال مدة قصيرة بالمقياس الاجتماعي لتحقق نصراً ساحقاً على تلك الأمة المنتصرة ؟

هذا مع أخذ الموضوع بعين الاعتبار وهو أن الانتصارات العسكرية مبنية على مسائل كثيرة ومتشعبة ، وأقل اشتباه في المحاسبة والتقدير يؤدي إلى تغيير مصير النزاع ، ألا يدل هذا على أن هذه الجهة تتمتع بقدرة على المحاسبة لا نهاية لها ، وهي مطلعة بدقة على مجرى الحوادث بحيث تستطيع

---

(١) سورة الروم : الآيات ٢ـ٦ .

الإخبار بصورة قطعية على حادثة عسكرية سوف تحدث في المستقبل ؟ .

ثم أمن الواقعية أن ننظر إلى هذه الأمور ونحلّلها بتحليل مادي ؟

وأصحاب مثل هذه الرؤية المادّية هل يستطيعون أن يدّعوا أنهم باحثون عن الحقيقة ؟ .

التنبؤ بحوادث أخرى

هناك وقائع أخرى قد تنبأ بها القرآن الكريم أيضاً ، ولا بد هنا من ذكر بعض النماذج منها :

منها حادثة فتح مكة وانتصار المسلمين على المشركين ، والقرآن يقول في هذا المجال :

﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسكم ومقصّرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾(١) .

تخبر هذه الآية عن الدخول إلى المسجد الحرام ، وأداء مراسم العمرة من دون خوف ولا اضطراب ، وعن قمع المشركين وتفتت قواهم ، وتعلم المسلمين عن تحقق نصر آخر في المستقبل القريب ، بينما لم يكن دخول المسلمين إلى مكّة ، وأداؤهم مراسم العمرة بهدوء خاطر محتملاً في تلك الظروف القاسية العسيرة ولم يكن يحتمل مثل هذه الحادثة أي خبير أو مستشار عسكري واقعي ينظر إلى المستقبل ، وذلك لأن الوضع الذي كان يعيشه المسلمون في تلك المرحلة التأريخية لم يكن ملائماً على الإطلاق ،

---

(١) سورة الفتح : الآية ٢٧ .

ولهذا السبب فليس الحسم الظاهري للمناضلين والمقاتلين من أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) ولا قوتهم البدنية ولا سلاحهم هو الذي حقق النصر ، وإنما الذي حقق النصر هو عون الله الذي دعم المساهمة الفعّالة للمناضلين المسلمين .

إن تكرار هذا الموضوع في القرآن وهو القائل : إن كل المعجزات والانتصارات تحدث بإذن الله هو تأكيد على أن دور الشخصيات في التأريخ محدود مع الاعتراف لهم بالقدرة على الانتخاب والاختيار وبالأبعاد الواسعة الخلاقة ، فلتحطيم الواقعيات الموجودة وإحداث التغييرات الاجتماعية اللازمة في مرحلة تأريخية لا بد من وضع الأنبياء على رأس الشروط والعوامل الضرورية لتنفذ أنوارهم في أعماق الظلمات المخيمة على الجو الاجتماعي والتي تقف سداً أمام طريق الله ، ولتتحقق في واقع الحياة قيمهم الخاصة ، وليقودوا الإنسانية بإذن الله نحو الهداية والسعادة والنضج والاستقامة .

أجل إن ضرورة التكامل التأريخي توجب أن تشرق تلك الشخصيات العملاقة في أعماق الظلمات المتراكمة ، ويعدّ ظهور هؤلاء الأفراد من العلل الأساسية للتغيير الجذري للمجتمع ومن الضرورات التأريخية الحتمية .

والدراسة الدقيقة والتجريبية للتأريخ تبين لنا أن الأنبياء يظهرون في مراحل تأريخية مصيرية وهم يؤدون دوراً أساسياً لانتقال المجتمعات الإنسانية من المستويات الدنيا إلى الأرفع ، ثم على الإنسان نفسه أن يتخذ موقفاً مبنياً على أساس معرفة التغيير المستمر في الظواهر وحركة الوجود الدائمة نحو أهدافه العليا وإيمانه واعتقاده بمبدأ الوجود والعمل الصالح لتحقيق الانسجام مع تسبيح جميع الموجودات لله الواحد القهار ، ويتفرّغ لبذل الجهد لعله يظفر بالنجاح فتتفجّر طاقاته الإنسانية في كل أبعاد الحياة بما أنه خليفة الله في الأرض .

إن هذا الموقف المشرّف إزاء الوجود وظواهر الطبيعة هو المظهر لقيم

الحياة ومفهوم الحياة الناضج عنده على وجه الأرض .

و هذا التأريخ شاهد حي على أن هناك أناساً عاشوا مرفوعي الرأس في ظل التعاليم الإلهية للأنبياء وقد نفضوا أيديهم من كل شيء لكي يلتحقوا بشيء هو كل شيء بل هو أغلى من كل شيء .

نعود إلى أصل الموضوع ، فالقرآن يتحدث عن تحقق واقعة تأريخية أخرى وانتصار حققه جنود الإسلام المتفانون ، وهي فتح القلاع المحصنة والضخمة في خيبر، وقد تلقى المسلمون هناك ضربات قاسية ،ولكن الصراع في خيبر انتهى بنصر للقوات الإسلامية وهزيمة لليهود، فتحققت بذلك نبوءة القرآن كاملة .

هل يمكن التحدث عن نصر وهم في أقصى درجات الضعف ما لم يكن يقينهم مكتسباً من الوحي الإلهي ؟ .

وهذه النظرة المستقبلية الدقيقة هل يمكن نسبتها إلى علم النبي ومعرفته الخاصة ؟ .

وهناك شيء آخر،وهو أن الإخبار عن المستقبل بصورة قطعية والتنبوء غير المشروط ليس من وظائف العلم وإنما هو من خصائص الأنبياء الصادقين وأولياء الله المخلصين .

وفي هذه الحروب المنتصرة لم يسيطر الإسلام على الكفر مادياً فحسب ، وإنما أخضع الإسلام بها أعداءه ومعانديه لسلطته المعنوية والآيديولوجية .

في أثناء إقامة النبي في مكة كان ينفّذ منهجاً في دعوته ضمن نطاق محدود وفي ظروف صعبة مجهدة ،وكان مستقبل المسلمين مبهماً ومعقداً ، في مثل هذه الملابسات أعلن القرآن بكل صراحة مصير (أبي لهب) بما أنها حادثة سوف تقع في المستقبل ،وأن من المحتم دخوله نار جهنم لاستمراره في العداوة والعناد لنبي الإسلام (صلى الله عليه و آله و سلم) حتى آخر

لحظات عمره .

وصحيح أنه في بداية الدعوة وقف كثير من أقارب النبي في وجهها ولكنهم مع تشدّدهم المشرب بالعناد ومع إصرارهم على التفكير المنحرف فإنهم أذعنوا أخيراً للحق فتجلّت بذلك فطرتهم الشفافة من وراء ستائر الجهل المظلمة و التحقوا بصفوف المسلمين عندما قاموا بتغيير عقيدتهم و أسلوب سلوكهم .

في هذا الجو المضطرب المحموم لم يعرف من الذي سوف ينضم إلى جبهة الحق فيكون مصيره الاستنارة بدين الله ، ومن الذي سوف يبقى على عداوته للحق وموقفه الخاطىء ضده حتى آخر لحظات الحياة ، وذلك لأن مرور الزمان وتعاقب الحوادث والوقائع الخارجية ـ كل هذه تأتي للإنسان بنظرات جديدة وأفكار حديثة فتقوده إلى تغيير موقفه ، ولهذا فلا يمكن التنبوء بمستقبل عقيدة شخصٍ ما .

ومع هذا فالقرآن يتحدث بكل صراحة ويقين عن حادثة شخصية ومصير حياة فرد معيّن هو أبو لهب ذلك العدو اللدود للإسلام، ويعلن مؤكّداً أنه لن ينعطف إلى التوحيد حتى الموت ، ولهذا فستكون نار جهنم مصيره المؤلم ، وهذه هي آيات القرآن :

﴿تبت يدا أبي لهب وتب * ما أغنى عنه و ما كسب* سيصلى ناراً ذات لهب ﴾[1] .

عندما يتناول المؤرخون حياة أبي لهب بالتحليل ,فإنهم يتفقون على أنه أغمض عينيه عن الدنيا دون أن يؤمن ، وأنه واصل وقوفه ضدّ نبيّ الإسلام. وتآمره عليه حتى آخر لحظة من حياته .

والآيات الواردة في مثل هذه الحوادث تدل بشكل قاطع على أن هذا

---

(١) سورة اللهب : الايات ١ـ٣ .

الكتاب المقدس مرتبط بالله سبحانه ،وأنه متصل اتصالاً وثيقاً بعالم ما وراء الطبيعة .

وتوجد آيات أخرى في القرآن تتحدث عن وقائع المستقبل ، منها المحافظة على النبي طيلة فترة رسالته وبقاؤه مصوناً من شر الأعداء ، وقد كان هذا التقرير في السنة الثالثة للبعثة حيث لم تكن حينئذٍ أية قرائن تدل على أنه سوف يبقى مصوناً من كيد الأعداء طيلة فترة حياته ، ولكن الزمان أثبت صدق هذا الإخبار وصحته ، يقول تعالى :

﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين * إنا كفيناك المستهزئين ﴾[1] .

وتؤكد آيات سورة الكوثر للناس أن أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) سوف يزدادون على مر الزمن مع أن الأعداء كانوا يرجون انقطاع نسله في فترة حياته ،وذلك لأن أولاد النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) قد رحلوا إلى ربهم خلال فترة الطفولة ولم تبق له إلا بنت واحدة ، فمن الذي يستطيع في مثل هذا الوضع أن يتنبأ بشيء خلاف ما هو موجود ما لم يكن معتمداً على الحقيقة الخالدة ووجود الله المقدس ؟ .

و كذا إعلان عودة النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) إلى وطنه في الوقت الذي كان يعيش فيه الضغط والمطاردة من قبل المشركين فيترك المدينة متجهاً إلى مكة ، إن هذا ليؤكد المعرفة الواقعية ، يقول الله تعالى :

﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادُّك إلى معاد ﴾[2] .

و يكشف القرآن الستار عن فتح مكة على يد المسلمين وارتماء الناس على الدين الإسلامي والتحاقهم فئات فئات بصفوف المسلمين وعقيدة التوحيد ، وذلك حيث يقول القرآن :

---

(١) سورة الحجر : الأيتان ٩٤-٩٥.

(٢) سورة القصص : الآية ٨٥ .

﴿ إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ﴾[1] .

و لا يوجد أي تفسير لهذه التقارير الغيبية سوى أنها قد جاءت من منبع الوحي والارتباط بعلم الله اللامتناهي وبقوى ما وراء الطبيعة .

ولا ينبغي أن نغفل عن واقع متمثّل في كل هذه الانتصارات والصراعات وهو أن المسلمين قد استلهموا أخلاق القرآن أثناء هجومهم وصراعهم وقتالهم فاستعملوا أقصى حدود النبل والمحبّة والرحمة مع الشعوب التي يهزمونها ، ولمّا كانت الحروب الإسلامية حروباً في سبيل الله ومن أجل استقرار التوحيد والقسط والعدل فإن المسلمين لم ينسوا الهدف من الصراع حتى في وسط لهيب المعارك وبريق السيوف ، ومع أن النصر يوفّر فرصة للانتقام من المشركين الذين صبّوا عليهم ألواناً من العذاب والأذى ، ولكنهم أطفأوا غضبهم وأزالوا الحس بالانتقام من أنفسهم ، وذلك لكيلا يخنق الهدف المقدّس من الصراع تحت غطاء الأغراض والرغبات الشخصية .

---

(١) سورة النصر : الآيتان ١ ـ ٢ .

النظرة الموحدة خلال بحوث القرآن المتنوعة

إن كـل باحث ومحقـق هـو في معرض تغيير آرائـه ومـواقفه بـالنسبة لمختلف المسائل واقتناعاتـه العلمية ودراسـاته وتجـاربه ، فهو قد يعلن رأياً في موضوع معين معتمداً على معلوماتـه ونسيجـه الفكـري ، ولكنـه نتيجـة لمواصلة بحوثه وتعميـق دراساته قد تنفتح أمامه عقد مسألة قد تعسرت عليه فيما مضى فيعود عن رأيه الأول ويغيـر موقفه وتحـل أفكار جديدة محل أفكاره القديمة .

ويعتبـر هذا عـاملاً مهمـاً في وجود التنـاقض والاختـلاف في نـظرات الإنسان ولهـذا نجد دأب العلماء والمقننين والكتـاب على إصلاح الأخطـاء وإعادة النظر في آثارهم وآرائهم وكتاباتهم .

ومن ناحية أخرى فإن الإنسان لا يتمتع بنظرة واحدة إلى جميع المسائل وسط الظروف المختلفة وتيارات الحوادث المتنوعة ، فهو وإن كان مزوداً بفكر ناضج وإرادة مروضة وطبيعـة حرة ولكنـه شاء أم أبى فهـو سيفقد شيئـاً من ثبات فكره وقـوة إرادته خلال طوفان الحوادث وتغيـرات الحياة والارتفاع تارة والانخفاض تارة أخرى ، ثم يتخذ لنفسه مسيراً جديداً .

وتكـون له خلال الضعف والعجـز نظرة كونية معينة ، ومـا أن يجلس على كرسي القوة حتى تتغير نظرته الكونيـة ويواجـه نفس المسائـل السابقـة

برؤية جديدة ، ويمكن إدراك هذا عندئذٍ بوضوح من خلال ردود فعل روحه المتغيرة وأفكاره المتحولة المصبوبة في قالب أقواله وأساليب أعماله ، وهذا عامل آخر من عوامل وجود التناقض والاختلاف في نظرة الإنسان وطريقة تفكيره .

وعلاوة على هذا فإن المفكرين أصحاب النظرة العميقة يعلمون بأن المنحرفين عن طريق الحق والصدق مهما كانوا أذكياء فإنهم يتورطون بشكل لا شعوري في الأقوال المتناقضة ولا سيما إذا عاشوا مدة طويلة في المجتمع وأبدوا آراءهم في المواضيع المختلفة ، وهذه هي النتيجة المباشرة للانحراف عن طريق الحق و الاستقامة .

وقد تناول القرآن الكريم مواضيع عميقة وجليلة في مجالات مختلفة ، وقد قام بتحليل وتشييد أحكام وواجبات عملية و أنظمة اجتماعية وسياسية وقيم أخلاقية وأصول ومقررات عامة وهي منسجمة فيما بينها تماماً ، ولكنه لم يلاحظ عليها أي تناقض أو اختلاف مع وجود هذا الحشد الهائل من المسائل ، ومع أن القرآن قد نزل خلال مدة طويلة تقدر بثلاث وعشرين سنة، فلم يؤد هذا النزول التدريجي إلى أن تفقد الآيات انسجامها وتناسبها .

ويستطيع الإنسان أن يقيّم القرآن في هذا المجال من جهتين :

إحداهما : كيفية الآيات منفردة بحيث تتجلى كل منها منفصلة عن الأخرى بإشراق ووضوح لا مثيل له ، **والثانية** : دراسة مجموع الآيات من حيث التناسب والانسجام وعدم التناقض في الأسلوب والمحتوى ، وهذه صورة أخرى من صور إعجاز كتاب الله الحكيم .

فالقرآن عندما يريد إثبات كونه من السماء فإنه يتوسل بهذا الموضوع ويستدل على أنه نزل خلال ثلاث وعشرين سنة ، ولم يلحظ عليه تناقض في القول .

انظر قول الله تعالى :

﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾[1] .

تشير هذه الآية إلى أن الأشخاص المنحرفين عن طريق الحق والاستقامة لا بد أن يتورطوا بالتناقض في أقوالهم ، وما يلاحظ في القرآن الكريم من خلوه من التناقض في المحتوى ومن الغموض والاختلاط في الأسلوب فهو دليل ساطع على وجه القرآن الناصع وصدقه في دعوته ، ولهذا فالقرآن يترك إدراك هذه الحقيقة لفطرة الناس لكي يميزوا الحق من الباطل ،وينكشف لهم وجه الحقيقة بعيداً عن القوالب الذهنية المعدة من قبل .

وعندما نقلب الصفحات في حياة النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) نشاهد بوضوح أنه قد مر بكثير من المرتفعات والمنخفضات خلال حياته ، ففي زمان كان ممثلاً لأقلية محرومة محكومة ، وفي زمان آخر كانت تحت تصرفه أموال طائلة وثروات مادية جزيلة ، وفي يوم آخر يعيش الضعف والوحدة والضغوط والحصار الاجتماعي إلى الحد الذي يمكن فيه أن تأتي على أي قادر وتسلب منه حياته ، ويوم آخر يتربع فيه على عرش العزة والشهرة ويقود أمة منتصرة قوية يحسب لها الحساب في ذلك الزمان، وأخيراً فإنه كان يواجه أحياناً اضطرابات الحرب بأبعادها الواسعة والاختلالات الناشئة عنها ،وأحياناً أخرى كان يعيش في جو من السلام والهدوء .

ونحن نعلم أن لظروف الحياة تأثيراً واسعاً على كيفية تفكير الإنسان وعلى نوعية علاقته بالإنسان الآخر وبالطبيعة ، وهذه العوامل والظواهر تفرض على الإنسان علاقات تستلزم تغييرات جذرية في مواقفه ، بحيث تتغير خصائصه الباطنية والظاهرية تبعاً للظروف ، وتوجد الظروف في كل مرحلة من الحياة نظرة معينة وشبكة من العلاقات الخاصة يمكن استغلالها كدافع

(١) سورة النساء : الآية ٨٢ .

قوي للاستفادة من الظروف الاستثنائية .

فموقف الإنسان ليس موحداً في مواجهته لهذه الظواهر ، فأحياناً يستغلها كوسيلة للنضج والرقي الإنساني فيبدع بها القيم الرفيعة ، وأحياناً أخرى تخرج عن كونها وسيلة لتصبح المثال الرفيع ، وهؤلاء هم أفراد الإنسان الذين يستطيعون أن يمنحوا وجودهم الشكل الخاص نتيجة لموقفهم المعين إزاء الظواهر الخارجية وإزاء ذواتهم ، ونتيجة لاتّجاه مسيرهم والأسلوب الذي يتّخذونه بالنسبة إلى الهدف الأساسي من خلقهم في هذا الكون ، وبالتالي فإن هذه الحياة الدنيا بأبعادها الواسعة وتجلّياتها المختلفة هي المعينة للقيم و المبينة للحركة ولنوعية ما يختاره الناس ويستفيدون منه .

ولو كان القرآن قد تكوّن في ظروف مختلفة تماماً وحالات متفاوتة ، ولو كان هذا الكتاب الذي نزل بشكل مقاطع متفرقة في مكّة والمدينة خلال ثلاث وعشرين سنة يستقي من أفكار محمد (صلى الله عليه و آله و سلم) بذاته للزم أن يصبح مشمولاً لهذا القانون الذي يرفض الاستثناء وهو قانون التكامل ، ولفقد ما يتمتع به من ميزة المستوى الواحد ، وعلاوة على هذا لبرزت فيه اختلافات واضحة في رؤيته الكونية نتيجة لمواقفه المتناسبة مع ظروف الزمان ، ولتورط في الاضطراب والتناقض في التنظيم والأسلوب والبلاغة خلال هذه الفترة الزمنية الطويلة ، ولافتقر إلى الانسجام والتماسك .

وعلى خلاف أساليب الكتب العادية التي تتخصص في البحث والدراسة لموضوع واحد فقط قانوني أو تأريخي أو فلسفي أو اجتماعي أو أدبي فإن القرآن يتناول مواضيع متنوعة ومختلفة تماماً من قانون وسياسة ومعارف إلهية وأنظمة مدنية وجزائية وأخلاق وآداب وتأريخ وأحكام فرعية وعشرات المواضيع الأخرى،ويبقى في نفس الوقت على مستوى واحد من حيث الأسلوب وتماسك المضمون ، ولا يوجد أقل اختلاف بين أول سورة نزلت على النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) وهي سورة «اقرأ» وآخر

سـورة منه وهي سـورة « النصر » ، وتتجلّى فيهـا جميعاً الجـاذبية والبـلاغـة والحلاوة في التعبير وتتلألأ في كل المجالات قدرته البرهانية الفائقة .

إن القرآن كلٌّ واحد منسجم متماسـك لا يوجـد فيه أصـل منقطع عن سائر الأصول والقوانيـن ، ودراسـة أصل واحد يمكن أن تكون مفتاحاً لفتح الـطريق إلى الأصـول الأخـرى ، فـالارتبـاط العضـوي بين جميــع الأسس الفلسفية والأخلاقية والقوانين الفردية والاجتماعية والعبادية والأنظمة التربوية والتصوّر الكوني والأهداف المعنوية كل هذه توضح لنا ماهية إعجاز القرآن .

ونحن لا نصادف في أي حكم أو أصل في القرآن تضاداً أو تناقضاً مع معاييره العقائدية ولا مع أسسه الفلسفية والتربوية والأخلاقية ، ومع أنه يتميّز بأبعاد واسعة إلاّ أننا لا نجد حكماً من أحكامه يغاير أصلاً من أصوله .

وعلى هذا فإن خصائص القرآن وميزاته الاستثنائية وتفوّقه المطلق على ما ينتجه الفكـر البشري لتشهـد بكل تـأكيد على أنهـا مجموعـة لا تنافس ، تستقي وجـودها من الحقيقـة الإلهيّة الخـالدة التي لا سبيـل لعوامـل التغيير والتضادّ إليها فهي ذات لا نهائيّة .

اللانهائية خاصيّة أبعاد القرآن

القرآن هو ذلك الكتاب الذي أصبح منشأ لأعظم التحوّلات وأشدها إثارة للإعجاب في التأريخ البشري ، وهو سند حي بحياته الخالدة وبرهان محكم يتلألأ على مر القرون وتعاقب العصور ، وهو أغنى المنابع وأثرى ما يتيسر للإنسانية من حيث التشريع في عمقه وشموله وتلبيته كل الحاجات الأساسية والطبيعية لأبناء آدم .

فالتخطيط الجامع للإسلام قد أسس على أساس الفطرة، وهو يحلّل الإنسان بنظرة واقعيّة تتناوله كما هو موجود في الخارج وهو يضع على عاتق الإنسان دوراً مهمّاً في جميع أبعاد الحياة ، ويعتبر هذا من العلل التي كتبت الخلود للإسلام .

ونحن إذا أخذنا بعين الاعتبار مسير التحولات العلمية الضخمة في العالم، حيث جرت في هذا الطريق الذي يرفض العودة إلى الخلف تغييرات أساسية وجذرية ، فإننا سوف نعرف ما يميز الأسس الإسلامية من سائر الظواهر الفكرية في العالم وبشكل دقيق ، فلو كانت الأسس الإسلامية على مستوى سائر المذاهب الفكرية لسقطت عن الاعتبار بمجرد ارتفاع المستوى العلمي ، ولكننا نشاهد بوضوح أن عكس هذا الأمر هو الذي قد حدث بشأن القرآن ، وذلك لأننا نجد الإسلام اليوم وقد احتل مكانه رفيعة واكتسب وزناً ثقيلاً في المؤسسات العلمية والمحافل القانونية ، وهو يوسع لنفسه الطريق

باستمرار وبشكل أوسع وأعمق .

وفي مقابل جميع الكتب والآثار التي تتضمن معاني محدودة ، وقد صيغت في قوالب لفظية محدودة أيضاً فإن القرآن يقف أمامها متميزاً بخاصة مقصورة عليه وهي أنه يتضمن معاني لانهائية وقد صيغت في قوالب لفظية محدودة ، وهذا ناشىء من علم الله الذي لا حد له ، والقرآن بمثابة النسخة الثانية للعالم الطبيعي الذي يكشف مرور الزمان واتّساع العلم مخازنه الخبيئة ، ولهذا نجد القرآن مستمراً في إعطاء معان ومفاهيم جديدة وعميقة .

وصحيح أن الله سبحانه قد أعد كتابه بحيث يمكن للإنسان أن يتدبر معانيه وأن يهضمها ، ولكنه في نفس الوقت كلما اتّسعت رؤى الإنسان وارتفع مستواه العلمي وازدادت دراسته ومطالعاته لنظام الوجود وأصوله العلمية ، وكلما تعمّقت تجاربه النفسية واتّضحت أمام عينيه القوانين والعلاقات الاجتماعية ، فإنه تنكشف له كثير من أسرار الآيات القرآنية ويتجلّى عنده شعاع أعظم من الوحي الإلهي بما فيه من جاذبية أخّاذة ، إلى درجة أنه لا يطمح للوصول إلى هذا المستوى الرفيع أي مفكّر أنفق عمره في دراسة القوانين المدنية والدولية .

وكما يقول الإمام علي (عليه السلام) :

« اعلموا أن القرآن هدى النهار ونور الليل المظلم على ما كان من جهد وفاقة »[١] .

ومنذ المرحلة الأولى من ظهور الإسلام وحتى عصرنا الراهن دونت أفكار رفيعة من قِبل شخصيات عرفت بالعلم والإيمان ، وذلك في سبيل فهم آيات الكتاب المختلفة ، وقد تفرّغ في كل عصر مئات المتخصصين بما يتناسب مع إمكانياتهم لدراسة آيات القرآن ومفاهيمه ، وفتحوا الطريق

(١) أصول الكافي : ج ٢ ص ٦٠٠ .

للارتفاع إلى آفاق المعارف القرآنية ، بل قد تخصص بعض الأفراد في البيئات غير الإسلامية وقدموا بحوثاً دقيقة في مجالات معارف القرآن المتنوعة ، وقد أسهمت النتائج الحاصلة منها في توسيع ونشر الثقافة الإسلامية .

هذه الأوصاف والمميزات للقرآن خاصة به ،وهي التي أبقت نظامه القيمي على أنه إرث للإنسانية كلها .

ويمكن ملاحظة شمول القرآن الذي لا نظير له بوضوح فيما إذا قارناه بالأنظمة القانونية الشائعة في العالم المتقدّم والمتمدن في العصر الراهن ، وقد وفق الإنسان ليكتشف في هذه المرحلة من التأريخ التفاوت الهائل بين القرآن النازل لتطهير الإنسان وإعداده للعروج،والقوانين الأخرى المدونة في العالم،وذلك لأن في هذه الدول يتم التخطيط ووضع القوانين المتقدمة في الظاهر في جو خياليّ وذهني صرف مستغلين القوى الفكرية للعلماء والمتخصصين في نفس ذلك الفرع ، وهادفين من وراء عملهم هذا إلى تلبية كل المطالب المادية للإنسانية ، ولكن الالتفات إلى النواحي العينية الصرفة والغفلة عن مواجهة الواقعيات الأصيلة إلى حد أن يعلن أحياناً كون الدوافع تابعة للظروف المادية ، وبالتالي غض النظر عن السنن المسيطرة على فطرة وأعماق الإنسان،كل هذا جعل القوالب السالمة في الظاهر تؤدي إلى نتائج سيئة وغير مطلوبة عندما تدفع للتطبيق ، ويحملهم هذا على تجديد النظر فيها ومحاولة إصلاحها .

ولا يستطيع أحد أن يدعي أن دراساته العلمية أو إبداعاته الفنية هي الأفضل والأروع في كل عصر ، وذلك لأن ضرورة التكامل توجب على الفروع العلمية بمرور الزمان أن تشق لها مسيراً جديداً ، وتوجب على الآثار الفكرية أن تتحول بصورة أساسية ، حتى أن كل عالم عندما تعلو رتبته العلمية ويرتفع مستوى وعيه وتصفو رؤيته فإنه يعيد النظر في آثاره ويحاول سد

النقص فيها وترميمها وإكمالها، ويبقى الباب أمامه مفتوحاً للقيام بمثل هذه المهمة .

وعلاوة على ما ذكر فإن أي أثر قيم ودقيق من الآثار البشرية فهو يتمتع بقابلية محدودة وذات نهاية للدراسة والتحقيق ، ويكون نظامه القيمي بشكل بحيث إذا تفرغ له عدد من المتخصصين الواعين فإنهم سيتمكنون من شرح وتوضيح كل زواياه وغوامضه، أما القرآن الكريم فلكونه نابعاً من مركز الوحي والعلم الإلهي الذي ليست الأفكار والعقول البشرية إلا قطرة ضئيلة جداً من ذلك المنبع الثري للعلم والحكمة ،وشرارة خاطفة من تلك الشعلة الوهاجة من البصيرة والمعرفة ، وهذه الحقيقة تشمل كل آفاق الوجود والكائنات ، ولهذا فقد أصبحت قابليته للدراسة والاستنباط والكشف لا نهاية لها .

ولا ينحصر هذا الأمر بالمسائل الفقهية والقانونية ، بل يستطيع الباحثون والمحققون في كل فروع المعرفة الإنسانية أن يكتشفوا بعداً واحداً من أبعاده ، وحتى المتخصصون في العلوم الإنسانية الحديثة كعلم النفس وعلم الاجتماع وفلسفة التأريخ فإنهم يستطيعون استنباط ملاحظات علمية دقيقة منه ، ويعتبر هذا دليلاً على أن للقرآن أبعاداً مختلفة ومتنوعة لا يمكن حصرها في أفكار ثقافة واحدة ولا زمان واحد .

ولم يشاهد لحد الآن كتاب قد تعرّض للتحقيق بهذه السعة وعلى طول أربعة عشر قرناً ، وقد درست خلالها أصوله ومعاييره الكلية والجزئية بهذه الكثافة ، وفي نفس الوقت فهو لم تنفذ قابليته للدراسة والتحقيق والاجتهاد .

ومن البديهي أن النتائج التي يظفر بها الباحث من تحقيقه ودراسته ترتبط ارتباطاً وثيقاً بما يتمتع به ذلك الباحث من ذكاء وإلمام بأساليب التحقيق ، ولهذا فلا ينبغي حصر أبعاد القرآن في حدود الاستنباط الشخصي .

ونحن بحاجة إلى دراسة دقيقة لما ورد في القرآن من مواضيع من قبيل مبدأ الوجود والمستقبل المحتوم في المعاد ، والأخلاق والفقه والقانون

والقصص التأريخية ، وإن لها هدفاً أرفع من استعراض الحوادث المتحجرة الذي لا فائدة منه ، ونواجه في القرآن تعاليم مثيرة للإعجاب تدعـو الإنسان للنهوض والمحاولة الفكرية لكي يخطو خطوات أوسع ، وقد أنتجت نظرات ورؤى متنوعة خلال هذه الفترة الطويلة من الزمن ، وسوف نظفر أثناء التحقيق بمجالات للمعرفة طازجة وندرك حقائق جديدة ، وهذا هو مما يثبت لنا ثراء القرآن وغناه الذي لا حدّ له ولا نظير .

* *

إن الامتداد الثقافي والعلمي للقرآن الكريم وثـروته المعنـوية عـظيمة جداً من حيث دراسات الباحثين فيه وتحقيقات العلماء فيما يدور حوله ، فلو حـاولنا عـدّ الآثار والتـأليفات المتعلقـة بالقـرآن وجميـع التفـاسيـر الشـاملة والموضوعيـة أو التفاسيـر الخاصّـة بآيـات الأحكام أو بسـور معينة لارتفعت أعدادها إلى عشرات الآلاف .

هل يمكن أن ينبع هذا الشمول الاستثنائي من فكر إنساني لم يمارس الدرس ، وقد عاش في عصر مظلم وفي زاوية من الأرض هي من أكثر بلاد الله تأخراً وهي الجزيرة العربية ؟ .

وفـي عالم اليوم : هل يستطيع إنسان أن يخطط لشكل المجتمـع في جميع المجالات وبصـورة دقيقة كمـا قام بـه المقنن الإسلامي بشـرط أن لا يبقى ذلك في حدود الـذهن فقط بل لا بـد أن يتجسم في الخارج فيصـوغ إنساناً رفيعاً ومجتمعاً نظيفـاً ؟ .

والحـديث عـن القرآن ليس حـديثاً عن ظن أو خيال وحدس، أو عن أسـطورة أو تـأريـخ ، وإنمـا هـو حـديث عن المقـاييس العلمية والعقليـة والمنطقية، إنـه بحث عن حقيقة ملمـوسة يستـطيع أي إنسـان عاقـل يتمتع بالمعلومات والمقـدمات اللازمة لذلك أن يدرك علاقة هذا الكتاب بقوة تفوق القوة البشرية .

وتعـد هذه الخصوصيات والميـزات أمراً عادياً وطبيعيـاً بالنسبة للقرآن الكـريم الذي احتفظ بقيمتـه وأهميتـه العلميـة في كل المـراحل التـأريخية اللاحقة لنزوله ، ويغدو هذا شـاهداً واضحـاً على أن مجموع هـذه المزايـا وصفة اللاتناهي الموجودة فيه تنتسب إلى خالق لا يتناهى وجوده .

يقول الكاتب الفرنسي المستشرق (بارتلمي هيلر) في كتاب له شارحاً وموضحاً شمول القرآن :

« نحن نلاحظ جمال فصاحة القرآن في ترجمته كما نلاحظ الجمال في مزامير داود وأناشيد الفيدا في ترجمتهما ، ولكن مزاميـر داود لليهود والفيـدا للهنـود تفتقـد مجمـوعـة القـوانين المـدنيـة ، بينمـا من خصـائص القـرآن الاستثنائية أن لهذا الكتاب بحوثاً متنوعة وميـزات مختلفة ، فهـو نشيد ديني وثنـاء إلهي وقانـون مدني ودعـاء ومناجـاة ووعظ وإرشاد وتـربيـة عسكـريـة ومناقشات وقصص وتأريخ »[1] .

وقـد أقامت كلية الحقوق في باريس أسبوعاً لدراسـة الفقه الإسـلامي عام ١٩٥١م ، ثم أقر المجتمعون هذه التوصية التي صـدرت في آخر ذلـك الأسبوع الفقهي :

« لا شك أن الفقه الإسلامي يستحق هذه القيمـة وهي أن يكون منبعاً ومصدراً للتقنين في العالم ، وتوجد في أقوال وآراء المذاهب المختلفـة في الفقه الإسلامي ذخائر قانونية كثيرة تستحق كل الإعجاب ، ويستـطيع الفقـه الإسـلامي في ظـل هـذه الآراء أن يلبي كـل حـاجـات الحيـاة الحـديثـة ومتطلباتها » .

* * *

---

(١) محمد و القرآن .

استمرار جاذبية القرآن وعمق نفوذه

وهناك نافذة أخرى للإشراف على ميزة استثنائيّة للقرآن ، وهي جاذبيّته المحيّرة واستمرار هذه الظاهرة ، فأروع ما خطّه القلم أو أفضل المقطوعات النثريّة أو الشعرية عندما تقرأها لأوّل مرّة فإنك تشعر بالرغبة والحيوية والتعلّق بمطالعتها ، ولكنّك عندما تعيد قراءتها عدّة مرّات فسوف تحسّ بأن هذا التكرار قد ولّد في نفسك مللاً وضجراً منها .

فالجاذبيّة والتأثير الجارف للآثار الرفيعة التي خلّفها النوابع ليست ثابتة على مستوى واحد في الماضي والحاضر ، هذا إذا كتب لها الدوام والخلود، وإنما تسيطر على فكر القارىء مدّة من الزمن ثم تبدأ جاذبيّتها بالانحسار تدريجيّاً حتى تصل يوماً إلى الحدّ الذي لا تثير فيه حماساً ولا تسترعي انتباهاً .

أمّا القرآن ، هذا الكتاب السماويّ ، إذا درسناه من هذه الناحية فالممارسون للقرآن الذين ظفروا بشيء من أعماق التعاليم الإلهيّة يعلمون بوضوح أن هناك ارتباطاً مباشراً بين تلاوة القرآن والانجذاب الحاصل للإنسان بعدها ، وحتى إذا أعيدت تلاوته مئات المرّات فإنه يكتشف في كلّ مرّة ناحية جديدة تسيطر على روحه وتسحر لبّه .

إن هذا الإحساس باللذّة الروحية يتناسب مع مدى إدراك مفاهيمه

الرفيعة ، ويستطيع كلّ إنسان أن يستوعب من القرآن بمقدار سعة علمه وعمق إدراكه ، فيلبّي بذلك حاجة من حاجاته الروحيّة .

وقد امتدّت جاذبيّة القرآن إلى خارج البيئة المكّيّة مقرونة بالتحوّلات والغليان والتحرّك الأخلاقي والروحي للمسلمين ، فانعكس صدى ذلك تارة على لسان جعفر بن أبي طالب في قصر ملك الحبشة المسيحي، على الرغم من الظرف غير المناسب وضغط المخالفين ، وتارة أخرى في المدينة مقرّ تشكيل المجتمع الأفضل وذلك على لسان مصعب بن عمير .

وكان دور هؤلاء العارفين النشطين في مهاجمة القيم الفارغة دور العامل المؤثّر والأصيل في إيجاد حركات أدّت إلى تغييرات جذريّة في الفكر والعمل داخل المجتمع ، وقد بثّوا الوعي ودعوا الناس لاتّخاذ مواقف واقعيّة أزاء معرفة حقائق القرآن .

ويضع القرآن بدعوته الوسائل اللازمة ليختار الإنسان شيئاً واحداً من بين أمرين : إمّا جبهة الباطل وإمّا الجبهة المؤسسة على القيم الجديدة البانية للحياة والرافعة للإنسان ، وذلك لأن الحياة تصبح بلا معنى إذا لم ترتبط برؤية كونيّة ونظرة دقيقة للوجود والتأريخ ، وللهدف من هذا الوجود .

واليوم وبعد أن مرّ أربعة عشر قرناً على نزول القرآن فإن تلاوة آيات الكتاب الكريم وفي مختلف جهات العالم تصافح الأذن بنغمة حبيبة وحلاوة عجيبة .

إن النغمة المثيرة لتلاوة القرآن ترتفع من داخل أبنية المدن والقرى ومن داخل مخيّمات الصحراء ، ومن الأماكن التي يسكنها الإنسان بشكل مؤقّت وعلى طول الأسفار وطول الطرق التي يقطعها المسافرون للوصول إلى أغراضهم، وفي ساعات النهار ولحظاته، وفي قلب الليل عندما يغرق الإنسان في السكون العميق الزاخر بالمعنى ، وعند الصعود إلى المرتفعات والانحدار منها؛ وبالتالي خلال الدخول والخروج من أيّة نقطة . . . فيسجّل على

صفحات النفوس والأذهان المستعدّة آثاراً جليلة تقلب الروح رأساً على عقب، وتغيّرها جذريّاً دون أن ينقص شيء من طراوته وحداثته ، وكلّما تغلغل أكثر في مجرى العواطف وشؤون الحياة المختلفة وأعمالها واختلط بها فإنه يبقى مصوناً من كلّ تحريف محفوظاً من كلّ يد يمكن أن تمتدّ إليه .

وعلى هذا فلو كان للعلم والفنّ البشريين دخل في تدوين القرآن كبقيّة آثار الإنسان حيث توجد لها مرحلة أكثر تكاملاً لغدا هذا الأثر الممتاز موقّتاً، ولتجلّى ذلك في تأثيره المحدود في تأريخ الناس ومصيرهم ، ثم لانحدر نحو القدم ولاغتاله الموت بتقادم العهد عليه .

ولكنّ الله سبحانه وتعالى ذا العلم والقدرة اللامحدودة قد نظّم الحديث في القرآن الكريم ورتّب كلماته الجميلة بشكل يحتفظ فيه بحداثته وطراوته باستمرار ، وقد صيغ في قالب من الخلود مع الأخذ بعين الاعتبار الحركة الضرورية للظواهر والواقعيّات .

وتتمتّع الفكرة القرآنيّة بالوضوح والحسم في تبيين موقفها العميق ورسالتها الجليلة في بثّ بذور التوحيد بكلّ أبعاده في الحضارة والتأريخ البشري المتحرّك. وهي ترفض العبثيّة وتندّد بالنظرات السطحيّة التي لا تتجاوز مواضع الأقدام والتفكير الضحل الذي لا يدرك الواقعيّات ، وفي مجال المعارف الإلهيّة تجتذب معانيه الرفيعة والعرفانيّة روح الإنسان الطالب للحق والمتعطّش للتحليق، بشكل يقطع فيه خلال لحظة الارتفاع كلّ ارتباطاته بالقيم المسيطرة على العالم المادّي ، وتشدّ بصره إلى أفق أسمى ينتهي به إلى تجسّم أبعاد أخرى فيه .

فالله الذي يعرّفه القرآن للعالمين هو تلك القوّة الفريدة البعيدة عن أيّ تشبيه بموجودات العالم، والتي تتحكّم سننها في جميع الظواهر، وفي عالم المفاهيم تتعرّف على مفهوم اللانهاية الذي لا يعترف بالتحديد والانتهاء ، فالقرآن الكريم يعلن بصراحة :

﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾[1] .

ونحن نعلم أن موجودات هذا العالم إمّا مادّة أو طاقة ، والقرآن يرفض بكلّ قوّة تشبيه ذات الباري (جلّ وعلا) بالمادّة والطاقة ، وهـذا هو التعبير القرآني الرفيع :

﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾[2] .

ويقود القرآن الكريم الناس نحو التفكير العميق في نظام الوجود والغوص إلى أعماق النعم والحوادث ، فكلّ مؤمن يعمل بهذه النصائح فيتأمّل في الظواهر وكونها ذات أهداف ويفتّش في الآفاق والأنفس في الخارج والباطن ، فإنه لا بدّ أن يصل إلى هذه النتيجة وهي أن كلّ حادثة تتحرّك في طريقها الخاص ونحو غايتها المعيّنة لها ، فإذا كان الإنسان باحثاً عن الفلاح فلا بدّ من أن يكيّف ذاته لتصبح منسجمة مع هذه الظواهر المتحرّكة باستمرار ، ومع هذه القافلة المتقدّمة دائماً نحو لقاء الله .

والقرآن الكريم يعدّ معرفة الله أمراً من صميم الذات وأعماقها، ونابعة من نفس قوانين الوجود المتّجهة نحو أهدافها ، ويعدّ المادّيين ـ الذين لا يعرفون الله وهم يتخبّطون في مثاليّاتهم الذهنيّة ـ في صراع مع فطرتهم الباحثة عن الله ، وهو يهاجم السبل المنحرفة عن اتّجاه التوحيد سواء أكانت ثنائيّة الزردشتيين أم ثلاثيّة الشريعة الهنديّة أم تثليث المسيحيين الذي اقتحم فيه الأتباع التثليث في الدين المسيحي تقليداً لأسلافهم من التابعين للشرائع السابقة ، ويعتبر هذا التفكير لوناً من تغطية الحقيقة وتشويهها من وجهة نظر القرآن ، فهو يقول :

﴿ لقد كفر الذين قالوا : إنّ الله ثالث ثلاثة ﴾[3] .

---

(١) سورة الشورى : الآية ١١ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٠٣ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٧٣ .

والقرآن ضمن تنديده بفكرة كون المسيح وعزير من أبناء الله فإنـه يعدّ هذه الفكرة من مخلّفات الماضين ، ويقول :

﴿ وقالت اليهود : عزير ابن الله وقـالت النصارى : المسيـح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ﴾[1] .

ويؤكّد القرآن مخاطباً النبيّ (صلى الله عليه وآله) بحسم :

﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتّخذ ولداً ولم يكن له شـريك في الملك ولم يكن له وليّ من الذلّ وكبّره تكبيرا ﴾[2] .

وفي خاتمة المطاف يخطّ القرآن بخطّ البطلان على كلّ لون من ألوان التفكير المنحرف المشرب بالشرك في سورة من سوره القصار :

﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد * ﴾[3] .

ومن معـاني الصمد أنـه ليس مجوّفـاً ولا فـارغـاً من الـداخـل ، ومن المسلّمات في عصرنا أن المادّة بشكـل عام مجـوّفة وفـارغة من الـداخل ، ويوجد في كلّ ذرّة فراغات وفواصل هائلة ، والذرّة هي نواة العالم المادّي ، فسورة التوحيد إذن تصرّح بأن الله سبحانه ليس من جنس المادّة ليكون مجوّفاً وخالياً من الداخل .

يقول العالم الغربي الفيزيائي (بول كلارنس ابرسولد) :

« ولكن هل لله وجود ذاتيّ كما يعتقد الكثيرون ؟ أمّا وجهة نظر العلم فإنني لا أستطيع أن أتصوّر الله تصوّراً مادّياً بحيث تستطيع أن تدركه الأبصار أو أن يحلّ في مكان دون الآخر ، أو يجلس على كرسيّ أو عرش . . . ولكنّ

---

(١) سورة التوبة : الآية ٣٠ .

(٢) سورة الإسراء : الآية ١١١ .

(٣) سورة التوحيد .

الله تعالى كائن روحاني لطيف. بل هو فوق ذلك إن كان وراء الروحانيّة من وراء في مرتبة الصعود ، ونحن لا نستطيع أن نصفه وصفاً روحانيّاً صرفاً، فالإنسان رغم أنه يتكوّن من جسد وروح لا يستطيع أن يدرك هذه الصفات الروحانيّة أو يعبر عنها إلاّ في حدود خبرته ، ومع ذلك فإننا نستطيع أن نصل إلى أنِ الله تعالى يتّصف بالعقل والحكمة والإرادة ، وعلى ذلك فإن لله وجوداً ذاتيّاً وهو الذي تتجلّى قدرته في كلّ شيء ، وبرغم أننا نعجز عن إدراكه إدراكاً ماديّاً أو وصفه وصفاً ماديّاً ، فهنالك ما لا يحصى من الأدلّة الماديّة على وجوده تعالى ، وتدل أياديه في خلقه على أنه العليم الذي لا نهاية لعلمه ، الحكيم الذي لا حدود لحكمته ، القويّ إلى أقصى حدود القوّة »[1] .

وهذا هو الكيميائي الشهير (واين أولت) يقول :

« لأن الله كما نعرفه ليس مادّة أو طاقة ، كما أنه ليس محدوداً حتى نستطيع أن نخضعه لحكم التجربة والعقل المحدود ، بل على نقيض ذلك نجد التصديق بوجود الله يقوم على أساس الإيمان ، ولو أنه إيمان يستمدّ تأييداً علميّاً من الدلائل غير المباشرة التي تشير إلى وجود « سبب أوّل » وإلى « دافع مستمر منذ القدم » »[2] .

إن هذا اللون من التوصيف لله الواحد الأحد هو منطق العلم ، وكذا القرآن فإنه يصف الذات العليا بأرفع الحقائق العلميّة وأشرف الواقعيات في عالم الوجود .

ولا تتّضح لنا قيمة وأهميّة المعارف العقليّة للقرآن إلا إذا قمنا بتحليل الآيات المتعلّقة بمعرفة الله،وعرفنا أنه يشجّع على أسلوب المقارنة في هذا

---

(١) الله يتجلّى في عصر العلم ص ٣١ .
(٢) الله يتجلّى في عصر العلم ص ١٢٩ .

المجال، ثم بدأنا ندرس العقائد اليونانيّة والبوذيّة والزردشتية والجاهليّة العربية التي كان كلّ واحد منها يسيطر على جزء من العالم في ذلك اليوم .

وسوف تكون نتيجة هذه المقارنة الدقيقة والمحايدة والنزيهة هي العلم بقيمة الإيمان الإسلامي الواعي المؤسس على قاعدة من التوحيد الخالص في كل أبعاده ، وسوف يتجسّم من خلال العمل والنشاط والمحاولات الهادفة ، وبالتالي سوف يقودنا إلى إعجاز القرآن ومعارفه القيّمة الحيّة التي فتحت أمامنا هذا السبيل منذ أربعة عشر قرناً .

فالمزوّد بسلاح الإسلام وكلّ من توقّدت جذوة الشعور والوعي الإسلامي في نفسه لا يتعلّق قلبه بشيء سوى الإيمان الصادق، وكلّ ما يمنحه المعرفة على طريق الواقعيّة والتطبيق لذلك الإيمان .

المسيح يبشّر برسالة نبيّ الإسلام (ص)

لا شكّ أن الإيمان بالأنبياء السابقين ركن من أركان عقائد المسلمين ، ويمتدّ التأريخ الطويل للأنبياء وهدفهم الواحد في إيصال الناس إلى قمّة التوحيد ، وذلك بشكل حلقات السلسلة الواحدة التي تنتهي في القمّة الشاهقة لرسول الإسلام وخاتم الأنبياء .

ولهذا فإن القرآن يؤكّد على المنزلة الرفيعة التي يحتلّها أنبياء الله في تأريخ الوحي ، ويدعو أتباعه للإيمان بكتبهم السماوية، ويعتبر ذلك بمنزلة التصديق بأصالة الدين ، ويوضّح لنا حقيقة مهمّة وهي أن الإنسان لا بدّ له في كلّ مرحلة تأريخية من التمسّك بشريعة أصيلة نظيفة مرتبطة بالوحي ،ومزوّدة بالمفاهيم الحيّة والأفكار المتوثّبة ، ولكنّه في كلّ عصر يسند الله القيادة الدينية لنبيّ من أنبيائه الذين تعاقبوا على مسرح التأريخ .

وإذا كانت هناك اختلافات في مناهج الأنبياء فذلك بسبب الحركة السريعة لعجلات التكامل وانتقال الإنسانيّة من مرحلة إلى مرحلة أخرى ، وإلا فإن جميع الرسالات لا تختلف بالنسبة إلى هداية الإنسان الصادقة للأهداف الإلهيّة ، وقد حمل الأنبياء جميعاً ديناً واحداً واستلهموه من منبع واحد ، ولكنّه كان يتقدّم خلال الزمان بما يناسب الضرورات وينسجم مع الحاجات .

يقول الله تعالى في كتابه الحكيم :

﴿ لا نفرّق بين أحد منهم ﴾[1] .

وقد حسب الحساب منذ الأزل لبعثة الأنبياء في نظام العالم ، وقد هيّئت لها الأرضيّة في طريقة خلقه ، وتدلّ سلسلة المراتب في الأنبياء على السير التدريجي للهداية الإلهيّة ، فكما أن البشر قد تقدّم بالتدريج خلال حياته ، فكذا الأنبياء قد أدّوا رسالتهم متلائمة مع هذا التقدّم المتدرّج ، وقد أطلع الأنبياء الناس على ظهور الرسول اللاحق الذي سوف يحمل عبء المسؤوليّة في المستقبل .

وعلى هذا الأساس فقد اعترف نبيّ الإسلام (صلى الله عليه وآله) برسالة الأنبياء السابقين وكتبهم السماويّة، وصدّق بنبوّة الأنبياء الماضين ، والأنبياء الآخرون أيضاً مصدّقون بمن سبقهم من الرسل ومبشّرون بمن يلحق بهم منهم ، ويظهر لنا بهذا العلاقات الوثيقة والارتباط الكامل بين الأديان الإلهيّة ، وقد تمّ الإفصاح عن ذلك بكل حسم من قبل مؤسسي هذه المذاهب الحقّة .

وصحيح أن بشارة الأنبياء ليست دليلاً يقينيّاً على صدق نبوّة أحد ، ولكنّها قرينة يستطيع الإنسان بوساطتها أن يدرك بعض ملامح النبوّة الصادقة ، فيمن اختارهم الله لإبلاغ رسالته، وأن يتعرّف على بعض خصائص الرسالة المتجسّمة في كيانه .

وفي موضوع البشارة يتمّ التأكيد على اسم النبيّ الذي سوف يأتي في المستقبل ، ولمّا كانت التسمية أمراً اعتباريّاً فلهذا يمكن استغلالها خلال مرور الزمان استغلالاً سيّئاً ، وكذا تعيين وتحديد عصر الظهور فإنه يهيّىء للأدعياء والكاذبين الأرضيّة الصالحة لنشر ادّعاءاتهم ، وإذا تعدّد المدّعون بالنبوّة فإن ذلك يستتبع اضطراب الناس وتشتّت أفكارهم .

(١) سورة البقرة : الآية ١٣٦ .

وليس عسيراً على أصحاب الدقّة في النظر والواقعيّة في التفكير تمييز المرسلين من قبل الله سبحانه من العناصر الضالّة الكاذبة ، ولكنّه من المؤكّد أنه من الصعب على كثير من الناس معرفة الحقيقة في ظلّ ظروف يختلط فيها الحق والباطل ، وبالإضافة إلى هذا فإن هؤلاء لم يزوّدوا إلاّ بقوّة ضعيفة للتمييز والمعرفة ، وما أكثر الذين احترقوا في موقد المضلّين الذي أشعل لهيبه حرصهم على الجاه وطلبهم للشهرة .

ولهذا السبب أشير إلى بعض خصائص الرسول الذي سوف يأتي في المستقبل ، فهذه العلامات هي التي تضفي على الإنسان تشخّصاً ، ومن ثمّ يبقى على الباحثين أن يصحبوا مصباح الطريق لكشف هذه البشارات،وأن يحلّوا لنا هذه العقدة عن طريق تحديد الخصائص الواقعيّة وتطبيقها على الرسول المبعوث من قبل الله،وذلك بسريرة طاهرة وقلب خال من الأغراض.

ونحن نعلم أن المسيحيّة والأديان الأخرى لم تدّع الخلود والدوام للدين المسيحي ، ولم تصف عيسى بأنه خاتم النبيّين حتى تكون سبباً لحفظ الإنجيل وصيانته حتى آخر الزمان ، بينما جاء في الإسلام الحديث عن أنه خاتم الأديان وآخرها وأكملها ، ولهذا فقد دعت الضرورة لئلا تمتدّ يد التحريف والعبث إلى حرمة الكتاب السماوي .

والاختلاف الأساسي بين كتب المسيحيّة والإسلام ، أن المسيحيّة محرومة من متن مسجّل للوحي أيّام ظهورها ، بينما الإسلام يتميّز بمثل هذا المتن .

وقد تعرّضت الأناجيل المقدّسة التي هي بين أيدينا إلى نقد واسع قام به العلماء والدارسون،وقارنوا فيه بين النسخ المختلفة والمتفاوتة للإنجيل وانتهوا إلى هذه النتيجة ، وهي أن في كتاب العهد الجديد تغييرات هائلة ، وتوجد أدلّة متضافرة تدلّ على أن مضمون الأناجيل يدور حول الاعتقادات والأفكار الشخصيّة .

يقول (جان ناس) في تأريخ الأديان :

« إن ماضي المسيحيّة هو تأريخ ديانة بدأت من الاعتقاد بالتجسّم الإلهي في جسم بانيها وشارعها ، وتدور جميع تعاليم المسيحيّة حول الاعتقاد بهذه القضيّة وهي أن عيسى هو أجلى ظهور للذات الإلهيّة ، ولكنّ هذه العقيدة التي بدأت بالاعتقاد بالتجسّم الإلهيّ قد انقلبت ضمن تحوّلات تتّصف بالناحية البشرية ، وتجلّت فيها البشرية بكلّ رغباتها وضعفها ونقصها .

ولهذا الدين قصّة طويلة، وقد قطع خلال حياته مراحل كثيرة من الارتفاع والانخفاض والعلوّ والهبوط، واقترن بالعذاب المليء بالمعنى والباعث على العبرة ، ولم يتجلّ في أيّ دين من الأديان في العالم بمقدار ما تجلّى في هذا الدين من أهداف روحانيّة رفيعة ، ولم يبتعد أيضاً أيّ دين بمقدار ما ابتعد هذا الدين عن مقاصده العليا » .

ومع هذا فإن هناك شواهد تشير إلى أن كلمات « روح الحق » و « روح القدس » و « والمعزّي » تنطبق على نبيّ الإسلام (صلى الله عليه وآله) .

جاء في الإنجيل أن عيسى قال للحواريّين :

« لا أتكلّم أيضاً معكم كثيراً لأن رئيس هذا العالم يأتي وليس له فيّ شيء »[(١)] .

« ومتى جاء المعزّي الذي سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من عند الأب ينبثق فهو يشهد لي »[(٢)] .

« لكنّي أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق ، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزّي ، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم ، ومتى جاء ذاك يبكّت العالم

---

(١) إنجيل يوحنّا/ الإصحاح الرابع عشر الآية ٣٠ .

(٢) إنجيل يوحنّا / الإصحاح الخامس عشر /الآية ٢٦ .

على خطيّة وعلى برّ وعلى دينونة ، أمّا على خطيّة فلأنهم لا يؤمنون بي وأمّا على برّ فلأني ذاهب إلى أبي ولا تروني أيضاً ، وأمّا على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين .

إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ، وأمّا متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلّم من نفسه بل كلّ ما يسمع يتكلّم به ويخبركم بأمور آتية ، ذاك يمجّدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم »(١) .

« وأمّا المعزّي الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكّركم بكلّ ما قلته لكم »(٢) .

فلو قلنا إن المعزّي هو نفسه الروح القدس ، فقد كان الروح القدس دائماً مع عيسى (عليه السلام) وحينئذٍ ليس صحيحاً أن يقول عيسى : « إن لم أنطلق لا يأتيكم » .

ويقول عيسى (عليه السلام) :

« وأمّا متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق » .

وهذا يدلّ على أنه يعترف بأن دينه أكمل دين ، وهذا المقام القيادي هل ينطبق على أحد سوى النبيّ محمّد (صلى الله عليه وآله) ؟ .

وعندما يقول المسيح : « فهو يشهد لي » أو « ذاك يمجّدني » أهناك أحد غير نبيّ الإسلام (صلى الله عليه وآله) قد أضفى على شخصيّة المسيح (عليه السلام) الجلال والعظمة وبرّأ مريم (عليها السلام) من التهم القبيحة التي نسبها اليهود إليها ؟ .

وهذه الأعمال أهي قد صدرت من روح القدس أم من نبيّ الإسلام ؟! .

---

(١) إنجيل يوحنّا/ الإصحاح السادس عشر /الآيات ٧ ـ ١٤ .

(٢) إنجيل يوحنّا / الإصحاح الرابع عشر / الآية ٢٦ .

ومع أن الآيات السابقة الذكر تشهد بأن « المعزّي » أو « الروح القدس » أو « روح الحق » لا ينطبق على أحد غير نبيّ الإسلام (صلى الله عليه وآله) ، فقد ورد في الكتب السماوية السابقة التعبير بكلمة « فارقليط » وهي تقابل كلمة « أحمد » أو « محمّد » ، ولكنّ المترجمين للإنجيل ظنّوا أن لفظ « بريكليتوس » اليوناني الذي يعني « أحمد » هو « باراكليتوس » وترجموه إلى الإنكليزية واللغات الأخرى بمعنى المعزّي .

وللدكتور (موريس بوكاى) شرح قيّم في هذا المجال فهو يقول :

« إن أبواب إنجيل يوحنّا ومسائله الأساسيّة تطرح أموراً هي تشوّف للمستقبل، وتتمتّع بأهميّة فائقة ، وقد عرضت بعظمة وجلال يناسب حالة الوداع بين الأستاذ وطلّابه . . . .

والمسيطر على القصص (وهو بكلمة أخيرة مما يمكن إداركه) إنما هو تطلّع الإنسان للمستقبل الذي يعرض بوساطة عيسى وانشغال خاطر الأستاذ أيضاً بأن تبلغ وصاياه وأحكامه للبشريّة كلّها بوساطة طلّابه ، وتعيين القيادة بعد ذهابه مما يجب على الإنسانيّة أن تمتثل أوامرها .

ويسمّى إنجيل يوحنّا هذا القائد باسم يوناني هو « باراكليتوس » الذي أصبح في اللغة الفرنسيّة باراكلت (فارقليط) . . .

ولا بدّ من تناول هذه المسألة بالبحث، فمن الغريب أن ينسب إلى « الروح المقدس » هذا النصّ السابق الذكر :

« لا يتكلّم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلّم به ويخبركم بأمور آتية » .

والذي نفهمه أنه لا يمكن أن ننسب إلى الروح المقدس القدرة على التحدّي وعلى إعادة ما سمعه ، وفي حدود اطّلاعي فإن هذه المسألة التي يحكم المنطق بطرحها للمناقشة لم تشرح ولم توضّح أبداً .

ولكي نظفر بفكرة سليمة عن الموضوع لا بدّ من الرجوع إلى المتن

اليوناني ؛ ويكتسب هذا الأمر أهميّته من اعتراف الجميع بأن يوحنّا قد كتب إنجيله باليونانيّة وليس بأيّ لغة أخرى ، وذلك حين يقول عيسى حسب نقل إنجيل يوحنّا :

« إنّي سوف أرجو من الأب أن يبعث إليكم بفارقليط آخر » .

فهو يريد أن يقول بوضوح إنه سوف يبعث إلى الناس بشفيع آخر كما كان هو شفيعاً لهم عند الله أثناء حياته على وجه الأرض .

وفي هذه الصورة نستطيع أن نستنتج على أساس المنطق الصريح بأن فارقليط يوحنّا إنما هو موجود بشري مثل عيسى يتمتّع باستعداد للسمع والكلام ، وهو الاستعداد الذي يلزمنا به المتن اليوناني لإنجيل يوحنّا بشكل صريح ويقيني .

ويعلن عيسى أن الله سوف يبعث فيما بعد موجوداً بشريّاً على وجه الأرض ويكون له الدور الذي شرحه يوحنّا ، وهذا الدور باختصار هو دور النبوّة التي سمعت صوت الله ، وهي تعيد للناس ما سمعته ، وهذا هو التفسير المنطقي لذلك المتن الوارد في إنجيل يوحّنا إذا أعطينا للكلمات معانيها الواقعية .

ومن المحتمل جدّاً أن تكون كلمات « الروح المقدس » الموجودة في المتن الموجود في أيدينا قد تغيّر معناها بسبب ما لحقها من معانٍ فيما بعد ، وبصورة عمديّة ، فغطّى ذلك على المعنى الأولي الذي كان عبارة عن الإعلان عن ظهور نبيّ يأتي بعد عيسى »[١] .

وتقول دائرة المعارف الفرنسيّة الكبيرة في الجزء (٢٣) ص ٤١٧٤ ضمن شرحها لكلمة محمّد :

« محمّد (صلى الله عليه وآله) هو مؤسس الدين الإسلامي ومبعوث

---

(١) مقارنة بين التوراة ، الإنجيل ، القرآن والعلم ص ١٥ ، ١٥٢ ، ١٥٤ .

الله وخاتم الأنبياء، وجاءت كلمة محمّد من الحمد، واشتقاقها من حمد يحمد الذي هو بمعنى التمجيد والتجليل ، ومن الصدف العجيبة أن هناك اسماً آخر مشتقّاً من الحمد وهو مرادف للفظ « محمّد » وهو كلمة « أحمد » التي يغلب على الظنّ أن المسيحيين في الجزيرة العربية كانوا يستعملونها مكان « فارقليط » .

«وأحمد» معناه المحمود كثيراً، والمحترم جدّاً، وهو ترجمة لكلمة « بريكليتوس » التي أخطأوا فوضعوا مكانها كلمة « باراكليتوس » ، وبناء على هذا فإن كتّاب الدين الإسلامي قد ذكّروا دائماً بأن المراد من هذا اللفظ هو البشارة بظهور نبيّ الإسلام ، والقرآن المجيد يشير إلى هذا الموضوع علناً في آية عجيبة من سورة الصف » .

والآية التي تشير إليها دائرة المعارف هي هذه :

﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم : يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدّقاً لما بين يديّ من التوراة ومبشّراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلمّا جاءهم بالبيّنات قالوا : هذا سحر مبين ﴾(١) .

ويقول القرآن الكريم في آية أخرى :

﴿ ورحمتي وسعت كلّ شيء فسأكتبها للّذين يتّقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتّبعون الرسول النبيّ الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطيّبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتّبعوه النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون * ﴾(٢) .

---

(١) سورة الصف : الآية ٦ .

(٢) سورة الأعراف : الآيتان : ١٥٦ ـ ١٥٧ .

سرّ الخاتمية

ينظر الإسلام إلى الأصل القائل إن الدين الإسلامي هو خاتمة الأديان بعنوان كونه من الأركان المهمّة للإيمان الديني ، وهو ينفي البعثة لأيّ رسول بعد نبيّ الإسلام (صلى الله عليه وآله) .

وعندما يتحدّث المرء عن الإسلام فهو لا يستطيع أن يتغافل عن دور النبيّ في كونه خاتم الرسل ، فأيّ مسلم لا يستدعي ذكر محمّد (صلى الله عليه وآله) في نفسه صفة خاتميّته ، وأيّ مسلم يتردد في كون القرآن هو آخر كلمة للوحي ؟ .

ونحن لا نعرف ديناً غير الإسلام قد أعلن أنه الخاتم للرسالات السماوية ، ولا نعرف نبيّاً مبعوثاً من قبل الله غير محمّد (صلى الله عليه وآله) قد ادّعى أن نبوّته أبديّة ورسالته خالدة ، فمنذ ظهور الإسلام وحتى الوقت الراهن وخلال هذه المدّة الطويلة من الزمن التي استغرقت أربعة عشر قرناً عرف نبيّ الإسلام بأنه خاتم الأنبياء الذي أكمل الشرائع الماضية ، وتجلّت في رسالته القيم النهائية لتكامل البعثات مع مضمون ثريّ ومناهج منطقيّة .

وعلى العكس من سائر الأديان التي كانت تنشط خلال زمان معيّن وتتحرّك ضمن مكان خاص فإن الإسلام هو الخلاصة الجامعة لأطراف الرسالات جميعاً ، فهو ليس مقصوراً على مكان ولا محدوداً بزمان ، وقد رسم القرآن المجيد صورة مشرقة للنبيّ (صلى الله عليه وآله) بهذه الخصائص ،

وأكّد على أن باب النبوّة قد أغلق بمجيء هذا الرسول الكريم .

والآن كيف يمكننا حلّ هذا التناقض الذي يبدو بين ضرورة البعثة التي هي السبب في إعطاء الحياة سرعتها الطبيعيّة وحركتها اللازمة من ناحية ، وختم النبوّة من ناحية أخرى ، بين الأصل الرافض للتغيير في أسس الإسلام وأصل الصيرورة الاجتماعيّة والبحث عن مفاهيم وسنن جديدة ؟ .

إن إنسان عصرنا الحاضر الذي غيّرته التحوّلات الصناعيّة والتكنولوجيّة يحاول أن يضع لنفسه أنظمة حديثة في كل مجالات الحياة ، فكيف يستطيع أن يلائم بين حياته وتحوّلاته الاجتماعيّة ، ودين قد ظهر قبل أربعة عشر قرناً وهو يدعو الناس إلى مجموعة من السنن الثابتة والقيم الخالدة، ويمنعه من القيام بأيّ تجديد نظر في الأنظمة السابقة ؟ .

إن الإسلام الذي فاجأ الناس بفكرة النبوّة الخاتمة هو الذي يجيب على هذه التساؤلات .

فإحدى العلل لتجديد رسالات الأنبياء وتتالي الرسل هي ما يقع من تحريف في الكتب السماويّة ، ولهذا فهي تفقد عندئذٍ صلاحيّتها لهداية البشرية وإرشادها ، أمّا عندما يصل الإنسان إلى مرحلة من النضج بحيث يستطيع المحافظة على السنن والتعاليم الدينيّة بعيدة عن التحريف والتغيير، ويتمكّن من النهوض بنشرها فإنه ينتفي حينئذٍ أعظم الأسباب لتجديد الرسالة، ولا تبقى حاجة لنبوّة جديدة .

إذن يختلف عصر ظهور نبيّ الإسلام من هذه الناحية عن العصور التي ظهر فيها الأنبياء الآخرون بصورة كاملة ، حيث إن الإنسان قد وضع أقدامه في مرحلة النضج الفكري وتهيّأت الظروف اللازمة لاختتام الرسالة .

فالنضج الاجتماعي والوعي العلمي قد أوصل الإنسان إلى مرحلة يكون فيها هو الحافظ والمبلّغ لدينه السماوي ، وبهذا يتحقق ركن مهم من أركان الخاتميّة، وتسند مهمّة الإرشاد والدعوة منذئذٍ إلى العلماء والمفكّرين،

وذلك لأن الإنسان منذ هذا التأريخ أصبح قادرا على حفظ تراثه التأريخي ومنجزاته المعنويّة بفضل هذا الكتاب الكريم،وبفضل ما أصبح يتمتّع به من نضج ثقافي واجتماعي ، ويجب عليه الحيلولة دون تحريف أو تغيير هذا الكتاب الموحى إلى النبيّ الكريم ، وذلك لأن هذه الرسالة سوف تنتقل منذ الآن إلى المجموع،وسوف لن تكون المسؤوليّة على عاتق فرد واحد فحسب وذلك كما يقول القرآن :

﴿ ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾[١] .

ويصل الإنسان خلال تحوّلاته الاجتماعية إلى مرحلة تفقد فيها العمليات الجراحيّة المتتالية ما لها من نتائج طيّبة ، ويتهيّأ للدخول في أفق تتبدّل فيه النبوّة المنقطعة إلى نبوّة مستمرّة ، ويصوغ الناس مصيرهم ببصيرة مشرقة وتعمق في منجزات الوحي واختيار سليم .

وفي مثل هذه الظروف يجب على أيّ نظام فكري واجتماعي أن يحرر الفكر والعمل من عبء الارتباطات المنحرفة والإبهامات المتراكمة التي تشلّ الحركة وتبعثر الطاقات ، وأن يبعث النضال الدائم ضدّ الظواهر التي تقيّد الإنسان في علاقاته خلال التفكير والعمل .

والقرآن الكريم هو المعجزة الخالدة التي تضمّ الخطوط الأساسيّة لهذا النظام ، فيتمكّن الإنسان بهذه الثقافة أن يشقّ الطريق ويعبّده ويتقدّم من خلاله إلى الأمام .

يقول المفكّر الإسلامي محمّد إقبال :

« لا بدّ من القول إنه يبدو لنا كون رسول الإسلام واقفاً بين العالم القديم والعالم الحديث ، ففيما يتعلّق بمنبع الإلهام يكون مرتبطاً بالعالم القديم ، وبمجرّد أن نصل إلى روح الإلهام يصبح متعلّقاً بالعالم الجديد ،

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٠٤ .

والحياة في ظلّه تكتشف منابع أخرى للمعرفة مناسبة لهذا المسير الجديد »[1] .

والقرآن الكريم هو الوحيد بين الكتب السماوية الذي بقي مصوناً من يد التغيير وبقي متنه محفوظاً من التحريف ، ونشاهد فيه تعاليم خلّاقة ومتجدّدة بشكل واضح ، فلنقرأ معاً الآية التاسعة من سورة الحجر :

﴿ **إنا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون** ﴾

وتشير هذه الآية الكريمة إلى أن العلّة الأساسيّة في تجديد الرسالات قد انتفت .

ومن ناحية أخرى ، لا بدّ من الالتفات إلى أن الاعتقاد بجميع الأنبياء إنما هو اعتقاد بتيّار تأريخي متّصل قد وجد منذ تكوّن التأريخ والمجتمع وانعقدت فيه نطفة اتجاهي الحق والباطل،وسوف يستمر حتى تحقق النصر النهائي والقطعي للحق ، وأقصى ما في الأمر أن الأنبياء ينقلون الوعي والنضج للناس في كلّ مرحلة من خلال إمكانيّات المجتمع ومدى طاقته على التحمّل .

ولا يؤثّر الاختلاف في بعض الجوانب من الشرائع والقوانين في ماهيّة الدين وأركانه الأساسيّة ، فعدم الإتفاق هذا يتعلّق بالأمور الثانويّة وليس هو اختلافاً جذريّاً في ماهيّة الأديان .

ويغدو من الممكن إصلاح الانحرافات بفضل المناهج المتعددة المتناسبة مع مقتضيات الواقع الخارجي ، ولهذا فإننا إذا لاحظنا عدم الاتفاق في مناهج الأنبياء وأساليبهم في نضالهم المستمرّ فلا يعود ذلك إلى الجذور والأهداف الأصيلة ، ولا يلاحظ أيّ تناقض في إصرارهم على تنظيم أفكار الناس المحرومين من لمس الواقعيات والغارقين في ظلام ثقافي واجتماعي رهيب .

---

(١) إحياء الفكر الديني في الإسلام ص ١٤٥ .

يقول الله في كتابه الحكيم :

﴿ وقفّينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدّقاً لما بين يديه من التوراة ﴾[1] .

ولا يكتفي القرآن بعدم تكذيب الكتب الماضية وإنما هو يؤيّد رسالة جميع الأنبياء السابقين ويكبر محاولات وآلام الطليعة الممتازة للبشريّة ، وبينما كان اليهود والمسيحيّون يواجهون نبيّ الإسلام بأشدّ العناد وأقسى العداوة كان القرآن يذكر زعماء المسيحيّة واليهوديّة بكلّ تكريم واحترام .

أفلا يكون هذا التجليل لشخصيّات أظهر التابعون لها أشدّ ألوان العداوة لنبيّ الإسلام دليلاً حيّاً على صدق النبيّ (صلى الله عليه وآله) وأمانته وصحّة رسالته وكونها مستلهمة من الوحي الإلهي ؟ .

بينما وقف أتباع تلك الأديان بكلّ عناد ضدّ هذه الحركة العقائدية الجديدة وشنّوا عليها هجمات متعاقبة ، ويدلّ هذا الأمر على مدى خلوّ هذا الكتاب الحكيم من روح المنافسة والرغبات البشرية المحدودة،وعلى مدى بعده عن الهوى وحبّ الجاه .

وجاء في القرآن الكريم :

﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ﴾[2] .

ولمّا كانت للدين جذور في فطرة الناس فمقتضى هذا النداء الباطني أن يتحرّك العالم كلّه نحو اللانهاية،و أن يتجسّم ذلك نظريّاً وعمليّاً فيه ، وأن يبتعد تماماً عن أيّ اختلاف وتعدّد .

يقول القرآن الكريم :

---

(١) سورة المائدة : الآية ٤٦ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٤٨ .

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾[1] .

إذن فالإنسان وإن كان مشمولاً للسنن المسيطرة على ظواهـر العالم ، ولا يتحقق كيانه ولا يصبح ذا معنى ما لم يـرتبط بالـظواهر ويتّصـل بقانـون التكامل ، ولكنّ طريق السعادة الوحيد له ينحصر في شيء واحد، والدين هو الذي يستطيع أن يمنحه اتجاهه الخاص ومسيره المحدّد وهدفه المعيّن .

يقول (منتسكيو) :

« إن ماهيّة القوانين البشريّة هي كونها مطيعة وتابعة للحوادث والوقائع المختلفة ، أي أن الحوادث تؤثّر فيها ، بينما القوانين السماويّة لا تتغيّر تبعاً للحوادث ولا بتغيير إرادة الإنسان ، والقوانين البشرية تبحث دائماً عن طريق جيّد للحلّ ولكنّ القوانين السماويّة واجدة لأفضل طرق الحـلّ ، وقد تكـون سبل الحلّ الجيّدة متعددة ، وذلك لأن الجودة لها أنواع مختلفة ونواح متعددة ولكنّ أفضل طريق للحلّ هو ذلك المنحصر بالفرد ، وعلى هذا فهو ليس قابلاً للتغيير .

ويستطيع الإنسان أن يغيّر القوانين البشريّة، وذلك لأن من الممكن أن يكون لدينا قانون مفيد في زمان وهو غير مفيد في زمان آخر ، ولكنّ الأديان تقدّم دائماً أفضل القوانين ، ولمّا كنّا عاجزين عن إيجاد ما هـو أفضل منهـا فهي إذن غير قابلة للتغيير »[2] .

ومن هنا فنحن إذا أعرضنا عن القوانين الإلهيّة ولجأنـا إلى المقررات البشرية نكون في الحقيقة قد نفضنا أيدينا من الآفاق الحرّة الواسعة للقوانين العامّة التي يحتويها الدين ، وألقينا بأنفسنا في الأزقّـة الضيّقة الـلامعبّدة في التفكير القصير النظر والمحدود للإنسان .

إن التفاوت الأساسي بين رسالة النبيّ محمّـد (صلى الله عليه وآلـه)

---

(١) سورة الروم : الآية ٣٠ .

(٢) روح القوانين ص ٧٢٥ .

وسائر الأنبياء هو أن الوحي لهؤلاء كان في حدود منهج موقّت؛ وبعد ظهور الإسلام بدا عليه الضعف والانكسار بحيث لا يمكن الخضوع لمثل هذه الشريعة ولهذا النظام الفكري العقائدي ، أمّا النظام القيمي للإسلام فهو قد جاء لإكمال نظام النبوّة، وهو يتمتّع بانسجام منطقي وتماسك رائع يشمل كلّ أبعاده الواسعة بحيث تصبح غير قابلة للاختراق ، وهو يتميّز باحتوائه لجميع خطط الأنبياء فيعفي الإنسان من الحاجة إلى أيّ لون من التشريع في مجالات الأسس الاجتماعية وكلّ ما يحتاج إليه الإنسان في الحياة المعنويّة والماديّة ، ولا يوجد في سائر الأديان مثل هذا الشمول والإحاطة من حيث المعنى والمادّة .

والدور الذي قام به سائر الأنبياء في مجالات إصلاح انحرافات المجتمع وتعيين مسيره الفكري والعملي في خضمّ الحياة يلقى على عاتق أئمة المسلمين الذين يقومون بنفس الدور مستفيدين من المنابع الإسلامية الغنيّة التي لا تنفد ذخائرها ، ويصبح القرآن الذي يغذّي النظام الإسلامي بأكمله ويمنحه قيمته هو المعيّن لاتجاه المسير والمنتج لمختلف القوانين الإسلامية بحيث لا تشذّ عن دائرة شموله أيّة مسألة ، ولهذا تغدو كلّ التعاليم متّصفة بأنها المصطفاة من قبل الله تعالى .

وعندما يصل الإنسان إلى مرحلة النضج الإنساني والقدرة على استيعاب الحقائق الكليّة والقوانين الإلهيّة يصبح العلماء خلفاء للأنبياء، لكي يوسّعوا في أفكار الناس مكاناً للمقاييس الأصيلة ، وفي ظلّ التطلّعات الرفيعة للدين يأخذون على عاتقهم مهمّة البحث والاجتهاد والنضال ضدّ التحريف والتزوير وإشاعة المعايير الإلهيّة في اتجاهها الصحيح .

وتشجّع كثير من الآيات الناس على الدراسة الدقيقة للظواهر وفهم ومعرفة الروح المسيطرة على نظام الوجود بصورة استدلاليّة .

ويهتمّ هذا الكتاب المقدّس كثيراً بالعقل والتجربة ويبيّن مكانتهما الرفيعة وآثارهما الجليلة، ويولي الطبيعة والتأريخ اهتماماً خاصّاً بعنوان كونهما

منبعين للمعرفة الإنسانيّة ، وكلّ هذه الأمور تبيّن أن هذه الرسالة هي الرسالة الأخيرة التي جاءت للبشرية بنظرة حديثة، وفتحت صفحة جديدة في التأريخ البشري .

ومن حيث اختلاط التخطيط الذهني بالواقعيّات الخارجيّة فقد أثبتت البشرية خلال ما يناهز خمسة عشر قرناً أنها مهيّأة لتحمّل المسؤوليّات الكبيرة، وأنها قادرة على حفظ الميراث الديني والعلمي، وقد أبدت عمقاً في نظرتها الواقعية في مرحلة التحليل والتفسير .

وهذه الأمور تثبت أن الإنسان قد وصل إلى مرحلة الاستقلال والقدرة على حفظ الآيات السماوية بأقصى دقّة، وأنه يتحمّل عبء الدعوة والتفسير ونشر الدين الحنيف .

وعندما وصلت التعاليم الإلهيّة إلى الإنسان انتفت الحاجة لمجيء نبيّ جديد ، فلو فرضنا أننا أخذنا قطعة من الأرض وأجرينا فيها الدراسات اللازمة الدقيقة لاكتشاف ما فيها من آثار تأريخية، فإننا نقطع حينئذٍ بعدم وجود شيء مخفيّ في بطن الأرض، ولا يبقى هناك مجال لتحقيق آخر واكتشاف جديد، وكذا الحال بالنسبة للأمور المتعلّقة بالوحي .

فعندما اجتازت النبوّة تلك المراحل المختلفة انتهت إلى أرفع درجات كمالها ورقيّها ، واتضحت من ناحية الوحي كلّ الزوايا المبهمة والغامضة التي يمكن أن تصل إليها أفكار الإنسان ، وعندئذٍ لا تبقى نقطة مبهمة ولا طريق غير مسلوك، فتكون النبوّة قد وصلت إلى آخر مداها في أداء دورها الخاص وأعمالها المستمرّة، وتصبح قادرة على الاستمرار في حياتها مرتبطة بالمنبع اللانهائي للوحي، ومتّصفة بالاتّساع والخروج على بعد زماني واحد، ومتميّزة بنظام قيمي وثقافي واجتماعي واحد .

ويعلن نبيّ الإسلام (صلى الله عليه وآله) ببيانه الواضح الذي ينفذ إلى أعماق القلب : « إنما مثلي في الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها

وحسّنها إلا موضع لبنة ، فكان من دخل فيها فنظر إليها قال : ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة ، قال (صلى الله عليه وآله) : فأنا موضـع اللبنة ختم بي الأنبياء[1] وأورده البخاري ومسلم في صحيحيهما .

وصحيح أن واجب الأنبياء قد انتهى في إبلاغ الرسالة الإلهيّة ومساعدة الناس في عصر التفتّح ونضج الأفكار ، ولكنّه لم تنقطع على الإطلاق الرابطة المعنويّة الروحيّة بين عالم الإنسان وعالم الغيب، وهي السبيل لوصول الإنسان إلى المقامات الإنسانيّة الرفيعة عن طريق تنقية الـروح وبذل الجهـد لكسب الإخلاص .

ويستـطيع الإنسـان بأبعـاده الواسعـة والخلاّقة، وفي ظلّ هـذه الجهود النفسيّة الحثيثة أن ينقل استعداداته من القوّة إلى الفعـل ، وبهذا يتمكّن من الارتباط بعالم الغيب ، ويرى ويعرف ما لا يراه ولا يعرفه الغارقون في ظواهر العالم المادّي ، وخلال هذا الإطار تتجلّى إنسانيّة الإنسان بعنوان أنه خليفة الله في الأرض ، وتمتـدّ يداه إلى القيم الجـديـدة التي تضفي على حيـاتـه المعنى والمضمون والمحتوى .

ويـوجد كثيـر من الأشخاص الـذين يتمتّعون بـرؤية دينيّـة رفيعة جـدّاً وبمعنوية فيّاضة وأصيلة ، دون أن يكـونوا واصلين إلى مقـام النبوّة والقيـادة الإلهية الخاصّة .

وقد بقيت أبواب الإشراق والإلهام مفتوحة على مصراعيها أمام أولئك الذين يريـدون تطهيـر أعماقهم من الـرذائل والـذنوب ، ويحملون أرواحهم وقلوبهم ليعرضوها لنسيم المعرفة الإلهيّة المـانح للحيـاة ، ولم ينقطع أبـداً الفيض المعنوي ولم يلاحظ عليه أيّ نقصان أو تضاؤل ، وإنما كيفيّة استفادة الإنسان من العلاقة المباشرة والعميقة بذلك المنبع الأصيل الغني تتوقّف على مدى سعة روحه وقدرته على الاستيعاب ، فهو بهذا المقدار يكسب من ذلك الفيض المستمر اللانهائي .

---

(١) تفسير مجمع البيان سورة الأحزاب : الآية ٤٠ ج ٨ ص ٣٦٢ .

الجواب للماديّين

يعترض علينا الماديّون فيقولون :

الجميع يعرف أن التغيير والتحوّل هو أعم قانون للطبيعة ومن أكثر القوانين أهميّة ، ولا يوجد شيء ثابت في هذا العالم ، إذن لا يتلاءم الاعتراف بأصل التحوّل مع ما يدّعيه الإسلام من خلود .

وهذا الكلام صحيح ويمكن الدفاع عنه ولكنّه لا يبيّن كلّ الحقيقة ، فصحيح أن كلّ شيء في العالم يتغيّر ويتحوّل، ولكنّ الذي يتغيّر في الطبيعة ويتّجه نحو الفناء إنما هو المادّة والظواهر ،لا الأنظمة والقوانين ، فالنظام الطبيعي والنظام الاجتماعي المنطبقان على الطبيعة لا يمسّهما التغيير ولا ينالهما التحوّل ، فمن صفات القوانين ومشخّصاتها أنها كليّة ولا زمان لها ، وهذه الخصوصيّات تمنح القوانين القدرة على الدوام والاستمرار .

فالنجوم والسيّارات توجد وتدور وتبثّ النور وتعطي الطاقة ثم تصبح قديمة وتتفتّت ، ولكنّ قانون الجاذبيّة ليس مختصّاً بزمان محدّد ، فالإنسان يضع قدميه في هذا العالم على أساس السنّة الإلهيّة ويتّجه مع حركة الظواهر نحو كمال الوجود ، وبعد أن يقضي ما قدّر له من عمر يضعف ويموت ، فالموت هو المصير الذي لا يمكن أن يفرّ منه أيّ إنسان ، ولكنّ القوانين والأصول المسيطرة على الإنسان والعالم ثابتة دائمة .

ومراكز الحرارة تظهر في العالم بكثرة وبدرجات متفاوتة ثم تتّجه نحو البرودة وفقدان ما لديها من حرارة ، ولكنّ قانون الحرارة ثابت لا يقطع طريق الفناء .

ففي تشريع القوانين إذا أخذنا بعين الاعتبار الإنسان الطبيعي، وكان المحور في تدوينها هو التركيب الداخلي ونوعيّة الوجود البشري ، فإن التحوّلات لكل زمان لا يمكن عندئذٍ أن يكون لها أيّ تأثير في مثل هذه القوانين وذلك لأن ذات الإنسان وماهيّته لا تتغيّر .

إن الإنسان الذي أسس الدين الإسلامي يرحل عن هذا العالم ، أمّا القانون الإلهي النابع من فطرة الإنسان والذي جاء به للبشر جميعاً فهو سيظلّ خالداً ، وهذا هو السرّ في ثبات القوانين الإسلامية وأبديّتها ، والإسلام ليس ظاهرة سياسيّة أو اجتماعيّة ، وإنما هو مجموعة من الأصول والفروع تستمدّ النور من شعاع الوجود، وهو قانون ورؤية كونيّة ترفض طبيعتها أن يتبدّل شكلها .

والإسلام ليس ديناً فصليّاً ولا محليّاً ولا قوميّاً ، فهو لا يختصّ بالعرب ولا يقتصر على العجم ، ولهذا كان خطاب القرآن موجّهاً للعالمين جميعاً ، وهذا هو نداء القرآن :

﴿ يا أيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾(1) .

﴿ يا بني آدم لا يفتننّكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنّة ينزع عنهما لباسهما ﴾(2) .

ولا يوجد لنا أيّ مشكلة التمسّك بالقوانين الثابتة مع تقدّم العلم واتساع الحضارة وتغيّر بعض الاحتياجات الإنسانيّة ، وذلك لأنه توجد في المسير

---

(1) سورة الحجرات : الآية ١٣ .

(2) سورة الأعراف : الآية ٢٧ .

التكاملي للإنسان مجموعة من الحاجات الناشئة من طبيعة الحياة وأعماق الروح الإنسانيّة ، أو هي متعلّقة بالتركيب الجسمي للإنسان الثابت خلال حركة الزمان ، فما دام هناك إنسان على وجه البسيطة فإن يد التغيير لن تمتدّ إلى أعماق الذات البشرية والعناصر المكوّنة لحاجاته الأساسيّة، حتى يمكن أن تقلبها رأساً على عقب .

وهناك حاجات أخرى تتعلّق باستغلال الطبيعة وإمكانيّات الرفاه، وهي ناشئة من تفتّح الاستعدادات وتفجّر الطاقات ، وهذه تتغيّر عندما تتدخّل عوامل جديدة في ظروف الحياة ، ويستلزم تغيّر الأوضاع والأحوال والتحوّلات التكنولوجيّة للمجتمع رغبات جديدة ، فالتغيّر والتبدّل إذن يحصل في مثل هذه الأمور وليس في القسم الأوّل السابق الذكر .

ولا يعني هذا أن يخضع الإنسان كلّ المقاييس الأصيلة والمعايير القيّمة لظروف الزمان والمكان ، ثم يشيح بوجهه عن كلّ أمر خلّاق ومنتج متعلّلاً بأنه يحب الجديد ويحرص عليه .

فالتغيّر والتبدّل في وسائل الإنتاج التي يحتاجها الإنسان بسبب اتّساع العوامل الحضاريّة يستلزم مجموعة من القوانين والمقررات الفرعيّة ، التي لا بدّ من تعيينها حسب الظروف الخاصة لكلّ زمان ، ويتمّ ذلك على يد المتخصصين في العلوم الإسلامية ، فهم يستنبطونها من مجموعة من الأصول الكليّة الثابتة ، ثم تكون معدّة للتطبيق .

إذن القوانين غير الثابتة تدوّن للأمور التي تقبل التغيير ، ويوجد بين هاتين الفئتين من المسائل فروق جذرية في النظام القانوني الإسلامي .

مثلاً : يترك الإسلام للحكومة الإسلامية العادلة ذات الصلاحيّة الشرعية أن تتّخذ قراراً بشأن أمور عديدة من قبيل: المحافظة على الأمن الداخلي ، وإقامة العلاقات التجاريّة والسياسيّة مع الدول الأخرى، وتنظيم الأمور الدفاعية والتنظيمية والعلاجية والصحيّة ، مما لا يمكن الاستفادة منه

إلاّ في إطار الزمان وبهدي التجارب .

إن هذه المسائل من الأمور الفوقيّة (النهائض) وهي متغيّرة فقد تتبدّل خصوصيّاتها في كلّ زمان ، إذن فالرؤية الكونيّة الإسلامية تتميّز بديناميكيّة حيّة ، وهي لم تشرع القانون لأمور متحوّلة ، وإنما هي تقدّم قوانينها بمعايير كليّة وعامّة الجوانب .

وسوف يوجد هذا الأمر تحوّلاً هائلاً في تنظيم الحياة الاجتماعية وكيفيّة استغلالها للطبيعة ، وفي رفع مستوى الوعي بين أفراد النوع الإنساني ، وأمّا في نطاق المسائل المستلهمة من الأصول الفطرية والذاتيّة ، وهي معجونة بأعماق الوجود الإنساني فإن قوانين الإسلام ثابتة ، ولن تتفتّت في الطوفان الذي يوجده تحرّك الزمان والمكان ، مثلاً : حبّ الوالدين لطفلهما يتجلّى بأشكال مختلفة ومتعاقبة وكلّها نابعة من الفطرة ، وقد بنيت عليه حقوق من قبيل الإرث وهي تتّصف بالخلود ، وهكذا حاجة الإنسان إلى تشكيل أسرة فهي عامّة وشاملة ، ولا بدّ أن تتبلور هذه الحاجة بحياته بشكل جماعي خلال الحركة التأريخيّة لهذا العالم .

ونستطيع أن نجد العلامات المتضافرة على اجتماعيّة الإنسان التي تجلّت بأشكال متنوّعة ومراحل من النضج مختلفة ، وذلك في إظهار حاجته لتشكيل الأسرة في جميع ظروف الحياة المتقلّبة ، وقد بدأ بهذا منذ اليوم الأول الذي تفتّحت في روحه براعم للتفكير، وخلال كلّ المرتفعات والمنخفضات التي قطعها أثناء إشراق المدنيّات وأفولها .

وعلى هذا الأساس فإن الموازين المتعلّقة بها لا بدّ أن تستمرّ ، وذلك لأن رغبات الإنسان في هذا العصر تنطبق على رغباته في كلّ العصور تماماً عندما يتعمّق الإنسان في معرفته ، وإن كنّا لا نتردّد في وجود التغيير في الشكل الاجتماعي ، ولكنّ الهيكل الوجودي والهويّة المستقّلة للروح الإنسانيّة لن يحصل فيها أيّ تغيّر جوهري جذري ، فلا يوجد شيء يستطيع أن يمنعها من مسيرها ، ولا هي تغيّر طريقها .

ومن هنا فقد اتجه الإسلام لتدوين قوانين ثابتة لأمور من قبيل العلاقات العائليّة والعلاقات العـامّة وأسس حقـوق الأفراد ، فـإذا كانت هـذه القوانين مشـّـده على أساس العـدالة ، وكانت جذورهـا نـافـذة إلى أعمـاق الفـطرة الإنسانية ، أليست هي حينئذٍ متحررة من التحوّل والتغيير ؟ ولو أرادت تغيير اتجاهها فإلى أيّ جهة سوف تتّجه بعد إعراضها عن الفطرة والعدالة ؟ .

وبـالإضافـة إلى هذا فـإن هناك مفـاهيم أصيلة لها انعكـاسات فـرديّة واجتماعيّة ثابتة ، من قبيـل أداء الواجب وحفظ الأمـانة وحبّ النوع ، أو مثل الظلم والخيانة والكذب ، وهذا يبيّن ماهيّتهـا الثابتـة التي ترفض التحـوّل ، ومن الطبيعي أن يمتدّ هذا الثبات والاستقرار إلى القوانين المتعلّقة بها ، وإن كانت صورها التطبيقية تتغيّر .

ولهذا تشرّع القوانين العامّة ذات الشمول الواسع على أسـاس المعيار الذي يعرف به الإنسان الحقيقية آخذاً بعين الاعتبار مصيره المحتوم ، وتنبعث قيمتها من علاقتها بالمسير العام لتيّار الوجود وبالغاية النهائية للحياة البشريّة ، وتصبح دافعاً للإنسان في كلّ عصر لبناء حياته وإدارتها وتنظيمها .

وأمّـا إصرار الإسـلام على أن لا يقدّم لـلإنسان قـوانين دائميّة لـرفـع احتياجاته فسببه أنه إذا أقدم على ذلك فسيكون دليلاً على نقصه وقصر نظره، وذلك لأنه كمـا إذا لم يلتفت واضع القـانون إلى النـظام الفطري والتكـوين الداخلي فإنـه يعتبر عـلامة على ضعف التقنين ، فكذا إذا لم يهتم بالمسـائل المتغيّرة في تشريع القوانين فإنه يعتبر أيضاً علامة أخرى على الضعف فيه .

ومن نـاحية أخـرى فنحن نعلم أن الإنسان هـو بنفسه المـولّـد للبيئـة والعوامل الاجتماعيّة ، فهو يستطيع أن يمنح ذاتـه العلوّ والارتفاع ، ولكنّه في نفس الوقت ليس مصوناً من الانحراف والأخطاء ونتائجها السيّئة ، فهو أحياناً يسيـر في الاتجاه الـذي يحقق مصالحـه الواقعيّـة ، وأحيانـاً أخرى يعـاكس مصلحته فيلجأ إلى العصيان ، وهو لا بدّ له من الإيمان بهذه الحقيقة وهي أنه

ليست كل ظاهرة جديدة تتمتّع بقيمة راقية ؛ ولها تأثير في تقريب الإنسان إلى المدنية ، ولا يوجد أيّ منطق عقلي يسند مثل هذا النظام الفكري والعقائدي .

والإنسان لا تتحقق قيمته إلا عندما يأخذ على عاتقه دوراً فعّالاً في مجال الإصلاح والسيطرة على النفس، منسجماً مع تقدّم الزمان، ويصارع ما يؤدّي به إلى تحطيم سعادته الواقعيّة ، ولا يعادي الإسلام أيّ أمر يسوق الإنسان إلى حياة أفضل وسعادة أكمل ، بل لا يضيّع قيمة أيّ عمل يصدر من أيّ عامل، وهو يؤمن بأن العالم يسير نحو ازدهار الأفكار وتفتّحها ، ويؤثّر هذا الاعتقاد والعمل على تطبيقه في إيجاد حركات وتيّارات تعيد صياغة الإنسان وتحدث في حياته التحوّلات المطلوبة .

ويهتمّ الإسلام بصفة خاصّة بالروح ومعنى الحياة والسبل المؤدّية إلى تلك الأهداف ، ولكنّه يترك للأفراد حريّة اختيار الشكل الظاهري للحياة ، ويعدّ هذا عاملاً لكي يستطيع الناس خلال تقدّم الزمان ومواجهتهم للنقص والتضاد والتصادم أن يتقدّموا في طريقهم، وأن يدخلوا مرحلة جديدة ذات مستوى أرفع وأعلى .

ولمّا كان الإسلام هادفاً إلى تحقيق كمال الناس ومعتمداً على الواقعيات، فهو يرى وجوب الربط بين العقل والشرع، فهو يمنح العقل قيمة رفيعة بحيث يعدّه من مصادر الأحكام، ويسند إليه حلّ بعض المشاكل حسب ضوابط خاصّة .

فمن الموارد التي تتّصف فيها التعاليم الإسلامية بالخلود وتمنح فيها الأحكام صفة الديناميكيّة (الحركة) وذلك لكي تكون حيّة في كلّ زمان ، هي الصلاحيات الواسعة الممنوحة للحكومة الإسلامية العادلة ، فلكي لا يبتلى الناس بحوادث ومسائل لا يدرون فيها ماذا يفعلون أجيزت الحكومة في الظروف الجديدة واستناداً إلى الأصول الكليّة أن تضع قوانين متناسبة ومتناسقة مع مقتضيات الزمان، بحيث تحقق له النموّ والتقدّم .

وتفويض الاختيار للإنسان للتخطيط في مثل هذه المجالات يقصد منه دفع المتخصصين في المسائل الإسلامية لاتّخاذ مواقف مناسبة اتجاه الظواهر الجديدة، مستفيدين من الحريّة الفكرية والاجتهاد في سبيل تأمين الحاجات اليومية للمجتمع ولا سيّما الأوضاع المتغيّرة في حياتنا اليوم، ممّا يتعلّق بالتقدّم التكنولوجي الذي يواصل قفزاته بصورة مستمرّة ، ويشعر الإنسان إزاء هذا بضرورة التقنين والتخطيط الجديد ، والمتخصصون في الشريعة الإسلامية هم الذين يلائمون بين هذه المستحدثات والأصول التي لا تتغيّر في الشريعة المقدّسة ، أي أن ضرورة التكامل توجب على الحياة الاجتماعية أن تتخذ لها مسيراً جديداً تتغيّر به الملامح الاجتماعية بشكل أساسي .

وبهذا الأصل نصل إلى موقف إسلامي نستطيع بفضله أن نحلّ أعقد المسائل وأكثرها خطورة وأشدّها حساسيّة ، وهو لا يكتفي باعتبار المصلحة والمفسدة الواقعيتين للأمّة الإسلامية هما علّة صدور الأحكام والقوانين، وإنما يجعل الترجيح لحكم أو قانون تابعاً لكونه يستلزم مصالح أعظم للأمّة الإسلامية ، وبناء على هذا الأصل الحيوي للإسلام فقد أعطي الفقهاء والعلماء الإسلاميّون فرصة عندما يواجهون طريقاً مسدوداً تقف فيه مصلحتان إحداهما ضدّ الأخرى ، ليتّخذوا قراراً يضحّون بالمصلحة الأقل أهميّة من أجل المصلحة الأكثر أهميّة والأرفع قيمة ، فتتخلّص من الطريق المسدود.

وأحياناً يصبح الأمر الديني في بعض الظروف تكليفاً بما لا يطاق ولهذا فهو يلغى بنفسه .

هذه هي العوامل التي جعلت الإسلام حيّاً متحرّكاً وأضفت عليه صبغة الخلود ، ومن هنا تتجلّى لنا الأبعاد اللامحدودة لمعايير الإسلام التي تحتفظ بدوامها تحت كلّ الظروف مقرونة بتحقيق السبق في حياة الناس .

ومن الخطأ تصوّر أن الجبر التأريخي دليل على محدوديّة وعدم ثبات أيّ قانون ونظام ، وإنما لا بدّ من الأخذ بعين الاعتبار مدى تأثير العوامل المحرّكة للتأريخ لمعرفة ثبات أو عدم ثبات كلّ واحد منها ، وذلك لأن التأثير

الجبـري للعوامـل التأريخيّـة ـ مثل سـائر العـوامـل القـطعيّـة التي لا يمكن اجتنابها ـ يتوقّف على نوعيّة العامل ، فإذا كان العامل الصانع للتأريـخ ثابتـاً فأثره ثابت مثله ، وإذا لم يكن ثابتاً فنتائجه سوف تكون أيضاً غير ثابتة .

ومن أهم العوامل التـأريخيّة العـامل الـديني ، فالتـديّن سنّة تـأريخية ويؤدّي الدين والاعتقاد بمبدأ الوجود النابع من أعماق الإنسان دوره بأشكـال مختلفة وفي جميع مراحل الحياة الإنسانيّة ، وتقضي السنّة الطبيعية للتأريخ أن تبقى وتستمر الهويّة الحيّة والمستقلّة لهذا العالم المهم .

إن هذا الأسلوب يصبح منـظاراً للمرء ينـظر من خلالـه إلى المسائـل وينتخب على أساسه ، ومن الصعب جداً تصوّر أن معيار التقييم ينحصر في تلك النظرة التي تتّجه إلى كـلّ الحقائق والمسـائل من زاويـة خاصّـة معتبرة الاقتصاد هو العامل التحتي والأساسي للتأريخ .

ومن وجهة النظر هـذه يصبح للعـامل الاقتصـادي مسير جبـري معيّن يحطّم على أساسه نظام القيم ويغيّر الأوضاع بعيداً عن إرادة الإنسان ، ولكن لننظر في هذا الاتّجاه الجبري كيف يكون دور الإنسان فيه ؟ وكيف يمكننا أن نطرح على أساسه مسألة الحريّة والاختيار الإنساني ، هذا الذي يميّز البشـر من سائر الظواهر المادّية ؟ .

ولم يستسلم الأنبيـاء أبداً إزاء الـواقع المـرّ الموجـود ، ولـم يتنـاقض عنـدهم الاتـجاه للواقعيّـة في معرفـة البيئة مـع الاتجاه لتحقيق أهـدافهم في مرحلة العمل ، ولـم يبرروا كلّ شيءَ موجود بالجبر التأريخي .

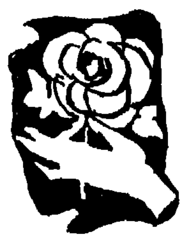
يقول البروفسور (جلزرمان) :

« بنفس المقدار الذي يكون فيه عدم قبول الضرورة في التأريخ باطلاً يكون باطلاً أيضاً اعتبار كلّ شيء في التأريخ ضرورياً »[1] .

---

(١) علم تحوّلات المجتمع .

ولا يـوجـد أيّ إنسـان واقعي يستـطيـع أن يؤسس حكمـه على هــذا الأصل ، ويعتبر البشرية في تضحياتها وإيثارها المليء بالحبّ والمغيّر للقيم والمعايير، والساخر من عبـادة الـذات والتفـاخـر والحـرص على الـرغبـات والشهوات الحيوانيّة ، والدافع له لكي يتحرّك نحو الكمال والإبداع والحريّة والحكمة والعدالة وكلّ ما يتمتّع به من خصائص وميزات ـ يعتبر البشريّة في كلّ هذا ذات بُعد واحد وهي سجينة فرديّتها ومقهورة لرغباتها وعبدة للأشياء من حولها ، وللاقتصاد وحده الذي يتمتّع بالدور الإيجابي الوحيد في إيجاد الدين والعلم والفلسفة والأخلاق وسائر جوانب الحياة المتنـوّعة ، وذلـك لأن مثل هذا الحكم سوف لن يكون واقعيّاً ولا محايداً ، وسيكون بعيداً عن الإنصاف من يقف مثل هذا الموقف ، ويعلن أن وجهة النظر هذه إنما هي تفسير واقعي للتأريخ بأجمعه ، ونظرة محايدة علميّة .



محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة